ارنست همنغواي

وداع للسلاح!..

عربها عن الانكليزية
منير البعلبكي

دار العلم للملايين . بيروت

وَداع للسِّلاح !..

أرنست همنغواي

وَداع للسّلاح !..

نقلها الى العربية

مُنير البَعلبكي

دار العِلم للمَلايين
بيروت

A Farewell to Arms

By

Ernest Hemingway

الطبعة الاولى

بيروت ، تشرين الاول ١٩٥٩

الكتاب الأول

الفصل الأول

في أواخر الصيف من ذلك العام كنا نقطن بيتاً في قرية تطلّ ، عبر النهر والسّهل ، على الجبال . وفي قاع النهر كانت حصىً وحجارة . جفّفتها الشمس وأحالت لونها إلى بياض ، وكانت المياه صافية . تنطلق رشيقةً زرقاء في القنوات . وكانت القوات المسلحة تمرّ بالمنزل ثم تهبط الطريق ، وكان الغبار الذي تثيره يغطي أوراق الاشجار بطبقة من ذرور . وكانت جذوع الاشجار مغبرّة أيضاً ، وقد تساقطت أوراقها باكراً ، ذلك العام ؛ وكنا نرى القوات المسلحة تجتاز الطريق ، والغبار يتصاعد ، والاوراق تتساقط وقد أثارها النسيم ، والجنود يتقدمون ، لنعود بعد ذلك فنرى الطريق مقفرة ، بيضاء ، إلا من أوراق الشجر .

كان السهل غنياً بالمحاصيل . كان ثمة كثير من جنائن الاشجار المثمرة ، ووراء السهل كانت الجبال سمراء عارية . كان القتال دائراً في الجبال ، وخلال الليل كان في استطاعتنا أن نرى وميض المدافع . وكان يخيّل للمرء ، في الظلمة ، وكأنه برق الصيف ، ولكن الليالي كانت باردة ، ولم نكن نستشعر أن عاصفة توشك أن تهبّ .

وفي بعض الاحيان كنا نسمع القوات المسلحة تزحف في الظلام

تحت النافذة ، والمدافع تسحبها الجرّارات . كان ثمة في الليل حركة نقل كثيفة . كانت الطرق حافلة ببغال مثقلة الجوانب بصناديق الذخيرة ، وبشاحنات رمادية تحمل رجالاً ، وشاحنات أخرى تنقل أحمالاً مغطاة بالخيش فهي تجري في سرعة أبطأ . وفي النهار كانت تجتاز الطريق أيضاً مدافع ضخمة تسحبها جرّارات ميكانيكية ، وكانت خراطيم تلك المدافع الطويلة مغطاة بأغصان خضراء ، وأغصان مُوْرِقة خضراء ، وأوراق كرمة منثورة فوق الجرّارات . وإلى الشمال ، كان في ميسورنا أن نتطلّع عبرَ أحد الأودية فنرى غابة من أشجار الكستناء ، ونرى وراءها جبلاً آخر على هذه الضفة من النهر . ولقد نشب قتال للاستيلاء على ذلك الجبل أيضاً ، ولكنه لم يكن ناجحاً ؛ وفي الخريف ، عندما يبدأ المطر في الانهمار ، كانت أشجار الكستناء تتعرى من أوراقها جميعاً ، فأذا بالاغصان جرداء ، وبالجذوع سوداء من أثر المطر . وكانت حقول الكرمة رقيقة ، عارية الاغصان أيضاً ، وكان الريف كله ندياً ، أسمر ، ميتاً مع الخريف . كان ثمة ضباب فوق النهر ، وسحب فوق الجبل ، وكانت الشاحنات تثير الوحل فيتطاير على جانبي الطريق ، وكان الجنود المتدثرون بمعاطفهم مبلّلين موحلين . كانت بنادقهم نديّةً ، وتحت معاطفهم كان كل منهم يحمل محفظتي خرطوش جلديتين معلّقتين في مقدمة حزامه ، وكانت هذه المحافظ الجلدية الرمادية المثقلة بمجموعات من الخراطيش الدقيقة الطويلة من عيار ٦,٥ مليمتر تندفع ناتئةً إلى أمام ، تحت معاطف الجنود ، إلى درجة جعلتهم يظهرون ، عند اجتيازهم الطريق ، وكأنهم يحملون في بطونهم أجنّةً في الشهر السادس !

وكانت ثمة سيارات رمادية صغيرة تنطلق في سرعة بالغة . وكان يمتطي كلاً من هذه السيارات ، عادةً ، ضابط جالس إلى جانب السائق ، وضباط آخرون في المقعد الخلفيّ . وكانت تلك السيارات

تثير الوحل أكثر مما تثيره الشاحنات نفسُها . وإذا كان أحد الضباط في المقعد الخلفي ضئيلاً جداً ، وجالساً بين جنرالين ، ضئيلاً إلى حد يجعلك لا ترى وجهه ولكنْ أعلى قبعته وظهره الضيّق ليس غير ، وإذا كانت السيارة تنطلق في سرعة خاطفة غير مألوفة فأغلب الظن أن ذلك الضابط هو الملك . كان يسكن في أودين ، وكان يخرج بسيارته ، على هذا النحو ، كل يوم تقريباً ليطلع على سير الأمور ، ولقد كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ .

وفي مستهلّ الشتاء أقبل المطر الموصول ، ومع المطر أقبلت الكوليرا : ولكن القوم استطاعوا أن يكبحوا جماحها ، فلم يمت بسببها آخر الأمر غير سبعة آلاف من رجال الجيش .

الفصل الثاني

وفي السنة التالية سُجِّلت انتصارات عديدة . فقد تم الاستيلاء على الجبل القائم وراء الوادي . وعلى الكثيب الذي نَمَتْ فوقه غابة الكستناء ، ووراء السهل ، حُقِّقت انتصارات أيضاً ، في الهضبة القائمة إلى الجنوب ، واجتزنا النهر في آب (أغسطس) ، ونزلنا في غوريتزيا في بيت فيه عينُ ماء ، وحديقة مسوّرة حافلة بكثير من الأشجار الكثيفة الظليلة ؛ وكان يتعرش إلى جانب البيت نبات أرجواني من النوع المعروف بالـ « وسطار » . كان القتال دائراً ، الآن ، في الجبال المجاورة ، على مبعدة لا تبلغ ميلاً واحداً . كانت المدينة جميلة جداً ، وكان منزلنا حسناً جداً . كان النهر يجري من خلفنا ، وكانت المدينة قد احتُلّت في براعة فائقة ، ولكن الجبال القائمة وراءها امتنعت على الاحتلال ، ولقد كنت سعيداً جداً برغبة النمساويين ، على ما يبدو ، في العودة إلى المدينة ، ذاتَ يوم ، إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، لأنهم لم يقصفوها بمدافعهم ليدمروها ، مكتفين بقصفها على نطاق محدود ، ووفقاً للاغراض السّتراتيجية ليس غير . وكان سكان المدينة قد بقوا فيها . وكان ثمة مستشفيات ، ومقاه ، ومدفعية في الشوارع المنعزلة ، وبيتان من بيوت الدعارة ، أحدهما للجند والآخر للضباط .

وعند نهاية الصيف كانت الليالي الرطبة ، والقتال الدائر في الجبال خلف البلدة ، وفولاذ جسر السكة الحديدية البادية عليه آثارُ القنابل ، والنَفَق المحطّم قرب النهر حيث نشب القتال ، والاشجار المحيطة بالساحة ، والشارع الطويل المزدان بالاشجار والمؤدي إلى تلك الساحة ، هذا إذا لم نذكر وجود الفتيات في المدينة ، ومرور الملك بسيارته وقد أصبح في الامكان الآن ، أحياناً ، رؤية وجهه وجسده الضئيل ذي الرقبة الطويلة ولحيته الشائبة مثل لحية تيس ، كل اولئك مضافاً اليه الاجزاء الداخلية غير المتوقّعة من بيوت فقدت جداراً أثناء القصف المدفعيّ ، والجصّ وكُسارة الحجارة في حدائقها وأحياناً في الشارع . وسَيْر العمليات سيراً حسناً في الـ « كارسو » — أقول كل اولئك جعل هذا الخريف مختلفاً جداً عن الخريف السابق عندما كنا في الريف . كانت الحرب قد تغيرت أيضاً .

كانت غابة السنديان ، على الجبل القائم خلف المدينة ، قد اختفت . وانما كانت تلك الغابة خضراء في الصيف عندما دخلنا المدينة ، أما الآن فلم يبق غير الأرومات والجذوع المحطمة والارض الممزقة . وفي أواخر الخريف قصدت ذات يوم إلى حيث كانت غابة السنديان ، فرأيت سحابة تُقبل فوق الجبل . كانت تُقبل في سرعة بالغة ، واصطبغت الشمس بصباغ أصفر غامق ، ثم أمسى كل شيء رمادياً ، وأمست السماء محجوبة كلها ، وهبطت السحابة فوق الجبل ، فاذا بها تكتنفنا فجأة ، وإذا بها ثلج . لقد انهمر الثلج منحرفاً عبر الريح ، فحُجِبتِ الأرض الجرداء ، ونتأت أرومات الشجر . كان ثمة ثلج على المدافع ، وكان ثمة مجازات في الثلج ترتدّ إلى المراحيض التي خلف الخنادق .

وفي ما بعد ، حين هبطتُ إلى المدينة ، راقبت الثلج يتساقط فيما كنت أطلّ من نافذة بيت البغاء ، البيت المخصص للضباط ، حيث

جلست مع صديق وكأسين نشرب زجاجة من الـ« آستي » . وإذْ تطلّعنا إلى الثلج يتساقط بطيئاً ثقيلاً أدركنا ان كل شيء قد انتهى بالنسبة إلى ذلك العام . فالجبال الواقعة في عالية النهر لم يتم الاستيلاء عليها ، كما أن أياً من الجبال الواقعة خلف النهر لم يُحتَلّ . لقد تُرك ذلك كله إلى العام القادم . ورأى صديقي كاهنَ زمرتنا يجوز الشارع ، ماشياً بحذر فوق الثلج نصف الذائب . فخفق النافذة لكي يلفت انتباهه . ورفع الكاهن بصره . فرآنا وابتسم . وأومأ صديقي اليه بأن يدخل ، فهز الكاهن رأسه ومضى لسبيله . وفي تلك الليلة ، وكنا نتناول الطعام مع سائر أفراد الزمرة ، قُدمت الينا السباغيتي * فأكلناها في سرعة وفي رصانة ، رافعين المعكرونة على الشوكة حتى تتدلى اطرافها واضحةً لنخفضها بعد ذلك ونولجها أفواهَنا ، أو مصطنعين طريقة الرفع والمصّ على نحو موصول ، ساكبين بأنفسنا الخمرَ من قارورة بحجم الغالون مغطاة بالعشب . كانت تلك القارورة تتأرجح في مَهْدٍ معدنيّ ، فكان كلٌّ منا يُميل عنق القارورة بسبّابته إلى ادنى فتتدفق الخمر حمراء ، صافيةً ، بُنيّةً ضاربة إلى الصفرة ، لذيذةً ، في الكأس المحمولة في اليد نفسها . وبعد أن التهمنا السباغيتي شرع الكابتن يمازح الكاهنَ ويتندّر عليه .

كان الكاهن غض الشباب ، وكان الدم ينتشر في وجهه بسرعة . كان يرتدي بزة عسكرية مثلنا ، ولكنها تتميز بصليب من مخمل أحمر داكنٍ فوق جيب صدرته الرمادية الأيسر . وكان الكابتن يتكلم ايطالية عاميةً ، لفائدتي المشكوك فيها ، لكي أفهم فهماً كاملاً ، فلا يفوتني من الكلام شيء .

— « الكاهن كان اليوم مع البنات » كذلك قال الكابتن ، ناظراً إلى الكاهن وإليّ . وابتسم الكاهن ، وشاع الدم في وجهه ، وهز

* spaghetti ضرب من المعكرونة.

رأسه . كان هذا الكابتن كثيراً ما يمازحه .
وسأله الكابتن :
— « أليس صحيحاً ؟ اليوم رأيت الكاهن مع البنات . »
فقال الكاهن :
— « لا » .
وسرّ الضباط الآخرون بهذا المزاح .
وتابع الكابتن مُوْضحاً لي :
— « الكاهن لم يكن مع البنات . الكاهن لا يجتمع مع البنات أبـداً . »
وتناول كأسي فملأها ، ناظراً إلى عينيّ دائماً ، ولكن غير غافلٍ عن الكاهن .
— « كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة . » وضحك كل من كان جالساً إلى المائدة . « هل فهمت ؟ كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة . »
وأومأ ايماءة وضحك بصوت عال . وتقبّل الكاهن ذلك كما يتقبّل المرء نكتةً من النكات .
وقال الماجور :
— « البابا يريد أن يكسب النمساويون الحرب . إنه يحب فرانسوا جوزيف . ولا تعجب فالأموال تأتيه من هناك . أنا ملحد . »
فسأله الليفتينانت :
— « هل قُدّر لك أن تقرأ كتاب « الخنزير الأسود » ؟ سوف آتيك بنسخة منه . لقد كان ذلك الكتاب هو الذي زعزع ايماني . »
فقال الكاهن :
— « إنه كتاب قذر فاجر . أنا لا أستطيع أن أعتقـد أنـه

يعجبك حقاً . »

فقال الليفتينانت ، موجهاً الكلام إليّ :

— « إنه نفيس جداً . انه يحدثك عن هؤلاء الكهان . ولا ريب في انه سوف يعجبك . »

فابتسمتُ للكاهن ، فردّ لي الابتسامة عبر ضياء الشمعة ، وقال :

— « لا تقرأه » .

فقال لي الليفتينانت :

— « سوف آتيك به .

فقال الماجور :

— « جميع المفكرين ملحدون . ومع ذلك فأنا لا أؤمن بالماسونية . »

فأجابه الليفتينانت :

— « أنا أؤمن بالماسونية . انها منظمة نبيلة . »

ودخل علينا شخص ما ، وحين فُتِح الباب استطعت ان ارى الثلج يتساقط .

وقلت :

— « أما وقد تساقط الثلج فلن يكون ثمة هجوم بعد الآن . »

فقال الماجور :

— « طبعاً لن يكون ثمة هجوم . ينبغي أن تذهب في اجازة . يجب أن تذهب إلى روما ، نابولي ، صقلية ... »

فقال الليفتينانت :

— « يجب ان يزور آمالفي . سوف ازوّدك ببطاقات إلى اسرتي في آمالفي . ولسوف تحبّك وكأنك ولدٌ من أولادها . »

— « يجب أن يذهب إلى باليرمو . »

— « لا . يجب أن يذهب إلى كابري . »

فقال الكاهن :

— « حبذا لو تقصد إلى آبروتزي ، وتزور اسرتي في كابراكوتا . »

— « أصغ اليه يتحدث عن آبروتزي . إن ثمة ثلجاً أكثر من هنا . انه لا يريد أن يرى فلاّحين . دَعْهُ يذهب إلى مراكز الثقافة والحضارة . »

— « يجب أن يتنعم بالصبايا الجميلات . سوف اقدّم اليك عناوين بعض الاماكن في نابولي . صبايا جميلات تصحبهنّ امهاتهن . ها ! ها ! ها ! » وبسط الكابتن يده وإبهامها مرفوع إلى أعلى وسائر أصابعها منتشرة كما تُنْشر حين يصنع المرء صُوَراً طَيْفية . وكان قد ارتسم على الجدار ظلٌ من يده . وعاود الكلام في ايطالية عامية ، « إذْهَبْ أنت هكذا ، » وأشار إلى إبهامه ، « وارجعْ هكذا ! » ومسّ البنصر . وضحك القوم أجمعون .

وقال الكابتن :

— « انظر ! »

وبسط يده من جديد . ومن جديد طبعت الشمعة ظلالها على الجدار . وبدأ بالأبهام المرفوع وسمّى ، وفقاً للترتيب ، الابهامَ والاصابع الأربع الاخرى : « سوتو تينانتي (الأبهام) ، تينانتي (السبابة) ، كابيتانو (الوسطى) ، ماغيور (الخنصر) ، تينانتي كولونيلو (البنصر) . أنت تذهب سوتو تينانتي ! أنت ترجعْ سوتو كولونيللو * ! »

وضحكوا جميعاً . كان الكابتن يحرز نجاحاً كبيراً بألعاب الأصابع . ونظر إلى الكاهن وهتف :

— « كل ليلة يكون الكاهن واحداً مقابل خمسة ! » وضحكوا جميعاً من جديد .

---

* اي تذهب برتبة ملازم ثان وترجع وقد كدت تصبح كولونيلا . (المعرب)

وقال الماجور :

— « يجب أن تذهب في اجازة ، في الحال . »

وقال الليفتينانت :

— « أتمنى لو أستطيع الذهاب معك لأريك الاشياء . »

— « حين ترجع إيتنا بفونوغراف . »

— « إيت ببعض أسطوانات الأوبرا الجيدة . »

— « إيتنا ببعض اسطوانات كاروزو . »

— « لا . لا تأتِ باسطوانات كاروزو . إنه يخور خواراً . »

— « ألا تتمنى لو كنت قادراً على ان تخور مثله ؟ »

— « إنه يخور خواراً . أقول إنه يخور خواراً . »

فقال الكاهن وسط صياح الآخرين :

— « اودّ لو تذهب إلى آبروتزي . إن ثمة مجالات قنصٍ صالحة . ولسوف تُعجب بالناس ، وعلى الرغم من البرد فان الجوّ صاحٍ وجافّ . وفي استطاعتك ان تنزل ضيفاً على اسرتي . إن والدي صيّاد مشهور . »

فقال الكابتن :

— « هيا . فلنذهب إلى الماخور قبل أن يغلق أبوابه . »

فقلت للكاهن :

— « طاب مساؤك . »

فقال :

— « طاب مساؤك . »

الفصلُ الثالث

حين رجعت إلى الجبهة كنا لا نزال نحيا في تلك المدينة. كان في الريف المحيط بنا عددٌ من المدافع أكثر من ذي قبل بكثير ، وكان الربيع قد أقبل. كانت الحقول خضراء ، وكان ثمة على عرائش الكرمة أماليد صغيرة خضر ؛ كانت الاشجار التي على جانبي الطريق تحمل أوراقاً صغيرة ، وكان النسيم يهبّ من ناحية البحر. لقد رأيت المدينة ، وكثيبها متوّج بالقصب العتيق ، تحيط بها التلال ، وخلفها الجبال — جبال سمراء على سفوحها خضرة يسيرة. وفي المدينة ، كان ثمة مدافع أكثر ، وكان ثمة مستشفيات جديدة أيضاً. كنت تلتقي بعضَ الانكليز ، وأحياناً بعض الانكليزيات ، في الشارع ، وكان ثمة عددٌ اضافيّ من البيوت أصابته نيران المدافع. كان الجو دافئاً ، وشبيهاً بجو الربيع ، وهبطتُ الطريق المحاطة بالاشجار التي جعلتها الشمس المنعكسة على الجدار حارّةً ، فوجدتُ انا كنا لا نزال نقطن البيت نفسه ، وان كل شيء فيه لم يتغير منذ أن غادرناه. كان الباب مفتوحاً ، وكان جندي يجلس على مقعد طويل في الخارج ، تحت أشعة الشمس ، وكانت سيارة اسعاف تنتظر قرب الباب الجانبيّ ،

حتّى إذا دخلتُ شممْتُ رائحة الرخام التي فرشت به أرض البيت ، ورائحة المستشفى . كان كل شيء على الحال التي تركته عليها، ما خلا أننا كنا ، الآن ، في فصل الربيع . ونظرت من خلال باب الحجرة الكبيرة ، فرأيت الماجور جالساً إلى مكتبه ، والنافذة مفتوحة ، وأشعة الشمس تملأ الغرفة . إنه لم يرني . ولم أدرِ أأدخل وأثبت وجودي أم ارتقي السلم أولاً وأغتسل . ثم اني قررت آخر الأمر أن أرتقي السلّم .

كانت الغرفة التي كنت أقتسمها مع الليفتينانت رينالدي تطل على الفناء . وكانت النافذة مفتوحة ، وكان سريرها مغطى ببعض البطانيات ، وكانت حوائجي كلها معلقة على الجدار ، وقناع الغاز في علبة صفيح مستطيلة ، والخوذة الفولاذية على الوتد نفسه . وعند قَدَم السرير كان صندوق سفري المسطّح . وعلى هذا الصندوق كان حذائي الشتوي العالي الملمّع جلدُه بالدهن . وفوق السريرين علّقت بندقيّتي النمساوية القنّاصة بماسورتها المُزَرقّة المثمّنة الاضلاع ، وعقبها الخشبيّ الجميل الداكن المصنوع من خشب الجوز والملائم احسن الملاءمة لشكل الخدّ . وكان التلسكوب المناسب لها محفوظاً ، على ما اذكر ، في الصندوق المقفل . وكان الليفتينانت رينالدي مستسلماً للنوم في السرير الآخر . ولقد أفاق حين سمعني أمشي في الغرفة، فجلس في سريره وقال :

— « هالو ! كيف كانت إجازتك ؟ »

— « رائعة . »

وصافحني ، وطوّق عنقي بذراعه ، وقبّلني .

فقلت :

— « أف ! »

وقال :

— « إنك وسخ . يجب أن تغتسل . إلى أين ذهبت ، وما الذي فعلت ؟ أخبرني كل شيء في الحال . »

— « ذهبت إلى كل مكان . ميلانو ، فلورنسة ، روما ، نابولي ، فيلا سان جيوفاني ، مسينا ، تاورمينا .... »

— « أنت تتحدث مثل جدول مواقيت . هل كانت لك مغامرات لطيفة ؟ »

— « نعم . »

— « أين ؟ »

— « ميلانو ، فيرينتز ، روما ، نابولي .... »

— « كفى . حدّثني ، من غير مخادعة ، أيها كانت الفضلى ؟ »

— « في ميلانو . »

— « كان ذلك لأنك زرتها أولاً . أين اجتمعت بها؟ في الـ «كوفا»؟ إلى أين ذهبْتَ ؟ كيف كان شعورك ؟ أخبرني كل شيء في الحال . هل بقيتَ طوال الليل ؟ »

— « نعم . »

— « ليس هذا بالأمر الخطير . إن عندنا الآن ، هنا ، فتيات جميلات . فتيات جديدات لم يقصدن إلى الجبهة قبل اليوم قط . »

— « رائع . »

— « ألا تصدقني ؟ سوف نذهب بعد ظهر اليوم ونرى . وفي المدينة عندنا فتيات انكليزيات جميلات . أنا اليوم واقع في حب مس باركلي . سوف أصطحبك لزيارتها . واغلب الظن أني سوف أتزوج من مس باركلي . »

— « إن عليّ أن أغتسل ، واقابل المسؤولين . ألا يعمل احدٌ في هذه اللحظة ؟ »

— « منذ أن ذهبت لم نعرف غير قَضْمة الصقيع ، وتشقق القدمين واليدين من البرد ، والبرقان ، والسَيَلان ، والجروح الذاتية ، وذات الرئة ، والقُرَح الصلبة والطرية . وكل أسبوع يصاب أحدهم بجراح من شظايا الصخور . وهناك عددٌ قليل جداً من المصابين بجراحات خطيرة . وفي الاسبوع القادم ستبدأ الحرب من جديد . ربما تبدأ الحرب من جديد . هذا ما يقولون . هل تعتقداني احسن صنعاً إذا تزوجت من مس باركلي .... بعد الحرب طبعاً ؟ »

فقلت وانا أملأ الحوض ماءً :

— « بكل تأكيد . »

فقال رينالدي :

— « هذه الليلة تخبرني كل شيء . اما الآن فيتعيّن عليّ ان استسلم إلى الرقاد من جديد لكي أكون نَضْراً وسيماً عند اجتماعي بمس باركلي . »

ونزعت صدرتي وقميصي ، واغتسلت بالماء البارد في الحوض . وفيما أنا أفرك جسدي بمنشفة أجلْتُ بصري في الغرفة ، وتطلعت إلى الخارج ، من خلال النافذة ، وإلى رينالدي المستلقي ، مغمضَ العينين ، على سريره . كان فتىً وسيماً ، في مثل سنّي ، وكان من مدينة آمالفي . كان يحب عمله كجرّاح ، وكنا صديقين حميمين . وبينا أنا أنظر اليه ، فتح عينيه وسألني :

— « هل تحمل مالاً ؟ »

— « نعم . »

— « اقرضني خمسين ليراً . »

فنشّفت يديّ ، وأخرجت حافظة نقودي من داخل صدرتي المعلقة على الجدار . وتناول رينالدي الورقة النقدية ، وطواها من غير أن ينهض من فراشه ، ودسّها في جيب بنطلونه . وابتسم :

— « يجب أن أوْقِع في نفس مس باركلي اني رجل غنيّ . أنت صديقي العظيم الطيب ، وملاذي المـالي الذي أرجع اليه عند الحاجة . »

فقلت :

— « إذهَبْ إلى الجحيم . »

وفي تلك الليلة ، عندما تناولنا الطعام مع سائر افراد زمرتنا ، جلستُ إلى جانب الكاهن ، وكان مغضباً ومستاءً على نحو مفاجئ لعدم ذهابي إلى آبروتزي . كان قد كتب إلى أبيه أني قادمٌ . وكان القوم قد اتخذوا استعدادات كبيرة . وأسفتُ أنا أيضاً مثل أسفه ، ولم استطع أن أفهم لماذا لم أذهب إلى هناك . كان ذلك هو ما كنت ارغب فيه ، ولقد حاولت أن أشرح كيف قادني أمرٌ إلى أمر . وأخيراً تقبّل ذلك وأدرك اني كنت في الحق راغباً في الذهاب . وامحى الأثر السيء من نفسه . كنت قد شربت كثيراً من الخمر ، واحتسيت بعد ذلك القهوة والـ « ستريغا » ، وأوضحت له — مخموراً — كيف لا نوفق دائماً إلى صنع الاشياء التي نرغب فيها . لا ، اننا لا نصنع هذه الاشياء ابداً .

وكنا نحن الاثنين نتحدث فيما كان الآخرون يتجادلون . أجل ، كنت قد رغبتُ في الذهاب إلى آبروتزي : فأنا لم أشهد قط أياً من هذه المواطن ، حيث الطرق منجمدة وقاسية كالحديد ، وحيث البرد شديد وجافّ . والثلج جافّ وذروريّ ، وحيث يشهد المرء آثار أقدام الارانب في الثلج ، وحيث يرفع الفلاحون قبعاتهم وينادونك «يا سيدي» ، وحيث القنص موفور . انا لم أذهب إلى موطن مثل هذا ، بل ذهبت إلى دخان المقاهي ، والليالي التي تدور فيها الغرف والتي تحتاج فيها إلى أن تنظر إلى الجدار لتحمله على الوقوف ، الليالي المسلوخة في الفراش ، على نحو مخمور ، وأنت مدرك أنْ ليس ثمة غير هذا ، والانطباعة

الغريبة التي تغلب عليك حين تُفيق من غير أن تعلم مَنْ الـذي إلى جانبك ، الليالي التي يكون فيهـا العالم كله غير واقعيّ ، من حولك ، ومثيراً إلى حدّ يضطرك إلى أن تستأنف من جديد ، غيرَ عارفٍ وغير مبالٍ في الظلام ، واثقـاً ان هذا كل شيء ، كل شيء ، كل شيء ، في لاّ مبالاةٍ واستهتار . وفجـأة يستيقظ اهتمامك البالغ بالاشياء ، ثم الرقـاد واليقظة ، والصباح ، والشعور بأن كل شيء قد انتهى ، وان كل شيء حادّ ، وقاسٍ ، وواضح ، وقد يعقب ذلك أحياناً نزاع على السعر . وفي بعض الأحيان تقع استعادةٌ للحبور ، والحب ، والدفء ، ويعقب ذلك فطورٌ وغداء . وأحياناً تتلاشى المتعة كلهـا ويصبح المرء سعيداً بالخروج إلى الشارع ، ولكن يوماً جديداً يبـدأ دائماً ، يَعْقبه ليل جديد . وحاولت أن أتحدث عن الليل ، وعن الفرق بين الليل والنهـار ، وكيف أن الليل أفضل ، الا إذا كان النهار نظيفاً جداً وبارداً ، ولكني لم أستطع أن أشرح له ذلك ، كما لم أستطع أن أشرحه الآن . ولكن كل من اختبر هـذه التجربة يعرف ما اريد أن أقول . ولم يكن له مثل هـذه الخبرة ، ولكنه فهم اني كنت صادق الرغبة في الذهاب إلى آبروتزي ، ولكني لم أذهب ، وبقينا صديقين حميمين ، تجمع ما بيننا أذواقٌ كثيرة مشتركة ، ولكنْ يميّز ما بيننا فَرْق أيضاً . كان يعرف دائماً مـا لا أعرفه ، ويعرف تلك الأشياء التي لا أكاد أتعلّمهـا حتى أظهِر القدرةَ دائماً على نسيانها . بيد اني لم أكن أعرف هـذا آنذاك ، على الرغم من اني تعلّمتُهُ في ما بعد . وفي غضون ذلك ، كنا جميعاً هناك ، نتناول طعامنا . وانتهينا من تناول الطعام ، ولكن المناقشة ظلت دائرة . وكفَفْنا نحن الاثنين عن الكلام ، وصاح الكابتن :

— « الكاهن غير سعيد . الكاهن غير سعيد بدون بنات . »

فقال الكاهن :

— « بل أنا سعيد . »

فقال الكابتن :

— « الكاهن غير سعيد . الكاهن يريـد أن يكسب النمساويـون الحرب . »

وأصغى الآخرون . وهزّ الكاهن رأسه ، وقال :

— « لا . »

— « الكاهن لا يريد الهجوم أبـداً . ألا تريدنا أن لا نهاجم ابـداً ؟ »

— « لا . إذا كان هناك حرب فأحسب أن علينا أن نهاجم . »

— « علينا أن نهاجم . قل اذن : سوف نهاجم . »

وهز الكاهن رأسه .

وقال الماجور :

— « دعه وشأنه . إنه فتىً صالح . »

فقال الكابتن :

— « على أية حال ، فليس في استطاعته ان يقوم بشيء في هـذا المضمار . »

ونهضنا كلنا ، وغادرنا المائدة .

الفَصْلُ الرَّابع

وفي الصباح ، أيقظتني المدفعية التي في الحديقة المجاورة ، فرأيت الشمس تدخل الغرفة من خلال النافذة . فنهضت من فراشي ، ومضيت إلى النافذة وأطللت منها . كانت مجازات الحصباء مبلّلة ، وكان العشب رطباً بالندى . وإنما اطلقت المدفعية نيرانها مرتين فكان الهواء يندفع كل مرة وكأنه عاصفة فيهزّ النافذة ويموّج مقدّمة بيجامتي : لم يكن في ميسوري أن أرى المدافع . ولكنها كانت من غير ريب تطلق النار فوقنا مباشرةً . كان من المزعج وجودها هناك ، ولكنّ من دواعي سرورنا انها لم تكن أكبر من ذلك . وفيما أنا أطل على الحديقة سمعت صوت شاحنة تجري في الشارع . فارتديت ملابسي ، وهبطت السلم ، واحتسيت بعض القهوة في المطبخ ، ومضيت إلى المرأب .

كانت عشر سيارات مصطفة ، بعضها إلى جانب بعض ، تحت السقيفة الطويلة : كانت سيارات اسعاف غليظة المقدّمات ، صلبة السطوح ، مدهونة باللون الرماديّ ، مصنوعة على غرار السيارات المخصصة لنقل الاثاث وغيره . وكان الميكانيكيون يصلحون واحدةً في الفناء . وكانت ثلاثٌ أخرى في الجبال ، في مراكز الاسعاف .

وسألت أحد الميكانيكيين :

— « هل صُوِّبت النار ، ذاتَ مرة ، إلى هذه المدفعية ؟ »
— « لا ، يا سيدي الملازم . إنها مصونةٌ بالتلة الصغيرة . »
— « وكيف تجري الامور ؟ »
— « ليست رديئة جداً . هذه الماكينة ليست جيدة ولكن الماكينات الأخرى لا تزال قادرة على العمل . »
ثم كفَّ عن الشغل ، وابتسم :
— « هل كنت في اجازة ؟ »
— « نعم . »
ومسح يديه بصديريته وكشَّر مبتسماً :
— « هل قضيت وقتاً طيباً ؟ »
وابتسم الآخرون كلهم أيضاً .
فقلت :
— « قضيت وقتاً رائعاً . ما علة هذه الماكينة ؟ »
— « انها غير صالحة . كلما داويت جرحاً سال جرح . »
— « وما علتها اليوم ؟ »
— « يجب أن نغيِّر حلقاتها . »

وتركتهم يشتغلون ، وقد بدت السيارة بائسة فارغة ، مفتوحة المحرِّك ، منثورة القِطَع على مقعد الشغل ، ودخلتُ المرأب ناظراً إلى كل من السيارات . كانت نظيفةً نسبياً ، فبعضها قد غُسل حديثاً ، وبعضها يعلوه الغبار . ونظرت إلى الدواليب في عناية ، باحثاً عن الجراح وعن رضّات الحجارة . وبدا كل شيء في حالة جيدة . كان واضحاً أن وجودي هناك للاهتمام بالاشياء وعدم وجودي سيان . وكنت قد تخيّلت أن حالة السيارات ، وإمكان الحصول على القطع الضرورية وعدمه ، وحسن انتظام نقل الجرحى والمرضى من مراكز الاسعاف ثم توزيعهم على المستشفيات المعيّنة على أوراقهم — اقول تخيلت ان هذا

كله مرهونٌ بي أنا إلى حد بعيد . ولكنْ كان من الواضح أن وجودي وعدمه سيان .

وسألت الميكانيكي الرقيب :

— « هل عانيت أية مشقة في الحصول على قطع التغيير ؟

— « لا ، يا سيدي الملازم . »

— « أين مستودع البنزين الآن ؟ »

— « في مكانه القديم . »

فقلت :

— « حسن . »

ورجعت إلى البيت ، وجلست إلى مائدة رفاقي في الطعام ، وشربت فنجاناً آخر من القهوة . كانت القهوة ذات لون رمادي شاحب ، وكانت محلاّةً بالحليب المكثّف . وفي الخارج ، كان الصباح الربيعيّ رائعاً . كان ثمة طليعة ذلك الشعور بجفاف في الانف ، وهو الشعور الذي يفيد ان النهار سوف يكون حاراً في ما بعد . وذلك اليوم ، زرت مراكز الاسعاف في الجبال ، ثم رجعت إلى المدينة في ساعة متأخرة من الأصيل .

لقد بدا كل شيء وكأنه يجري ، أثناء غيابي ، على نحوٍ أفضل . وتناهى إلى سمعي ان الهجوم يوشك ان يُستأنف . وكانت الفصيلة التي تعمل ملحقين بها تعتزم أن تشنّ هجوماً في مكانٍ ما في المرتفعات ، ولقد كلّفني الماجور أن انظم المراكز استعداداً للهجوم . وكانت الخطة تقضي بعبور النهر فوق المضيق الضيق ، وبالانتشار عند سفح الكثيب . وكان على السيارات أن تُحْشَد أقرب ما يكون إلى النهر ، في مراكز مغطّاة . وكان طبيعياً ان يختار سلاح المشاة هذه المراكز ، ولكنْ كان من المفروض أن نقوم نحن بالتنفيذ . كانت تلك احدى المناسبات التي اوقعت في نفوسنا انطباعاً زائفاً باننا نشترك حقاً في العمل الحربي .

كنت مغبرّاً جداً ، متسخاً جداً ، فصعدت إلى غرفتي لكي أغتسل .
كان رينالدي قاعداً في فراشه وبيده نسخة من كتاب « قواعد اللغة الانكليزية » لهوغو . كان مرتدياً ملابسه ، منتعلاً حذاءه العالي ، وكان شعره يلمع .

وقال عندما رآني :

— « رائع . سوف تذهب معي لترى مس باركلي . »

— « لا . »

— « بل ستذهب . أرجوك أن تذهب ، وأن تساعدني على أنْ أحدث في نفسها انطباعةً جيدة . »

— « حسن جداً . إنتظر حتى أغيّر ملابسي . »

— « إغتسلْ ، وتعال كما أنت . »

واغتسلت ، ورجّلت شعري ، وانطلقنا .

وقال رينالدي :

— « إنتظر دقيقة . لعل من الخير ان نحتسي كأساً . »

وفتح صندوق سفره ، وأخرج زجاجة .

فقلت :

— « ارجو ان لا تكون زجاجة ستريغا . »

— « لا . إنها غرابّا . »

— « حسن جداً . »

وأترع كأسين ، فتناولناهما ، وسبّابتانا مرفوعتان . كانت خمر الغرابّا قوية جداً .

— « كأساً أخرى ؟ »

فقلت :

— « لا بأس . »

وشربنا كأساً أخرى ، وأبعد رينالدي الزجاجة ، وهبطنا السلم . كانت

المدينة قائظة على من يمشي في الشوارع ، ولكن الشمس كانت قد أخذت في الانحدار ، وكان ذلك لطيفاً جداً . كان المستشفى البريطاني داراً ضخمة بناها الالمان قبل الحرب . وكانت مس باركلي في الحديقة كانت معها ممرّضة أخرى . ورأينا ملابسهما البيضاء الخاصة بالممرضات من خلال الاشجار ، فتقدمنا نحوهما . وألقى رينالدي التحية : وحيّيت أنا أيضاً ، ولكن في قدر أكبر من الرصانة .

وقالت مس باركلي :

— « كيف حالك ؟ أنت لست ايطالياً ، أليس كذلك ؟ »

— « أوه ، لا . »

كان رينالدي يتحدث مع الممرضة الاخرى . كانا يضحكان .

— « انه لمن العجيب حقاً ان تكون في الجيش الايطالي . »

— « أنا لست في الجيش تماماً . ان عملي في الاسعاف . »

— « ذلك عجيب ايضاً . لماذا أقدمت على ذلك ؟ »

فقلت :

— « لست أدري . ليس ثمة دائماً تفسير لكل شيء . »

— « أوه ، ألا يوجد ؟ لقد نُشّئتُ على الاعتقاد بأن ثمة مثل هذا التفسير . »

— « هذا رائع . »

— «قل لي: هل يحسن بنا ان نستمرّ طويلاً في مثل هذا الضرب من الحديث؟»

فقلت :

— « لا. »

— « هذا إعفاء . أليس كذلك ؟ »

فسألتها :

— « ما هذه العصا ؟ »

كانت مس باركلي فارعة الطول . وكانت ترتدي ما بدا لي أنه

بزة الممرضات النظامية ، وكانت شقراء ذات بشرة سمراء ضاربة الى الصفرة وعينين رماديتين . واعتقدت انها جميلة جداً . كانت تحمل عصا رفيعة من أغصان نخيل الروطان ، مثل سَوْطٍ دُمْيةٍ من سياط الفرسان الاطفال ، مغلّفةً بالجلد .

– « كانت لفتى قُتل في العام الماضي . »

– « أنا آسف أعظم الاسف . »

– « لقد كان فتى لطيفاً جداً . كان يعتزم ان يتروجني . وقد قُتل في السوم » .

– « كان ذلك شيئاً رهيباً . »

– « هل كنتَ هناك ؟ »

– « لا . »

فقالت :

– « لقد سمعتُ عن ذلك سماعاً . لم يكن ثمة حقاً أيما حرب من النوع الذي يدور هنا . ولقد أرسلوا اليّ العصا الصغيرة . ان أمه هي التي أرسلتها إليّ . لقد أعادوها مع سائر أشيائه . »

– « وهل انقضت مدة طويلة على خطبته اياك ؟ »

– « ثماني سنوات . لقد ترعرعنا معاً . »

– « ولماذا لم تتزوّجا ؟ »

فقالت :

– « لست أدري . كان ذلك بلاهة من جانبي . لقد كان في ميسوري أن أمنحه ذلك على أية حال . ولكني اعتقدت أن هذا سوف يكون سيئاً بالنسبة اليه . »

– « فهمت . »

– « هل قُدّر لك ان تعشق في يوم من الأيام ؟ »

فقلت :

— « لا . »

وجلسنا على أحد المقاعد . ونظرت اليها :

فقلت :

— « ان لكِ شعراً جميلاً . »

— « هل يعجبك ؟ »

— « كثيراً . »

— « كنت أعتزم ان أقصه عندما مات . »

— « لا . »

— « أردت ان افعل شيئاً من أجله . أنت ترى اني لم أبالِ بالمسألة الأخرى ، ولقد كان في ميسوره ان يفوز مني بكل شيء : كان في ميسوره أن يفوز بكل ما يريد لو كنت أعرف . كان في استطاعتي ان أتزوج منه ، أو ان أفعل أيّ شيء آخر . أنا أعرف الآن كل شيء . ولكنه أراد ، آنذاك ، أن يذهب الى الحرب ، ولم أكن أدري . »

ولم أقل شيئاً .

— « كنت لا أعرف شيئاً آنذاك . لقد حسبتُ أن ذلك سوف يكون أسوأ بالنسبة اليه . ولقد خُيل اليّ أنه قد لا يقوى على احتمال هذا الضرب من الحياة ؛ ثم إنه قُتل بعد ذلك طبعاً ، وكان هذا نهاية القصة . »

— « لست أدري . »

فقالت :

— « أوه ، نعم . كان هذا نهاية القصة . »

ونظرنا الى رينالدي يتحدث الى الممرضة الأخرى .

— « ما اسمها ؟ »

— « فيرغوسون : هيلين فيرغوسون : ان صديقك طبيب ، أليس

كذلك ؟ »

— « نعم . إنه بارع جداً . »

— « هذا رائع . إنك نادراً ما تجد أطباء بارعين على مثل هذا القرب من الجبهة . ان هذا المكان يقع على مقربة دانية من الجبهة ، أليس كذلك ؟ »

— « من غير شك . »

فقالت :

— « انها جبهة بلهاء . ولكنها جميلة جداً . هل يعتزمون القيام بهجوم ؟ »

— « نعم » .

— « واذن فسوف يكون لدينا عمل . ليس هناك عمل الآن . »

— « هل مارست التمريض منذ زمن بعيد ؟ »

— « منذ نهاية عام ١٩١٥ . لقد بدأتُ حين بدأ هو . واذكر أنه استبدّت بي فكرة بلهاء تقول إنه قد يجيء الى المستشفى الذي أعمل فيه ... وقد أصيب ، في ما خيّل اليّ ، بضربة سيف ، وطوّقت رأسه ضمادة ، أو أصيب برصاصة في الكتف . شيء باهر ! »

فقلت :

— « ان هذه الجبهة هي الجبهة الباهرة . »

فقالت :

— « نعم . إن الناس لا يستطيعون ان يدركوا كيف كانت الحرب في فرنسا . ولو قد فعلوا اذن لما كان في ميسورها ان تستمرّ . انه لم يتلقّ ضربة سيف . لقد قذفوه بقنبلة مزقته ارباً إرباً . »

ولم أقل شيئاً .

— « هل تعتقد ان الحرب سوف تستمر الى ما لا نهاية ؟ »

— « لا . »

— « وما الذي سيوقفها ؟ »

— « انها سوف تتصدع في مكان ما . »

— « اننا نحن الذين ستتصدّع . نحن الذين ستتصدّع في فرنسا، انهم لا يستطيعون الاستمرار في القيام بعمليات كالتي قاموا بها في الـ « سوم » من غير ان ينهاروا . »

فقلت :

— « انها لن تنهار هنا . »

— « هل تؤمن بذلك ؟ »

— « أجل . لقد أبلوا بلاءً حسناً في الصيف الماضي . »

فقالت :

— « انهم قد ينهارون . ان كل امرىء قد ينهار . »

— « والالمان ايضاً . »

فقالت :

— « لا . لا أظن ذلك . »

ومضينا الى حيث كان رينالدي ومس فيرغوسون .

وسأل رينالدي مس فيرغوسون بالانكليزية :

— « هل تحبين ايطاليا ؟ »

— « حباً كثيراً . »

فهز رينالدي رأسه وقال :

— « لا أفهم . »

فترجمت له العبارة قائلاً : **Abbastanza Bene**

فهز رأسه وقال :

— « هذا غير جيد ، هل تحبين انكلترة . »

— « أنا لا أحبها كثيراً . إني اسكتلندية ، وهذا ما يفسّر لك ذلك . »

فتطلع رينالدي اليّ مندهشاً .

فقلت بالايطالية :

— « إنها اسكتلندية ، وهكذا فهي تحب اسكتلندة أكثر مما تحب إنكلترة . »

— « ولكن اسكتلندة هي انكلترة . »

وترجمت هذا لمسّ فيرغوسون .

فقالت :

— « انها لم تصبح بعد . »

— « حقاً ؟ »

— « ولن تصبح أبداً . اننا لا نحب الانكليز . »

— « لا تحبين الانكليز ؟ لا تحبين مسّ باركلي ؟ »

— « أوه ، هذه مسألة أخرى . يجب أن لا تفهم كل شيء فهماً حرفياً الى هذا الحد . »

وبعد فترة تمنّينا لها ليلةً سعيدة وودّعناها ، وفيما نحن نسير نحو البيت قال رينالدي :

— « مس باركلي تفضلك عليّ . هذا واضح جداً . ولكن الاسكتلندية الصغيرة لطيفة جداً . »

فقلت ، ولم أكن قد لاحظتها :

— « جداً . هل تحبّها ؟ »

فقال رينالدي :

— « لا . »

الفصل الخامس

وفي أصيل اليوم التالي ذهبت لأزور مس باركلي كرة أخرى . إنها لم تكن في الحديقة ، فشخصت الى باب الدارة الجانبي الذي تقف أمامه سيارات الاسعاف . وفي داخل الدارة وجدت كبيرة الممرضات الـتي قالت لي ان مس باركلي منصرفة الى اداء وظيفتها . واضافت :

— « نحن في حرب كما تعرف . »

فقلت اني أعرف ذلك .

فقالت :

— « أأنت الاميركي الذي يعمل في الجيش الايطالي ؟ »

— « نعم يا سيدتي . »

— « كيف اتفق لك أن أقدمت على ذلك ؟ لماذا لم تلتحق بقواتنا ؟ »

فقلت :

— « لست أدري . هل استطيع الالتحاق الآن ؟ »

— « أخشى أن لا يكون ذلك ممكناً الآن . قل لي : لماذا التحقت بالايطاليين ؟ »

فقلت :

— « لقد كنت في ايطاليا . وأنا أتكلم الايطالية . »

فقالت :

— « أوه . أنا أتعلّمها . إنها لغة جميلة . »

— « يقول بعضهم إن في استطاعة المرء ان يتعلمها في اسبوعين . »

— « أوه ، أنا لن أستطيع أن أتعلمها في اسبوعين . لقد سلخت في دراستها أشهراً حتى الآن . في استطاعتك ان تجيء وترى مس باركلي بعد الساعة السابعة اذا شئت . سوف تكون حرة عندئذ . ولكن لا تصحب معك كثيراً من الايطاليين . »

— « حتى ولو من أجل لغتهم الجميلة ؟ »

— « لا . ولا من أجل بزّاتهم العسكرية الجميلة . »

فقلت :

— « طاب مساؤك. »

— « A rivederci . ايها الملازم . »

— « A rivederci »

وحيّيت ، ومضيت لسبيلي . إن من المستحيل أن تحيي الاجانب على الطريقة الايطالية من غير ارتباك . لقد اعتقدت دائماً أن التحيـة الايطالية لم تُصنَع للتصدير .

كان النهار حاراً . وكنت قد صعّدت إلى النهر حتى رأس الجسر عند « بلافا » . وكانت الخطة تقضي بأن يبدأ الهجوم من هناك. وكان من المتعذر التقدّم في الضفة المقـابلة في السنة المنصرمة لأنـه لم يكن ثمة غير طريق واحـدة تهبط من الشّعب إلى جسر الزوارق ، وكانت خاضعةً لنيران المدفعية والرشاشات على مبعدة ميل واحد تقريبـاً . وهذه الطريق نفسها لم تكن عريضة إلى حـدٍّ يساعد على نقل كل ما هو ضروري للقيـام بهجوم ، ولقد كان في استطاعة النمساويين أن يجعلوا منها مَجزَراً . * ومع ذلك فالايطاليون كانوا قـد عبروا النهر

* المجزر او المسلخ ، حيث تذبح الخراف والأبقار .

وانتشروا بعض الشيء على الضفة الأخرى لكي يسيطروا على نحو ميل ونصف ميل من الجانب النمساوي من النهر . كانت منطقة قذرة ، وما كان ينبغي للنمساويين أن يسمحوا لهم بالاستيلاء عليها . وأحسب ان ذلك كان بفضل ضرب من التسامح المتبادل ، لأن النمساويين ظلوا يحتفظون برأس جسر في الجانب الأدنى من النهر . وكانت الخنادق النمساوية منتشرةً في مكان أكثر ارتفاعاً ، عند سفح الكثيب ، وليس يفصل ما بينها وبين الخطوط الايطالية غير بضع ياردات . كان ثمة ، في سالف الايام ، مدينة صغيرة ، ولكنها كانت قد آمست ركاماً من كُسارة الحجارة . كان هناك بقية محطة سكة حديدية ، وجسر ثابت محطّم لا سبيل إلى اصلاحه أو إلى استعماله لأنه كان على مرأى البصر .

وهبطتُ الطريق الضيقة نحو النهر ، وتركت السيارة عند مركز الاسعاف ، في أدنى الكثيب ، وعبرتُ جسر الزوارق الذي كان مصوناً بكتفٍ من الجبل ، ومضيت في محاذاة الخنادق في المدينة الخربة وعلى طول حافة السفح . كان كل امرئ في الملاجئ . وكانت ثمة صفوف من الصواريخ المعدّة لطلب النجدة من المدفعية ، أو لتوجيه الاشارات إذا ما قُطعت الاسلاك التلفونية . لم يكن ثمة غير الهدوء ، والحرارة ، والقذارة . ونظرتُ عبرّ السلك فرأيتُ الخطوط النمساوية . ولكن العين ما كانت لترى احداً . وشربت كأساً مع كابتن عرفتُهُ في أحد الملاجئ ، ثم عبرت الجسر راجعاً .

كان القوم على وشك إتمام طريق عريضة تصعّد في الجبل ثم تتكسر يمنةً ويسرةً هابطةً نحو الجسر . وكانت الخطة تقضي بالبدء بالهجوم عندما يتمّ شق هذه الطريق . كانت تهبط خلال الغابة في منعطفات حادّة . وكانت الفكرة تقول بتخصيص هذه الطريق الجديدة للنزول ، على أن تسلك الشاحنات الفارغة ، والعربات ، وسيارات

الاسعاف المثقلة ، وجميع وسائل النقل الراجعة ، الطريقَ القديمة الضيقة . كان مركز الاسعاف على الجانب النمساوي من النهر تحت حافة الكثيب ، وكان على حمَلة النقّالات أن يعيدوا الجرحى عبر جسر الزوارق . ولسوف يكون الوضع على هذه الحال أيضاً عندما يبدأ الهجوم . وكان يخيّل إليّ ان الميل ، أو نحو الميل ، الأخير من الطريق الجديدة — حيث تأخذ في الاستواء — معرّض على نحو موصول لقذائف النمساويين . لقد بدا وكأنها سوف تكون ورطة . ولكني وجدتُ مكاناً تستطيع السيارات أن تأوي اليه بعد أن تجتاز تلك البقعة البشعة ، وان تنتظر فيه الجرحى الذين يُحملون عبر جسر الزوارق : وكنت أتمنى لو أقود السيارة على الطريق الجديدة ولكنها لم تكن قد أنجزت بعد . لقد بدت عريضة حسنة الصنع ، ذات انحدار معقول ، ومنعطفات تتراءى رائعة جداً حين تنظر اليها من خلال فجوات في الغابة على سفح الجبل . ولن يكون ثمة اما خطر على سياراتنا المزوّدة بمكابح فولاذية جيدة ؛ وعلى أية حال فانها لن تكون ، في حال هبوطها الطريق ، مثقلة . حتى إذا عدتُ ، قُدْت السيارة مصعّداً في الطريق الضيقة .

وأوقف سيارتي اثنان من الجنود القَرَبينيين * . كانت قنبلة قد سقطت ، وفيما نحن ننتظر سقطت ثلاث أخرى على الطريق . كانت تلك القنابل من النوع المعروف بذوات السبعة والسبعين . وقد أحدثت اندفاعاً أزيزياً في الهواء . انفجار قاسٍ متبرق ، ووميض ، ثم دخان رمادي يجرف الطريق . وأشار الينا الجنديان القربينيان بمتابعة السير : وإذ مررنا حيث سقطت القنابل فقد اجتنبتُ المواطن الصغيرة المحطمة وشممتُ المادة المتفجرة القوية ، ورائحة الطين والحجارة

* **Carabinieri** وهم الجند المسلحون بالقربينات ، والقربينة **Carbine** ضرب من الغدارات .

المنسوفة ، والصوّان المكسّر حديثاً . واتجهت بسيارتي عائداً إلى غوريتزيا ، إلى دارتنا ، ومضيت — كما سبق مني القول — لزيارة مس باركلي التي كانت منهمكة في مهام العمل .

وتناولت طعام العشاء في سرعة بالغة ، ومضيت إلى الدارة حيث أقام البريطانيون مستشفاهم . كانت في الواقع دارةً كبيرة جداً وجميلة ، وكانت حديقتها مزدانة بأشجار رائعة . كانت مس باركلي جالسةً على مقعد في الحديقة ، وكانت مس فيرغوسون معها . لقد بدتا سعيدتين برؤيتي ، وما هي إلا لحظات حتى استأذنت مس فيرغوسون ومضت لسبيلها قائلة :

— « سوف أترككما معاً . إنكما تنسجمان أحسن الانسجام حين لا أكون بينكما . »

فقالت مس باركلي :

— « لا تذهبي ، يا هيلين . »

— « بل اني أوثر الذهاب . هناك بضع رسائل يتعيّن عليّ ان أكتبها . »

فقلت :

— « طاب مساؤك . »

— « طاب مساؤك ، يا مستر هنري . »

« لا تكتبي أي شيء مما يزعج الرقيب . »

— « لا تقلقي . أنا لن أكتب الا عن المكان الجميل الذي نعيش فيه ، وعن شجاعة الايطاليين البالغة . »

— « واذن فسوف تفوزين بوسام . »

— « سوف يكون ذلك رائعاً . طاب مساؤك ، يا كاثرين . »

فقالت مس باركلي :

— « سوف أراك بعد قليل . »

وتوارت مس فيرغوسون في الظلام .

فقلت :

— « انها لطيفة . »

— « أوه ، نعم ، انها لطيفة . هي ممرضة . »

— « ألست أنت ممرضة أيضاً ؟ »

— « أوه ، لا . أنا شيء يدعونه .V. A. D * نحن نعمل كثيراً . ولكن أحداً لا يثق بنا . »

— « ولم لا ؟ »

— « انهم لا يثقون بنا حين لا يكون ثمة حوادث . ولكنهم يمنحوننا ثقتهم حين يتكاثر العمل . »

— « وما الفرق ؟ »

— « الممرضة أشبه بالطبيب . ان الفتاة تحتاج الى وقت طويل الكي تفوز بهذا اللقب . أما الـ .V.A.D فتسلك طريقاً مختصرة . »

— « فهمت . »

— « الايطاليون لا يحبون ان يروا النساء على مقربة دانية من الجبهة. وهكذا فاننا نسلك كلنا مسلكاً خاصاً جداً : اننا لا نغادر المستشفى أبداً. »

— « ولكن ، أنا ، هل أستطيع ان أجيء الى هنا ؟ »

— « أوه ، نعم . نحن لسنا معزولات عن العالم . »

— « ما رأيك في اطّراح حديث الحرب هذا ؟ »

— « ذلك أمرٌ عسير وليس ثمة مكان نستطيع ان نطّرحه فيه . »

— « فلنطرحه على اية حال : »

« حسن . »

وتبادلنا النظرات في الظلام . لقد وجدتها رائعة الجمال ، ولقد أمسكت

* وهي مختصر Voluntary Aid Detachment اي فرقة المتطوعات المساعدة في المستشفيات .

بيدها . ولم تعترض على ذلك ، فضغطت بيدي عليها ، ثم طوّقتها واضعاً ذراعي تحت ذراعها .

فقالت :

— « لا . »

ولكني أبقيت ذراعي حيث كانت ، وقلت :

— « ولم لا ؟ »

— « لا . »

فقلت :

— « بل نعم . أرجوكِ . »

وملْتُ عليها ، في الظلام ، لكي أقبلها . وأحسست بوميض حاد لاسع . كانت قد لطمتني في قوة على وجهي . وكانت يدها قد أصابت أنفي وعينيّ ، واغرورقت عيناي من أثر ذلك بالدمع .

وقالت :

— « آسفة جداً ، لقد شعرتُ بأن لي أفضلية ما . »

— « لقد كنتِ على صواب . »

فقالت :

— « أنا آسفة الى حد فظيع . ولكن هذا الوجه من المسألة ، وجه « إجازة الممرضة في منتصف الليل » ، هو الذي لم أستطع احتماله . أنا لم أقصد الى ايذائك . بل أنا لم أوده . أليس كذلك ؟ »

كانت تنظر إليّ في الظلام . وكنت غاضباً ، ولكني مع ذلك هادىء جداً ، اذ توقّعت كل ما قد حدث كما يتوقع المرء حركة حجارة الشطرنج .

فقلت :

— « لقد أحسنتِ صنعاً . أنا لا أجد أي بأس في ذلك البتة . »

— « يا للفتى المسكين ! »

فقلت ناظراً اليها :

— « أنت ترين اني كنت أحيا حياة مضحكة . واني أقطع الايام من غير أن أتكلم الانكليزية . والى هذا فأنت بارعة الجمال . »

— « لستَ في حاجة الى التلفظ بكثير من الهراء . لقد قلت اني آسفة . اننا منسجمان انسجاماً حسناً . »

فقلت :

— « أجل ، ولقد بَعُدنا بنفسنا عن الحرب . »

وضحكت . وكانت تلك أول مرة قُدّر لي فيها أن أسمعهـــا تضحك . لقد راقبتُ وجهها .

وقالت :

— « إنك حلو . »

— « لا ، لستُ كذلك . »

— « بلى ، انت لطيف جداً . واني لأتمنى لو اقبّلك إذا لم يكن لديك مانع . »

ونظرتُ في عينيها ، وطوّقتها بذراعي كما فعلتُ من قبل ، وقبّلتها ، لقد قبّلتها في عنف ، وضممتها إلى صدري بقوة ، وحاولت أن أفتح شفتيها . كانتا مغلقتين في إحكام . وكنت لا أزال مغضباً . ولقـــد ارتعَشَتْ حين هصَرْتُها فجاءة . لقد ضممتُها إلي ضماً شديداً . وكان في ميسوري أن أسمع قلبها يخفق . وانفرجت شفتاها ، وارتدّ رأسها مستنداً إلى يـدي ، ثم انخرطت في البكاء فوق منكبي .

وقالت :

— « اوه ، يا حبيبي . سوف تكون لطيفاً معي ، أليس كذلك ؟ »

فقلت في ذات نفسي : ولكن ماذا تعني ، بحق الجحيم ؟ وداعبت شعرها ، وأخـذتُ أربّت على كتفيهـــا . كانت مسترسلة في البكاء ،

ورفعت بصرها إليّ وقالت :

— « سوف تكون لطيفاً معي ، أليس كذلك ؟ لأننا سوف نحيـا حياةً عجيبة . »

وبعد برهة قصيرة مضيت معها إلى باب الدارة . واجتـازت هي الباب ، ورجعت أنا إلى البيت . حتى إذا بلغتُ دارتنا ، صعدتُ إلى الغرفة . كان رينالدي مستلقيـاً في فراشه . ولقد نظر إليّ قائلاً :

— « وهكذا تحرز كل يوم تقدّماً مع مس باركلي ؟ »

— « نحن صديقان . »

— « انك لتبدو عليك تلك السيما العذبة التي تكون للكلب عند النزُوّ . »

ولم أفهم الكلمة .

— « السيما التي تبدو على ماذا ؟ »

وشرح لي ما قصد اليه .

فقلت :

— « انك لتبدو عليك تلك السّيما العذبة الـتي تكون للـكلاب حين . . . »

فقال :

— « أقلع عن ذلك . فلن تنقضي بضع دقـائق حتى نتبـادل الاهانات . »

وضحك .

— « طاب ليلك . »

— « طاب ليلك ، أيها الجرو الصغير . »

وصرعتُ شمعتَهُ ، وانسلّتُ إلى الفراش في الظلام .

ورفع رينالدي الشمعة ، وأضاءَها ، واستأنف مطالعته .

الفصل السادس

وغبتُ في مراكز الاسعاف يومين . ثم إنني رجعت في ساعة متأخرة فلم أر مس باركلي إلا في مساء اليوم التالي . انها لم تكن في الحديقة ، فكان عليّ ان انتظرها في مكتب المستشفى . كان ثمة كثير من التماثيل الرخامية النصفية المرفوعة على قوائم من خشب مدهون على طول جدران الغرفة التي اتخذوا منها مكتباً ، وكان الرواق الذي يؤدي اليه المكتب هو الآخر مزدان الجانبين بتماثيل مشابهة . كانت لها ميزة الرخام الكاملة التي تجعلها كلها تبدو متماثلة . والواقع اني كنت دائماً أجد فن النحت مُضجراً إلى أبعد الحدود ، ولكن التماثيل البرونزية تبدو أشبهَ بشيءٍ ما . أما التماثيل الرخامية النصفية فتتراءى لي دائماً وكأنها مقبرة . ومع هذا ، فقد كان ثمة مقبرة رائعة ، هي مقبرة بيزا . وكانت جنوى هي المكان الذي ينبغي أن تذهب اليه لترى التماثيل الرخامية الرديئة . وكانت الدارة مِلْكاً لرجل الماني بالغ الثراء ، ولا ريب في ان تماثيلها النصفية قد كلّفته أموالاً طائلة . وتساءلت مَنِ الذي نحتها ، وما مقدار الاجر الذي تقاضاه . وحاولت ان أدرك هل كان أصحاب تلك التماثيل من أفراد الأسرة أم لا . ولكنها كانت كلها تماثيل كلاسيكية على نحوٍ متماثل . فليس في استطاعتها ان توقع في نفسك انطباعةً ما .

وجلست على كرسيٍّ ، وقبعتي في يدي . وكان مفروضاً فينا ان نعتمر بالخوذ الفولاذية حتى في غوريتزيا ، ولكنها كانت مزعجة ، ومسرحية إلى حدّ مضحك في مدينة لم يُدْعَ سكانها المدنيون إلى إخلائها . وكنت كلما صعدت إلى مراكز الأسعاف أعتمر بأحدى تلك الخوذ وأحمل قناعاً انكليزياً من أقنعة الغازات . كنا قد بدأنا نحصل على بعض تلك الأقنعة . ولقد كانت أقنعة حقيقية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أمِرْنا بأن نحمل غدّارة أوتوماتيكية . حتى الأطباء ورجال الهيئات الصحية . وكانت غدارتي تصطدم دائماً بظهر الكرسي فأحسّ بوجودها . وكان الواحد منا عرضةً للاعتقال إذا لم يحمل غدارته علانيةً . وكان رينالدي يحمل جراب غدارة جلدياً محشواً بالورق الصحي . أما أنا فكنت أحمل غدارة حقيقية وأستشعر اني أشبه برجل بارع في استعمال الغدارات ، وبقيتُ على ذلك حتى تمرّنت على اطلاق النار منها . كانت من نوع آسترا ، عيار ٧,٦٥ ، وكانت ماسورتها قصيرة ، وكان اندفاعها إلى الوراء عنيفاً إلى درجة تجعلك لا تتصوّر أن في ميسورك ان تصيب بها هدفاً ما . ولقد تمرنت على استعمالها ، مسدّداً إياها تحت الهدف ، محاولاً السيطرة على ارتجاج الماسورة القصيرة المضحكة حتى أمسى في ميسوري أن أصيب ضمن نطاق ياردةٍ من الهدف الذي سدّدت اليه النار على مبعدة عشرين خطوةً ، وعندئذ خطرت لي سخافة حمل الغدارة . وما هي إلا برهة يسيرة حتى نسيتُها ، وحملتُها مصفِّقة على حِقْوي من غير ان أستشعر شيئاً على الاطلاق ما خلا ضرباً غامضاً من الخجل كلما لقيت بعض الناطقين بالانكليزية . لقد كنت جالساً ، هناك ، على كرسيّ ، وكان ضابط من ضربٍ ما ، ينظر اليّ شَزْراً من وراء مكتبه ، بينما كنت اتأمل ارض الغرفة الرخامية ، والاعمدة ذات التماثيل الرخامية ، واللوحات الجصيّة (فريسكو) على الجدران ، وأنتظر مس باركلي . ولم تكن

الاوحات الجصيّة رديئة . إن اىما لوحة جصية تكون جيدة حين تأخذ في التقشر والتناثر .

ورأيت كاثرين باركلي مقبلةً في الرواق. فنهضت . انها لم تبدُ فارعة الطول وهي تتقدم نحوي . ولكنها كانت رائعة جداً .

وقالت :

— « مساء الخير ، مستر هنري . »

فقلت :

— « كيف حالكِ ؟ »

كان الضابط يصغي خلف مكتبه :

— « هل نجلس هنا أم نخرج إلى الحديقة ؟ »

— « فلنخرج إلى الحديقة . انها أبرد بكثير . »

ومشيت خلفها إلى الحديقة ، والضابط يُتبعنا نظراته ، حتى إذا انتهينا إلى المجاز المفروش بالحصباء ، قالت :

— « أين كنت ؟ »

— « كنت أقوم بتفتيش مراكزنا . »

— « ألم يكن في ميسورك ان تبعث إليّ بكلمة ؟ »

فقلت :

— « لا . ليس في سهولة . لقد حسبتُ اني سأرجع . »

— « كان عليك ان تخبرني ، أيها الحبيب . »

كنا قد بعدنا عن المجاز الممهّد ، وشرعنا نمشي تحت الاشجار. وأمسكتُ بيديها الاثنتين ، ثم وقفتُ وقبّلتُها :

— « اليس هناك ايما مكان نستطيع أن نذهب اليه ؟ »

فقالت :

— « لا . ينبغي ان نكتفي بالسير هنا. لقد غبتَ عنا فترة طويلة. »

— « هذا هو اليوم الثالث . ولكن ها أنا ذا قد عدت . »

ونظرتْ إليّ :

— « أتحبّني حقاً ؟ »
— « نعم . »
— « لقد قلتَ إنك تحبني ، اليس كذلك ؟ »
فقلت كاذباً :
— « أجل . احبكِ . » ولم أكن قد قلتُها من قبل .
— « وأنت تناديني كاثرين ؟ »
— « كاثرين . »
ومشينا بضع خطوات ، ثم وقفنا تحت شجرة .
— « قُلْ : لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل . »
— « لقد رجعتُ لأرى كاثرين في الليل . »
— « اوه ، يا حبيبي ، لقد رجعتَ ، اليس كذلك ؟ »
— « نعم . »
— « أنا أحبك حباً عظيماً . أتوسل اليك ، ضع يدك هناك مرة أخرى . »
— « انها لم تفارق مكانها قط . »

وأدرتها نحوي بحيث أستطيع ان أرى وجهها حين أقبلها ، فرأيت أن عينيها مغمضتان . وقبّلت عينيها المغمضتين كلتيهما . وخيّل الي أنها معتوهة بعض الشيء . وما كنت لأجد أي بأس في هذا اذا كانت كذلك حقاً . فذلك أفضل من الذهاب كل يوم الى الماخور الخاص بالضباط حين تتسلق الفتيات ركبتيك ، ويُلبسنك قبعتك على نحو معكوس كدليل على حبهن بين رحلتين من رحلاتهن الى الدور العلوي مع اخوانك في السلاح . كنت أعرف اني لم أحب كاثرين باركلي ، ولم أكن أفكر في أن أحبها قط . كان ذلك كله لعبة ، مثل البريدج ، يقول فيها المرء كلمات بدلاً من ان يلعب بالورق . وكالبريدج يتعين عليك أن تتظاهر بأنك تلعب من أجل المال ، أو من أجل رهان

ما ، ولم يكن أحد قد حدّد طبيعة الرهان . وقد لاءمني ذلك كل الملاءمة .

وقلت :

– « أتمنى لو كان ثمة مكان نستطيع أن نذهب اليه . »

كنت قد بدأت أختبر ، في الواقع ، تلك الصعوبة الخاصة بالرجال والتي تتمثل في مغازلة المرأة ، وقوفاً على القدمين ، فترةً طويلة :

وقالت :

– « ليس ثمة مكانٌ ما . »

وخرجتْ من أحلام يقظتها وأضافت :

– « فلنجلس هنا لحظة قصيرة . »

وجلسنا على المقعد الحجري المسطح ، وأمسكتُ بيد كاثرين باركلي. انها لم تسمح لي بأن أطوّقها بذراعي .

وسألتني :

– « هل أنت متعب جداً ؟ »

– « لا . »

وخفضت بصرها الى العشب .

– « انها لعبة سمجة هذه التي نلعبها . أليس كذلك ؟ »

– « أية لعبة ؟ »

– « لا تتظاهر بقلة الفهم . »

– « أؤكد لك اني لا أقول ذلك عمداً . »

فقالت :

– « أنت فتىً لطيف . وانت تبذل غاية جهدك لكي تلعب اللعبة جيداً . ولكنها لعبة سمجة . »

– « هل تعرفين دائماً ما الذي يفكر فيه الناس ؟ »

– « ليس دائماً . أما ما تفكر فيه أنت فأعرفه . من العبث أن

تقول لي إنك تحبني . لقد انتهى كل شيء لهذا المساء . ألديك موضوع تحب أن نتحدث فيه ؟ »

– « ولكني أحبك ! »

– « أرجوك ، لماذا نكذب حين لا نكون مضطرين الى ذلك ؟ لقد أجدت تمثيل مهزلتك الصغيرة إجادة عظيمة ، وأنا في حال حسنة الآن . أنت ترى اني لست بلهاء . إلا قليلاً في بعض الاحيان . »

وضغطتُ على يدها قائلاً :

– « عزيزتي كاثرين . »

– « انها تبدو مضحكة جداً الآن – كاثرين . أنتَ لا تلفظها بالطريقة نفسها. ولكنك لطيف جداً . أنت فتىً ممتاز . »

– « ذلك ما قاله الكاهن . »

– « أجل ، أنت فتىً ممتاز . ولسوف تجيء وتراني ؟ »

– « طبعاً . »

– « ولن تضطر الى القول إنك تحبّني . لقد انتهى ذلك كله موقتاً . »

ونهضت وبسطت يدها . قائلة :

– « طاب مساؤك . »

لقد أردت ان أقبّلها . وقالت :

– « لا . أنا متعبة الى حد رهيب . »

فقلت :

– « قبّليني ، برغم ذلك . »

– « أنا متعبة الى حد رهيب ، يا حبيبي . »

– « قبليني . »

– « هل أنت شديد الرغبة في ذلك ؟ »

– « نعم . »

وقبلتها ، وأفلتت مني فجأة ، وهي تقول :

– « لا . طاب مساؤك . ارجوك ، يا حبيبي . »

ومضينا نحو الباب ، ورأيتها تدخل وتبتعد في الرواق . وأحببت أن أراقبها وهي تمشي . وتابعت سيرها في الرواق . ورجعتُ الى البيت . كان الليل قائظاً جداً ، وكان ثمة حركة ناشطة في الجبال . وراقبت وميض البرق على جبل سان غبرييل .

ووقفت تجاه فيلا روسا . كانت مصاريع النوافذ موصدة . ولكن كان لا يزال ثمة ناس في الداخل . كان بعضهم ينشد . ودخلتُ الى غرفتي . وأقبل رينالدي فيما كنت أنزع ملابسي ؛ وقال :

– « آه ، ها ! الامور لا تجري على ما يرام . الطفل مُرتبك . »

– « من أين أقبلت ؟ »

– « من فيلا روسا ؛ لقد كان اجتماعاً مثقِّفاً جداً ، أيها الطفل . لقد أنشدنا كلنا . وأنت ، أين كنت ؟ »

– « كنت في زيارة للانكليز . »

– « أحمد الله على أني لم أتورط مع الانكليز . »

الفصل السابع

وفي أصيل اليوم التالي رجعتُ من مركزنا الجبليّ الاول ، وأوقفت السيارة عند الـ « سميستيمنتو » حيث كان الجرحى والمرضى يصنّفون وفقاً لاوراقهم التي كانت تدوّن عليها اسماء مختلف المستشفيات . وكنت أقوم بقيادة السيارة ، ولقد بقيت فيها ، ومضى السائق بالأوراق .لقد كان نهاراً قائظاً ، وكانت السماء لامعة جداً ، زرقاء جداً ، وكانت الطريق بيضاء مكسوّة بالغبار . كنت جالساً في مقعد الـ « فيات » العالي، وكنت لا أفكر بشيء . واجتازت الطريق سَرِيّة من سرايا الجيش ، وراقبتها وهي تمر . كانت وطأة الحر شديدة على أفراد السرية ، وكان العرق يتصبب منهم . كان بعضهم يعتمر بالخوذ الفولاذية ، ولكن كثرتهم كانت تحملها معلّقة بالجراب ؛ وكانت كثرة الخوذ أكبر مما ينبغي ، فهي تكاد تنتهي الى آذان المعتمرين بها . أما الضباط فقد اعتمروا كلهم بالخوذ ، وكانت أكثر ملاءمة لرؤوسهم . كانت السرية هي نصف الـ « بريغاتا بازيليكاتا » Brigata Basilicata ، ولقد عرفت أفرادها من الخطوط الحمراء والبيضاء التي تقلّم أطواق قمصانها. وكان ثمة متخلفون من الجند برزوا على الطريق بعد فترة طويلة من مرور السرية — رجال لم يستطيعوا أن يلحقوا بشراذم الجند التي ينتسبون اليها . كان العرق يتصبب منهم ، وكانوا مغبرّين متعبين . ولقد بدا

بعضهم في حال رديئة جداً . وبرز جندي بعد مرور آخر المتخلفين . كان يعرج في سيره . وقد كفّ عن المشي ، وجلس على حافة الطريق . فترجلت من سيارتي وتوجهت نحوه .

– « ماذا دهاك ؟ »

فرفع بصره اليّ ، ثم نهض .

– « سوف أتابع السير . »

– « ما المسألة ؟ »

– « ...... الحرب »

– « وما بال رجلك ؟ »

– « لست أشكو من رجلي . أنا مصاب بفتق . »

فسألته :

– « ولمَ لم تركب سيارة الاسعاف ؟ لمَ لم تذهب الى المستشفى ؟ »

– « انهم لا يسمحون لي بذلك . لقد قال الليفتنانت اني نزعت حزام الفتق عمداً . »

– « دعني أجسّه . »

– « انه بارز كل البروز. »

– « في اي ناحية هو ؟ »

– « هنا . »

ولمسته . وقلت :

– « أسْعُلْ ! »

– « أخشى ان يزيده ذلك ضخامة . لقد أصبح حجمه الآن ضعف ما كان عليه هذا الصباح . »

فقلت :

– « إجلس . ما إن أنجزُ أوراق هؤلاء الجرحى حتى انقلك معي وأسلمك الى أيدي أطبائكم . »

— « سوف يقولون اني فعلت ذلك عن عمد . »
فقلت :
— « انهم لا يستطيعون ان يفعلوا شيئاً . انه ليس جرحاً . لقد أصبتَ به قبل الحرب ، أليس كذلك ؟ »
— « ولكني فقدتُ الحزام . »
— « سوف يرسلونك الى أحد المستشفيات . »
— « ألا أستطيع أن أبقى هنا ، أيها الملازم ؟ »
— « لا . ان أوراقك ليست لدي . »
ووصل السائق حاملاً أوراق الجرحى الذين في السيارة : وقال :
— « أربعة الى رقم ١٠٥ ، واثنان الى رقم ١٣٢ . »
وكان هذان مستشفيَين واقعين وراء النهر .
فقلت :
— « تولّ أنت قيادة السيارة . »
وساعدت الجندي ذا الفتق على الصعود والجلوس معنا على مقعد السيارة الامامي . وسألني :
— « هل تتكلم الانكليزية ؟ »
— « من غير ريب . »
— « ما رأيك في هذه الحرب اللعينة ؟ »
— « شيء عفن . »
— « آه ، أنا أعتقد انها شيء عفن . وحق يسوع المسيح انها شيء عفن . »
— « هل كنت في الولايات المتحدة ؟ »
— « طبعاً ، في بيتزبورغ . لقد قدّرت انك أميركي . »
— « ألا أتكلم الايطالية جيداً ؟ »
— « لقد عرفت جيداً انك أميركي . »
فقال السائق ، بالايطالية ، ناظراً الى الرجل ذا الفتق :

— « أميركي آخر . »

— « إسمع ايها الملازم ، هل يتعين عليك فعلاً أن تقودني الى سريتي ؟ »

— « نعم . »

— « لأن الكابتن الطبيب يعرف اني مصاب بفتق . لقد طرحت الحزام اللعين لكي يزداد الفتق سوءاً فأعفى من الذهاب الى خط النار من جديد . »

— « فهمت . »

— « ألا تستطيع أن تقودني الى مكان آخر ؟ »

— « لو كنا في مكان أقرب الى الجبهة اذن لكان في ميسوري ان أنقلك الى أول مركز من مراكز الاسعاف . أما في مثل هذا المكان في مؤخرة الجبهة فيجب ان تكون لديك أوراق . »

— « اذا رجعت فسوف يجرون لي عملية جراحية ، ومن ثم يرسلوني الى خط النار ويبقوني هناك . »

وفكرتُ في الامر .

وسألني :

— « وأنت أيضاً لا تريد ان تذهب الى خط النار وتبقى هناك ، أليس كذلك ؟ »

— « طبعاً . »

— « آه ، بحق المسيح ، أليست هذه حرباً لعينة ؟ »

فقلت :

— « إسمعْ . إنزلْ ، ودعْ نفسك تقَع في الطريق ، فيسيل الدم من رأسك ، ولسوف ألتقطك وأنا عائد وآخذك الى المستشفى . سوف نقف هنا ، يا آلدو . »

ووقفنا عند جانب الطريق . وساعدته على النزول .

وقال :

— « سوف تجدني هنا ، ايها الملازم . »

فقلت :

— « الى اللقاء . »

ومضينا لسبيلنا ، وبعد ميل واحد تقريباً اجتزنا السرية ، ثم عبرنا النهر الذي عكّره ذوبان الثلج وأنشأ يجري مسرعاً بين دعائم الجسر ، وسلكنا الطريق الممتدّة عبر السهل لنُسلم الجرحى الى المستشفَيين . وفي طريق العودة قدتُ أنا السيارة الفارغة ، على جناح السرعة ، التماساً للرجل ذي الفتق . فاجتزنا السرية ، بادىء الأمر ، وكانت أكثر بطأ وأشدّ عرَقاً من اىما وقت مضى ، ثم اجتزنا بالمتخلفين من الجند . وبعد ذلك رأينا عربة خيل من عربات الاسعاف واقفة في قارعة الطريق . وكان رجلان اثنان يرفعان الرجل ذا الفتق لنقله في العربة . كانا قد عادا بحثاً عنه . وأومأ الرجل برأسه إليّ . كانت خوذته قد سقطت ، وكان الدم يجري من جبهته عند منبت الشعر . كان أنفه مخدوشاً ، وكان الغبار يعلو الرقعة الدامية ، ويعلو شعره أيضاً .

وصاح :

— « أنظر الى الجرح ، أيها الملازم . ليس في اليد حيلة . لقد رجعوا ليأخذوني . »



وحين رجعت الى الدارة ، كانت الساعة الخامسة . ومضيتُ الى المكان الذي نغسل فيه السيارات لأبترد بالماء . ثم اني شرعت أكتب تقريري في غرفتي ، جالساً ببنطلون وقميص داخلي تجاه النافذة المفتوحة. كان الهجوم على وشك ان يقع خلال يومين اثنين ، وكان عليّ ان أذهب مع السيارات الى بلافا . كان قد انقضى زمن طويل على آخر رسالة بعثتُ بها الى الولايات المتحدة ، وكنت أعرف ان عليّ أن أكتب، ولكني كنت قد أرجأت الكتابة الى درجة جعلت من المستحيل عليّ، تقريباً ،

أن أقوم بهذه المهمة الآن . والى هذا ، فلم يكن لديّ ما أقوله . لقد أرسلتُ بطاقتين أو ثلاثاً من البطاقات العسكرية المعروفة بـ Zona di Guerra (المنطقة الحربية) ضارباً خطاً على ما فيها باستثناء : أنا في صحة جيدة . إن أمثال هذه البطاقات سوف تغريهم بالصبر . ولا ريب في أنها سوف تلقى نجاحاً كبيراً في أميركا ، فهي غريبة غامضة . والواقع أن هذه المنطقة الحربية كانت منطقة غريبة وغامضة ، ولكني اعتقدتُ انها خطرة جداً وموجّهة توجيهاً صالحاً ، بالقياس الى الحروب الاخرى مع النمساويين . فقد أنشيء الجيش النمساوي ليمنح نابوليون انتصارات – ليمنح أيّ نابوليون انتصارات – وقد تمنيت لو أن عندنا نابوليون ، ولكن كان عندنا بدلاً من ذلك الجنرال كادورنا ، البدين المترف ، وفيكتور عمانوئيل ، الرجل الضئيل الجسم ذو العنق الطويلة الدقيقة ، واللحية الشبيهة بلحية التيس . وفي القطاع الأيمن . كان عندنا دوق آووستا . ولعله كان وسيم الطلعة الى درجة تجعل من المتعذر عليه أن يكون جنرالاً عظيماً ، ولكنه كان يبدو وكأنه إنسان . وكان كثير من الايطاليين يودّون لو يكون هو الملك . ولقد كانت تبدو عليه سيما الملوك حقاً . كان هو عمّ الملك ، وكان يقود الجيش الثالث . وكنا نحن في الجيش الثاني . وكانت بعض بطاريات المدفعية البريطانية تعمل مع الجيش الثالث . وكنت قد اجتمعت بمدفعيَّيْن من تلك الزمرة ، في ميلانو . كانا لطيفين جداً ، ولقد قضينا معهما سهرة رائعة . كانا ضخمي الجسم ، حييّن مرتبكين ، شديدَيْ التقدير لكل ما يَحْدث . ولقد كنتُ أتمنى لو عملت مع البريطانيين . فقد كان ذلك خليقاً به أن يجعل مهمتي أيسر بكثير . ومع ذلك فقد كان من الجائز جداً أن أقْتَل ، لو عملت معهم . لا ، ليس في حقل الاسعاف هذا . بل حتى في حقل الاسعاف نفسه . فقد قُتِل بعض سائقي سيارات الاسعاف الانكليز ، أحياناً . حسناً ، فقد كنت أعرف اني لن أقْتَل . في هذه

الحرب على الأقل . فلم تكن لها ابما اهتمام بي شخصياً . وهي لم تبدُ في نظري أشدّ خطراً عليّ من حرب تدور رحاها في السينما . ومع ذلك فقد تضرعت الى الله ان يضع حداً لها . ولعلها ان تنتهي هذا الصيف. ولعل النمساويين ينهارون . فقد طالما انهاروا في حروب أخرى . ما الذي أصاب هذه الحرب ؟ فقد قال كل امرىء ان الفرنسيين قد أوشكوا على الاستسلام . وقال رينالدي ان الفرنسيين قد ثاروا وان جيوشهم زحفت على باريس . وسألته ما الذي حدث ، فأجابني قائلاً : « أوه ، لقد أوقفوا زحفها . » كنت أريد أن أذهب الى النمسا من غير حرب. كنت أريد أن أذهب الى « الغابة السوداء » . وكنت أريد أن أذهب الى جبال هارتز . ولكن أين تقع جبال هارتز على أية حال ؟ كانوا يتحاربون في جبال الكاربات . وما كنت راغباً في الذهاب الى هناك . ومع ذلك فمن الجائز أن تكون الرحلة الى الكاربات جميلة . ولقد كان في امكاني – لولا الحرب – أن أذهب الى اسبانية . كانت الشمس قد أخذت في الانحدار ، وكان النهار قد بدأ يبرد . وان نفسي لتغريني بأن أذهب بعد العشاء وأرى كاثرين باركلي . إني لأتمنى لو كانت هنا الآن . بل اني لأتمنى لو كنت أنا وإياها في ميلانو . فأنا شديد التوق الى أن أتناول الطعام في الـ « كوفا » ، وأن أسير هابطاً الـ « فيا مانزوني » في المساء القائظ ، وأجتاز الشارع ، وانعطف في محاذاة القنال ، وأمضي الى الفندق مع كاثرين باركلي . ومن يدري فلعلّها أن تقبل ذلك . لعلها ان تتظاهر بأنني فتاها الذي قُتل ، وندخل من الباب الرئيسي ، ويرفع البواب قبعته احتراماً ، وأقف عند منضدة البواب وأطلب المفتاح ، وتنتظرني هي واقفة أمام المصعد الكهربائي ، وندخل معاً الى المصعد فيرتقي بنا أدوار البناء في بطء بالغ ، محدثاً تكتكة خفيفة عند كل دَوْر . ثم نصل الى دَوْرنا ، ويفتح الغلام الباب ويقف هناك ، وتغادر هي المصعد ، وأغادره أنا من بعدها ،

ونتقدّم في الرواق ، وأضع المفتاح في الباب ، وأفتحه ، وأدخل ، ثم أتلفن ، وأسألهم أن يرسلوا إليّ زجاجة من الـ « كابري بيانكا » في دلوٍ فضيّ مليء بالثلج ، وتسمع ارتطام الثلج بجدران الدلو . من أول الرواق الى آخره . ويقرع الغلام الباب ، فتقول له : « اتركه في الخارج ، من فضلك . » لأننا نكون متجردين من ملابسنا كلها بسبب من الحر الشديد . وتكون النوافذ مشرعة ، ويطير السنونو فوق سطوح المنازل ، حتى اذا هبطت العتمة بعد ذلك واقتربنا من النافذة رأينا خفافيش صغيرة جداً تتصيّد فوق البيوت وعلى قمم الاشجار . وشربنا الـ « كابري » . والباب مقفل بالمفتاح ، والحر لاهب . وليس ثمة غير غطاء سرير ، والليل كله . ونتساقى كؤوس الهوى . طوال الليل ، في ليالي ميلانو القائظة . على هذا النحو ينبغي ان تجري الاشياء. إن عليّ ان أسرع في تناول الطعام وأنطلق لأرى كاثرين باركلي .

لقد تحدّثت زمرتنا كثيراً على المائدة . وشربت أنا بعض الخمر لأني ما كنت لاستشعر في تلك الليلة أننا كلنا أخوة ما لم أشرب قليلاً . وتحدثت مع الكاهن عن رئيس الاساقفة . آيرلند . الذي كان . في ما يبدو ، رجلاً نبيلاً والذي تظاهرتُ بأني على علمٍ بالأذى الذي تحمّله . والذي شاركتُ أنا في انزاله به بوصفي أميركياً . فالواقع اني لم أسمع بذلك الأذى قط . ولكن كان من عدم اللياقة أن لا أعرف شيئاً عنه بعد ان سمعتُ الى تفسير رائع لاسبابه التي كانت على أية حال — في ما يبدو — راجعة الى سوء الفهم . كنت أرى ان اسمه جميل . وكان هو من ابناء مينيزوتا . مما شكّل اسماً ساحراً . آيرلند مينيزوتا . آيرلند ويسكونسن ، آيرلند ميتشيغان . والذي جعل ذلك الاسم رائعاً هو الشبه بينه وبين لفظة island (جزيرة) : لا . لم يكن ذلك هو السّبب . كان ثمة الى جانب هذا شيء إضافيّ . أجل، ايها الأب .هذا صحيح، أيها الأب . ربما ، أيها الأب.لا، أيها الأب.حسناً ،

ربما نعم ، أيها الأب . أنت تعرف عن هذه المسألة أكثر مما أعرف ، أيها الأب . كان الكاهن طيباً ، ولكنه مُضجر . وكان الضباط غير طيبين ، ولكنهم مضجرون . وكان الملك طيباً ، ولكنه مضجر . وكانت الخمر رديئة ولكنها غير مُضجرة . إنها تنزع المينا عن أسنانك وتُلصقها بحلقك .

وقال روكا :

— «واعتُقل الكاهن لأنهم وجدوا معه سندات الثلاثة في المئـة . كان ذلك في فرنسة طبعاً . ولو حدث ذلك هنا لما اعتقلوه أبداً . لقد أنكر ان تكون له أية معرفة بوجود هذه السندات معه . وانما حدث ذلك في بيزييه . وكنت عندئذ هناك ، وكنت أتابع المسألة في الصحف، فقصدتُ الى السجن وطلبت الاجتماع بالكاهن . كان واضحاً أنه سرق السندات . »

فقال رينالدي :

— « أنا لا أصدّق كلمة من هذا . »

فقال روكا :

— « كما تريد . ولكني أروي هذه الحكاية لكاهننا . إنها حافلـة بالمعلومات . وهو ، بوصفه كاهناً ، سوف يقدرها حق قدرها . »

وابتسم الكاهن ، وقال :

— « أكمِلْ . اني مُصغٍ اليك . »

— « كان هناك ، طبعاً ، بعض السندات التي لم يُتّهم بها أحد ، ولكنهم وجدوا مع الكاهن جميع سندات الثلاثة في المئة وكثيراً مـن السندات المحلية . لقد نسيت ماهيّتها على وجه الضبط . وهكذا قصدت الى السجن. وتلك هي النقطة الرئيسية في القصة . ووقفت خارج زنزانته وقلت وكأنني ذاهب الى الاعتراف : « باركني ، أيها الأب ، لأنـك ارتكبت خطيئة ! »

وانفجر القوم كلهم بالضحك :

وتساءل الكاهن :

ـــ « وبماذا أجاب ؟ »

وتظاهر روكا بأنه لم يسمع ، وراح يشرح النكتة لي :

ـــ « لقد أدركت النقطة ، أليس كذلك ؟ »

لقد بدا لي أنها نكتة مضحكة جداً ، اذا فُهِمَتْ كما ينبغي . وصبّوا لي مقداراً اضافياً من الخمر . فرويت لهم قصة الجندي الانجليزي الذي وُضع تحت مياه « الدّش » . ثم روى الماجور قصة التشيكوسلوفاكيين الأحد عشر والعريف الهنغاري . وبعد ان احتسيت مقداراً من الخمر جديداً رويت قصة الفارس الذي وجد بنساً . وقال الماجور ان ثمة قصة ايطالية مماثلة تدور على الدوقة التي لم تستطع النوم في الليل . وعند هذه النقطة غادر الكاهن المكان ، فرويت قصة موظف المبيعات المترحل الذي وصل في الساعة الخامسة صباحاً الى مرسيليا عندما كانت الريح الشمالية تهبّ : وقال الماجور ان المعروف عني اني سكير كبير . وأنكرتُ ذلك : فقال انه صحيح ، واننا وحقّ جثة باخوس سوف نختبر ما اذا كان هذا صحيحاً أم لا . فقلت دعنا من باخوس ، دعنا من باخوس . فقال : أجل . لا بد من باخوس . كان عليّ أن أشرب كوباً مقابل كوب وكأساً مقابل كأس مع باسي فيليبّو فينتزنزا . وقال باسي : لا ، هذا ليس اختباراً لأنه شرب حتى هذه اللحظة ضعف ما شربته أنا : وقلت إن هذه كذبة نجسة ، وإن فيليبّو فينتزنزا باسّي ، أو باسي فيليبو فينتزنزا ـــ قسماً بباخوس أو من غير قسم بباخوس ـــ لم يمسّ قطرة من الخمر طول الليل ، والى هذا فما اسمه تماماً ؟ وسألني عن اسمي أهو فيديريكو آنريكو أم آنريكو فيديريكو ؟ وقلت دع الرجل الأفضل يغلب ؛ وبدأ الماجور يصب لنا خمراً حمراء في قدحَيْن كبيرين . حتى اذا احتسيت نصف

ما صبّ لي رفضت أن أشرب قطرة اضافية . لقد ذكرتُ الى أين كنت ذاهباً .

وقلت :

— « باسي هو الذي غلب : إنه أحسن مني . يجب أن أذهب . »

فقال رينالدي :

— « ان عليه ان يذهب فعلاً . إنه على موعد . أنا أعرف كل شيء عن ذلك . »

— « يجب أن أذهب . »

فقال باسّي :

— « في ليلة أخرى ، في ليلة أخرى عندما تكون أقوى . »

وضربني على كتفي . كان ثمة ، على المائدة ، شموع مضاءة . وكان الضباط كلهم سعداء جداً . وقلت :

— « طاب مساؤكم ، أيها السادة . »

وخرج رينالدي معي . ووقفنا خارج الباب على الارض الخضِرة ، وقال :

— « من الافضل أن لا تصعد الى هناك وأنت مخمور . »

— « أنا لست مخموراً ، يا رينين . صدّقني . »

— « من الخير لك أن تمضغ قليلاً من البن . »

— « هراء . »

— « سوف آتيك بقليل منه . ابْقَ هنا واذرع المكان جيئة وذهوباً . »

ورجع حاملاً حفنة من حبات البن المحمّص ، وقال :

— « إمْضَغْ هذه ، أيها الطفل ، وليكن الرب معك ! »

فقلت :

— « باخوس . »

— « سوف أرافقك. »

— « أنا في أحسن حال . »

وهبطنا الى المدينة معاً ، ومضغت حبّات البن . وعند مدخل المجاز الممهّد الذي يؤدي الى الدارة البريطانية ودّعني رينالدي .

وقلت :

— « طاب مساؤك . لماذا لا تدخل ؟ »

وهزّ رأسه وقال :

— « لا. أنا أفضل الملذات الأكثر بساطة . »

— « أشكرك على حبّات البن . »

— « لا تذكر ذلك ، أيها الطفل ، لا تذكر ذلك . »

وأخذت أهبط المجاز الممهّد . كانت حدود شجرات السرو التي تحيط به من جانبيه حادة وواضحة . والتفتّ الى الوراء ، فرأيت رينالدي واقفاً يراقبني ، ولوّحتُ له بيدي .

وجلست في صالون الدارة منتظراً مجيء كاثرين باركلي . ومشى شخص ما في الرواق . ونهضت . ولكنها لم تكن كاثرين . لقد كانت مس فيرغوسون .

وقالت :

— « هالو ! كلّفتني كاثرين ان أقول لك انها آسفة لعدم تمكنها من رؤيتك هذا المساء . »

— « أنا آسف جداً . أرجو أن لا تكون مريضة . »

— « انها ليست في حالة جيدة جداً . »

— « هل لك أن تبلغيها عظيم أسفي لذلك ؟ »

— « طبعاً ، من غير شك . »

— « هل تعتقدين أن من الخير أن أحاول رؤيتها غداً ؟ »

— « أجل ، أعتقد ذلك . »

فقلت :

— « أشكرك كثيراً : طاب مساؤك : »
وخرجتُ ، وفجأة استشعرت الوحشة والفراغ : كنت قد استَخْفَفْتُ بالاجتماع بكاثرين استخفافاً بالغاً ، وكنت قد أجَزْتُ للسّكْر أن يستبد بي بعض الشيء ، وكنت قد نسيت تقريباً أن أجيء ، ولكني حين تعذّر عليّ أن أراها ، استشْعَرْتُ الوحشةَ والفراغ .

الفصل الثامن

وفي أصيل اليوم التالي سمعنا أن هجوماً سوف يُشَنّ عند عالية النهر ، تلك الليلة ، وأن علينا ان نرسل الى هناك أربع سيارات . إن أحد لم يعرف شيئاً عن ذلك الهجوم على الرغم من ان كل امرىء كان يتحدث في موضوعه بتوكيد بالغ وفهمٍ ستراتيجي . وكنت أنا راكباً في السيارة الأولى ، حتى اذا مررنا بالمستشفى البريطاني سألت السائق ان يتوقف ؛ وتوقفت السيارات الاخرى خلفنا . وترجلت وقلت لسائقيها ان يواصلوا السير وينتظروا عند مفرق الطريق المؤدي الى كورمون إذا لم نُدركهم هناك ..

وانطلقت مسرعاً في المجاز الممهّد ، حتى اذا انتهيت الى قاعة الاستقبال ، سألت عن مس باركلي .

— « انها منهمكة في اداء وظيفتها . »

— « هل أستطيع أن أراها لحظةً واحدة ؟ »

وأرسِل آذنٌ للاستعلام ، فرجعت هي معه .

— « لقد عرّجتُ لاطمئن على صحتكِ . ولقد قالوا لي إنك تقومين بأعباء الوظيفة ، وهكذا طلبتُ أن أراك . »

فقالت :

ــ « أنا في حال جيدة . أحسب أن الحرارة هي التي صرعتني أمس. »
ــ « لقد آن لي أذهب . »
ــ « سوف امضي معك خارج الباب دقيقة واحدة . »
وسألتها في الخارج :
ــ « و ... هل أنت في حال جيدة ؟ »
ــ « أجل ، يا حبيبي . هل ستأتي الليلة ؟ »
ــ « لا سوف أذهب في الحال لأشهد عرضاً صغيراً هناك ، فوق نهر البلافا . »
ــ « عرضاً صغيراً ؟ »
ــ « انه لن يكون شيئاً ذا خطر في ما أظن . »
ــ « وسوف ترجع ؟ »
ــ « غداً . »
وفكّت شيئاً كان معقوداً حول عنقها ، ووضعته في يدي ، وقالت:
ــ « انها ايقونة القديس انطوني . ولا تنس أن ترجع مساء غد . »
ــ « بالمناسبة ، هل أنت كاثوليكية ؟ »
فقالت :
ــ « لا . ولكنهم يقولون ان أيقونة القديس أنطوني مفيدة جداً . »
ــ « سوف اعنى بأمره اكراماً لك . وداعاً . »
فقالت :
ــ « لا . لا تقل وداعاً . »
ــ « حسن . »
ــ « كن فتى ً صالحاً وخُذ حذرك . لا . ليس في استطاعتك ان تقبّلني هنا . مستحيل . »
ــ « حسن جداً . »
والتفتّ الى الوراء . فرأيتها واقفة ً على السلم ، ولوّحت لي ،

فقبّلتُ يدي وبسطتها نحوها . ولوّحت كرة ثانية ، ثم اني ابتعدت عن المجاز الممهّد وامتطيت سيارة الاسعاف وانطلقنا . كانت الايقونة ضمن عُلَيْبة معدنية بيضاء . وفتحت العُلَيْبة وأخرجت القديس منها .

وسألني السائق :

— « القديس أنطوني ؟ »

— « نعم . »

— « ان عندي واحدة . »

وتركت يده اليمنى المقود ، وفتح زراً في صُدْرته واخرجها من تحت قميصه .

— « هل تراها ؟ »

وأعدت أيقونتي الى العُلبية ، وكوّرْتُ السلسلة الذهبية الدقيقة ، ووضعت ذلك كله في جيب صدرتي .

— « ألا تعلقها في عنقك ؟ »

— « لا . »

— « من الافضل ان تعلّقها . لقد جُعلت لهذا الغرض . »

فقلت :

— « حسن جداً . »

وفككت مِشْبك السلسلة الذهبية . وطوّقت عنقي بها . وعاودتُ إغلاقها . لقد تدلى القديس على ثوبي العسكري . ففتحت مقدّم صدرتي وفككتُ طوق قميصي وأدخلته تحت القميص . لقد أحسست به في علبته المعدنية فوق صدري فيما كنت أقود السيارة . وما هي الا لحظات حتى كففتُ عن التفكير فيه . ولقد فقدتُ كل أثر للأيقونة بعد أن جُرحت . ولعل امرءاً قد استولى عليها في أحد مراكز الاسعاف . وحين بلغنا الجسر اجتزناه في سرعة . وما لبثنا أن رأينا أمامنا على الطريق ، غبار السيارات الأخرى . وانحرفت الطريق . ورأينا السيارات الثلاث وقد

بدت صغيرة جداً ، والغبار يرتفع من الدواليب ويلتفّ بين الشجر ؛ لقد أدركنا تلك السيارات وتجاوزناها ، وانعطفنا على طريق تصعّد في الكثبان . ان قيادة السيارات على شكل قافلة ليست بغيضة الى النفس اذا كنت تقود السيارة الأولى . وقد استرخيت في مقعدي وانشأت أتأمّل الريف . كنا قد انتهينا الى التلال السفحية على الجانب الأدنى من النهر. وفيما أخذنا نصعّد بدَت في ناحية الشمال جبال شامخة لا تزال مكللة بالثلج . والتفتّ الى وراء فرأيت السيارات الثلاث تتسلّق الطريق ، وقد فصلت ما بينها سحابة من غبارها . واجتزنا خطاً طويلاً من البغال المثقلة بالاحمال ، وقد سار سائقوها الى جانب البغال ، مُرْتدين طرابيش حمراء . كانوا من الـ « برساغليري » *

وخلف قطار البغال كانت الطريق فارغة ، وصعّدنا في الكثبان ثم هبطنا فوق كتف كثيب طويل الى أحد الاودية . كانت الاشجار تحيط بجانبي الطريق ، ومن خلال الخط الايمن من الاشجار رأيت النهر صافيَ الماء ، سريعاً ، ضَحلا . كان النهر منخفضاً ،وكانت ثمة رُقَع متطاولة من الرمل والحصى وقناة ماء ضيقة . وفي بعض الاحيان كانت المياه تنتشر مثل غطاء لامع فوق سرير من حصى . وعلى مقربة دانية من الضفة رأيت بِرَكاً عميقة مياهها زرقاء مثل السماء . لقد رأيت فوق النهر جسوراً حجرية مُقنطَرة حيث انعطفت السّبُل المختصرة من الطريق، واجتزنا بيوتاً ريفية حجرية تزدان بشجر الاجاص المنتصب ، وكأنه الشمعدانات ، عند جدرانها الجنوبية ، وأسواراً حجرية منخفضة في الحقول . وصعّدت الطريق في الوادي تصعيداً متطاولاً ، ثم انعطفت بنا فبدأنا نصعّد في الكثبان ، كرة أخرى . كانت الطريق تصعّد تصعيداً عمودياً وتتخلل غابات الكستناء لتستوي آخر الأمر على ربوة عالية . كان في ميسوري ان أخفض البصر من خلال الغابة فأرى ، بعيداً في المنخَفَض

* حملة البنادق في الجيش الايطالي . (المعرب)

خطّ النهر الذي يفصل بين الجيشين وقد توهّج تحت أشعة الشمس ؛ وسلكنا الطريق العسكرية ، الجديدة ، الرديئة ، التي امتدت فوق قمة الرابية ، وتطلعتُ الى الشمال فرأيت سلسلتي الجبال . كان لونهما أخضر داكناً حتى الحد الذي انتهى اليه الثلج ، وأبيض رائعاً على القمم الساطعة تحت أشعة الشمس . وفيما صعّدت الطريق بعد ذلك على طول الرابية رأيت سلسلة ثالثة من الجبال ، سلسلة مكللة بالثلوج ذات ارتفاع أعلى. كانت هذه السلسلة بيضاء كالطباشير ، كثيرة الصدوع والشقوق ، ذات سطوح عجيبة مستوية . وخلف هذه الجبال كلها كانت جبال أخرى هي من البعد بحيث كان يخامرك الريب في أنك تراها حقاً . كانت هذه كلها جبالاً نمساوية ، ولم يكن لدينا نظيرٌ لها في ايطاليا . وأمامنا انعطفت الطريق الى اليمين ، واذ خفضْت بصري استطعت أن أرى الطريق تهبط خلال الاشجار. كانت على هذه الطريق قوات عسكرية ، وشاحنات وبغال عليها مدافع جبلية . وفيما نحن نهبط الطريق ، ملتزمين جانبها ، استطعت ان ارى النهر ، في مكان منخفض جداً ، وروافدَ الرّبط الخشبية والخطوط الحديدية التي تمتد على طوله والجسرَ العتيق الذي تعبره السكة الحديدية الى الجانب الآخر ، كما رأيت ، في مكان أبعد ، عند سفح تلة وراء النهر ، بيوت البلدة الصغيرة المهدّمة التي كان يتعيّن علينا الاستيلاء عليها .

كانت العتمة قد بدأت تخيّم عندما بلغنا المنخفض وانعطفنا نحو الطريق الرئيسية الممتدة في محاذاة النهر .

الفصل التاسع

كانت الطريق مزدحمة ، وكان ثمة حُصُر من تبْن وسُتُرٌ مصنوعة من سُوَيْقات الذرة . وكان ذلك كله مغطىً بالحُصُر حتى ليخيّل للمرء أنه أمام مدخل سيرك أو قرية زنجية . واجتزنا ، ببطء ، هذا النفق المغطى بالتبن ، وانتهينا الى رقعة من الارض جرداء كانت تقوم عليها ، في ما مضى ، محطة السكة الحديدية . كانت الطريق هنا أدنى من مستوى النهر ، وعلى طول الطريق الغائرة احتلّت كتائب المشاة خنادق حُفرت في المنحدر . كانت الشمس قد أخذت في المغيب ، وفيما كنت أنظر الى الضفة ونحن نتقدّم بالسيارة رأيت مناطيد المراقبة النمساوية على التلال القائمة فوق الضفة الاخرى وقد بدَت داكنة تجاه غروب الشمس . واوقفنا السيارات خلف مصنع للقرميد . كانت الافران وبعض الحُفر العميقة قد زُوّدت بما يجعلها مراكز للاسعاف . وكان ثمة ثلاثة أطباء أعرفهم . وتحدّثت الى الماجور فعلمت منه ان علينا حالما يبدأ الهجوم وتُحَمَّل سياراتنا ، ان نقودها عائدين على الطريق الرئيسية الممتدة على طول الرابية حيث نجد مركزاً للاسعاف وسيارات أخرى تتولى نقل من حملناهم من المصابين . كان يرجو أن لا تُسَدّ الطريق من الازدحام . فقد كانت هذه العملية تجري في طريق موحدة.

وانما حُجبت الطريق لأنها كانت على مرأى من النمساويين عبر النهر. وهنا ، في مصنع القرميد ، كنا في نجوة من نيران بنادق العدوّ ومدافعه المنطلقة من ضفة النهر . وكان يخترق النهر جسرٌ مهدّم . وكانوا يعتزمون انشاء جسر آخر عندما بدأ القصف ، وكان على بعض الجنود أن يختاروا المناطق الضحلة العليا ، عند منعطف النهر . وكان الماجور رجلاً ضئيل الجسم مفتول الشاربين . وكان قد شهد الحرب في ليبيا ، فهو يحمل على كمّه شريطتين من شرائط جرحى الحرب . ولقد قال لي إنه اذا سارت الأمور على ما يرام فسوف يسعى لحمل المسؤولين على منحي وساماً . فقلت اني أرجو ان تسير الامور أحسن السير . ولكني أعتقد أنه لطيف أكثر مما ينبغي . وسألته هل يوجد ملجأ كبير يستطيع سائقو السيارات أن يبقوا فيه ، فاستدعى جندياً ليُريني ذلك الملجأ . ولقد ذهبت مع الجندي فرأيت الملجأ ، فاذا به حسنٌ جداً . لقد سُرّ السائقون به ، فغادرتهم هناك . ودعاني الماجور الى كأس أشربها معه ومع ضابطين آخرين . فشربنا الـ « روم » . وكان الجو ودّياً الى حد بعيد . وفي الخارج كان الليل يهبط . وسألت متى يبدأ الهجوم فقالوا: حالما يشتد الظلام . ورجعت عائداً الى السائقين . كانوا قاعدين في الملجأ يتحدّثون ، وحين دخلتُ عليهم كفّوا عن الكلام . وأعطيت كلاً منهم علبةً من السكاير – المعروفة باسم ماسيدونياس – وهي سكاير ملفوفة لفاً رخواً يجعل التبغ يتناثر منها ، فأنت مضطر الى أن تثني طرفيها قبل أن تدخنها . وأشعل مانيرا قدّاحته . وأدارها على رفاقه . وكانت القداحة على شكل مشعاع (رادياتور) سيارة فيات . ورويتُ لهم ما قد سمعته .

وسألني باسيني :

– « لمَ لمْ نَرَ المركز عندما نزلنا ؟ »

– « كان يقع وراء المنعطف الذي استدرنا عنده . »

فقال مانيرا :

– « هذه الطريق سوف تكون بلاءً علينا . »

– « انهم سوف ينسفوننا نسفاً . »

– « ربما . »

– « ألا ترى ان من الخير لنا ان نأكل ، أيها الملازم ؟ اننا ان نجد فرصة نأكل خلالها بعد أن يبدأ الهجوم . »

فقلت :

– « سوف أذهب الآن وأرى . »

– « أنستطيع أن نخرج فنقوم بجولة ، أم يتعيّن علينا أن نبقى هنا ؟ »

– « من الافضل ان تبقوا هنا . »

وانقلبتُ الى ملجأ الماجور ، فقال لي إن الطهاة سوف يصلون وشيكاً ، وان في استطاعة السائقين أن يجيئوا ويأخذوا طعامهم. وأعلن عن استعداده لأعارتهم قصاعاً صفيحية اذا لم يكن لديهم قصاع . فقلت اني أعتقد أنهم مزوّدون بذلك . فرجعت الى السائقين وأخبرتهم اني سأعود وأدعوهم لحظةَ يصل الطعام . فقال مانيرا إنه يرجو أن أعود قبل ان يبدأ القصف. واعتصموا بالصمت حتى خرجتُ . كانوا كلهم ميكانيكيين ، وكانوا يكرهون الحرب .

وخرجت لألقي نظرة على السيارات وأرى ما الذي كان يجري ، ثم رجعتُ وقعدت في الملجأ مع السائقين الأربعة . لقد جلسنا على الأرض مسندين ظهورنا الى الجدار ، وشرعنا ندخن . وفي الخارج ، كان الظلام قد خيّم تقريباً . كانت أرض الملجأ حارة وجافّة . وأسندت كتفيّ الى الجدار ، وقعدت على الأرض ، واسترخيت .

وتساءل غافوتزي :

– « من الذي سيقوم بالهجوم ؟ »

– « البرساغليري . »

– « جميع البرساغليري ؟ »
– « أظن ذلك . »
– « ليس ههنا جندٌ كافٍ لشنّ هجوم حقيقي . »
– « لعل المقصود هو صرفُ النظر عن المكان الذي سيقع فيه الهجوم الحقيقي . »
– « وهل يعرف المهاجمون ذلك ؟ »
– « لا أعتقد . »
فقال مانيرا :
– « طبعاً لا يعرفون . انهم لن يهاجموا اذا عرفوا . »
فقال باسيني :
– « بل إنهم يهاجمون . البرساغليري مجانين . »
فقلت :
– « انهم شجعان ، يتمتعون بانضباط حسَن . »
– « انهم ضخام ، عراض الصدور ، أصحاء . ولكنهم مع ذلك مجانين . »
فقال مانيرا :
– « إن رماة القنابل طوال . »
كانت هذه نكتة . وضحك القوم جميعاً .
– « هل كنت هناك ، أيها الملازم ، يوم رفضوا الهجوم ، فعوقبوا باطلاق الرصاص على الرجل العاشر من كل عشرة منهم ؟ »
– « لا . »
– « هذا صحيح . لقد جعلوهم يقفون ، بعد ذلك صفاً ، وأخذوا منهم كل عاشر . ان القَرَبينيين هم الذين أعدموهم رمياً بالرصاص . »
فقال باسيني وبصق على الارض :

— « القربينيون ! ولكنْ رماة القنابل هؤلاء ... وكلهم يزيد طوله على ستة أقدام . لقد رفضوا أن يهاجموا . »

فقال مانيرا :

— « لو رفض كل امرىء ان يهاجم لانتهت الحرب . »

— « لم يكن الأمر كذلك مع رماة القنابل . كانوا خائفين . إن جميع ضبّاطهم ينتسبون الى أسر راقية جداً ! »

— « لقد انطلق بعض ضباطهم الى الهجوم بمفردهم . »

— « وقد قتل رقيبٌ ضابطين رفضا الزحف . »

— « ولكن بعض الجنود زحفوا . »

— « ان أولئك الذين زحفوا لم يُوَقّفوا صفاً عندما أطلقوا النار على كل رجل عاشر . »

فقال باسيني :

— « ان واحداً من أولئك الذين صرعهم القَرَبينيون هو من بلدتي. كان فتىً أضخم وأذكى وأطول من ان ينتسب الى رماة القنابل ! كان دائماً في رومة . دائماً مع البنات . ودائماً مع القربينين . »

وضحك ثم أضاف :

— « واليوم يقيم خارج منزله حرسٌ يحمل حربة ، وليس في استطاعة أحد ان يذهب ويزور أمه وأباه وأخواته . وقد خسر أبوه حقوقــــه المدنية . لقد حرموه حق التصويت في الانتخابات . ولقد فقدوا جميعـاً حماية القانون . إن أي امرىء يستطيع ان يستولي على ممتلكاتهم . »

— « لو لم يكن ذلك هو مصير عائلاتهم لما اندفع أحد الى الهجوم. »

— « بلى . ان الجنود الالبيين يندفعون . وجنود الـ **V.E** ايضاً . وكذلك بعض البرساغليري . »

— « لقد فرّ البرساغليري من الميدان أيضاً . انهم الآن يحاولون أن يَنْسوا ذلك » .

فقال باسيني متهكماً :

— « ينبغي ان لا تتركنا نتحدث على هذا النحو ، أيها الملازم : مرحى للجيش ! »

فقلت :

— « أنا أعرف طريقتكم في الكلام . ولكن ما دمتم تسوقون السيارات وتسلكون ... »

وختم مانيرا العبارة بقوله :

— ... وتفعلون ذلك من غير أن يسمعكم الضباط الآخرون . »

فقلت :

— « أعتقد أن علينا ان نضع حداً لهذه الحرب . انها لن تنتهي اذا ما كفّ جانب واحد عن القتال . ان الحال لن تزداد الا سوءاً اذا أوقفنا القتال . »

فقال باسيني في احترام :

— « انها لا يمكن ان تزداد سوءاً . فليس ثمة شيء أسوأ من الحرب . »

— « الهزيمة أسوأ . »

فقال باسيني في احترام أيضاً :

— « لست أعتقد ذلك . ما هي الهزيمة ؟ كل امرىء يرجع الى بيته . »

— « إنهم يتعقّبونك . انهم يأخذون بيتك . انهم يأخذون أخواتك . »

فقال باسيني :

— « لا أصدق ذلك . انهم لا يستطيعون ان يفعلوا هذا لكل انسان . فليدافع كل امرىء عن بيته . فليُبقوا أخواتهم في البيت . »

— « انهم يشنقونك . إنهم يجيئون ويُكرهونك على الدخول في الجندية من جديد . ليس في سيارة الاسعاف ، ولكن في فرقة المشاة . »

— « انهم لا يستطيعون ان يشنقوا جميع الناس . »
فقال مانيرا :
— « الدولة الاجنبية لا تستطيع إكراهك على القتال . لأن الجنود سوف يفرّون جميعاً منذ المعركة الأولى . »
— « كما فعل التشيكيون . »
— « أعتقد انك لا تعرف شيئاً عن حقيقة الانهزام ، ومن أجل ذلك تحسبه شيئاً غير رديء . »
فقال باسيني :
— « أيها الملازم ، نحن نعرف جيداً انك تجيز لنا ان نتكلم . إسمعْ. ليس ثمة شيء اسوأ من الحرب . ونحن ، في سيارات الاسعاف ، لا نستطيع أبداً أن ندرك مبلغ سوئها . وحين يدرك الناس مبلغ سوئها يعجزون عن صنع ايما شيء لوقفها لأنهم يصبحون مجانين . إن هناك بعض الناس الذين لا يدركون أبداً . وهناك بعض الناس الذين يخافون من ضباطهم . وهؤلاء هم الذين تُصنَع بهم الحرب . »
— « أنا أدري انها سيئة ، ولكن علينا ان ننهيها . »
— « إنها لا تنتهي . ليس ثمة نهاية للحرب . »
— « بلى ، هناك نهاية . »
وهزّ باسيني رأسه .
— « الحرب لا تُكسب بالنصر . إذ أي فائدة نجنيها اذا استولينا على سان غابرييل ؟ وأي فائدة نجنيها اذا استولينا على الكارسو ، ومونفالكوني ، وترييستا ؟ ان ذلك لن يفيدنا شيئاً . هل رأيت جميع الجبال القصية اليوم ؟ هل تعتقد ان في ميسورنا أن نستولي عليها جميعاً ايضاً ؟ ان ذلك لن يتم لنا إلا اذا كفّ النمساويون عن القتال . ينبغي ان يكف جانبٌ عن القتال. لماذا لا نوقف نحن القتال ؟ إنهم اذا نزلوا الى ايطاليا استبدّ بهم التعب و رجعوا من حيث أتوا . إن عندهم وطناً خاصاً بهم . ولكنْ لا ، إننا بدلاً من ذلك نتسلى بخوض الحرب ! »

— « أنت تتكلم وكأنك خطيب : »

— « نحن نفكر. نحن نقرأ . اننا لسنا فلاحين . نحن ميكانيكيون ، ولكنْ حتى الفلاحون أذكى من أن يؤمنوا بالحرب . إن كل إنسان يكره هذه الحرب . »

— « ان ثمة طبقة بلهاء تسيطر على البلاد ، طبقة لا تفهم شيئاً ولا تستطيع أن تفهم شيئاً أبداً . وهذا هو السبب الذي من أجله نخوض هذه الحرب . »

— « وهم يكسبون الثروات من ورائها أيضاً . »

فقال باسيني :

— « معظمهم لا يكسب ثروة . انهم بلهاء أكثر مما ينبغي . إنهم يفعلون ذلك للاشيء . من أجل البلاهة . »

فقال مانيرا :

— « يجب ان نخرس . اننا نتحدث أكثر مما ينبغي حتى بالنسبة الى الملازم . »

فقال باسيني :

— « انه يحبّ ذلك . سوف نقنعه . »

فقال مانيرا :

— « ولكن علينا ، مؤقتاً ، أن نخرس . »

فتساءل غافوتزي :

— « ولكن متى سوف نأكل ، أيها الملازم ؟ »

فقلت :

— « سأذهب وأرى . »

ونهض غورديني وخرج معي قائلاً :

— « هل ثمة شيء أستطيع أن أفعله ، أيها الملازم ؟ هل أستطيع أن أساعدك بطريقة ما ؟ »

كان هذا أهدأ الاربعة . فقلت :

— « تعال معي اذا شئت ، وسوف نرى . »

كان الظلام قد خيم في الخارج ، وكان النور الطويل المنبعث من الاضواء الكشافة يتحرّك فوق الجبال . كان ثمة أضواء كشافة ضخمة في تلك الجبهة محمولة على شاحنات . وكنت تجتاز بها ليلاً ، في بعض الاحيان ، على الطرق ، غير بعيد من خطوط القتال . وقد وقفت الشاحنة في ناحية من الطريق ، وشرع أحد الضباط يوجّه الضوء وسط رجاله المذعورين . واجتزنا مصنع القرميد ، ووقفنا عند مركز الاسعاف الرئيسي . كان ثمة ، في الخارج ، ملاذٌ صغير من أغصان خضراء فوق المدخل ، وفي الظلام حرّكت ريح الليل أوراق الاشجار التي جفّفتها الشمس فسُمع لها حفيف . وكان في الداخل ضوء . وكان الماجور يتحدث بالتلفون ، قاعداً على صندوق . وقال لي طبيب من الضباط إن موعد الهجوم قد قُدّم ساعة واحدة . وقدّم إليّ كأساً من الكونياك. وعلى الالواح الخشبية التي جُعلت طاولات ، رأيت الأدوات تلتمع في النور ، والطسوت والزجاجات المسدودة . ووقف غورديني خلفي . ونهض الماجور وقال :

— « سوف يبدأ الهجوم الآن . لقد أعيد الى موعده السابق . »

ونظرتُ الى الخارج . كان الظلام مخيّماً ، وكانت أضواء النمساويين الكشّافة تتحرك ، خلفنا ، فوق الجبال . ودام الهدوء لحظات أخرى ، وبعد ذلك انطلقت النيران من جميع المدافع وراءنا .

وقال الماجور :

— « سافوى. »

فقلت :

— « أحبّ أن أسألك عن الحساء . أيها الماجور . »

ولم يسمعني . فكرّرتُ كلامي فأجاب :

— « إنها لم تأتِ بعد . »
وسقطت قنبلة ضخمة وانفجرت خارج مصنع القرميد . وعقب ذلك انفجار قنبلة أخرى ، وفي غمرة من الدويّ كان في استطاعتك ان تسمع جلبة القرميد والتراب وكأنهما مطر منهمر .
— « وهل عندكم طعام آخر ؟ »
فقال الماجور :
— « عندنا قليل من الباستا آسيوتا . » *
— « سوف آخذ ما تستطيع أن تعطيني اياه . »
وتحدث الماجور الى أحد الجند ، فما كان من هذا الا ان توارى عن البصر لحظة ثم رجع حاملاً وعاءً معدنياً مليئاً بالمعكرونة المطبوخة الباردة. ودفعتُ الوعاء الى غورديني :
— « هل عندكم شيء من الجبن ؟ »
فتكلّم الماجور ، في تبرم ، مع الجندي ، الذي غار في الخندق كرة أخرى ثم عاد حاملاً أوقية من الجبن الابيض .
فقلت :
— « شكراً جزيلاً . »
— « من الخير لك ان لا تخرج . »
كان رجلان قد وضعا شيئاً أمام المدخل . ونظر أحدهما الى الداخل. وقال الماجور :
— « أدْخِله . ماذا دهاك ؟ أتعتقد أن علينا أن نخرج بأنفسنا ونجيء به ؟ »
وأمسك حاملا النقّالة الرجل من ذراعيه وقدميه ، وأدخلاه .
فقال الماجور :
— « أمزق الصدرة . »

* طعام يصنع من المعكرونة . (المعرب)

وأمسك بكلاّب في طرفه قطعة من شاش . ونزع الضابطان سترتيهما .
وقال الماجور لحاملَي النقالة :
— « أخرجا من هنا . »
وقلت لغورديني :
— « تعال . »
وقال الماجور من فوق كتفه :
— « من الافضل ان تنتظر حتى ينتهي القصف . »
فقلت :
— « انهم يريدون ان يأكلوا . »
— « كما تريد . »

وما إن خرجنا حتى ركضنا عبر مصنع القرميد . وانفجرت قنبلة على مقربة دانية من ضفة النهر . ثم انفجرت أخرى قربنا انفجاراً مفاجئاً الى حدّ جعلنا لا نكاد نجد متسعاً من الوقت للشعور باقترابها . وانبطحنا كلانا على الارض مدركين ، في وقت واحد ، الوميض وزلزلـــــة الانفجار والرائحة ، سامعين صفير الاجزاء المتناثرة ، وزفير القرميـــد الهاطل كوابل من المطر . ونهض غورديني ووثب نحو الملجأ . وتبعتـــه أنا ، حاملاً قطعة الجبن ، وقد غُطّي سطحها الاملس بمسحوق الآجر . وفي داخل الملجأ كان السائقون الثلاثة يدخنون وقد جلسوا مسندين ظهورهم الى الجدار .

وقلت :
— « هيا ، أيها الوطنيون . »
وسألني مانيرا :
— « كيف وجدت السيارات ؟ »
— « في حال جيدة . »
— « هل أصابك ذعر ، ايها الملازم ؟ »

فقلت :

— « أنت مصيب الى حدّ لعين . »

وأخرجت مديتي ، وفتحتها ، ومسحت شفرتها ، وكشطتُ سطح الجبن الخارجي القذر . وقدّم غافوتزي وعاء المعكرونة اليّ وقال :

— « ابدأ في الاكل ايها الملازم . »

فقلت :

— « لا . ضعهُ على الارض . سوف نأكل جميعاً . »

— « ليس هناك شوكاتٌ . »

فقلت بالانكليزية :

— « وأي بأس في ذلك ؟ »

وقطعت الجبن أجزاء ، ونثرتها على المعكرونة .

وقلت :

— « اجلسوا وكلوا . »

وجلسوا وانتظروا . ووضعت إبهامي وسائر أصابعي في المعكرونة . وانتزعتُ بعضها ، فخرجتُ بكتلة كاملة .

— « إرفعها عالياً ، أيها الملازم . »

ورفعتها أقصى ما أستطيع رفعها ، فتدلّت جدائلها . وخفضتها الى فمي ، ومصصت أطرافها عاضاً عليها بالنواجذ ، ومضغت ؛ ثم قضمت قطعة من الجبن ، ومضغت ، ثم أخذت جرعة من خمر . كان بها مثل طعم المعدن الصدىء . وقدّمت ابريق الخمر الحديدي الكبير الى باسيني ، فقال :

— « إنها عفنة . لقد بقيت زمناً طويلاً في الابريق . كنت أحتفظ بها في السيارة . »

كانوا كلهم يأكلون ، وذقونهم فوق الوعاء مباشرة ، رادّين رؤوسهم الى وراء ، ماصّين أطراف المعكرونة . واخذت لقمة أخرى ،

وشيئاً من الجبن ، وجرعة كبيرة من الخمر . وفي الخارج سقط شيء ما ، فزلزل الارض .

فقال غافوتزي :

– « قذيفة من عيار أربعمئة وعشرين . »

فقلت :

– « ليس هناك أية قنابل من عيار أربعمئة وعشرين في هذه الجبال . »

– « إن عندهم مدافع سكودا كبيرة . لقد رأيت الفجوات . »

– « لديهم قنابل من عيار ثلاثمئة وخمسة . »

وتابعنا الأكل . وسُمِع سُعال ، وضجة أشبه بضجة قاطرة حديدية تنطلق بعد وقوف ، ثم انفجار هزّ الارض كرة أخرى .

وأتيت على حصتي من الجبن ، وأخذت جرعة من الخمر . ومن خلال الضجة الأخرى سمعت سعالاً جديداً ، ثم تشو – تشو – تشو – تشو ، ثم أومض بريق كالذي يومض حين يُفتح باب فرن عال ، فجاءة ، وأخيراً سمعت قصف رعد كان أبيض بادىء الامر ثم استحال الى أحمر تصحَبُهُ ريحٌ عاصفة . وحاولت أن أتنفس . ولكن التنفّس امتنع عليّ ، وأحسست أني أكاد أخرج من جلدي وأخرج وأخرج وأخرج وأن الريح تحملني طوال الوقت على جناحيها . ومن غير وعي انطلقت الى الخارج في خفة ورشاقة ، وأدركت اني قد متّ ، وأن من الخطأ ان يحسب المرء نفسه قد مات وانتهى . ثم اني طفَوْت ، وبدلاً من أن أمضي الى أمام شعرتُ وكأني أنزلق الى وراء . وتنفّست وعدت الى وعيي . كانت الأرض ممزّقة ، وأمام رأسي كانت عارضةٌ خشبية استحالت الى شظايا . وفي التشوّش الذي غلب على رأسي سمعت شخصاً يصيح . لقد حسبتُ ان ثمة شخصاً يعْول . وحاولتُ أن أتحرك ولكني لم أستطع أن أتحرك . وسمعت الرشّاشات والبنادق تطلق نيرانها عبر النهر ، وعلى طول النهر . وتطاير رشاش ماء هائل ، ورأيت

طائفة من القنابل النجمية * ترتفع وتنفجر وتطفو في الهواء ، بيضـاء ناصعة ، ورأيت الصواريخ تعلو وسمعت القنابل ، كل ذلك في لحظة. وبعد هذا سمعت على مقربة دانية مني شخصاً يقول : « آه يا أمي! آه يا أمي ! » وجذبْتُ ، ولوَيتُ ، وحرّرت رجليّ آخر الأمـر ، واستدرت ، ولَمسْتُهُ . كان هو باسيني ، وحين لمستُهُ صرخ .كانت رجلاه مسدّدتين نحوي ، وفي الظلام والضياء المتعاقبين رأيت أنهما كلتيهما مسحوقتان فوق الركبة . كانت احدى الرجلين مبتورة ، ولم يكن يمسك الأخرى غيرُ بعض الأوتار العضلية وجزء من البنطلون ، وكانت أرومة الرجل تختلج وتهتز وكأنها غير متصلة البتّة . وعضّ ذراعه وانتحب : « آه يا أمي ، آه ، يا أمي » ثم أضاف : « ايـه يا يسوع ! أجهز عليّ ايها المسيح . اجهزي عليّ يا مريم . يا مريم العذراء القدسية أجهزي عليّ . ضعا حداً لهذا . ضعا حداً له . ضعا حـداً له . أوه يا يسوع ، يا مريم القدسية ، ضعا حداً له . أوه ، أوه ، أوه ؛ » وأخيراً قال في صوت مختنق : « ماما ميبا ! ماما ميبا ! » ثم رانت عليه السكينة ، وقد عضّ على ذراعه ، واختلجت أرومـة رجله .

وصحت جاعلاً من كفيّ شبه قمع :

– « يا حاملي الجرحى ! يا حاملي الجرحى ! »

وحاولت أن أدنو من باسيني لكي أضع على رجليه ضماداً يوقـف نزف الدم ، ولكني لم أستطع أن اتحرك . وحاولت من جديد ،فتحركت رجلاي قليلاً . واستطعت ان أتراجع الى الوراء مستعيناً بذراعيّ ومرفقيّ. كان باسيني ساكناً الآن . وقعدت الى جانبه ، وفككت ازرار صدرتي ، وحاولت ان أمزق ذيل قميصي . ولكنه امتنع على المزق ، فعضضت

* Star — Shells ضرب من القنابل ينطلق منه، عند انفجاره ، وابل من النجوم اللامعة. (المعرب)

على طرف القماش تيسيراً لمزقه . ثم اني فكرت في العصابة التي تغطي رَبْلة ساقه . كنت أنا أرتدي جورباً صوفياً ، ولكن باسيني كان يرتدي عصابتَيْ ساق . وكان جميع سائقي السيارات يرتدون مثل هذه العصائب ، ولكن باسيني كان ذا رجل واحدة . وحللت العصابة ، وفيما أنا أقوم بذلك رأيت أنه ليس ثمة حاجة الى تضميد رجله لأنه كان قد مات . واستيقنت انه مات فعلاً . وكان عليّ الآن ان أبحث عن الثلاثـة الآخرين . فجلست متصدراً ، وفيما أنا افعل ذلك تحرك شيء في داخل رأسي مثل الاثقال التي تُشَدّ الى عيني الدمية ، وضربني على مؤخـرة حدقتَيْ عينيّ . واستشعرت ان قدميّ ساخنتان رطبتان ، وكان حذائي رطباً وساخناً من الداخل . وعرفت اني قد جُرحت ، فانحنيت الى أمام ووضعت يدي على ركبتي ، ولكن ركبتي لم تكن هناك . ان يدي لم تقع الا على فراغ ، ولقد كانت ركبتي قد انحدرت فوق عظم ساقي الاكبر . ومسحتُ يدي بجانب من قميصي . وسقط ضياء آخرُ عائمٌ سقوطاً بطيئاً ، ونظرت الى رجلي ، فاستبد بي ذعرٌ شديد . وقلت : « أوه ، يا إلهي ، أخرجني من هنا . » لقد عرفت ، مع ذلك ، أنه كان ثمة ثلاثة آخرون . كان هناك أربعة سائقين . ولقد مات باسيني ، فبقي ثلاثة . وأمسك بي شخص ما ، من تحت ذراعي ، ورفع شخص آخر رجليّ .

وقلت :

— « هناك ثلاثة آخرون . لقد مات واحد . »

— « هذا أنا ، أنا مانيرا . لقد حاولنا أن نبحث عن نقّالة ولكنا لم نجد . كيف أنت ، أيها الملازم ؟ »

— « أين غورديني وغافوتزي ؟ »

— « غورديني في مركز الاسعاف حيث تضمّد جراحه . أمـا غافوتزي فهو الذي يُمسك برجليك الآن . تشبّث بعنقي ، ايها الملازم.

هل أصبت بجرح خطير ؟ »
— « في رجلي . كيف حال غورديني ؟ »
— « في خير . لقد كانت قنبلة كبيرة من قنابل مدافع الخنادق . »
— « لقد مات باسيني . »
— « أجل . لقد مات . »
وسقطت قنبلة على مقربة منا . فأفلتاني وانبطحا على الارض . وقال مانيرا :
— « أنا آسف ، ايها الملازم ، تشبّثْ جيداً برقبتي . »
— « اذا أفلتّني مرة ثانية ... »
— « كان ذلك لأن الرعب غلب علينا . »
— « ألم تصابا بجراح ؟ »
— « لقد أصيب كل منا بجراح بسيطة . »
— « هل يستطيع غورديني ان يسوق ؟ »
— « لست أظن ذلك . »
وطرحاني على الارض كرة ثانية . قبل ان نصل الى مركز الاسعاف . وقلت :
— « يا لكما من ابنَيْ زنا ! »
فقال مانيرا :
— « أنا آسف أيها الملازم . إننا لن نطرحك على الارض مرة ثانية . »
وأمام مركز الاسعاف وُضع عدد كبير منا على الارض ، تحت جنح الظلام . لقد أدخلوا الجرحى الى المركز وأخرجوهم منه . وكان في ميسوري أن أرى الضوء ينبثق من مركز الاسعاف كلما أزيحت الستارة وأدخلوا جريحاً أو أخرجوا جريحاً . كان الاطباء يعملون واردانهم مرفوعة حتى أكتافهم ، وكانوا حمراً كالجزّارين . لم يكن ثمة قدْرٌ كافٍ من النقالات . وكان بعض الجرحى كثيري الصخب ، ولكن

معظمهم كانوا هادئين . وفوق باب المركز، أثارت الريح أوراق الشجر التي تظلل المدخل . كان الليل قد أخذ يبرد ، وكان حملة النقالات يفدون على المركز على غير انقطاع ، فيضعون نقالاتهم على الارض ، ويفرغونها ثم يمضون لسبيلهم . وما إن وصلت الى مركز الاسعاف حتى اصطحب مانيرا رقيباً ممرّضاً فلفّ كلتا رجليّ بالعصائب . لقد قال لي ان مقداراً كبيراً من التراب قد تسرّب الى الجرح، وان هذا التراب هو الذي وفّر عليّ كثيراً من النزف . إنهم سوف يُعنْون بأمري في أسرع وقت ممكن . وإنه يعرف كيف يسوق السيارة . كان البريطانيون قد أقبلوا بثلاث من سيارات الاسعاف ، وكانوا يحملون على كلّ منها رجلين . كان جالساً الى جانب أحد الجدران الآجرية . وخرج كل من مانيرا وغافوتزي مثقلاً بحمل من الجرحى . ثم عادا فدخلا المركز من جديد . وقال لي مانيرا إن غورديني لا يستطيع أن يقود السيارة . كانت كتفه قد سُحقت ، وكان رأسه قد جُرح . إن ذلك لم يكن يؤلمه في بادىء الامر ، ولكن كتفه كانت الآن قد تصلّبت . واقترب نحوي أحد السائقين البريطانيين ، يقوده غورديني الذي بدا شديد الشحوب ، مريضاً . وانحنى البريطاني فوقي وسألني :

— « هل أصبت بجرح خطير ؟ »

كان رجلاً فارع الطول، وكان يضع على عينيه نظارة ذات حاشية فولاذية . وأجبته قائلاً :

— « في ساقيّ . »

— « أرجو أن لا تكون اصابتك خطيرة . تفضل وخذ سيكارة . »

— « شكراً . »

— « يقولون لي انكم خسرتم سائقين . »

— « نعم . أحدهما قتل . وثانيهما هو الذي قادك اليّ . »

— « يا للحظ السيء ! هل ترغب في أن نأخذ السيارتين ؟ »

— « ذلك هو ما رغبت في ان أكلفكم القيام به . »

— « سوف نعنى بهما عناية حسنة ، ونعيدهما الى الدارة : أنستة تحيا في رقم ٢٠٦ أليس كذلك ؟ »

— « نعم . »

— « إنه مكان ساحر . لقد رأيتك هناك . يقولون لي إنك أميركي . »

— « نعم . »

— « أنا انكليزي . »

— « لا ؟ »

— « أجل ، انكليزي . هل ظننت اني ايطالي ؟ لقد كان هناك بعض الايطاليين مع احدى وحداتنا . »

فقلت :

— « يسرّني جداً أن تتمكنوا من أخذ السيارتين : »

فتصدّر وقال :

— « سوف نعنى بهما أعظم العناية . إن فتاك هذا كان شديد الحرص على ان يجمعني بك . »

وربت على كتف غورديني . وارتدّ غورديني مجفلاً وابتسم : وشرع الرجل الانكليزي يتحدث في ذرابة ، بلسان ايطالي مبين :

— « كل شيء قد رُتّب الآن . لقد رأيت ضابطك . سوف نقود السيارتين . لا داعي بعدُ للقلق . »

قالّ ذلك ثم أضاف :

— « يتعيّن عليّ أن أعمل شيئاً من أجل اخراجك من هنا . سوف أرى السلطات الطبية . سوف نرجعك معنا . »

ومضى نحو مركز الاسعاف ، ماشياً في احتراس بين الجرحى . ورأيت الستارة تُزاح . وانبجس النور ، ودخل الرجل الانكليزي المركز.

وقال غورديني :

— « سوف يعنى بأمرك ، أيها الملازم . »

– « كيف انت يا فرانكو ؟ »

– « في خير . »

وقعد الى جانبي . وما هي الا لحظة حتى أزيحت ستارة المركز ، وخرج اثنان من حملة النقالات يتبعهما الانكليزي الفارع الطول . لقد قادهما نحوي .

وقال بالايطالية :

– « ها هو الملازم الاميركي . »

فقلت :

– « إني أفضل أن أنتظر . ان جراحات الآخرين أخطر من جرحي بكثير . أنا في حال جيدة . »

فقال :

– « هيا ، هيا . لا تكن بطلاً لعيناً . »

ثم أضاف بالايطالية :

– « ارفعاه من قدميه في عناية بالغة . إن رجليه تؤلمانه كثيراً . إنه ابنُ الرئيس ولسون الشرعي . »

ورفعاني وأدخلاني الى مركز الاسعاف . وفي الداخل كان الاطباء يجرون العمليات الجراحية على الموائد كلها . ونظر الي المايجور الضئيل الجسم نظرة هائجة . وعرفني ، فلوّح لي بالكلاّب .

– « هل أنت بخير ؟ »

– « أجل ، بخير . »

وقال الرجل الانكليزي الفارع الطول باللغة الايطالية :

– « اني أنا الذي أدخلته الى هنا . انه الابن الوحيد لسفير الولايات المتحدة . في استطاعته ان ينتظر ريثما تفرغون للاهتمام به ، وعندئذ أنقله في أول سيارة من سياراتنا التي تنقل الجرحى من هنا . »

وانحنى فوقي وأضاف :

— « سوف أذهب وابحث عن سكرتيرهم لأنجاز أوراقك . ذلك أدعى الى السرعة . »

وطأطأ رأسه لكي لا يصطدم بأعلى الباب ، ومضى لسبيله . كان الماجور يفكّ كلابته ، الآن ، ليضعها في حوض ؛ وتابعتُ حركاته بناظريّ . كان يعصب العصائب ، الآن . ثم ان حمَلة النقالات رفعوا الرّجُل عن المائدة .

وقال أحد الاطباء العسكريين :

— « سوف أعنى بالملازم الاميركي الآن . »

وحملوني الى المائدة . كانت قاسية وزَلِقَة . وكان ثمة كثير من الروائح القوية : روائح كيميائية ، ورائحة الدم الزكية . ونزعوا بنطلوني ، وشرع الكابتن الطبيب يملي على مساعده فيما هو يتابع العمل: « جراح متعدّدة وسطحية في الفخذين اليسرى واليمنى . وفي الركبتين اليسرى واليمنى والقدم اليمنى . جراح عميقة في الركبة اليمنى والقدم اليمنى . تمزّقٌ في جلدة الرأس (وجسّ — هل تشعر بألم ؟ يا إلهي ، نعم !) مع إمكانية كسْر في الجمجمة . ولقد أصِبت بهذا كله فيما كنت تؤدي واجبك . وهذا ما ينقذك من المثول أمام المجلس العرفي بتهمة تعريض نفسك للأذى على نحو اراديّ . ما رأيك في كأسٍ من البراندي ؟ وكيف أقحمت نفسك في هذا البلاء ، على أية حال ؟ ما الذي كنت تحاول أن تفعله ؟ أن تنتحر ؟ قليلاً من مضاد الكزاز (آنتيتيتانوس) من فضلك ، وارسم صليباً على كلتا الرجلين . أشكرك، سوف أنظف هذا كله قليلاً ، وأغسله ، وأضمّده . ان دمك يتخثّر على نحو رائع . »

ورفع المساعد رأسه عن الورق ، وسأل :

— « ما الذي سبّب الجراح ؟ »

فقال الطبيب :

— « ما الذي جرحك ؟ »

فقلت وأنا مغمض العينين :

— « قنبلة من أحد مدافع الخنادق . »

فقال الطبيب ، وهو يقوم بأشياء آلمتني ايلاماً شديداً ويقصّ أنسجة جسدي :

— « هل أنت واثق من ذلك ؟ »

فأجبت ، محاولاً ان أحتفظ بسكينتي ، ومستشعراً أن معدتي ترفرف كلما شرط اللحم :

— « أظن ذلك . »

فقال الطبيب وقد أثار اهتمامه شيء اكتشفه :

— « شظايا قنبلة من قنابل مدافع العدو الخاصة بالخنادق . سوف ابحث الآن عن بعض هذه ، اذا شئت . ولكن هذا غير ضروري. ولسوف أطلي ذلك كله و — هل يؤلمك هذا ؟ حسن ، ذلك ليس شيئاً بالقياس الى ما ستشعر به في ما بعد . إن الالم لم يبدأ بعد . إيتوه بكأس من البراندي . ان الصدمة تخدّر الألم . ولكن لا بأس ، وليس ثمة ما يدعوك الى القلق اذا لم يتطرق الفساد الى الجرح ، وإمكان ذلك ضئيل الآن . كيف رأسك ؟ »

فقلت :

— « أوه ، يا إلهي ! »

— « من الأفضل ان لا تسرف في شرب البراندي إذن . فـاذا كنت مصاباً بكسر في الجمجمة فيجب ان تحذر الالتهاب . هل تحسّ بألم في الرأس ؟ »

وسال العرق فوق جسدي كله ، وقلت :

— « يا إلهي ! »

— « أحسب انك مصاب بكسر في الجمجمة . سوف أعصبك ،

فلا تحرّك رأسك . »

وعصبَ رأسي ، كانت يداه تتحركان في سرعة بالغة ، فاذا بالعصابة مُحكمة مكينة .

وقال :

— « حسن . أتمنّى لك حظاً سعيداً ، ولتحيَ فرنسة ! »

فقال أحد الضباط الآخرين :

— « انه اميركي . »

فقال الطبيب :

— « حسبت انك قلت إنه فرنسي . إنه يتكلم الفرنسية . لقد عرفته من قبل. ولقد كنت دائماً أظنه فرنسياً . »

وتجرّع نصف كأس من الكونياك ، وأضاف :

— « إيتوني بمقدار إضافي من مضادّ الكزاز » (آنتيتيتانوس) .

وأومأ الكابتن الطبيب بيده . فرفعوني ، فمسّت ستارة المدخل وجهي ونحن نغادر المكان . وفي الخارج ، ركع المساعد على مقربة مني ، وسألني في رقة :

— « اسمك ؟ اسمك الاوسط ؟ اسمك الأول ؟ رتبتك ؟ مكان ولادتك ؟ السنة التي جُنّدت فيها ؟ في أية فرقة ؟ » الخ .... « أنا متأسف لما أصاب رأسك ، أيها الملازم . أرجو أن تكون حالك قد تحسّنت . سوف أطلب الى سيارة الاسعاف الانكليزية ان تنقلك من هنا . »

فقلت :

— « أنا بخير . أشكرك كثيراً . »

كان الالم الذي تحدث عنه الكابتن الطبيب قد بدأ ، وكان كل ما يجري لا يلفت اهتمامي البتة . وبعد برهة ، أقبلت سيارة الاسعاف الانكليزية ، فوضعوني على نقالة ،ورفعوا النقالة إلى مستوى السيارة ودفعوا بها إلى الداخل . كانت إلى جانبي نقالة أخرى عليها رجلٌ

استطعت أن أرى أنفَهُ الشمعيّ اللون من خلال العصائب والضمادات . كان يتنفس في عُسْر بالغ . وكانت ثمـة نقّالات تُرْفع وتدفع في الحمائل المعلّقة فوقي ، وأقبل السائق الانكليزي الفارع الطول وألقـى نظرةً على الداخل ، وقال :

— « سوف أقود السيارة في هدوء كثير . أرجو أن يريحك ذلك . »

وأحسست بالمحرك يدور ، وأحسست بالسائق يمتطي متن العربـة ليحتلّ المقعد الأمـامي ، وأحسست بالمكبـح يُرْخَى ، وبالدوبريياج يُداس ، ثم انطلقنا ، والتزمت الهدوء ، واستسلمت للألم .

وبسبب من نشاط حركة المواصلات صعّدت السيارة في بطء . كانت تتوقف عن المسير حيناً ، وترتدّ على عقبها عند احد المنعطفات. وأخيراً استطاعت أن تصعّد في سرعـة بالغـة . واستشعرتُ شيئاً يَقْطر . لقد قطَرَ باديءَ الأمر في بطء وفي انتظام ، ثم تحوّل إلى جدول . وناديت السائق . فأوقف السيارة ، ونظر إلى الداخل من خلال الثقب الذي وراء مقعده :

— « ما المسألة ؟ »

— « الرجل الممدّد فوقي على النقالة مصاب بنزف . »

— « عمّا قليل نصل إلى القمة ؛ أنا لا أستطيع إخراج النقـّالة وحدي . »

وأدار المحرّك . واستمرّ الجدول في جريانه ؛ وفي الظلام ، لم أستطع أن اتبيّن من أية ناحية من القماش الذي فوق رأسي تفجـّر ذلك الجدول . وحاولت ان ابتعد إلى جانب ، لكي لا يسقط عليّ . وكان المـكان الذي سال فيه ، تحت قميصي ، حاراً ودَبقاً . وكنت أنا أشعر بالبرد ، وكانت رِجلي تؤلمني إلى درجـة خشيتُ معهـا من الأغماء . ومـا هي إلاّ لحظـة حتى تضاءل السيل المتحدّر من النقـّالة

التي فوقي ، وتحوّل إلى قطراتٍ ضئيلة ، وسمعت القماش يتحرك فوقي بينما كان الرجل الممدد على النقالة يخلد إلى السكينة .

وسألني الرجل الانكليزي :

– « كيف حاله ؟ لقد كدنا نبلغ القمة . »

وقلت :

– « لقد مات ، على ما أظن . »

وتساقطت القطرات في بطء شديد ، كما تسقط من دُلْدُوْلٍ جليديّ بعد غياب الشمس . كان الجوّ في السيارة بارداً ، في الليل ، فوق تلك الطريق الآخذة في الارتفاع . وفي مركز الاسعاف ، عند القمة ، أخرجوا النقالة ، ووضعوا غيرها مكانها ، وتابعنا سيرنا :

الفصل العاشر

وفي القاعة التي أنزلت بها في مستشفى الميدان أخبروني أن شخصاً سوف يزورني بعد الظهر . كان يوماً قائظاً ، وكان في الغرفة عدد كبير من الذباب . كان ممرّضي قد أعدّ قصاصات طويلة من الورق ، وشدّ هذه القصاصات إلى عصا لكي يتّخذ منها منفضة لأقصاء الذباب . وراقبْتُ الذباب وهو يستقرّ على السقف . وحين كفّ عن تحريك منفضته واستسلم للرقاد هبط الذباب فنفخت عليه اذوده عني ، وأخيراً غطيت وجهي بيديّ واستسلمت للرقاد أيضاً . كان الجو قائظاً جداً ، وحين أفقت حكّتني رجلاي : وأيقظتُ الممرّض ، فصبّ بعض الماء المعدني على الضمادات . وهذا ما جعل السرير رطباً وبارداً : وكان الأيقاظ من زملائي الجرحى يتبادلون الحديث من أقصى القاعة إلى أقصاها . وكان الاصيل وقتاً هادئاً . وفي الصباح كان ثلاثة ممرّضين وطبيب يفدون علينا فيعودون كلاً من الجرحى بدوره ويخرجونه من سريره وينقلونه إلى حجرة التضميد بحيث يكون في الأمكان تسوية السّرر فيما هم يضمّدون جراحاتنا . ولم يكن الانتقال إلى حجرة التضميد رحلة لطيفة ، ولم أعرف إلاّ في ما بعد أن في الامكان تسوية السّرر من غير أن يغادرها المرضى . وكان ممرّضي قد أنهى صبّ الماء ، فأذا بالفراش باردٌ محبّب . وكنت

أدلّه على المواضع الـتي ينبغي له أن يحكّها من أخمص قدميّ عندما دخل عليّ احـد الاطبـاء مصطحباً رينالدي . وهرع رينالدي نحوي ، وانحنى فوق السرير ، وقبّلني . لقـد لاحظت انـه كـان يلبس قفازين .

– « كيف أنت ، أيها الطفل ؟ كيف تشعر الآن ؟ لقد جئتك بهذه .... »

كانت زجاجة كونياك . وجاءه الممرّض بكرسيّ ، فجلس عليه وأضـاف :

« ... وبأنباء سارّة . سوف يُنعَم عليك بوسام . إنهم يريدون أن يمنحوك المدالية الفضية ، ولكن من الجائز ان لا يوفقوا إلى أكثر من الحصول على المدالية البرونزية . »

– « وعلام هذا التكريم ؟ »

– « لأنك أصبت بجراح بليغة . وهم يقولون انك إذا استطعت أن تُثبت انك قمت بعمل بطولي فعندئذٍ يكون في إمكانك الفوز بالمدالية الفضية . وإلا مُنحت البرونزية ليس غير . قل لي ما الذي حدث تماماً . هل قمت بأيما عمل بطولي ؟ »

فقلت :

– « لا . لقد نُسِفتُ ونحن نأكل الجبن . »

– « كن جاداً . لا بدّ انك قمت بعمل بطولي ما ، سواء قبل أو بعد . تذكّرْ جيداً . »

– « لم أقم بشيء من ذلك . »

– « ألم تحمل أحداً على ظهرك ؟ غورديني يقول انك حملتَ كثيراً من النـاس على ظهرك ، ولكن الماجور الطبيب في مركز الاسـعاف الأول يصرّح بأن هـذا مستحيل . إن عليه أن يوقّـع اقـتراح الأنعـام . »

— « أنا لم أحمل أحداً : لقد كنت عاجزاً عن الحركة . »
فقال رينالدي :
— « هذا لا يقدم ولا يؤخر . »
ونزع قفازيه : وأضاف :
— « أنا أعتقد أن في استطاعتك ان تفوز بالمدالية الفضية : ألم ترفض أن تَنعم بالمساعدة الطبية قبل الآخرين ؟ »
— « في غير كثير من الأصرار . »
— « هذا لا يقدم ولا يؤخر . تذكّر الجرح البليغ الذي أصبت به . تذكّر إصرارك الجريئ على أن تكون في الخطّ الأول دائماً ؛ وإلى هذا فالهجوم كان ناجحاً . »
— « أوه ، هل وفّقوا إلى عبور النهر ؟ »
— « على نحو مدهش . وقد أسروا نحواً من ألف رجل : كل هذا مذكور في البلاغ الرسمي . ألم تطّلع عليه ؟ »
— « لا . »
— « سوف آتيك به ؛ لقد كان هجوماً موفقاً . »
— « وكيف تجري الأمور ؟ »
— « على نحو رائع . نحن كلنا رائعون : وكلّنا فخورون بك . قل لي على وجه الضبط كيف حدث ذلك ؛ أنا واثق أنك سوف تفوز بالمدالية الفضية . هيّا ، أخبرني : أخبرني كل شيء عن ذلك : »
وتمهّل قليلاً وأنشأ يفكر ثم أردف :
— « لعلك ان تنال مدالية انكليزية أيضاً . لقد كان هناك رجل انكليزي . سوف اذهب وأراه وأسأله أن يقترح الأنعام عليك . لا بد أن يكون قادراً على عمل شيء . هل تتوجع كثيراً ؟ خذ كأساً . أيها الممرّض ، اذهب وائتِ بفتّاحة . أوه ، يجب أن ترى ماذا

فعلتُ في انتزاع ثلاثة أمتار من المعي الدقيق ، وخبر البرّ عاجله . إنها شيء جديد بأن ينشر في مجلة « لانسيت » Lancet . أنت تقوم بالترجمة وعندئذ أبعثُ بهـا إلى مجلة « لانسيت » . انا احرز كل يوم تقدماً . كيف تشعر الآن ، ايهـا الطفل العزيز المسكين ؟ أين تلك الفتّاحة اللعينة ؟ انت شجاع جداً ، وهاديءٌ جداً ، وإني لأنسَى انك تتوجع . »

وضربَ حافة السرير بقفازيه .

وقال الممرّض :

— « ها هي الفتّاحة ، يا سيدي الملازم . »

— « إفتح الزجاجة . هات كأساً . إشرب هذا ، أيها الطفل . كيف رأسك المسكين ؟ أنت غير مصاب بأي كسر في الجمجمة . لقد كان المابجور الذي في مركز الاسعاف الاول ، ذاك ، جزاراً من جزاري الخنازير . ولو كنت مكانه لما انزلت بك أيّ أذى . أنا لا أوجعُ احداً البتة . أنا اعرف كيف أقوم بهـذه المهمة . وكل يوم أتعلّم كيف أحسن صنع الأشياء في رشاقة وإتقان متزايدين . يجب أن تعذرني على هذا الهذر كله ، ايها الطفل . فقد أثّر في نفسي كثيراً أن أراك جريحاً على هـذه الشاكلة الخطرة . خذ ، اشرب هذا . إنهـا خمر جيدة . ان ثمنهـا خمسة عشر ليراً . وكيف لا تكون جيدة وهـذا ثمنها ؟ ! خمسة نجوم . إني بعد ذهابي من هنا سأقصـد لرؤيـة ذلك الانكليزيّ ، ولسوف يساعدك على الفوز بمدالية انكليزية . »

— « إنهم لا ينعمون بالمداليات على هذا النحو . »

— « أنت متواضع أكثر مما ينبغي . سوف أبعث ضابط الارتباط . ان في استطاعته أن يقنع الانكليزي . »

— « هل رأيت مس باركلي ؟ »

— « سوف أجيءُ بها إلى هنـا . سوف أذهب الآن وأصطحبهـا

إلى هنا . »

فقلت :

– « لا تذهب . حدّثني عن غوريتزيا . كيف حال البنات ؟ »

– « ليس هناك بنات . إنهم لم يغيّروهنّ منذ أسبوعين . أنا ما عدت أذهب إلى هناك . شيء معيب . إنهن لسن بناتٍ . إنهنّ رفاق سلاحٍ قدماء . »

– « أنت لا تذهب إلى هناك البتة ؟ »

– « أنا أذهب لأرى هل من جديد ، ليس غير . أنا ألمّ بالمكان مجرد إلمام . إنهن جميعاً يسألنني عن أنبائك . من المعيب أن يمكثْنَ هذه المدة كلها حتى يصبحن صديقات . »

– « لعل البنات ما عدن يرغبن في الذهاب إلى الجبهة . »

– « بل انهن يرغبن من غير شك . إن ثمة عدداً كبيراً من البنات . إنها مسألة إدارة رديئة ليس غير ؛ إنهم يحتفظون بهنّ لمتعة المختبئين في الملاجئ القائمة وراء الخطوط . »

فقلت :

– « مسكين انت يا رينالدي . تخوض غمار الحرب وحيداً من غير بناتٍ جديدات . »

وصبَّ رينالدي لنفسه كأساً أخرى من الكونياك .

– « لا أظن أنها ستؤذيك ، أيها الطفل . إشربها . »

وشربت الكونياك ، واستشعرت الدفء حتى أعماق معدتي . وصبّ رينالدي كأساً أخرى . كان أكثر هدوءاً الآن . ورفع الكأس وقال :

– « إلى جراحك الباسلة . إلى المدالية الفضية . قل لي ، أيها الطفل ، حين تستلقي هنا ، طوال الوقت ، في الجو الحارّ ، ألا تثور ثائرتك ؟ »

ـ « بعض الأحيان . »

ـ « لست أستطيع أن أتخيل كيف يقدر المرء على الاستلقاء هكذا ؟ إن ذلك خليق بأن يفقدني صوابي . »

ـ « أنت معتوه . »

ـ « أتمنى لو تعود . فلم أعُدْ أجد من يرجع ليلاً من مغامرات قام بها . ولم أعُدْ أجدُ من أمازحه . ولا من يقرضني مالاً . لم أعُدْ أجدُ أخاً شقيقاً ، ورفيق غرفة : لماذا عرّضْتَ نفسك للجراح ؟ »

ـ « في استطاعتك أن تمازح الكاهن . »

ـ « الكاهن ! لست أنا الذي يُسخر منه .إنه الكابتن . أنا أحبّه. إذا كنت تريد كاهناً فليس أمامك غير ذاك الكاهن . سوف يجيء لزيارتك . إنه يقوم باستعداداتٍ كبيرة . »

ـ « أنا أحبه . »

ـ « أوه ، لقد عرفتُ ذاك . يخيّلُ اليّ في بعض الاحيان انك وهو على هذه الشاكلة إلى حد ما . أنت تدري . »

ـ « لا . ليس هذا صحيحاً . »

ـ « اجل ، اني أفعل في بعض الأحيان . على هذه الشاكلة قليلاً ... مثل رقم الكتيبة الأولى من البريغاتا آنكونا . »

ـ « اوه ، إذهَبْ إلى الجحيم . »

ونهض ، ولَبس قفازيه ، وقال :

ـ « اوه ، أنا أحب أن أناكدك ، أيها الطفل . فعلى الرغم من كاهنك ، ومن فتاتك الانكليزية ، فأنك في أعماقك مثلي تماماً . »

ـ « لا . لست مثلك . »

ـ « بل نحن متماثلان . أنت ايطالي حقاً . كُلّك نارٌ ودخان ولا شيء في الداخل . أنت تتظاهر مجرد تظاهر بأنك أميركي . نحن أخَوان

وإن أحدنا ليحبّ الآخر . »

فقلت :

ــ « كن عاقلاً أثناء غيابي . »

ــ « سوف أبعث اليك بمسّ باركلي . إن سلوكك معها يكون أفضل حين لا أكون أنا موجوداً . أنت أطهر وألطف . »

ــ « أوه ، إذهَبْ إلى الجحيم ! »

ــ « سوف أبعث بها . إلـهتك الرائعة الباردة . إلهتك الانكليزية : يا إلهي ، ما الذي يفعله الانسان مع امرأة كهذه غير تقديسها وعبادتها ؟ لأي شيء غير هذا تصلح المرأة الانكليزية ؟ »

ــ « أنت ايطالي جاهلٌ بذيئ . »

ــ « ماذا ؟ »

ــ « ايطالي جاهل . »

ــ « وأنت ؟ أنت ايطالي ذو وجه جليديّ ... »

ــ « أنت جاهل . معتوه . »

لقد رأيت أن تلك الكلمة قد وخزَتْهُ . فواصلت حَمْلتي :

ــ « عديم الثقافة . عديم التجربة . معتوه بسببٍ من عدم الخبرة . »

ــ « حقاً ؟ سوف أخبرك شيئاً عن نسائك الطيبات . عن إلاهاتك : هناك فرق واحد بين أن تمتلك فتاة كانت دائماً طيبة وبين أن تمتلك امرأة . وهو أن المسألة تكون مؤلمة مع الفتاة : هذا كل ما أعرفه . »

وصفع الفراش بقفازيه ، ثم اردف :

ــ « وليس في استطاعتك أبداً أن تعلم هل ستحبّ الفتاة ذلك حقاً . »

ــ « لا تغضَبْ ! »

— « لست غاضباً . أنا أقول لك هذا ، أيها الطفل ، لمصلحتك ليس غير : لكي أوفّر عليك المتاعب . »

— « أهذا هو الفرق الوحيد ؟ »

— « نعم ، ولكن ملايين من البلهاء مثلك لا يعرفونه .

— « إن إخبارك إياي بهـــذا كلّه ينطوي على كثير من اللطف . »

— « إننا لن نتشاجر ، أيها الطفل . أنا احبك أكثر مما ينبغي . ولكن لا تكن معتوهاً . »

— « لا . سوف أكون حكيماً مثلك . »

— « لا تغضب ، أيها الطفل . اضحك . خذ كأساً . لقد آن لي أن أذهب . »

— « أنت غلام طيب . »

— « الآن أصبْتَ . إننا ، في أعماقنا ، متماثلان . نحن رفيقا سلاح . قبّلني قبلة الوداع . »

— « أنت دَبِق . »

— « لا . أنا شديد المودّة . هذا كل ما في الأمر . »

واستشعرتُ أنفاسه تقترب مني :

— « إلى اللقاء . سأعود لزيارتك في وقت قريب . »

وابتعدت أنفاسه ، وهو يقول :

— « لن اقبّلك إذا كنت غير راغب في ذلك . سوف أبعث اليك بفتاتك الانكليزية . إلى اللقاء ، أيها الطفل . الكونياك تحت السرير . عجّــِلْ في الشفاء . »

ومضى لسبيله .

الفصل الحادي عشر

وعند الغسق وصل الكاهن . كانوا قد جاءوا بالحساء ثم عادوا فأخذوا الآنية ، وكنت مستلقياً انظر إلى صفوف السّرر ، وأتطلّع من خلال النافذة إلى قمة الشجرة التي تمايلت بعض الشيء مع نسيم المساء . وأقبل النسيم علينا من خلال النافذة ، وهبطت الحرارة مع هبوط الليل . كان الذباب على السقف الآن وعلى المصابيح الكهربائية المتدلية على أسلاك . وكانت الأضواء لا تُنار إلاّ عندما يُدْخَل امرؤ ما في الظلام أو عندما يُقام بعمل ما . والواقع أن هبوط الظلام بعد الغسق ثم بقاءَه بعدُ جعلاني أشعر اني رجعت فتىً غضّ الأهاب : كان ذلك أشبه بالأيواء إلى الفراش بعد عشاء مبكر . ودلف الممرّض بين السّرر ، وتوقف . كان يرافقه شخص ما . وكان هذا الشخص هو الكاهن . لقد وقف هناك ضئيلَ الجسم ، أسمر البشرة ، مرتبكاً :

وسألني :

— « كيف حالك ؟ »

ووضع بعض الرزم على الارض ، غير بعيد عن السرير :

— « بخير ، أيها الأب »

وجلس على الكرسي التي جيء بها لرينالدي ، ونظر من خلال النافذة في ارتباك . لقد لاحظت آثارَ التعب الشديد باديةً على وجهه .

وقال :

— « لن أستطيع البقاء غير دقيقة واحدة . لقد تأخرت . »

— « لا يزال أمامك متسع من الوقت . كيف حال رفاقنا الضباط ؟»

فابتسم وأمارات التعب بادية على صوته أيضاً :

— « أنا لا ازال سخريتهم الكبيرة ، أحمد الله على أنهم جميعاً بخير . »

ثم أضاف :

— « يسرني أن تكون أنت بخير ، وأرجو أن تكون في نجوة من الألم . »

لقد بدا مُتْعَباً جداً ، وما كنتُ متعوّداً أن أراه مُتْعباً .

— « لم يبق ثمة أيما ألم . »

— « لقد أوحشني غيابك عن قاعة طعام الضباط . »

— « أتمنى لو أكون هناك . لقد كنت دائماً أجد متعة بالغة في الاستماع إلى حديثك . »

فقال وهو يتناول الرزم :

— « لقد جئتك ببعض الاشياء الصغيرة . هذه ناموسية ، وهذه زجاجة فيرموت . أنت تحبّ الفيرموت ؟ وهذه بعض الصحف الانكليزية . »

— « افتح هذا كله من فضلك . »

وسرّه ذلك وفتح الرزم ، وتناولت الناموسية بيديّ ، ورفع زجاجة الفيرموت حتى أتمكّن من رؤيتها ثم وضعها على الارض بجانب السرير . وأخذت واحدة من الصحف الانكليزية ، واستطعت أن

أقرأ عناوينها الرئيسية بأن أدرتها على نحو يجعل الضياء النصفيّ المتسرّب من النافذة يقع عليها . كانت صحيفة « أخبار العالم » News of the World

وقال :

— « الصحف الأخرى مصوّرة . »

— « سوف يسعدني كثيراً أن أطالعها . من أين جئت بها ؟ »

— « لقد ارسلت من جاء بها من ميستر . ولسوف أحصل على صحف أخرى : »

— « إنه لطف بالغ منك أن تجيء ، أيها الأب . هل تشرب كأساً من الفيرموت ؟ »

— « شكراً . إحتفظ بها . إنها لك . »

— « لا . إشرَبْ كأساً . »

— « حسن . سوف آتيك بغيرها اذن . »

وجاء الممرّض بكأسين ، وفتح الزجاجة ، ثم انه كسر الفلّينة ، فكان عليه أن يدفع بجزئها السفليّ إلى الزجاجة . كان في ميسوري ان اقرأ الاستياء على وجه الكاهن ، ولكنه قال :

— « لا بأس . ليس لهذا أية أهمية . »

— « اسمح لي أن أشرب نخب صحتك ، أيها الأب . »

— « واسمح لي أن أشرب نخب شفائك . »

وبعد ذلك أمسك بالكأس في يده ، وتبادلنا النظرات . كنا في بعض الأحيان نستشعر أننا صديقان حميمان حين نتحدث معاً . أما في تلك الليلة فكان ذلك عسيراً .

— « ما المسألة ، أيها الأب ؟ أنت تبدو متعباً جداً . »

— « أنا متعب ، ولكن ليس لي حق في أن أكون كذلك . »

— « إنها الحرارة . »

— « لا ، انـه الربيـع ليس غير . أنا أشعر بانحطاط شديد . »
— « أنت مصاب بالتقزز من الحرب . »
— « لا . ولكني أكره الحرب . »
فقلت :
— « وأنا لا أجد فيها متعة أيضاً . »
فهزّ برأسه ، وسرّح بصرَهُ من خلال النافذة .
— « أنت لا تبالي بها . انت لا تراها . يجب أن تغفر لي . آنا أعلم انك جريح . »
— « هذه مصادفة . »
— « وعلى الرغم من جراحك فأنك لا تراها . وفي استطاعتي أن أقول إني أنا أيضاً لا أراها ، ولكني أحسّ بها قليلاً . »
— « حين جُرحتُ كنا نتحدث عن ذلك . لقـد كان باسيني يتحدث . »
ووضع الكاهن كأسه . كان يفكر في شيء آخر .
وقال :
— « أنا أعرفهم لأني مثلهم . »
— « ومع ذلك فأنت مختلف عنهم . »
— « نعم ، ولكني في أعماقي مثلهم . »
— « الضباط لا يرون أيّ شيء . »
— « بعضهم يرى . بعضهم حسّاسون جـداً وهم يستشعرون الاشياء على نحوٍ أسوأ ممّـا يستشعره أيّ امرئ منا . »
— « ان معظمهم مختلفون عنك . »
— « ليست المسألة مسألة ثقـافة أو مـال . إنهـا شيء آخـر . وحتّى ولو كانوا على ثقـافة أو مـال فأن رجـالاً مثـل باسيني لا يرغبون في أن يكونوا ضباطـاً . وأنا أيضاً لا أرغب في أن أكون

ضابطاً . »

— « أنت معتبر في عداد الضباط . وأنا أيضاً ضابط . »

— « أنا لست ضابطاً حقاً . وأنت لست حتى ايطاليّاً . أنت أجنبيّ ، ولكنك أقرب إلى الضباط منك إلى الرجال . »

— « ما الفرق ؟ »

— « لست أستطيع توضيحه في يسر . ان ثمة أناساً يحبّون أن يخوضوا غمار الحرب . وفي هذه البلاد كثيرٌ مثل هؤلاء . وهناك اناس آخرون لا يحبّون أن يخوضوا غمارها . »

— « ولكن الأولين يحملونهم على ذلك . »

— « نعم . »

— « وأنا أساعدهم . »

— « أنت أجنبي . انت رجلٌ وطنيّ . »

— « والذين لا يريدون الحرب ، هل يستطيعون وضع حدّ لها ؟ »

— « لست أدري . »

ونظر من خلال النافذة كرةً أخرى . وراقبتُ وجهه :

— « هل استطاعوا في يوم من الأيام أن يضعوا حداً لها ؟ »

— « إنهم غير منظّمين لكي يستطيعوا وضع حد للاشياء : وكلما وُفّقوا إلى تنظيم أنفسهم باعهم زعماؤهم : »

— « واذن فليس ثمة أمل ؟ »

— « ان ثمة ، دائماً ، أملاً . ولكني لا أستطيع أن آمل في بعض الأحيان . أنا أحاول دائماً أن أعتصم بالأمل ولكني لا أقوى في بعض الأحيان : »

— « لعل الحرب أن تنتهي قريباً : »

— « أرجو ذلك : »

— « ما الذي ستعمله عندئذ ؟ »

— « سوف أعود إلى آبروتزي إذا كان ذلك ممكناً . »

وأشرق وجهه ، فُجاءة ، بالسعادة البالغة .

— « أنت تحبّ آبروتزي ؟ »

— « أجل ، أنا أحبّها أعظم الحب . »

— « واذن فينبغي أن تذهب إلى هناك . »

— « إذا استطعتُ ذلك بلغتُ من السعادة أقصاها. اوه ! هل أوفق إلى أن أذهب إلى هناك وأن احب الله وأخدمه ! »

فقلت :

— « وأن أحظى بالاحترام . »

— « أجل ، وأن أحظى بالاحترام . ولمَ لا ؟ »

— « ليس هناك أيّ سبب يدعو إلى عكس ذلك . ان من حقك أن تكون موضع الاحترام . »

— « ليس هذا بالأمر المهمّ . ولكنْ ، هناك في موطني ، يسلّم الناس بأن في امكان المرء أن يحب الله . انهم لا يرون في ذلك نكتة قذرة . »

— « فهمتُ . »

ونظر اليّ ، وابتسم .

— « أنت تفهم ، ولكنك لا تحب الله . »

— « لا . »

وسألني :

— « أنت لا تحبه البتة ؟ »

— « أنا أخافه في الليل بعض الاحيان . »

— « يتعيّن عليك أن تحبه . »

— « ليس من طبعي ان أحب كثيراً . »

فقال :

— « بلى . أنت تحبّ . إنّ ما ترويه لي عن لياليك ليس حباً : هذ ليس إلا هوىً وشهوة : فالمرء حين يحبّ يرغب في أن يعمل شيئاً في سبيل من يحبه . إنه يرغب في أن يضحي من أجل من يحبّه . ويرغب في خدمته : »

— « أنا لا أحب : »

— « إنك سوف تحب : أنا أعلم انك ستحب : وعندئذٍ تنعم بالسعادة : »

— « أنا سعيد . لقد كنت سعيداً دائماً . »

— « إنها شيء آخر . أنت لن تعرفها إلا حين تذوقها . »

فقلت :

— « حسن : إذا قُدّر لي يوماً أن أتمتع بها أعلمتُك بذلك . »

— « لقد مكثت أكثر مما ينبغي ، وتكلمت أكثر مما ينبغي . »

كان بادي القلق بسبب من ذلك .

— « لا : لا تذهب : ما رأيك في حبّنا للنساء ؟ فلو اني أحبَبْتُ امرأةً ما حباً حقيقياً فهل يكون ذلك الحب من الضرب الذي تَصِفُه ؟ »

— « لست أدري شيئاً عن ذلك : أنا لم أحبّ أيّ امرأة في حياتي . »

— « وأمك ؟ »

— « أجل ، لا ريب أني قد أحبَبْتُ أمي . »

— « هل أحببتَ الله دائماً ؟ »

— « منذ أن كنت غلاماً صغيراً : »

فقلت :

— « حسن . »

ولم أعرف ما ينبغي أن أقول : فأردفت :

— « أنت غلام رائع . »

فقال :

– « إذا كنتُ غلاماً ، فلماذا تخاطبني بقولك : أيها الأب ؟ »

– « هذه لياقة . »

فابتسم . وقال :

– « يجب عليّ أن أذهب . »

ثم سألني وفي صوته مسحة من أمل :

– « هل تستبقيني من أجل شيء ؟ »

– « لا. لمجرّد التحدث . »

– « سوف أحمل تمنياتك إلى رفاقك في حجرة الطعام . »

– « أشكرك على هداياك الكثيرة الرائعة . »

– « لا تذكر ذلك . »

– « أرجو أن تجيْ لزيارتي مرة أخرى . »

– « إن شاء الله . إلى اللقاء . »

وربّت على يدي .

فقلت في اللهجة العامية :

– « إلى اللقاء . »

فكرّر :

– « سيياوو . »

كان الظلام مخيماً على الغرفة ، فلم يكن من الممرّض الذي كان قد جلس عند قَدَم السرير إلا ان نهض وخرج معه . لقد أحببته كثيراً وتمنيت لو يستطيع أن يعود إلى آبروتزي في يوم من الايام . ولقد كانت حياته مع زمرة الضباط حياة بائسة ولكنه عرف كيف يحتملها في رحابة صدر ، بيد أني تساءلت كيف يمكن أن تكون حاله في بلده . كان قد أخبرني أن في كابراكوتا، في النهر الذي يجري تحت

المدينة ، كثيراً من الأطروط * . وكان محظّراً على الناس أن يعزفوا على الفلوت في الليل . فحين كان الشبان يُسَرْندون ** كان الفلوت هو وحده الممنوع . وكنت قد سألته : لماذا ؟ لأنه لم يكن من الخير للفتيات أن يسمعن ألحان الفلوت ليلاً . إن جميع الفلاحين هناك ينادونك « أيها الدون » Don ، وهم يرفعون قبعاتهم عن رؤوسهم كلما التقَوْا بك . وكان قد أخبرني ان والده يخرج الصيد كل يوم ، ويعرّج ليتناول الطعام في بيوت الفلاحين . كانوا يعتبرون ذلك شرفاً لهم دائماً . ولم يكونوا يسمحون للرجل الاجنبي بأن يتصيد إلا إذا أبرز شهادة تثبت أنه لم يُسْجن قط . وكان ثمة دَبَبَة في الـ « غران ساسو ديتاليا » ، ولكن هذه كانت نائية . وكانت « آ كيلا » مدينة جميلة . وفي الصيف ، كانت الليالي باردة ، وكان الربيع في آبروتزي أجمل ربيع في ايطاليا كلها . أما الخريف فكان أروع من هذا كله. ففي هذا الفصل كان في ميسورك ان تنطلق للصيد في غابات الكستناء . وكانت الطير كلها جيدة لأنها تغتذي بالعنب ، ولم يكن المرء ليحمل غداءه إلى هناك لأن الفلاحين كانوا يعتبرون تناولك الطعام في بيوتهم شرفاً لهم دائماً . وبعد فترة قصيرة استسلمت للرقاد .

* الأطروط او التروتة ضرب من سمك الأنهار.

** ينشدون السرنادة Serenade وهي انشودة خلوية يناجي بها المحب محبوبته في الليل.

الفصل الثاني عشر

كانت القاعة طويلة ، ذات نوافذ من ناحية اليمين . وكـــان في أقصاها بابٌ يؤدي إلى حجرة التضميد . وكان صف الأسرّة الذي ينهض فيه سريري يواجه النوافذ ، وكان ثمـة صف آخر ، تحت النوافذ، يواجه الجدار . فأذا استلقيت على جنبك الأيسر كان في ميسورك أن ترى باب غرفة التضميد . وكان في طرف القاعـة الأقصى باب آخر يدخل منه الناس في بعض الاحيان . فأذا ما أشرف امرؤ على الموت طوّقوا سريره بحجاب حاجز لكي لا تراه يموت ، ولكن احذية الأطباء والممرّضين والعصائب الجلدية التي تغطي ربلات سيقانهم كانت وحدهـا تبدو عند أسفل الحجاب الحاجز ، وفي بعض الأحيان كان يدور في أقصى الغرفة همس : وبعد ذلك كان كاهن يخرج من وراء الحجاب ، ثم يعود الممرضون إلى ما وراء ذلك الحجاب ليخرجوا ثانيةً حاملين الميت وقد غطّوه ببطـانية ، ويجتازوا بـه الممرّ القائم بين صفّي الأسرّة . وعندئذ كان شخص من الاشخاص يطوي الحجاب ويذهب به.

وذلك الصباح سألني الماجور المسؤول عن القاعة هل اشعر اني أستطيع السفر في اليوم التالي . فقلت اني استطيع . فقال إنهم ، اذن ، سوف يرحّلونني في الصباح الباكر . وقال إن من الخير لي أن ابدأ الرحـلة

الآن قبل أن تشتد الحرارة أكثر مما ينبغي .

كان في ميسورك ، حين يرفعونك عن السرير ليحملوك إلى حجرة التضميد أن تطلّ من النـافذة فترى القبور الجديدة في الحديقة . كان يجلس خـارج الباب المؤدي إلى الحديقة جندي يصنع الصلبان ويدهن عليها أسماء الرجـال الذين دفنوا في الجنينة ورُتبهم والفرق التي كـانوا ينتسبون اليهـا . وكان ذلك الجندي يقصد إلى قاعتنا في بعض المهامّ ، وكان في أوقات فراغه يصنع قداحة من خرطوشة بندقية نمساوية . كان الاطباء لطفـاء جداً ، وكان يبدو أنهم بارعون جداً . كانوا راغبين في نقلي إلى ميلانو حيث أجهزة أشعة اكس أفضل ، وحيث كان في إمكاني أن أفيد ، بعد اجراء الجراحة ، من أسباب الاستشفاء الآلي * . وكنت أنا راغباً في الذهاب إلى ميلانو أيضاً . كانوا يريدون أن يرحّلونا كلنا ، وإلى أبعد مكان ممكن ، لأنهم كانوا يتوقعون أن يحتاجوا ، حالمـا يبدأ الهجوم ، إلى جميع الاسرّة .

وفي الليلة التي سبقت مغادرتي مستشفى الميدان وفَدَ رينالدي لزيارتي مع مايجور الزمرة التي كنت آكل معها في غرفة واحدة . لقد قالا إني سوف أنْقَل إلى مستشفى أميركي أنشىء حديثاً في ميلانو . إن بعض وحدات الأسعاف الأميركية سوف تُرْسل إلى هناك ، ولسوف يُعنى هذا المستشفى بهم وبجميع الأميركيين العاملين في ايطاليا . كـان كثير منهم يعملون مع الصليب الأحمر . فقد كانت الولايات المتحدة قد أعلنت الحرب على المانيا ، ولكن ليس على النمسا .

كان الايطاليون واثقين ان أميركا سوف تعلن الحرب على النمسا أيضاً ، وكانوا شديدي الاهتمام بجميع الأميركيين الوافـدين إلـى بلادهم ، حتى ولو كان هؤلاء الأميركيون عاملين مع الصليب الأحمر : لقد سألوني : هل أعتقد ان الرئيس ويلسون سوف يعلن الحرب على

* او ردّ العافية بالطرق الآلية . وهو ما يعرف في لغة العلم بالـ **Mechanotherapy**

النمسا ؟ فأجبت ان هـذه مسألة أيام ليس غير . أنا ما كنت أعرف ما الذي نأخذه على النمسا ولكن بدا لي ان من المنطق أن يُعلن الأميركيون الحرب عليهـا ما داموا قد أعلنوها على المانيا . وسألوني هل سنعلن الحرب على تركيا . فأجبت بأن ذلك موضع شك . لقـد قلت ان تركيا * هي طائرنا الوطني ،ولكن النكتة اخفقت عند ترجمتها، فاستبدّ بهم الدهش والارتياب إلى درجـة دفعتني إلى أن أقول نعم ، أغلب الظن اننا سنعلن الحرب على تركيا . وعلى بلغاريا ؟ كنا قـد شربنا عدة كؤوس من البراندي ، فقلت نعم ، وحق الاله ، على بلغاريا أيضاً وعلى اليابان أيضاً . ولكن اليابان ، كذلك قالوا ، هي حليفةٌ لأنكلترة . أنت لا تستطيع أن تثق بالانكليز الملعونين . فقلت : اليابانيون طامعون بهاوايي . اين تقع هاوايي ؟ انها في المحيط الهادئ . لماذا يطمع بهـا اليابانيون ؟ فقلت : انهم لا يطمون بها حقاً . هـذه أقاويل ليس غير . اليابانيون شعب صغير رائع مولعٌ بالرقص والخمور الخفيفة . فقـال الماجور : مثل الفرنسيين . سوف نستردّ نيس وسافواي من الفرنسيين . فقال رينالدي : سوف نسترد كورسيكا وساحل الادرياتي كله . وقال الماجور : إن إيطاليا سوف تُعيد أمجاد روما . فقلت اني لا أحب روما . انها حارّة وملأى بالبراغيث . فقـال الماجور : انت لا تحب روما ؟ أنا أحب روما . روما هي أمّ الدول. أنا لن أنسى ما حييت رومولوس وهو يرْضع ثدي التيبر . ماذا ؟ لا شيء . فلنذهب إلى روما . فلنذهب إلى روما الليلة من غير أن نرجع ابداً . إن روما مدينة جميلة . فقلت : روما امّ الدول وأبوها . فقـال رينالدي : روما مؤنثة . إنها لا يمكن أن تكون أباً . من هو الأب، اذن ، الروح القدس ؟ لا تجدّفْ . أنا لم أكن أجدّف. كنت أستعلم . أنت ثمل ، أيها الطفل . من الذي جعلني ثملاً ؟ فقال

* ان كلمة **Turkey** في الانكليزية تعني الديك الرومي ايضاً . (المعرب)

الماجور : أنا الذي جعلتك ثملاً . أنا جعلتك ثملاً لأني أحبك ، ولأن أميركا قد خاضت الحرب . فقلت : حتى مقبض السيف . فقال رينالدي : إذهَبْ في الصباح ، أيها الطفل . فقلت : إلى روما . فقال الماجور : لا ، إلى ميلانو . إلى ميلانو . إلى الكريستال بالاس ، إلى الكوفا ، إلى كامباريز ، إلى بيفيز ، إلى الغالبريا . أيها الغلام المحظوظ . فقلت : إلى الغران إيتاليا ، حيث سأستعير المال من جورج . فقال رينالدي : إلى السكالا . إنك سوف تذهب إلى السكالا. فقلت : كل ليلة . فقال الماجور : لن يكون في طاقتك ان تذهب كل ليلة .

فقلت : إن التذاكر غالية جداً . سوف أسحب حوالة على جدّي . حوالة من تلك الحوالات التي تُدفع عند الاطّلاع . ماذا ؟ حوالة تدفع عند الاطلاع . ان عليه ان يدفع وإلا دخلتُ السجن .ان مستر كاننغهام يتولى القيام بذلك في البنك . أنا أحيا على الحوالات التي تُدفع عند الاطلاع . هل يستطيع جَدٌ أن يسجن حفيداً وطنياً يموت لكي تحيا ايطاليا ؟ فقال رينالدي : فليعش غاريبالدي الأميركي . فقلت : فلتعش الحوالات التي تدفع عند الاطلاع . فقال الماجور : ينبغي أن نهدأ . لقد طُلب الينا عدة مرات ، حتى الآن ، أن نهدأ . هل ستسافر غداً حقاً ، يا فيديريكو ؟ فقال رينالدي : سوف يذهب إلى المستشفى الاميركي ، أقول لك . إلى الممرضات الجميلات. لا إلى « ممرضات » مستشفى الميدان ذوي اللحى ! فقال الماجور : نعم ، نعم ، أنا أعلم انه سيذهب إلى المستشفى الأميركي . فقلت : لا اعتراض عندي على لحاهم . إذا أراد ايّ امرئ ان يربي لحية فليفعل .لماذا لا تربي لحية ، أيها السيد الماجور ؟ ان من المتعذر ادخالها في قناع الوقاية من الغازات السامة . بل إن هذا ممكن . كل شيء يمكن ادخاله في هذا القناع . لقد تقيأتُ في قناع من أقنعة الغازات السامة .

فقال رينالدي : لا ترفع صوتك إلى هذه الدرجة ، أيها الطفل . نحن كلنا نعلم انك كنت في الجبهة . أوه ، أيها الطفل الرائع : مـا الذي سوف أصنعه أثناء غيابك ؟ فقال الماجور : يجب أن نذهب . لقد أصبحت المسألة عاطفية . إسمع . لديّ مفاجأة لك . إن فتـاتك الانكليزية ، هل تعرف ؟ فتاتك الانكليرية التي تذهب لرؤيتها كل ليلة في المستشفى ؟ انها سوف تذهب إلى ميلانو أيضاً . سوف تذهب مع فتاة أخرى إلى المستشفى الاميركي . فالممرضات لم يصلن من أميركا بعد . ولقد تحدثت اليوم مع رئيس الدائرة . إنّ لديهم عدداً كبيراً جداً من النساء هنا في الجبهة . ولسوف يعيدون بعضهن إلى ما وراء الخطوط . ما رأيك في ذلك ، أيها الطفل ؟ هذا لطيف ، أليس كذلك ؟ سوف تذهب لتحيا في مدينة كبيرة ، ولسوف تكون فتاتك الانكليزية هناك لكي تعانقك . لماذا لا أصاب أنا بجرح ؟ فقلت : لعلك ان تصاب في المستقبل . فقال الماجور : يجب ان نذهب . اننا نشرب ونُحدث ضجة ، ونزعج فيديريكو . لا تذهب . اجل ، يجب أن نذهب . إلى اللقاء . حظـاً سعيداً . إلى اللقاء . سياوو . سياوو . عُد الينا في سرعة ، أيها الطفل . وقبّلني رينالدي . ان رائحة الليزول تفوح منك . إلى اللقـاء ، أيها الطفل . إلى اللقاء . وربّت الماجور على كتفي . وخرجا ماشيين على رؤوس أصابعهما . لقد أدركت اني ثملٌ جداً ، ولكني استسلمت للنوم .



وفي صباح اليوم التالي رحلنا إلى ميلانو ، فبلغناها بعد ثمانٍ واربعين ساعة . كانت رحـلة شاقة . فقد توقفنا فترة طويلة في جانب الطريق قرب ميستر ، وأقبل الغلمان ينظرون الينا نظرات فاحصة . وكلفت غلاماً صغيراً أن يشتري لي زجاجة كونياك ، ولكنه رجع فقال إنه لم يجـد من أصناف الخمر غير الـ « غرابّا » . فسألته أن يأتيني بزجاجة من هذا

الصنف ، وحين رجع منحته ما تبقّى من الورقة النقدية . فسكرتُ انا والرجل الذي في جواري ، ونمتُ حتى اجتزنا فيسينتزا حيث استيقظت وتقيأتُ كثيراً على ارض الحافلة . ولم يكن في ذلك بأس لأن جاري كان قد تقيأ قبل ذلك مرات عديدة . وبعد ذلك بدا لي اني لن أستطيع الصبر على الظمأ ، وحين توقّف القطار على أبواب فيرونا ناديت جندياً كان يذرع المكان ، إلى جانب القطار ، جيئةً وذهوباً ، فحمل إليّ شربة ماء . وأيقظتُ جورجيتي ، وهو الثميل الآخر ، وقدمت اليه قليلاً من الماء . فسألني أن أصبّه على كتفه واستسلم للرقاد من جديد . ورفض الجندي أن يأخذ البنس الذي قدّمته اليه، وجاءني ببرتقالة كثيرة اللب . فمصَصتها ، باصقاً لبّها ، وراقبت الجندي وهو يذرع الأرض جيئة وذهاباً أمام قطار من قُطر البضائع . وبعد فترة أحدث القطار نخعةً وانطلق .

الكتاب الثاني

الفصل الثالث عشر

وصلنا إلى ميلانو في الصباح الباكر فأنزلنا في فناء البضائع . ونقلتني سيارة اسعاف إلى المستشفى الاميركي . وفيما أنا ممدّدٌ في السيارة على نقّالة ، لم يكن في ميسوري ان أحزر أيّ أجزاء المدينة كنا نجتاز ، ولكني شاهدت حين أنزلا النقالة سوقاً وخمّارة مفتوحة وفتاةً تكنسها. كانوا ينضحون الشارع بالماء . وكانت تفوح منه رائحة الصباح الباكر. ووضعا النقالة أمام الباب ودخلا . ثم ان البواب خرج معهما . كان له شاربان أشيبان ، وكان يعتمر بقبعة بواب ، ويرتدي رُدْنين واقيين . وتعذّر ادخال النقّالة إلى المصعد الكهربائي فتذاكروا في الأمر : أيرفعونني عن النقالة ويصعدون بالمصعد أم يحملون النقالة ويرتقون بها درجات السلّم ؟ وأصغيت اليهم وهم يتناقشون . وأخيراً آثروا المصعد. فرفعوني عن النقالة ، فقلت لهم : « ترفقوا ! لا تقسوا عليّ . »

وحُشرنا في المصعد الكهربائي ، وإذ التوت رجلاي فقد أصابني ألمٌ شديد . وقلت لهم :

— « مدّدوا رجليّ . »

— « لا نستطيع ، أيها السيد الملازم . ليس هناك متسع . »

كان الرجل الذي قال هذا الكلام يطوقني بذراعه ، وكانت ذراعي

تطوّق عنقه : كانت أنفاسه تصفع وجهي معدنيةً بالثوم والخمر الحمراء .

وقال الرجل الآخر :

— « ترفّقْ وكن لطيفاً ! »

— « ابنُ زانيةٍ مَنْ لا يترفق ولا يكون لطيفاً ! »

وكرّر الرجل الممسك برجليّ :

— « ترفّقْ وكن لطيفاً ، اقول لك . »

ورأيت باب المصعد الكهربائي يُغلق ، ثم البابَ الداخلي ذا القضبان المشبّكة ، ورأيت البواب يضغط على زرّ الدور الرابع . كانت أمارات القلق تبدو على وجه البواب . وارتفع المصعد بطيئاً بطيئاً .

وسألت الرجل العابقَ نفَسُهُ برائحة الثوم :

— « ثقيل ؟ »

فقال :

— « على الاطلاق . »

كان العَرَق يتصبب من وجهه . ونخَرَ . وارتفع المصعد الكهربائي في سلاسة ثم وقف ، وفتح الرجل الممسك برجليّ بابَ المصعد ، وخرج . ووجدنا أنفسنا في رواق : كان ثمة عدة أبواب ذات مقابض نحاسية . وضغط الرجل الذي كان يحمل قدميّ على زرّ أحد الاجراس : وسمعنا رنين الجرس من وراء الباب . ولكن أحداً لم يأتِ . ثم إن البواب برز في أعلى السلّم .

وسأله حاملا النقّالة :

— « أين هم ؟ »

فقال البواب :

— « لست أدري . إنهم ينامون في الدور السفليّ . »

— « نادِ شخصاً ما . »

ورنّ البواب الجرس ، ثم خفق على الباب ، ثم فتح الباب ودخل . حتى إذا رجع كانت معه امرأة عجوز تلبس نظارتين . كان شعرها غير مثبّت بالدبابيس فهو يكاد يتهاوى . وكانت ترتدي ثوب ممرضة .

وقالت :

— « أنا لا أستطيع أن أفهم . أنا لا أستطيع أن أفهم الايطالية . »

فقلت :

— « في استطاعتي أن أتكلم الانكليزية . إنهم يريدون أن يضعوني في مكان ما . »

— « ليس ثمة أية غرفة مهيّأة لهذا الغرض . نحن لم نكن نتوقع مجيء أي مريض . »

وحاولت أن تثبّت شعرها ، وحدّقت إليّ بعينيها المصابتين بقصر البصر .

— « دليهم على اية غرفة يستطيعون ان يضعوني فيها . »

فقالت :

— « لست أدري . نحن ما كنا نتوقع مجيء أيّ مريض . ليس في استطاعتي أن اضعك في ايما غرفة من الغرف . »

فقلت :

— « لا مانع لدي من أن أوضَعَ في أية غرفة من الغرف . »

ثم التفتّ إلى البواب وقلت له بالايطالية :

— « ابحث لي عن غرفة فارغة . »

فقال البواب :

— « جميع الغرف شاغرة . أنت أول مريض يَفِدُ علينا . »

لقد أمسك بقبعته في يده ، ونظر إلى الممرضة العجوز .

— « إكراماً للمسيح ، خذبني إلى غرفة ما . »

كان الألم قد اشتدّ واشتد بعد أن طُويَتْ رجلاي ، وكـان في استطاعتي أن أحسّ به يسري في العظـام ويغادرها . واجتـاز البواب العتبـة ، تتبعه المرأة الشائبة ، ثم ارتدّ نحونا مسرعاً ،وقال :

— « إتبعوني . »

وحملوني مجتازين بي رواقاً طويلاً حتى انتهوا بي إلى غرفـة أغلِقت مصاريع نوافذها الخارجية . كانت تفوح من هذه الغرفـة رائحة الاثاث الجديد . وكان فيها سرير وخزانة كبيرة ذات مرآة . ووضعوني على السرير .

وقالت المرأة :

— « أنا لا أستطيـع أن أضع عليه غطـاء . جميع الاغطية مغلق عليهـا . »

ولم أتكلم معها . وقلت للبواب :

— « في جيبي دراهم . في جيبي المزرّر . »

وأخرج البواب الدراهم . ووقف حاملا النقالة إلى جانب السرير ممسكين بقبعتيهما . فقلت :

— « أعطِ كلاً منهما خمسة لبرات * ، وخذ أنت خمسة لبرات. إن أوراقي هي في الجيب الأخرى . في استطاعتك ان تقدّمها إلـى الممرضة . »

وأدى حاملا النقالة التحية ، وشكراني . فقلت :

— « إلى اللقاء . اشكركما شكراً كثيراً . »

وأديا التحية مرة ثانية ، وانصرفا .

وقلت للمرضة :

— « هذه الاوراق تصف حالي والمعالجة التي أخْضِعْتُ لها . »

فتناولت المرأة الأوراق ، وأنعمت النظر اليها من خلال نظارتيها .

---

* جمع لير ، وهو وحدة النقد الايطالية .

كان ثمة ثلاث أوراق ، وكانت مطويّة .

وقالت :

— « لست أدري ما ينبغي أن أفعل . أنا لا أستطيع ان اقرأ الايطالية . انا لا أستطيع أن أفعل شيئاً من غير أمر الطبيب . »

وشرعت تبكي ، ووضعت الأوراق في جيب مئزرها .

وسألتني من خلال عبراتها :

- « هل أنت أميركي ؟ »

— « نعم . ارجوكِ ان تضعي الأوراق على الطاولة المجاورة للسرير . »

كانت الغرفة مظلمة باردة بعض الشيء . وفيما كنت مستلقياً في الفراش كان في استطاعتي أن أرى المرآة الكبيرة في الجانب الآخر من الغرفة ، ولكني لم أستطع أن أرى ما الذي عكسَتْهُ .لقد وقف البواب على مقربة من السرير . كان ذا وجه وسيم ، وكان لطيفاً جداً .

وقلت له :

— « في استطاعتك أن تنصرف . »

وقلت للمرضة :

— « وفي استطاعتكِ ان تنصرفي أيضاً . ما اسمكِ ؟ »

— « مسز ووكر . »

— « في استطاعتكِ أن تذهبي ، يا مسز ووكر . أحسب أني سأنام . »

كنت وحدي في الغرفة . وكانت الغرفة باردة في اعتدال ، ولم يكن المرء يستروح فيها رائحة المستشفيات . كانت الحشيّة راسخة مريحة ، وكنت أستلقي من غير حراك ، وأتنفس في عُسْر بالسغ ، سعيداً بأن الألم بدأ يخفّ . وبعد برهة قصيرة أردتُ ان أشرب ،ووجدت الجرس المتصل بحبلٍ قريب من السرير ، فقرعته ، ولكن أحداً لم

يأتِ . واستسلمت للرقاد .

وحين استيقظتُ أجَلْتُ البصر في ما حولي . كانت أشعة الشمس تتسرّبُ من خلال المصاريع الخارجية . ورأيت الخزانة الكبيرة ، والجدران العارية ، وكرسيّين . كانت رجلاي المعصوبتان بضمادات قذرة خارجتين من السرير على نحو مستقيم .وكنت أحاذر أن احرّكهما. واشتد بي الظمأ ، فمددت يدي إلى الجرس ، وضغطت على الزر . ثم اني سمعت الباب يُفتح ، وتطلّعت ، فأذا بي ارى ممرضة . لقد بدت غضّة الشباب وسيمة المحيّا .

وقلت :

— « صباح الخير . »

فقالت وتقدمت نحو السرير :

— « صباح الخير . اننا لم نستطع ان نجد الطبيب . لقد ذهب الى بحيرة كومو . إن أحداً ما كان يعرف ان مريضاً سوف يأتي . مم تشكو على أية حال ؟ »

— « أنا جريح . في الرجلين والقدمين . وهناك جرح في رأسي أيضاً . »

— « ما اسمك ؟ »

— « هنري . فريدريك هنري . »

— « سوف أغسل جسدك . ولكنا لا نستطيع ان نفعل شيئاً بالضمادات إلا بعد ان يجيء الطبيب . »

— « هل مس باركلي هنا ؟ »

— « لا . ليس عندنا أحد بهذا الاسم هنا . »

— « من هي المرأة التي انخرطت في البكاء عندما وصلتُ الى هنا؟ »

وضحكت الممرضة وقالت :

— « هذه مسز ووكر . كانت هي المسؤولة عن الخدمة تلك الليلة،

ولقد كانت مستسلمة للنوم . إنها لم تكن تتوقع أن يفيدُ أحد السى المستشفى . »

وفيما كنا نتحدث كانت هي تنزع ملابسي عن جسدي . حتى اذا أصبحت عارياً الا من الضمادات ، غسلتني في كثير من الرفق والتلطف. ولقد كانت عملية الغسل هذه موفقة جداً . كانت ثمة ضمادة على رأسي ، ولكنها غسلت كل ما حولها في براعة .

— « أين جُرحت ؟ »

— « على ضفة الايزونزو ، شمالي بلافا . »

— « وأين تقع هذه ؟ »

— « شمالي غوريتزيا . »

كان في ميسوري أن أرى أن أياً من هذه المواطن لم يَعنْ شيئاً عندها.

— « هل يوجعك جرحك كثيراً ؟ »

— « لا . انه لا يوجعني كثيراً الآن . »

ووضعتْ ميزان حرارة في فمي .

فقلت :

— « الايطاليون يضعونه تحت الابط . »

— « لا تتكلم . »

وحين أخرجتْ ميزان الحرارة ، قرأته ثم نفضتْه .

— « كم بلغت الحرارة ؟ »

— « ليس مفروضاً فيك ان تعرف هذا . »

— « قولي لي كم بلغت ؟ »

— « انها تكاد تكون سوية . »

— « أنا لم أعرف الحمى في حياتي قط . ورجلاي مليئتان بالحديد العتيق أيضاً . »

— « ماذا تعني ؟ »

— « انهما مليئتان بشظايا القنابل ، بالبراغي العتيقة ، وبنوابض السّرر وأشياء أخرى . »

وهزت رأسها وابتسمت .

— « لو كان في رجليك أجسام غريبة اذن لأحدَثَتْ التهاباً ، واذن لأصابتك الحمى . »

فقلت :

— « حسن . سوف نرى ما الذي سيخرج منهما .»

وغادرت الغرفة ثم رجعت تصحبها الممرضة العجوز التي رأيتها في الصباح الباكر . وسوّتا السرير معاً وانا مستلقٍ عليه . كان ذلك شيئاً جديداً بالنسبة اليّ ، ولقد وجدته رائعاً .

— « مَنِ المسؤولة هنا ؟ »

— « مس فان كامبن . »

— « كم ممرضة هنا ؟ »

— « اثنتان ليس غير . »

— « ألن تلتحق بالمستشفى ممرضات أخريات ؟ »

— « إن بعض الممرضات الاخريات سوف يجئن قريباً . »

— « ومتى سوف يجئن ؟ »

— « لست أدري . أنت تطرح من الاسئلة أكثر مما ينبغي لغلام مريض أن يطرحه . »

فقلت :

— « أنا لست مريضاً . أنا جريح . »

كانتا قد انتهتا من تسوية السرير ، وكنت أستلقي وغطاءٌ نظيف ناعم من تحتي وغطاء نظيف ناعم من فوقي . وخرجت مسز ووكر ورجعت بسترة بيجاما . وألبستاني تلك السترة ، واستشعرت اني حسن البزة ، نظيف الى حدّ بالغ .

فقلت :

— « لقد غمرتماني بلطفكما . »

وقهقهت الممرضة المدعوة مس غايج .

وتساءلتُ :

— « هل أستطيع أن أفوز بكأس ماء ؟ »

— « طبعاً . وبعد ذلك تستطيع أن تتناول طعام الصباح . »

— « لست أريد ان أتناول طعام الصباح . هل أستطيع أن أطلب فتح المصاريع الخارجية ؟ »

كان الضوء باهتاً في الغرفة ، حتّى اذا فُتحت المصاريع الخارجية ملأ الغرفةَ ضياء الشمس الساطع . وسرّحت طرفي من خلال النافذة فتراءت لي خلفها المداخن وسطوح البيوت القرميدية . ومن فوق السطوح القرميدية رأيت سُحباً بيضاء ، ورأيت السماء شديدة الزرقة .

— « ألا تعرفين متى ستجيء الممرضات الاخريات ؟ »

— « لماذا ؟ ألا نُعنى نحن بك عناية كافية ؟ »

— « أنتما لطيفتان جداً . »

— « هل تحب أن تستعمل حوض الماء الصغير ؟ »

— « سوف أحاول . »

وساعدتاني على الارتفاع بعض الشيء عن السرير ، ولكن على غير طائل . وبعد ذلك استلقيت ، ونظرت من خلال الابواب المفتوحة الى الرواق .

— « متى يجيء الطبيب ؟ »

— « حين يرجع . لقد حاولنا ان نتلفن له الى بحيرة كومو . »

— « أليس ثمة أطباء آخرون ؟ »

— « إنه هو طبيب المستشفى . »

وجاءت مس غايج بابريق ماء وكوب . فشربتُ ثلاث كؤوس ثم

فارقتاني ، فسرّحتُ طرفي من خلال النافذة فترة قصيرة ، ثم استسلمت للرقاد كرةً أخرى . وتناولت طعام الغداء ، وعند الأصيل أقبلت مس فان كامبن ، مديرة المستشفى ، لتراني . ولم تحبّني مس فان كامبن . ولم أحبها . كانت ضئيلة الجسم ، كثيرة الشكوك ، وأكثر طيبةً من ان تحتل منصباً كهذا . لقد طرحت عليّ أسئلة كثيرة ، وبدت وكأنها تعتقد أن من المعيب بعض الشيء أن أخدم في الجيش الايطالي .

وسألتها :

— « هل أستطيع أن أحتسي الخمر مع الطعام ؟ »

— « شرط أن يشير الطبيب بذلك . »

— « هل يعني هذا أني لا أستطيع احتساءها إلا بعد أن يجيء ؟ »

— « تماماً . »

— « هل تعتزمين استدعاءه في النهاية ؟ »

— « لقد تلفنّا له الى بحيرة كومو . »

وغادرت الغرفة . وبعد ذلك مباشرة رجعت مس غايج وسألتني بعد أن أسدت اليّ خدمة ما في كثير من البراعة :

— « لماذا كنت فظاً مع مس فان كامبن ؟ »

— « لم أقصد أن أكون كذلك . ولكنها كانت متعجرفة في احتقار . »

— « لقد قالت انك كنت متعاظماً وفظّاً . »

— « لا ، لم أكن . ولكن ما رأيكِ في مستشفى من غير طبيب؟ »

— « إنه آتٍ . لقد تلفنوا له الى بحيرة كومو . »

— « ما الذي يفعله هناك ؟ يسبح ؟ »

— « لا . إن له عيادة هناك . »

— « لماذا لا يعهدون بشؤون المستشفى الى طبيب آخر ؟ »

— « هش . هش . كن ولداً عاقلاً ، ولسوف يجيء . »

واستدعيت البواب ، حتى اذا جاء قلت له بالايطالية أن يشتري لي

من الخمارة زجاجة سينزانو ، وقنينة شيانتي ، وأن يشتري لي أيضاً صحف المساء . فمضى البواب ، وأتاني بهما ملفوفتين بصحيفة من الصحف . ثم انه أخرجهما من الصحيفة ، وحين سألته ان يفتحهما نزع فلينتيهما ووضع الخمرة والفيرموت تحت السرير . وتركت وشأني، فطالعت الصحف ، وأنا مستلق على الفراش ، فترة قصيرة ، وقرأت أنباء الجبهة ، ولائحة القتلى من الضباط ، والاوسمة التي منحوها . ثم مددت يدي تحت السرير ، فأخرجت زجاجة السينزانو ، وأمسكتُ بها مستقيمة فوق معدتي ، والكأسُ الباردة مسندة الى بطني ، وشربت جرعات صغيرة ، مُحْدثاً فوق معدتي حلقات ودوائرَ بسبب من إمساكي بالزجاجة هناك ، بين الجرعة والجرعة ، وتأملت الليل وهو يهبط في الخارج فوق سطوح المدينة . وطوّفتِ السنونو في السماء ، وراقبتها هي وبعض البواشق تطير فوق السطوح ، وشربتُ السينزانو . وحملتْ إليّ مس غايج كأساً فيها شيء من شراب البيض . * فخفضتُ زجاجة الفيرموت الى الجانب الآخر من السرير عندما دخلتْ .

وقالت :

— « لقد وضعت لك مس فان كامبن بعض الشري ** في هذا . يجب ان لا تكون فظاً معها . انها ليست صغيرة السن . وهذا المستشفى يلقي على عاتقها مسؤولية كبيرة . ان مسز ووكر عجوز أكثر مما ينبغي، وهي لا تستطيع أن تقدّم الى مس فان كامبن عوناً يُذكر . »

فقلت :

— « انها امرأة رائعة ، إحملي اليها شكري العظيم . »

— « سوف آتيك بطعام العشاء ، في الحال . »

فقلت :

* egg-nog وهو يضرب باللبن ، ويضاف اليه بعض الخمر أحياناً . (المعرب)

** sherry نوع من الخمر .

– « حسن جداً . أنا لست جائعاً . »

وحين جاءت بالصينية ، ووضعتها على مائدة السرير ، شكرتُها وتناولت قليلاً من الطعام . وبعد ذلك ساد الظلام في الخارج ، وكان في ميسوري أن أرى أشعة الاضواء الكشافة تتحرك في السماء . وراقبتُ ذلك برهة قصيرة ، ثم رقدتُ . لقد نمتُ نوماً عميقاً ، ومع ذلك فقد أفقت مرة مذعوراً يتصبب العرق مني ، ثم عدت الى النوم محاولاً أن أفر من الحلم الذي رأيته . وأفقت بعد ذلك نهائياً قبل مطلع الفجر بكثير ، فسمعت الديكة تصيح ، وبقيت يقظان حتى بدأ الضياء يغمر الكون . كنت مُتعَباً ، وما إن عمّ الضياء الكون حتى استسلمت للرقاد من جديد .

الفصل الرابع عشر

كانت أشعة الشمس المشرقة تغمر الغرفة عندما استيقظت . لقد خُيّل إلي أني في الجبهة ، فتمطيت في السرير . وآلمتني رجلاي . فنظرت اليهما وهما لا تزالان في الضمادات القذرة ، وما إن رأيتهما حتى عرفت أين كنت . ومددتُ يدي الى حبل الجرس ، وضغطت على الزر . وسمعته يرنّ في الرواق ، ثم سمعت شخصاً يمشي في الرواق على نعلين من مطاط . كانت هي مس غايبج ، ولقد بدت أكبر سناً ، بعض الشيء ، في أشعة الشمس المشرقة ، وغير جميلة جداً .

وقالت :

— « صباح الخير . هل قضيت ليلةً طيبة ؟ »

فقلت :

— « نعم . أشكرك شكراً كثيراً . هل أستطيع أن أستدعي حلاقاً ؟ »

— « لقد جئت لاراك فوجدتك نائماً ومعك هذه في السرير . »

وفتحت باب الخزانة وأرتني زجاجة الفيرموت . كانت فارغة تقريباً .

وقالت :

— « لقد وضعتُ هنا أيضاً الزجاجة الأخرى التي كانت تحت السرير. لمَ لم تطلب مني كأساً ؟ »

- « كنت أخشى ان تضنّي عليّ بذلك . »
- « لا . لقد كان جديراً بي أن أشرب معك قليلاً .
- « أنتِ فتاة رائعة . »

فقالت :

- « ليس من الخير لك ان تشرب وحدك . يجب أن لا تفعل ذلك بعد الآن . »
- « حسن . »

فقالت :

- « إن صديقتك مس باركلي قد جاءت . »
- «حقاً ؟ »
- « نعم . أنا لا أحبها . »
- « سوف تحبينها . إنها لطيفة إلى حد بالغ . »

فهزت رأسها ، وقالت :

- « أنا واثقة انها لطيفة . هل تستطيع أن تبتعد قليلاً جداً إلى هذه الناحية ؟ هذا رائع . سوف أغسلك استعداداً لطعام الصباح . »

وغسلتني بقماشة وصابون وماء حارّ . وقالت :

- « إرفع كتفك . هذا رائع . »
- « هل أستطيع أن أستدعي الحلاق قبل طعام الصباح ؟ »
- « سوف أبعث البواب لاستدعائه . »

وغادرت الغرفة ثم رجعت ، وقالت وهي تغمس القماشة في حوض الماء :

- « لقد ذهب لكي يدعوه . »

وأقبل الحلاق مع البواب . كان رجلاً في نحو الخمسين ذا شاربين معقوفين . وكانت مس غايج قد أكملت غسلي وخرجت . وطرّى الحلاق وجهي بالماء والصابون وشرع يحلق . كان صارم الوجه ، وكان

يحاذر أن يتكلم .

فقلت :

— « ما المسألة ؟ أليس لديك أنباء ؟ »

— « أية أنباء ؟ »

— « كائناً ما كانت . ما الذي حدث في المدينة ؟ »

فقال :

— « نحن في حرب . إن للعدو آذاناً في كل مكان . »

ورفعت بصري اليه . فقال وتابع عمله :

— « ارجوك ان لا تحرك وجهك . أنا لن أقول شيئاً . »

فسألته :

— « ما بالك ؟ »

— « أنا إيطالي . أنا لا أستطيع أن أقوم بأي اتصال مع العدو . »

وآثرت الاكتفاء بهذا المقدار . فقد يكون الرجل مجنوناً . وفي هذه الحال يكون اسراعي في الخروج من تحت موساه خيراً وأبقى . وما كدت أحاول أن أنعم النظر اليه حتى قال :

— « احذر . الموسى حادّة . »

وعندما أتمّ عمله دفعت اليه أجره ، وأعطيته بقشيشاً مقداره نصف لير . وأعاد إليّ القطع النقدية .

— « لا . ان آخـــذ . أنا لست في الجبهة . ولكني ايطالي . »

— « اغربْ عن وجهي . »

فقال وهو يلف موساه بصحيفة ما :

— « بأذنك . »

وخرج تاركاً القطع النحاسية الخمس على الطاولة إلى جـــانب السرير . وقرعت الجرس . فأقبلت مس غايج .

— « هل لك أن تستدعي البواب من فضلك ؟ »

— « حسن . »

ودخل البواب . كان يحاول أن يمسك نفسه عن الضحك :

— « هل ذلك الحلاق مجنون ؟ »

— « لا ، سينيورينو . لقد ارتكب خطأ . انه لا يفهم كثيراً ، ولقد حسب انك ضابط نمساوي . »

فقلت :

— « اوه ! »

فضحك البواب :

— « أه أه أه ! كان مضحكاً . لقد قال لي انك لو تحركت حركة واحدة اذن لسارع إلى .... »

وأمرّ سبّابته عبر حنجرته .

وحاول أن يمسك نفسه عن الضحك :

— « أه أه أه ! حين قلت له انك لست نمساوياً . أه أه أه . »

فقلت في مرارة :

— « أه أه أه ! كان يكون الأمر مضحكاً ، حقاً ، لو احتزّ حنجرتي . أه أه أه ! »

— « لا ، سينيورينو . لا ، لا . المضحك هو ذعره الشديد ذاك من جندي نمساويّ . أه أه أه ! »

فقلت :

— « أه أه أه . أخرُجْ من هنا ! »

وخرج ، فسمعته يضحك في الرواق . وسمعت وقع قدمين تقتربان ؛ وتطلّعت إلى الباب . كانت هي كاثرين باركلي .

ودخلت الغرفة وتقدمتْ حتى السرير .

وقالت :

— « هالو ، يا حبيبي ! »

لقد بدت نضرةً ، فتيّة ، وجميلة جداً . وخيل اليّ أني لم أر في

يوم من الايام شخصاً على مثل هذا الجمال .

وقلت :

— « هالو ! »

وحين رأيتها شعرتُ أني متيّم بحبها . لقد اضطرب كياني كله اضطراباً . ونظرتْ إلى الباب ، ورأت انه لم يكن ثمة أحد ، فجلست على جانب السرير وانحنت فوقي وقبّلتني . وجذبتُها إلى أدنى وقبّلتُها . وقد شعرت بقلبها يخفق .

وقلت :

— « أيتها الحبيبة . ألستِ رائعة في عودتكِ هذه ؟ »

— « لم يكن ذلك عسيراً جداً . قد يكون من العسير أن أبقى . »

فقلت :

— « يجب أن تبقيْ . أوه ، أنت رائعة . »

كنت مُدَلّهاً بها . ولم يكن في امكاني أن أصدّق أنها كانت هناك فعلاً ، فهصرتها بين ذراعيّ في قوة .

وقالت :

— « ينبغي لك ان لا تفعل . أنت مريض . »

— « بل اني لفي صحة جيدة . هيّا ! »

— « لا . أنت لا تزال ضعيفاً جداً . »

— « أنا موفور القوة . أوه ، ارجوكِ . »

— « هل تحبني ؟ »

— « أنا احبكِ حقاً . أنا متيّم بكِ . هيا ، ارجوكِ . »

— « إسمعْ قلبينا يخفقان . »

— « أنا لا أبالي بقلبينا . أنا اريدكِ أنتِ . إني مجنونٌ بكِ . »

— « هل تحبني حقاً ؟ »

— « لا تكرري ذلك على نحو موصول . هيا . ارجوك . ارجوك

يا كاثرين . »

— « حسن ، شرط ان لا يتجاوز ذلك دقيقة واحدة . »

فقلت :

— « لا بأس . أغلقي الباب . »

— « أنت لا تستطيع . هذا شيء لا ينبغي لك . »

— « تعالي . لا تتكلمي . تعالي ، ارجوكِ . »

★

وجلست كاثرين على كرسي إلى جانب السرير . كان الباب مفتوحاً على الرواق . وكانت بهيميّتي قد زالت ، ولقد شعرت بالنشاط أكثر مما شعرت به في ايما وقت مضى .

وسألتني :

— « والآن هل تصدّق أني أحبك ؟ »

فقلت :

— « أوه ، أنتِ فاتنة . يجب أن تبقيْ . إنهم لا يستطيعون أن يُرجعوكِ . أنا مجنون بحبكِ . »

— « ينبغي أن نكون حذرَيْن إلى أبعد الحدود . لقد كان ذلك حماقة ليس غير . اننا لا نستطيع أن نفعل ذلك . »

— « نستطيع ذلك في الليل . »

— « يجب ان نأخذ حذرنا إلى حدّ رهيب . وينبغي أن تأخذ حذرك أمام الناس . »

— « سوف أفعل . »

— « يتعيّن عليك ذلك . إنك لطيف . أنت تحبني ، أليس كذلك ؟ »

— « لا تقولي ذلك بعد الآن . أنت لا تعرفين أي أثر سيء يتركه ذلك في نفسي . »

— « سوف أكون حذرة اذن . أنا لا أريد ان ازعجك أكثر مما

فعلت . يجب أن أذهب الآن ، أيها الحبيب ، فعلاً . »

– « ارجعي في الحال . »

– « سوف أرجع حين أوفّق إلى ذلك . »

– « وداعاً . »

– « وداعاً ، أيها الحبيب ! »

وغادرتِ الغرفة . والله يشهد اني لم أرِدْ ان أقع في حبها . أنا لم أرد أن أقعَ في حب امرأة ما . ولكن الله يشهد أني وقعت برغم ذلك في حبها . لقد استلقيت هناك على سرير المستشفى ، في ميلانو ، وطافت في رأسي ضروب الاشياء كلها . ولكني شعرت بالنشاط إلى حد مدهش . وأخيراً دخلتْ عليّ مس غايج ، وقالت :

– « الطبيب آت . لقد تلفن من بحيرة كومو . »

– « ومتى سيصلّ إلى هنا ؟ »

– « سوف يكون هنا عند الأصيل . »

الفصل الخامس عشر

ومنذ تلك اللحظة حتى الاصيل لم يحدث شيء ما. كان الطبيب رجلا ضئيل الجسم، مهزولاً، هادئاً، وكان يبدو وكأن الحرب قد أوقعت الاضطراب في نفسه. لقد أخرج عدداً من الشظايا الفولاذية الصغيرة من فخذيّ، في اشمئزاز رقيق مصقول. ولقد اصطنع مخدّراً محلياً يدعونه «الثلج» أو شيئاً مثل ذلك، مخدّراً يجلّد الانسجة ويكبت الألم حتى اللحظة التي يبلغ المسبار، أو المبضع، أو الكلاّب، أعماقَ الجزء المتجمّد. وحدّد المريض المنطقة المخدّرة في وضوح، وبعد فترة قصيرة استُنْفِدت وداعة الطبيب الهشّة وقال إن من الافضل أن نأخذ صورة بأشعة إكس، لأن نتائج السَّبْر لم تكن مُرْضية؟

وأخِذت هذه الصورة في «مستشفى ماغيور»، وكان الطبيب الذي قام بهذه المهمة انفعاليّاً، نشيطاً، مرحاً. ورُتّب كل شيء بحيث يكون في ميسور المريض أن يرى بنفسه، من طريق رفع كتفيه، بعض الاجسام الغريبة الكبرى كما تبدو في الآلة. وقال الطبيب إنه سوف يبعث الينا بالصُوَر. وسألني ان أدوّن في مفكرته اسمي، وفرقتي، وبعض انطباعاتي. لقد أعلن ان الاجسام الغريبة كانت بشعة، قذرة، ووحشية. إن النمساويين أبناء زنا. كم رجلاً قتلتُ منهم؟ انا لم

أقتل احداً ، ولكني كنت تائقاً إلى ايقاع الرضا في نفسه ، فقلت إني قتلتُ كثيراً منهم . كانت مس غايج معي ، ولقد طوّقها الطبيب بذراعه وقال إنهـا أجمل من كليوباترة . هل فهمَتْ ذلك ؟ كليوباترة ملكة مصر القديمة . أجل ، لقد كانت كذلك وحقّ الآلـه . ورجعنـا إلى المستشفى الصغير في سيارة الاسعاف . وبعد فترة قصيرة وكثير مـن الرّفع ، انتهينا إلى الدور الأعلى ووجدتُ نفسي في السرير كـرةً أخرى . وجاءت الصور أصيل ذلك اليوم ، وكان الطبيب قد قال انه سوف يبعث بهـا في الاصيل وحقّ الآلـه ، ولقد وفى بمـا وعد . وأطلعتني كاثرين باركلي عليها . كانت محفوظة في ظروف حمراء ، ولقد أخرجتها كاثرين من ظروفها ، ورفعتها في وجه الضياء . ونظرنا اليها معاً .

— « هذه رِجلك اليمنى . » قالت ذلك ، ثم أعادت الصورة إلى الظرف ، وأضافت :

— « وهذه رجلك اليسرى . »

فقلت :

— « ضعيها جانباً وتعالَيْ إلى السرير . »

فقالت :

— « لا أستطيع . لقد جئت بها لأريك إياها لحظةً ثم أعود . »

وغادرتِ الغرفـة ، وبقيت مستلقيـاً هنـاك وحدي . كـان أصيلاً قائظـاً ، وكنت برِماً من الاستلقاء في السرير . وكلفت البواب أن يذهب لشراء الصحف ، لشراء جميع الصحف الـتي يستطيع الحصول عليها .

وقبل أن يرجع دخل عليّ الغرفةَ ثلاثة أطباء . لقد لاحظتُ أن الاطباء الذين يخفقون في ممارسة الطب ينزعون إلى التماس العون من زملائهم واصطحابهم حين يعودون المريض . فالطبيب العاجز عـن

استئصال زائدتك الدودية على الوجـه الملائم يشير عليك في أغلب الظن بمراجعة طبيب عاجز عن استئصال لوزتيك في نجاح . وكـان هؤلاء الاطباء الثلاثة من هذه الفئة بالذات .

وقال كبيرهم ذو اليدين الرقيقتين :

— « هذا هو الشابّ . »

فقال الطبيب الطويل المهزول ذو اللحية :

— « كيف حالك ؟ »

أما الطبيب الثالث ، الذي كان يحمل صور أشعة اكس في ظروفها الحمراء فلم يقل شيئاً .

وتساءل الطبيب الملتحي :

— « هل ننزع الضمادات ؟ »

فقال الطبيب الرئيس موجّهاً الخطاب إلى مس غايـج :

— « طبعاً ، انزعي الضمادات ، ارجوكِ ، أيتها الممرضة . »

فنزعت مس غايـج الضمادات . وخفضت بصري إلى رجليّ . لقد كانت لهما ، في مستشفى الميدان ، سيِّما شرائح لحم مشوية غـير ناضجة جداً . لقد علَتْهما الآن قشرة ، وكانت الركبة متورمة ، حائلة اللون ، وكان باطن الساق غـائراً ولكن لم يكن ثمة صديد .

وقال رئيس الأطباء :

— « نظيف جداً . نظيف جداً وجميل . »

فقال الطبيب ذو اللحية :

— « أمْـمْـمْـمْ . »

ونظر الطبيب الثالث من فوق كتف الطبيب الرئيس .

وقال الطبيب الملتحي :

— « ارجوك أن تحرك ركبتك . »

— « لا أستطيع . »

فتساءل الطبيب الملتحي :

— « هل نختبر الحركة المفصلية ؟ »

كان يحمل على ردنه ، إلى جانب النجوم الثلاثة ، شريطاً ، وهذا يعني أنه كان برتبة كابتن أول .

فأجابه الطبيب الرئيس :

— « من كل بد . »

وأمسك اثنان منهم برجلي اليمنى ، في كثير من الرفق ، ولَوَياها .

فقلت :

— « إن هذا يوجعني . »

— « نعم . نعم . إلوِها أكثر قليلاً أيها الطبيب . »

فقلت :

— « كفى . إنها لا تستطيع أن تلتوي أكثر من ذلك . »

فقال الكابتن الأول :

— « حركة مفصلية جزئية . »

وتصدّر ثم أضاف :

— « هل أستطيع أن أرى الصورة مرة أخرى ، أيها الطبيب ؟ »

فقدّم اليه الطبيب الثالث احدى الصور .

— « لا . الرجل اليسرى من فضلك . »

— « هذه هي الرجل اليسرى ، أيها الطبيب . »

— « أنت على صواب . لقد كنت أنظر من زاوية مختلفة . »

قال ذلك ، وأعاد الصورة . ثم إنه فحص الصورة الأخرى فترة من الزمن وأضاف :

— « هل ترى ، أيها الطبيب ؟ »

وأشار إلى أحد الأجسام الغريبة التي تراءت في وجه الضياء

مستديرةً واضحةً . ودرس الطبيبان الصورة برهة قصيرة .
وقال الكابتن الأول ذو اللحية :
— « شيء واحد أستطيع أن أقوله ، إنها مسألة وقت . ثلاثة أشهر ، أو ربما ستة أشهر . »
— « طبعاً . يجب أن نعطي السائل الزلالي متسعاً من الوقت حتى يتشكل من جديد . »
— « طبعاً . إنهـا مسألة وقت . أنا لا أستطيع ، ضميرياً ، أن أفتح ركبةً مثل هذه قبل أن تتكيّس القذيفة . »
— « أنا من رأيك ، أيها الطبيب . »
فسألت :
— « ستة أشهر من أجل ماذا ؟ »
— « ستة أشهر لكي تتكيّس القذيفة قبل أن تُفتَح الركبة على نحو مأمون . »
فقلت :
— « أنا لا أصدّق هذا . »
— « ألا تريد الاحتفاظ بركبتك ، أيها الشاب ؟ »
فقلت :
— « لا . »
— « ماذا ؟ »
فقلت :
— « أريد أن أقطعها لكي أقيم عليها فخاً . »
— « ماذا تعني ؟ فخّ ؟ »
فقال الطبيب الرئيس وهو يربّت على كتفي في رقة بالغة :
— « إنه يمزح . هو يريد الاحتفاظ بركبته . هذا شاب شجاع جداً . لقد رُشّح لنيل مدالية الشجاعة الفضية . »

فقال الكابتن الأول :

— « أقدّم اليك تهنئاتي كلها : »

وصافحني هازّاً يدي ، وأضاف :

— « كل ما أستطيع قوله هو أن عليك ، إذا أردت أن تكون على طرف الأمان ، ان تنتظر ستة أشهر قبل فتح ركبة كهذه : أنت حرّ طبعاً في أن تكوّن رأياً آخر : »

فقلت :

— « أشكرك كثيراً . أنا أقدر رأيك حقّ قدره : »

ونظر الكابتن الأول إلى ساعته : وقال :

— « يجب أن نذهب . أحسن تمنياتي : »

فقلت :

— « أحسن تمنياتي وشكراً جزيلاً : »

وصافحت الطبيب الثالث :

— « كابيتانو فاريني .:: »

— « تينانتي * هنري ... »

وخرجوا كلهم من الغرفة .

وصحت :

— « مس غايج ! »

فدخلت عليّ ، فقلت :

— « أرجوكِ أن تطلبي إلى الطبيب الرئيس أن يعود لحظة واحدة : »

وأقبل الطبيب ، ووقف إلى جانب السرير ، وقال :

— « هل أبديت رغبتك في الاجتماع بي ؟ »

— « نعم . أنا لا أستطيع أن أنتظر ستة أشهر لاجراء العملية

* اليفتنانت أو الملازم الأول .

الجراحية . أستحلفك بالله ، أيها الطبيب ، هل قُدّر لك في يوم من الأيام ، أن تبقى ستة أشهر في الفراش ؟ »

— « أنت لن تبقى طوال الوقت في الفراش . ينبغي أن تعرّض جراحك ، قبل كل شيء للشمس . وبعد ذلك يصبح في ميسورك أن تمشي على عكازين . »

— « طوال ستة أشهر ، وبعد ذلك تجرى لي عملية جراحية ؟ »

— « هذه هي الطريقة المأمونة . يجب أن نعطي الاجسام الغريبة وقتاً كافياً لتتكيّس والسائل الزلالي متسعاً من الوقت ليتشكل من جديد . وبعد ذلك يكون من المأمون فتح الركبة . »

— « هل تعتقد فعلاً ، أنت نفسك ، أن عليّ أن أنتظر هذه المدة كلها ؟ »

— « هذه هي الطريقة المأمونة . »

— « من هو ذلك الكابتن الأول ؟ »

— « إنه جراح ممتاز جداً من جراحي ميلانو . »

— « هو كابتن أول ، أليس كذلك ؟ »

— « اجل ، ولكنه جراح ممتاز . »

— « أنا لا أريد أن يعبث برجلي كابتن أول . لو كانت له أية قيمة اذن لرُفّع إلى رتبة مايجور . أنا أعرف ما معنى الكابتن الأول ، ايها الطبيب . »

— « إنه جراح ممتاز ، وانا افضل الأخذ برأيه على الأخذ برأي أيّ جراح أعرفه . »

— « هل يستطيع جراح آخر ان يراني ؟ »

— « طبعاً ، إذا شئت . ولكني شخصياً آخذ برأي الدكتور فاريلاّ . »

— « هل لك ان تكلف جراحاً آخر بأن يجيء ويرى رجلي ؟ »

— « سوف أسأل فالانتيني أن يجيْ . »

— « من هو ؟ »

— « انه جراح من جراحي مستشفى ماغيور . »

— « حسن . سوف أقدر لك هذا العمل إلى أبعد حد . أنت ترى ، أيها الطبيب ، أني لا أستطيع البقاء في الفراش ستة أشهر . »

— « انك لن تبقى في الفراش . سوف تعطى قبل كل شيء علاجاً شمسياً . وبعد ذلك تُعْطى تمرينات خفيفة . حتى إذا تمّ التكيّس أجرينا الجراحة . »

— « ولكني لا أستطيع أن أنتظر ستة أشهر . »

ونشر الطبيب اصابعه الدقيقة على القبعة التي كان يمسك بها وابتسم قائلاً :

— « هل أنت مستعجل إلى هذا الحد للعودة إلى الجبهة ؟ »

— « ولم لا ؟ »

فقال :

— « هذا جميل جداً . أنت شاب نبيل . »

وانحنى فوقي ، وطبع على جبيني قبلة رقيقة جداً ، ثم أضاف :

— « سوف أستدعي فالانتيني . لا تقلق ولا تطلق العنان لاعصابك . كن ولداً عاقلاً . »

فسألته :

— « ما رأيك في كأس من الخمر ؟ »

— « شكراً . أنا لا أشرب الكحول أبداً . »

— « اشرب كأساً واحدة فقط . »

وقرعت الجرس للبواب لكي يأتيني بقدحين .

— « لا . لا . أشكرك . إنهم في انتظاري . »

فقلت :

— « إلى اللقاء . »

— « إلى اللقاء . »

وبعد ساعتين دخل الدكتور فالانتيني الغرفة . كان مستعجلاً جداً ، وكان طرفا شاربيه منتصبين إلى أعلى . كان برتبة ماجور ، وكان مسفوع الوجه بأشعة الشمس ، وكان يضحك على نحو موصول .

وسألني :

— « كيف أصبت بهذا البلاء الملعون؟ دعني أرى الصورة . أجل . اجل . هذا هو . أنت تبدو سليم الصحة مثل معزاة . من هي هذه الفتاة الجميلة ؟ أهي معشوقتك ؟ لقد حسبتُ ذلك . أليست هذه حرباً لعينة ؟ هل تحسّ بشيء ؟ أنت فتىً رائع . سوف اخلقك خلقاً جديداً . هل تشعر بألم ؟ أنت تراهن أنها تؤلمك ؟ ما أشد شغف اولئك الأطباء بأيلامك ! ما الذي فعلوه من أجلك حتى الآن ؟ ألا تستطيع تلك الفتاة الكلامَ باللغة الايطالية . يجب عليها أن تتعلم . يا لها من فتاة بارعة الجمال ! إن في استطاعتي أن أعلمها . سوف أدخل أنا بنفسي هذا المستشفى كمريض يلتمس المعالجة . لا . بل إني سوف أقوم بتوليدها بالمجان . هل تفهم هي ذلك ؟ إنها سوف تُنجب لك غلاماً رائعاً . غلاماً أشقر مثلها . هذا رائع . هذا حسن . يا لها من فتاة بارعة الجمال . اسألها هل ترغب في أن تتناول طعام العشاء معي ؟ لا ، لا أريد أن أبعدها عنك . اشكرك . أشكركِ كثيراً ، أيتها الآنسة . هذا كل شيء . »

— « هذا كل ما اريد أن أعرفه . » وربّت على كتفي . « لا تستعمل الضمادات بعد الآن . »

— « ما قولك في كأس ، يا دكتور فالانتيني ؟ »

— « كأس ؟ طبعاً . أنا على استعداد لأن أشرب عشرة كؤوس .

أين هي ؟ »

— « في الخزانة . مسّ باركلي سوف تأتينا بالزجاجة . »

— « على صحتك ! على صحتك ، أيتها الآنسة . يا لها من فتاة بارعة الجمال ! سوف اجيئك بكونياك أفضل من هذا . »

قال ذلك ومسح شاربيه .

— « متى نستطيع اجراء العملية الجراحية ، في اعتقادك ؟ »

— « غداً صباحاً ، وليس قبل ذلك . يجب أن تُفْرَغ معدتك . يجب أن نعطيك مليّناً . سوف ارى السيدة العجوز في الطابق السفلي وأترك لها التعليمات الضرورية . إلى اللقاء . سوف أراك غداً . سوف آتيك بكونياك أفضل من هذا . أنت تتمتع بقسط كبير من الراحة هنا . وداعاً . إلى الغد . نم نوماً عميقاً . سوف آراك في الصباح الباكر . »

وحين انتهى إلى العتبة لوّح لي بيده . وانتصب شارباه على نحو مستقيم ، وأشرق وجهه الاسمر بالابتسام . كان ثمة على ردن سترته نجمة وسط مربّع ، لأنه كان برتبة ماجور .

الفصل السادس عشر

في تلك الليلة دخل خفاشٌ الغرفة من خلال الباب المفتوح المؤدي إلى الشرفة والذي كنا نراقب منه الليل فوق سطوح المدينة . كانت غرفتنا مظلمة جداً ، ولم يكن ثمة غير انعكاس نور الليل الباهت فوق المدينة ، ولم يكن الخفاش مذعوراً ، ولقد واصل قَنْصَهُ في الغرفة وكأنه في الخارج . كنا مُسْتلقين في سُرُرنا وكنا نراقبه ، ولست أحسب انه رآنا لأنا اعتصمنا بالسكينة . وبعد أن غادر الغرفة رأينا ضوءاً كشافاً يخترق السماء ، ثم يختفي ليسود الظلام من جديد . وهبّت أنسام الليل ، وسمعنا رجال المدفعية المضادّة للطائرات يتحدثون فوق السطح المجاور . كان الجو بارداً بعض الشيء ،وكان المدفعيون يرتدون معاطفهم . وخلال الليل خشيت ان يفاجئنا أحد، ولكن كاثرين قالت انهم جميعاً نائمون . وفي موهن من الليل استسلمنا للنوم ، حتى إذا استيقظتُ لم أجدها هناك ، ولكني سمعتها تمشي في الرواق . وفُتح الباب ، ورجعتْ إلى السّرير وقالت إن كل شيء حسن ، وإنها كانت في الدور الأرضي ، وان الجميع نائمون : لقد استرقتِ السمع من وراء باب مس فان كامبن ، فسمعتُها تتنفّس في نومها . لقد جاءت ببعض البسكويت ، فأكلنا ذلك كله واحتسينا قليلاً من الفيرموت.

لقد كنا نتضوّر جوعاً ، ولكنها قالت ان هذا كله يجب أن يُخْرَجَ مني في الصباح . وعدت فاستسلمت للرقـاد ، عند الضحى ، حتى إذا أفقتُ وجدتُ انها قـد غادرت الغرفة كرةً أخرى . ثم إنهـا أقبلتْ ناضرةً فاتنةً ، وجلست على السرير . وأشرقت الشمس وميزان الحرارة في فمي . واسترَوَحْنا الندى على السطوح ، ثم رائحةَ القهوة التي كان المدفعيون يشربونها على السطح المجاور .

وقالت كاثرين :

— « أتمنى لو كان في استطاعتنا أن نتنزّه قليلاً . ولو كان عندنا كرسيّ دوّار إذن لأقعدتك عليه ودفعتك أمامي . »

— « وكيف تستطيعين أن تجلسيني في ذلك الكرسي ؟ »

— « لن يعجزنا ذلك . »

فقلت ، وأنا أطلّ ببصري من الباب المفتوح :

— « لو تمّ لنا ذلك اذن لاستطعنا أن نخرج إلى الحديقة وأن نتناول طعام الصباح في الهواء الطلق . »

فقالت :

— « أجل ، ولكن الذي سوف نقوم به فعلاً الآن هو إعدادك لصديقك الدكتور فالانتيني . »

— « لقد بدا لي أنه مُدهش . »

— « أنا لم أحبّه بقدر ما أحببته أنت . ولكنْ يخيّل اليّ أنه طيّب جداً . »

فقلت :

— « إرجعي إلى السرير ، أرجوكِ ، يا كاثرين . »

— « لا أستطيع . ألم نقضِ ليلة حلوة ؟ »

— « وهل لا تستطيعين أن تكوني أنتِ صاحبة النوبة هذه الليلة أيضاً ؟ »

ـ « أغلب الظن اني سوف أستطيع . ولكناك لن تحتاج إليّ . »
ـ « بلى ، سأحتاج اليكِ . »
ـ « لا . لن تحتاج إليّ . أنت لم تخضع لأية جراحة من قبل : وإنك لا تدري أية حال ستكون حالك . »
ـ « سوف أكون في حال حسنة . »
ـ « إنك ستكون مريضاً ، ولن أكون أنا ذات فائدة بالنسبة إليك . »
ـ « إرجعي الآن اذن . »
فقالت :
ـ « لا . يجب عليّ أن أعِدّ سجل حرارتك ، أيها الحبيب ، وأن أحضّرك للعملية . »
ـ « أنتِ لا تحبينني حقاً . لو كنتِ تحبينني حقاً اذن لرجعتِ مرة ثانية . »
وقبّلتني قائلةً :
ـ « أنت غلام أحمق . ان سجل حرارتك ممتاز . فحرارتك هي دائماً سوية . ان لك حرارةً جميلة إلى أبعد الحدود . »
ـ « وأنتِ ، إن كل ما فيكِ جميل . »
ـ « أوه ، لا . ان حرارتك هي الجميلة . إني شديدة الفخر بحرارتك إلى حدّ فظيع . »
ـ « لعل جميع أولادنا ستكون لهم حرارات رائعة . »
ـ « أغلب الظن أن أولادنا سوف تكون لهم حرارات بهيمية . »
ـ « وما الذي ستصنعينه من أجل إعدادي للدكتور فالانتيني ؟ »
ـ « ليس شيئاً كثيراً . ولكنه غير مستساغ . »
ـ « كم أتمنى ان لا تقومي أنتِ بذلك . »
ـ « أما أنا فلا أتمنى . أنا لن أدع اىما شخص آخر يمسّك . أنا

حمقاء . ولسوف تثور ثائرتي إذا ما مسّتك أيّ منهنّ » »

— « وحتّى فيرغوسون ؟ »

— « على الاخص فيرغوسون ، وغايبج ، والأخرى ، ما اسمها ؟»

— « ووكر ؟ »

— « تماماً . إن الممرضات في هذا المستشفى يزدن عن حاجته ، ويجب أن يفد الينا بعض المرضى وإلا نُقِلْنا من هنا : نحن في الوقت الحاضر اربع ممرضات . »

— « لعل بعض المرضى يجيئون قريباً . وعندئذ تمسّ الحاجة إلى هذا العدد من الممرضات : إنه مستشفى كبير . »

— « أرجو أن نستقبل مرضى إضافيين : ما الذي سوف أصنعه إذا نقلوني من هنا ؟ إنهم لا بد ان يقدموا على ذلك إن لم يأتنا زبائن جدد : »

— « عندئذ أرحل أنا ايضاً . »

— « لا تكن سخيفاً : ليس في استطاعتك الآن أن ترحل . كل ما عليك أن تفعله هو أن تسرع في الشفاء . أيها الحبيب ، وبعد ذلك نذهب إلى مكان ما . »

— « ثم ماذا ؟ »

— « لعل الحرب أن تنتهي : فليس في إمكانها أن تظل دائرة الرحى إلى الأبد . »

فقلت :

— « سوف أشفى : فالانتيني سوف يرممني . »

— « من غير شك . ما دام يحمل مثل هذين الشاربين ! وارجوك يا حبيبي ، حين يعطونك المخدر فكّر في شيء آخر ، لا تفكر فينا نحن . لأن المرء يصبح كثير الثرثرة تحت المخدّر . »

— « ما الذي يجب أن أفكّر فيه ؟ »

— « أيّ شيء . أيّ شيء سوانا . فكر في أهلك ، بل في أية فتاة أخرى . »

— « لا . »

— « ردّد صلواتك اذن . ان ذلك لا بدّ ان يترك انطباعة رائعة . »

— « ولكني قد لا أتكلم البتة . »

— « هذا صحيح . ان الناس كثيراً ما لا يتكلمون . »

— « أنا لن أتكلم . »

— « لا تتبجّح ، أيها الحبيب : أرجوك أن لا تتبجح . أنت لطيف جداً ، ولستَ مضطراً إلى التبجح . »

— « أنا لن أقول كلمة . »

— « لا . أنت تتبجح ، أيها الحبيب . أنت تعلم أنك في غير حاجة إلى التبجح . كل ما عليك ان تفعله هو أن تبدأ بتلاوة صلواتك أو أشعارك حالما يطلبون اليك أن تأخذ نَفَساً عميقاً . انك ستكون على تلك الصورة لطيفاً جداً ، ولسوف أكون شديدة الاعتزاز بك . انني لفخورة بك على أية حال . فحرارتك رائعة جداً ، وأنت تنام مثل طفل صغير وذراعك حول الوسادة ظناً منك انها أنا . أو ظناً منك انها فتاة أخرى ، فمن يدري ؟ فتاة جميلة من فتيات ايطاليا ... »

— « إنها أنتِ . »

— « طبعاً . أوه ، إني لأحبك ، وان فالانتيني سوف يحسن اصلاح رِجلك . أنا سعيدة لعدم اضطراري إلى مراقبة ذلك . »

— « وستكون نوبة العمل من نصيبك الليلة . »

— « أجل . ولكن ذلك لن يهمّك . »

— « إنتظري وانظري . »

— « والآن ، أيها الحبيب . أنت بالغ النظافة من الداخل ومن الخارج . قل لي . كم امرأة قُدّر لك أن تحبّ ؟ »

— « لم أحب أية امرأة ؟ »

— « حتى أنا لم تحبني ؟ »

— « أجل . لقد أحببتك أنت ؟ »

— « وكم فتاة غيري ؟ »

— « أنا لم أحب أية فتاة قبلك ؟ »

— « مع كم فتاة أخرى — كيف تعبّر عن ذلك ؟ — عشْتَ قبلي ؟ »

— « لم أعش مع أية فتاة ؟ »

— « أنت تكذب عليّ ؟ »

— « نعم ؟ »

— « حسن . استمرّ في الكذب عليّ . ذلك هو الشيء الذي اريدك أن تفعله . هل كنّ جميلات ؟ »

— « أنا لم أعش مع أية فتاة قط . »

— « مفهوم . هل كنّ فاتنات إلى حد بعيد ؟ »

— « لست أدري شيئاً عن ذلك . »

— « أنت ملْك لي أنا . هذا صحيح ، وأنت لم تكن في ايما يوم من الأيام ملكاً لأحد . ولكني لا أبالي إذا ما كنتَ في يوم من الايام ملكاً لبعض الفتيات . أنا لست خائفة منهن . ولكن لا تحدّثني عنهن . عندما يمكث المرء مع فتاة من الفتيات متى تُعلمه بالثمن الذي يتعين عليه دفعه ؟ »

— « لست أدري . »

— « طبعاً . هل تقول له انها تحبه ؟ أنبئني بذلك . أنا اريد أن أعرف ذلك . »

— « نعم . إذا كان يريد منها ان تقول له هذا . »

— « هل يقول لها انه يحبها ؟ قل لي من فضلك . ان هذا مهمّ . »

— « انه يفعل إذا كان راغباً في ذلك . »
— « ولكنك لم تفعل ، اليس كذلك ؟ »
— « لا . »
— « حقاً ؟ أصدقني القول . »
فكذبتُ قائلاً :
— «لا . »
فقالت :
— « أوه ، كنت اعلم جيداً انك لم تُقدم على مثل هذا الصنيع قط . أوه ، اني احبك ، أيها العزيز . »
وفي الخارج ، كانت الشمس قد ارتفعت فوق السطوح ، وكان في استطاعتي أن أرى أنوف الكاتدرائية واشعة الشمس فوقها . كنت نظيفاً من الداخل ومن الخارج ، وكنت في انتظار الطبيب .
وقالت كاثرين :
— « هكذا اذن ؟ إنها تقول ما يريدها ان تقول تماماً ؟ »
— « ليس دائماً . »
— « ولكني سأفعل . سوف أقول ما تريدني ان أقوله تماماً ، وبعد ذلك لن تكون في حاجة إلى فتيات أخريات أبد الدهر ، اليس كذلك ؟ »
ونظرت الي في سعادة بالغة ، واضافت :
— « سوف أفعل ما تريد ، وأقول ما تريد ، وبذلك استطيع أن انعم بالفوز العظيم . أليس كذلك ؟ »
— « نعم . »
— « أيّ شيء تريدني أن أفعله الآن وقدأصبحتَ على اتم الاستعداد؟»
— « أن ترجعي إلى السرير كرة أخرى . »
— « حسن . ها أناذا . »
فقلت :

– « أوه ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، يا حبيبتي ! »

فقالت :

– « أرأيت ؟ أنا أفعل كل ما تريده . »

– « أنت فاتنة إلى أبعد الحدود . »

– « أخشى ان لا أكون قد اقنعتُ ذلك بعد : »

– « أنتِ فاتنة . »

– « أنا اريد ما تريد : لم يعد ثمة شيء اسمه أنا . لم يبق غير رغبتك . »

– « حبيبتي ! »

– « أنا طيبة . ألست طيبة ؟ انك لن تشتهي بعد اليوم اية فتاة أخرى ، أليس كذلك ؟ »

– « لا . »

– « أرأيت ؟ أنا طيبة . أنا أفعل ما تأمرني به . »

الفصل السابع عشر

وحين أفقت بعد العملية الجراحية أدركت اني لم أفقد الحياة . إنك لا تفقد الحياة . إنهم يخنقونك ليس غير . وهذا لا يشبه الموت أبداً . إنه مجرد خنق كيميائي يلجأون اليه لكي لا تحس بشيء . وفوق هذا فأنه أشبه ما يكون بالسُكْر الشديد مع فارق واحد وهو انك عندما تقيئ لا يخرج من جوفك غير الصفراء ثمّ لا تستشعر بشيء من النشاط بعد ذلك . لقد رأيت عند أدنى السرير اكياس رمل كانت تتدلى من انابيب منبثقة من القالب الجصّي . وبعد برهة رأيت مس غايج ، فقالت لي :

— « كيف أنت الآن ؟ »

فقلت :

— « أحسن . »

— « لقد أجرى لركبتك عملية رائعة . »

— « كم استغرقت ؟ »

— « ساعتين ونصف . »

— « ألم أقل شيئاً سخيفاً .؟ »

— « لم تقل شيئاً . لا تتكلم الآن . إلزم الهدوء . »

كنت خائر القوى ، وكانت كاثرين على حق . إني لم أبال بالممرضة

المكلفة بالخدمة تلك الليلة .

كان ثمة ، الآن ، في المستشفى ، ثلاثة مرضى آخرين : فتى من جورجيا يعمل في الصليب الأحمر ، وكان مهزول الجسم يشكو الملاريا، وفتى لطيف من نيويورك ، وكان مهزول الجسم أيضاً يشكو من الملاريا والبرقان ، وفتى بارعٌ حاول أن يفكّ غطاء قنبلة من قنابل شربنيل ذات الانفجار العالي ، لكي يحتفظ بذلك كتذكار . وكانت تلك من القنابل التي استعملها النمساويون في الجبال ، وكانت ذات أنف ينطلق بعد انفجار القنبلة وينفجر عند أول احتكاك .

وأحبّت الممرضات كاثرين باركلي حباً عظيماً لأنها كانت مستعدة دائماً للنهوض بعبء الخدمة الليلية . ولم يكن لديها غير عمل قليل مع الغلامين المصابين بالملاريا . وكان الغلام الذي فك لولب الغطاء صديقاً لنا ، ولم يكن يقرع الجرس في الليل الا عند الضرورة . وهكذا كنا نقضي الأوقات المتراخية ما بين المهمة والمهمة معاً . لقد أحببتها حباً جماً ، ولقد أحبتني هي .كنت أنام في ساعات النهار ، وكنا نكتب خلال أويقات يقظتنا من النهار رسائل يبعث بها أحدنا إلى الآخر من طريق فيرغوسون . لقد كانت فيرغوسون فتاة طيبة . ولم أعرف قط شيئاً عنها ، باستثناء أنّ لها أخاً في الفرقة الثانية والخمسين وأخاً في العراق ، ولقد كانت مخلصة جداً لكاثرين باركلي .

وقلت لها مرةً :

— « هل ترغبين في أن تشهدي حفلة زواجنا في المستقبل ، يا فيرغي ؟ »

— « إنكما لن تتزوجا ابداً . »

— « بلى ، سنتزوج . »

— « لا . لن تتزوّجا . »

— « ولم لا ؟ »
— « سوف تتخاصمان قبل أن تتزوّجا . »
— « اننا لا نتخاصم ابداً . »
— « لا يزال امامكما متسع من الوقت . »
— « اننا لن نتخاصم . »
— « سوف تموت انت اذن . إما الخصام وإما الموت . ذلك ما يفعله الناس . إنهم لا يتزوجون . »
وبسطتُ يدي إلى يدها . فقالت :
— « لا تلمسني . أنا لا ابكي . لعلكما أن تَسلما انتما الاثنين . ولكن انتبه . حذارِ ان توقعها في بلاء ما . إذا ما أوقعتَها في بلاء ما ، فعندئذ أقتلك . »
— « لن أوقعها في أيّ بلاء . »
— « انتبه جيداً اذن . أرجو أن تكون في خير . هل تقضيان وقتاً طيباً ؟ »
— « أجل ، نحن نقضي وقتاً طيباً . »
— « لا تقاتل اذن ، ولا توقِعْها في البلاء . »
— « اني لن أوقعها . »
— « خذ حذرك . أنا لا أريد ان اراها مع أيّ من غلمان الحرب هؤلاء . »
— « أنتِ فتاة رائعة ، يا فيرغي . »
— « لا . لستُ كذلك . لا تحاول ان تتملّقني . كيف رِجلك ؟ »
— « ممتازة . »
— « ورأسك ؟ »
ومسّت أعلاه بأصابعها . كان حسّاساً مثل رِجْلٍ اصابها التنميل .
— « إنه لم يزعجني قط . »

— « في استطاعة ورم مثل هذا أن يُطير صوابك . وتقول انه لم يزعجك قط ؟ »

— « لا . لم يزعجني . »

— « أنت شاب محظوظ . هل أنهيتَ رسالتك ؟ سوف أنزل إلى تحت . »

فقلت :

— « ها هي الرسالة . »

— « يجب أن تطلب اليها ان لا تقوم بمهام الخدمة الليلية فترة قصيرة . لقد امست متعبة جداً . »

— « حسن . سوف أفعل . »

— « لقد عرضت عليها ان أحلّ محلها ولكنها تأبى . والممرضات الأخريات سعيدات بتركها تنهض بهذا العبء . إن من الخير ان تعطيها فترة راحة قصيرة ليس غير . »

— « حسن . »

— « لقد تحدّثت مسّ فان كامبن مرة فقالت انك تظل نائماً حتى الظهر .. »

— « لا أستغرب ذلك . »

— « من الافضل أن تريحها من الخدمة الليلية فترة قصيرة . »

— « هذا ما أرغب فيه . »

— « لا . أنت لا ترغب . ولكن اذا استطعت حملها على ذلك ازددت احتراماً لك . »

— « سوف أحملها على ذلك . »

— « لست أصدق هذا . »

واخذتِ الرسالة وخرجت . وقرعتُ الجرس ، فأقبلت مس غايج في الحال .

— « ما المسألة ؟ »

— « لا شيء . ولكني أردت أن أتحدث اليك . ألا تعتقدين أن مس باركلي يجب أن تهجر الخدمة الليلية فترة قصيرة ؟ إنها تبدو مُتعبة الى حدّ رهيب . لماذا تسهر الليالي على هذا النحو منذ زمن بعيد ؟ »

فحدّقت اليّ مس غايج ، وقالت :

— « أنا صديقتك . انت في غير حاجة الى ان تتحدث معي على هذه الشاكلة . »

— « ماذا تعنين ؟ »

— « لا تتظاهر بالبله . أهذا كل ما أردته مني ؟ »

— « هل ترغبين في كأس من الفيرموت ؟ »

— « حسن . وبعد ذلك يتعين عليّ أن أذهب . »

وأخرجتِ الزجاجة من الخزانة ، وجاءت بكأس .

فقلت :

— « خذي الكأس أنت . أما أنا فسأشرب من الزجاجة . »

فقالت مس غايج :

— « على صحتك ! »

— « ماذا قالت فان كامبن عن نومي حتى ساعة متأخرة من الصباح ؟ »

— « لا شيء . مجرد ثرثرة . انها تدعوك مريضنا المدلّل . »

— « فلتذهب الى الجحيم ! »

فقالت مس غايج :

— « انها ليست خبيثة . إنها عجوز وعصبية المزاج ليس غير . إنها لم تحبك في يوم من الايام . »

— « أعرف ذلك . »

— « حسناً . أما أنا فعلى العكس . أنا صديقة لك . لا تنسَ هذا . »

— « انت رائعة الى حد رهيب . »

— « لا . أنا أعرف من هي الرائعة في نظرك . ولكني صديقتك ؛ كيف رجلك الآن ؟ »

— « جيدة جداً . »

— « سوف آتي بشيء من الماء المعدني البارد لاسكبه عليها . لا ريب في انها تحكّك تحت هذا القالب الجصّي . الجو حار في الخارج . »

— « أنت رائعة الى حد رهيب . »

— « هل تحكّك كثيراً ؟ »

— « لا . انها جيدة . »

وانحنت قليلاً وقالت :

— « سوف أسوّي هذه الاثقال على نحو أفضل . أنا صديقة اك . »

— « أعرف ذلك . »

— « لا . أنت لا تعرف . ولكنك سوف تعرف في يوم من الايام . »

وهجرت كاثرين باركلي الخدمة الليلية ثلاث ليالٍ متواصلة ثم استأنفتها من جديد . لقد شعرنا وكأننا التقينا كرة ثانية بعد أن قام كل منا برحلة طويلة ؛

الفصل الثامن عشر

لقد قضينا وقتاً طيباً ، ذلك الصيف . وحين كان في ميسوري مغادرة الغرفة كنت أركب متن عربة وأطوّف في الحديقة العامة . أنا أذكر العربة ، والجواد يمشي وئيداً ، وظهرَ السائقِ ، أمامنا ، وقد اعتمر بقبعته العالية المُتَمَرْنشة ، وكاثرين باركلي جالسة بقربي . كان تماسّ أيدينا ، مجردُ التقاء جانب يدي بجانب يدها ، كافياً لان يثير اهتياجنا . وبعد ذلك حين أمسى في استطاعتي أن أسير على عكازين كنا نذهب لتناول طعام العشاء في مطعم « بيفي » أو « الغران إيتاليا » ، وكنا نجلس الى الموائد الممدودة في الخارج على أرضية الرواق . كان النُدُل يدخلون ويخرجون ، وكان ثمة أناس يروحون ويجيئون ، وكانت على الموائد شموع تلقي ظلالها على الاغطية ، وبعد أن قررنا أننا نؤثر « الغران ايتاليا » حجز لنا جورج ، كبير الندل ، احدى الموائد . كان نادلاً بارعاً ، وكنا نسأله أن يطلب لنا الطعام فيما نحن ننظر الى الناس والى الرواق الكبير في الغسق ، وفيما نحن نتبادل النظرات ايضاً . لقد شربنا « كابري » أبيض غير حلو مثلجاً في دلو ، على الرغم من أننا جرّبنا كثيراً من الخمور الأخرى ، كالفريزا ، والباربيرا ، وبعض الخمور الحلوة البيضاء . ولم يكن عندهم ساقي خمر بسبب من الحرب ،

وكان جورج يبتسم في خجل كلما سألته عن خمور مثل الفريزا ،
وقال :
— « تخيّل ان بلداً يصنع ضرباً من الخمر لأن مذاقها كمذاق الفريز . »
فتساءلت كاثرين :
— « ولم لا ؟ يبدو لي أن ذلك شيء رائع . »
فقال جورج :
— « ذوقيها ، ايتها السيدة ، اذا شئت . ولكن دعيني أحمل زجاجة صغيرة من المارغو الى الملازم الأول . »
— « سوف أذوقها أنا أيضاً ، يا جورج . »
— « سيدي ، أنا لا أستطيع أن أنصحك بذلك . إنها خلوٌ حتى من نكهة الفريز . »
فقالت كاثرين :
— « من يدري ؟ ولا ريب في انها تكون رائعة إذا كان لها مثل تلك النكهة . »
فقال جورج :
— « سوف آتي بها ، حتى اذا نالت سيدتي كفايتها منها أرجعتها. »
إنها لم تكن خمراً بالمعنى الصحيح : ولم يكن لها ، كما قال جورج ، حتى نكهة الفريز . ورجعنا الى كابري . وذات ليلة أعوزني المال ، فأقرضني جورج مئة لير وقال :
— « لا بأس ، ايها الملازم . أنا أعرف كيف يحدث ذلك . أنا أعرف كيف يفتقد المرء المال . اذا احتجت أنت أو السيدة الى مال فاذكرا أن لديّ دائماً بعض المال . »
وبعد العشاء تمشّينا في الرواق مجتازين بالمطاعم الاخرى وبالمخازن التجارية وقد أنزلت مصاريع نوافذها الحديدية ، ووقفنا عند الدكان

الصغير الذي يبيعون فيه الساندويش : ساندويشات لحم الخنزير ، وساندويشات الخس ، وساندويشات الانشوفة * المصنوعة من أرغفة صغيرة جداً سمراء مصقولة لا يزيد طولها على طول إصبعك . وكانت هذه الساندويشات مُعدّة للاكل في موهن من الليل حين يستبدّ بنا الجوع . ثم اننا امتطينا عربة مكشوفة خارج الرواق تجاه الكاتدرائية ورجعنا الى المستشفى . وعند باب المستشفى أقبل البواب لكي يساعدني على اصطناع العكازين . ودفعت الاجرة الى السائق ، ثم صعّدنا بالمصعد. وغادرت كاثرين المصعد عند الطابق الثاني حيث تسكن الممرضات ، وتابعت أنا صعودي واجتزت البهو ، على عكّازيّ ، الى غرفتي . كنت في بعض الاحيان أخلع ملابسي وآوي الى فراشي ، وكنت في أحيان أخرى اجلس على الشرفة رافعاً رجليّ على كرسي آخر وأراقب السنونو فوق السطوح وأنتظر كاثرين . حتى اذا ارتقت السلم كنت استشعر وكأنها رجعت من رحلة طويلة ، وأجتاز الردهة معها على عكازيّ . كنت أحمل الطسوت وأنتظر خارج الابواب ، أو أدخل الغرفة معها . وكل ذلك كان يتوقف على الجماعة ومدى صداقتها لنا ، حتى اذا أتمّت كل ما كان يتعيّن عليها أن تفعله جلسنا على الشرفة خارج غرفتي . وبعد ذلك كنت آوي الى فراشي . حتى اذا نام القوم كلهم ، ووثقتْ من أن أحداً لن يستدعيها ، انسلّت الى غرفتي . كنت أحبّ أن أحلّ شعرها ، وكانت تجلس على السرير وتعتصم بالسكينة البالغة ، منحنية فجأة لتقبّلني وأنا أفعل ذلك ، فكنت أسحب الدبابيس وأضعها على غطاء السرير فيتهدل شعرها ، فاراقبها وهي معتصمة بالسكون البالغ ، ثم أسحب الدبوسين الأخيرين فينهار شعرها كله ، فتخفض رأسها فاذا بشعرها يحتوينا ، أنا وهي ، ونستشعر وكأننا داخل خيمة أو خلف شلال .

---

* الانشوفة نوع من السمك . ويعرف ايضاً بالأنشوا (Anchovy — Anchois)

كان لها شعر جميل الى حد رائع ، فكنت استلقي بعض الاحيان وأراقبها وهي تفتله في الضياء المنبعث من الباب المفتوح ، ولقد كان يلتمع حتى في الليل كما يلتمع الماء قبيل الفجر في بعض الأحيان. وكان لها وجه وسيم وجسد فاتن وبشرة ناعمة بهية أيضاً . كنا أحياناً نستلقي على السرير معاً ، فألمس وجنتيها وجبينها وما تحت عينيها وذقنها وحنجرتها بأناملي وأقول : « ناعمة مثل أصابع البيانو » ، فتلمس هي ذقني بأصبعها وتقول : « ناعمة مثل ورق الصنفرة * وقاسية جداً على أصابع البيانو ! »

— « أهي خشنة ؟ »

— « لا ، يا حبيبي . كنت أمزح ليس غير . »

كانت الليالي رائعة ، وكنا نشعر بفيض من السعادة إذا ما وفق أحدنا إلى أن يمس الآخر . وعلاوة على لحظات البهجة الكبرى كان لدينا كثير من الطرائق الصغيرة للتعبير عن حبنا ، ولقد حاولنا أن ننقل ما يجول في خاطر أحدنا إلى خاطر الآخر حين نكون في غرفتين مختلفتين . وبدا وكأننا نجحنا في ذلك احياناً . ولكن هذا كان راجعاً ، في ارجح الظن ، إلى أننا كنا نفكر في الشيء نفسه في آن معاً .

وقال كل منا للآخر إننا متزوجان منذ اليوم الأول لمجيئها إلى المستشفى ، وكنا نعد الشهور ابتداء من يوم زفافنا . لقد اردت أن أكون متزوجاً فعلاً ، ولكن كاثرين قالت إننا إذا فعلنا ذلك أبعدوها عن المستشفى ، وإننا إذا بدأنا باتخاذ الاجراءات الشكلية فلا بد أن يراقبوها وأن يشوش ذلك حياتنا . كان علينا ان نعقد القران وفقاً للقانون الايطالي ، وكانت الاجراءات الشكلية فظيعة . كنت راغباً في الزواج الفعلي لأني خشيت ، كلما فكرت في ذلك ، أن ننجب ولداً ، ولكنا خيلنا لنفسينا اننا متزوجان ، ولم نشغل بالنا بذلك كثيراً ، وأحسب

* ورق الصنفرة هو المعروف عند العوام بـ« ورق القزاز » ويستعمل لصقل الخشب وغيره.

اني كنت سعيداً بعدم الزواج حقاً . وأذكر أنا تحدثنا في هذا الموضوع ذات ليلة ، فقالت كاثرين :

— « ولكنهم سوف يبعدونني ، أيها الحبيب ! »

— « ومن يدري ، لعلهم أن لا يبعدوك . »

— « بلى ، سيفعلون . إنهم سوف يرسلونني إلى بلادي ، وعندئذ يُفرَّق ما بيننا حتى نهاية الحرب . »

— « سوف أزورك في إجازة . »

— « إنك لن تجد متسعاً من الوقت للمجيء إلى اسكتلندة والعودة منها خلال الايام المعدودة التي تتألف منها إجازتك . وإلى هذا ، فأنا لن أتركك . وأيّ فائدة تعود علينا من الزواج الآن ؟ نحن متزوجان فعلاً . أنا لا أستطيع ان أكون متزوجة أكثر مني الآن . »

— « لقد أردت ذلك من أجلكِ أنتِ . »

— « ليس هناك شيء اسمه أنا . أنا أنت . لا تجعل مني كينونة مستقلة . »

— « لقد حسبتُ أنّ الفتيات يرغبن دائماً في الزواج . »

— « أجل انهن يرغبن في ذلك . ولكني متزوجة ، يا عزيزي . أنا متزوجة منك . ألستَ تعتبرني زوجة طيبة ؟ »

— « أنتِ زوجة فاتنة . »

— « أنت تعلم ، يا حبيبي ، أنه قُدِّر لي قبل اليوم أن انتظر عقد قراني .

— « لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك . »

— « أنت تعرف اني لا أحب احداً غيرك . ينبغي أن لا تغضب إذا ما أحبني رجل آخر . »

— « إن ذلك يغضبني . »

— « ينبغي أن لا تأخذك الغيرة من رجلٍ ميت ، في حين أنك

تملك كل شيء . »

— « لا ، ولكني لا أريد أن اسمع شيئاً عن ذلك . »

— « يا حبيبي المسكين ! وأنا أعلم أنك عشت مع جميع أنواع النساء ولا أجد في ذلك أيّ بأس . »

— « أليس في استطاعتنا أن نتزوج سراً بطريقة أو بأخرى ؟ حتى إذا ما أصابني شيء أو وضعتِ أنتِ ولداً ... »

— « ليس ثمة غير طريقتين للزواج : الطريقة الكنسية والطريقة المدنية . نحن متزوجان سراً . ولقد كان خليقاً بي ، أيها الحبيب ، أن أعلّق أهمية عظمى على ذلك لو كان لي أيما دين . ولكني لا دِين لي . »

— « لقد قدّمتِ اليّ القديس انطوني . »

— « كان ذلك من أجل الحظ . لقد قدّمه الي شخص ما . »

— « وإذن فليس هناك ما يثير قلقك ؟ »

— « مجرد التفكير بأني قد أنْفصَل عنك . أنت ديني . أنت كل ما أملك . »

— « حسن . ولكني سأتزوجكِ يومَ ترغبين في ذلك . »

— « لا تتكلم وكأنه كان عليك أن تجعل مني امرأة شريفة . أنا امرأة شريفة جداً . انك لا تستطيع أن تخجل من شيء إذا كنت سعيداً به معتزاً بامتلاكه . ألست أنت سعيداً ؟ »

— « ولكنكِ لن تتركيني مفضلةً عليّ شخصاً آخر ؟ »

— « لا يا حبيبي . أنا لن أفضل عليك شخصاً آخر . إني أتوقع أن تُلمّ بنا ضروب الاشياء الرهيبة . ولكن في استطاعتك أن تطمئن من هذه الناحية . »

— « أنا مطمئن . ولكني احبك حباً جماً ، ولقد أحببتِ أنتِ شخصاً آخر من قبل . »

— « وماذا أصابه ؟ »

— « لقد مات . »

— « أجل ، ولو لم يفعل لما قُدّر لي أن أجتمع بك . أنا لستُ خائنة ، أيها الحبيب . إن لي اخطاء كثيرة ، ولكني شديدة الاخلاص . ولسوف تتضايق وشيكاً من شدة اخلاصي . »

— « يتعين عليّ أن أرجع إلى الجبهة في وقت قريب جداً . »

— « لن نفكر في ذلك حتى تذهب . أنت ترى اني سعيدة ، أيها الحبيب ، وأننا نقضي وقتاً رائعاً . أنا لم أعرف السعادة منذ عهــد بعيد ، وحين التقيت بك كدت أصاب بالجنون . بل لعلي جُننت حقاً . أما الآن فنحن سعيدان ، وإن كلاً منا ليحب الآخر . لنكُنْ سعيدين ، بكل بساطة . أنت سعيد ، أليس كذلك ؟ هل أقوم أنا بأيّ عمل لا تحبه ؟ هــل أستطيع ان افعل شيئاً ما لكي أرضيك ؟ أتحبّ أن أحلّ شعري ؟ أتحب ان تلعب ؟ »

— « نعم ، وتعالي إلى السرير . »

— « حسن . سوف أذهب وأرى المرضى أولاً . »

الفصل التاسع عشر

وانقضى الصيف على هذا النحو . ولست أتذكر شيئاً كثيراً عن الأيام ، باستثناء أنها كانت حارّة ، وأنه كان ثمة انتصارات عسكرية كثيرة في الصحف . لقد كنت أتمتع بصحة جيدة جداً ، ولقد شفيتْ رجلاي في سرعة ، فلم تكد تنقضي فترة قصيرة على اصطناعي للعكازين حتى استغنيت عنهما وأخذت أمشي على عصا . وبعد ذلك خضعت للمعالجة في مستشفى ماغيور من أجل تَنْي الركبتين : معالجة ميكانيكية ، انشواء في صندوق من المرايا مفعم بالأشعة البنفسجية ، وتدليك ، وحمامات . كنت اذهب إلى هناك عند الأصيل ، وبعد ذلك كنت أعرّج على المقهى فأشرب كأساً من الخمر وأطالع الصحف . ولم أكن أطوّف في المدينة ، ولكني كنت ارغب في العودة إلى غرفتي في المستشفى حالَ خروجي من المقهى . كل ما كنت أطمع فيه هو أن أرى كاثرين . وفي ما عدا ذلك ، لم أكن أفكّر إلاّ في قتل الوقت . وفي معظم الاحوال كنت أنام في الأصباح ، وفي ساعات الأصيل ، وفي بعض الاحيان كنت أشهد سباق الخيل ، وعند المساء أمضي لأخضع للمعالجة الميكانيكية . ومرة بعد مرّة كنت اعرّج على النادي الانجلو أميركي وأسترخي في كرسي عميق مفروش بالجلد ، تجاه النافذة ، وأطالع

المجلات . لقد كان محظّراً علينا أن نتنزه معاً ، بعد استغنائي عن العكازين ، لأنه لم يكن من اللائق أن تُرى احدى الممرضات ، غير مصحوبة بوصيفة ما ، مع جريح لا يبدو محتاجاً إلى رعاية ، وهكذا ما كنا نجتمع كثيراً في ساعات الأصيل . ومع ذلك ، فقد كان في استطاعتنا ، احياناً ، أن نغادر المستشفى ونتناول طعام العشاء إذا ما رافقتنا فيرغوسون . كانت مس فان كامبن قد تقبّلت وَضعْنا كصديقين حميمين لأنها كانت تنتزع من كاثرين مقداراً كبيراً من العمل . كانت تعتقد أن كاثرين تنتمي إلى أسرة رفيعة جداً ، وهذا ما جعلها تحابي كاثرين آخر الامر . فقد كانت مس فان كامبن تعلّق أهمية كبرى على مسألة الأسْرة ، وكانت هي نفسها تنتسب إلى اسرة ممتازة . وكان المستشفى غاصاً بالمرضى أيضاً ، وهذا ما أبقاها مشغولة دائماً . ولم يكن الصيف صيفاً قائظاً ، ولقد كنت أعرف كثيراً من الناس في ميلانو ، ولكنني كنت شديدة التوق دائماً إلى غرفتي في المستشفى حالما تؤذن الشمس بالمغيب . وفي الجبهة كانت القوات الايطالية تتقدم في نجاد الـ « كارسو » ، وكانت قد استولت على « كوك » ، من الناحية الأخرى من « بلافا » ، وشرعوا في الاستيلاء على نجاد بينسيزا . أما الجبهة الغربية فلم تَبْدُ على مثل هذا الاشراق . لقد تراءى وكأن الحرب سوف تستمرّ دهراً طويلاً . وكانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الآن ، بيد اني اعتقدت اننا نحتاج إلى عام كامل لكي نستقدم عدداً كبيراً من المحاربين وندرّبهم على القتال . ان السنة التالية سوف تكون سنةً رديئة ، ومن يدري فقد تكون سنة طيبة . كان الايطاليون قد دفعوا إلى المعركة عدداً هائلاً من الرجال . وما كنت لأفهم كيف يمكن لذلك الوضع أن يستمرّ . وحتى لو استولوا على كامل البينسيزا وجبل سان غابرييل فعندئذ تظل في أيدي النمسويين ، وراءها ، جبال كثيرة . لقد رأيتُ تلك الجبال . كانت جميع الجبال الاكثر

ارتفاعاً واقعة خلف البينسيزا وسان غابرييل . وفي نجاد الـ « كارسو » كانوا يتقدمون ، ولكن كان في السفوح ، المجاورة للبحر ، سباخ ومستنقعات . ولقد كان خليقاً بنابوليون ان يجلد النمسويين في السهول ، ولكنه ما كان ليحاربهم في الجبال أبداً . أغلب الظن أنه كان قميناً بأن يدعهم يهبطون ويجلدهم قرب فيرونا . ومن يدري ، لعل الحروب ما عادت تُكسَب بعد اليوم . لعلّها أمست تستمرّ إلى الأبد : لعلها كانت حربَ مئة عام جديدة . وأعدت الجريدة إلى موضعها وغادرت النادي . وهبطت درجات السلم في احتراس وعدت فصعّدت في الـ « فيا مانزوني » . وأمام « الاوتيل الكبير » التقيت ميارز العجوز وزوجته يترجّلان من عربة . كانا عائدين من سباق الخيل : وكانت هي امرأة ضخمة الصدر ترتدي ملابس من الساتان الأسود . كانت قصيرة القامة ، عجوزاً ، ذات شاربين ابيضين ، وكانت تمشي مبسوطة القدمين * متوكئة على عصا .

— « كيف حالك ؟ كيف حالك ؟ »

قالت ذلك وصافحتني .

ثم قال ميارز :

— « هالو ! »

— « كيف كانت حفلة السباق ؟ »

— « رائعة : رائعة فعلاً . إن ثلاثة من الجياد التي راهنت عليها، جاءت مجلية : »

وسألتُ ميارز قائلاً :

— « وأنت ، كيف كان حظك ؟ »

— « حسن : لقد جاء واحد من الجياد التي راهنت عليها مجلياً . »

---

flat - footed *

فقالت السيدة ميارز :

— « أنا لا أعرف شيئاً عن حاله . إنه لا يخبرني البتة . »

فقال ميارز في لهجة ودية :

— « أنا بخير . إن عليك أن تغادر المستشفى . »

وفيما كنا نتحدث كان يخيّل إليّ ان ميارز لم يكن ينظر إليّ ، أو أنه كان يحسبني رجلاً آخر .

فقلت :

— « سوف أفعل . »

فقالت السيدة ميارز :

— « لقد جئت إلى المستشفى لأراك . إنّ عندي أشياء لأولادي . انتم جميعاً أولادي . انتم من غير شك أولادي الأعزاء . »

— « انهم سوف يكونون سعداء برؤيتك . »

— « يا لأولادي الأعزاء ! وأنت أيضاً ! أنت أحد أولادي . »

فقلت :

— « يتعين علي أن أرجع . »

— « أبلغْ حبي جميعَ اولئك الغلمان الاعزاء . إنّ عليّ أن أحمل اليهم أشياء كثيرة . إن عندي « مارسالا » و « كاتو » من النوع الفاخر . »

فقلت :

— « إلى اللقاء . انهم سوف يسعدون برؤيتك إلى حد فظيع . »

فقال ميارز :

— « إلى اللقاء . تعال إلى الـ « غاليريا » . أنت تعرف اين مائدتي. إنا جميعاً نذهب إلى هناك كل أصيل . »

وصعّدت في الشارع . لقد أردت أن أشتري من الـ « كوفا » شيئاً أقدمه إلى كاثرين . وهكذا اشتريت من الـ « كوفا » علبة من

الشوكولا ، وفيما الفتاة تلفّها لي مضيت إلى المشرب . كان ثمة انكليزيان وبضعة طيارين . فاحتسيت وحدي شيئاً من المارتيني ، ودفعت الثمن ، ثم أخذت علبة الشوكولا من المنضدة الخارجية ، ورجعت إلى غرفتي في المستشفى . وأمام البار الصغير غير البعيد عن ال « سكالا » كان اناس أعرفهم : نائب قنصل ، وشخصان يدرسان الغناء ، وإيتور موريتي وهو إيطالي من سان فرانسسكو يخدم في الجيش الايطالي . واحتسيت معهم كأساً . وكان أحد المغنيَين يدعى رالف سيمونز ، وكان يغني متخذاً هذا الاسم الفنيّ : آنريكو ديلكريدو . ولم أدر قط مدى اجادته للغناء ، ولكنه كان دائماً على أهبة حدث هائل . كان بديناً ، وكان يبدو ناصل اللون حول الانف والفم وكأنه مصاب بحمّى القَشّ . كان قد غنّى في الـ « بيياسينزا » ورجع . كان قد غنّى « توسكا » ، ولقد كان موفقاً في أدائها إلى حد رائع .

وقال :

— « لا ريب في انك لم تسمعني قط أغني . »

— « متى ستغنّي هنا ؟ »

— « سوف أعمل في الـ « سكالا » في الخريف . »

فقال إيتور :

— « اراهن انهم سوف يقذفونك بالمقاعد الخشبية . هل سمعتَ كيف قذفوه بالمقاعد الخشبية في مودينا ؟ »

— « إنها كذبة لعينة . »

فقال ايتور :

— « لقد قذفوه بالمقاعد الخشبية . أنا كنت هناك . لقد قذفته أنا نفسي بستة مقاعد . »

— « أنت لست غير دجال من فريسكو . »

فقال ايتور :

— « هو لا يحسن النطق بالايطالية . وحيثما ذهب قذفوه بالمقاعد . »

فقال الصادح الآخر :

— « إن البياسانتزا من أقذر الصالات في شمال ايطالية . صدقني إذا قلت لك انها علبة صغيرة يكاد يتعذّر على المغني الانشاد فيها . »

كان هذا الصادح يدعى ادغار ساوندرز ، وكان اسمه الفني ادواردو جيبوفاني .

فقال إيتور :

— « أتمنى لو أكون هناك لكي أراهم يقذفونك بالمقاعد الخشبية ؛ أنت لا تستطيع الغناء بالايطالية . »

فقال ادغار ساوندرز

— « إنه أحمق . القذف بالمقاعد ، هذا كل ما يقدر على قوله . »

فقال إيتور :

— « هذا كل ما يقدرون على فعله عندما تغنيان انتما الاثنان ؛ وبعد ذلك عندما تعودان إلى أميركا فسوف تتحدثان عن انتصاراتكما في الـ « سكالا » . إنهم لن يتركوكما تُنْهيان النغمة الأولى في السكالا . »

فقال سيمونز :

— « سوف أغني في الـ « سكالا » . سوف أغني « توسكا » في تشرين الأول . »

فقال إيتور لنائب القنصل :

— « سوف نذهب إلى هناك ، أليس كذلك يا ماك ؟ انهما سيكونان في حاجة إلى من يحميهما . »

فقال نائب القنصل :

— « لعل الجيش الأميركي سيكون هنـاك لحمايتها . هـل ترغب في كـأس أخرى ، يا سيمونز ؟ أتريد كأساً ، يا ساوندرز؟ »

فقال ساوندرز :

— « لا مانع . »

ووجّه إيتور الخطاب إليّ فقال :

— « سمعت انك سوف تُمنح المدالية الفضية . أيّ نوع من التقدير سوف تنال ؟ »

— « لست أدري . لست أدري أني سأنال وساماً . »

— « بل ستنال وساماً . أوه ، أيها الغلام ، إن فتيات الـ « كوفا » سوف يَجدْنك رائعاً عندئذ . سوف يعتقدن كلهن انك قتلتَ مئتي نمسوي واستوليت بنفسك على خندق كامل . صدّقني ، لقد كان عليّ أن أسعى للحصول على أوسمتي . »

فسأله نائب القنصل :

— « كم وساماً تحمل ؟ »

فقال سيمونز :

— « إنه يحمل الاوسمة كلها . إنه الفتى الذي تدور رحى الحرب من أجله . »

فقال إيتور :

— « لقد نلتُ المدالية البرونزية مرتين ، والمدالية الفضية ثـلاث مرات . ولـكن لم تصلني حتى الآن غير براءة احـدى هـذه المداليات . »

فسأله سيمونز :

— « والبراءات الاخرى ؟ »

فقال إيتور :

— « كان العمل مخفقاً . وحين يكون العمل مخفقاً فأنهم يحتجزون

المداليات جميعاً . »

— « كم مرة جُرحت يا إيتور ؟ »

— « ثلاث مرات جراحاً خطيرة . أنا أحمل ثلاثاً من أشرطة الجراح . هل ترى ؟ »

قال ذلك ورفع ردنه . كانت الأشرطة ثلاثة خطوط فضية متوازية على خلفية سوداء خيطت إلى قماش الردن تحت الكتف بثمانية إنشات . فالتفت إيتور إليّ وقال :

— « وأنت أيضاً تحمل شريطاً من مثل هذه الاشرطة. صدقني إذا قلت لك إنها رائعة . انا أفضّلها على المداليات . صدقني ، أيها الغلام ، إنك حين تفوز بثلاثة تكون قد فزت بشيء . ان المرء لا يُمنح شريطاً منها إلا لقاء جرح يبقيه طريح المستشفى ثلاثة أشهر . »

فسأله نائب القنصل :

— « أين جُرحت ، يا ايتور ؟ »

فرفع إيتور ردنه كاشفاً عن الندبة الحمراء العميقة الملساء ، وقال :

— « هنا ، وهنا في رجلي ، أنا لا أستطيع أن أريك هذه لأنني اطوّق ساقي بوقاء ، وفي القدم . إن ثمة في قدمي عظماً ميتاً لا يزال منتناً حتى هذه اللحظة . وكل صباح أنتزعُ قطعاً صغيرة جديدة ، وهو يُنتن دائماً على نحو موصول . »

فسأله سيمونز :

— « بأي شيء جُرحت ؟ »

— « قنبلة يدوية . احدى ساحقات البطاطا تلك . لقد أطارت جانباً كاملاً من قدمي . أنت تعرف ساحقات البطاطا تلك ، أليس كذلك ؟ »

قال ذلك والتفت إليّ .
— « طبعاً . »
فقال ايتور :
— « لقد رأيت ابن الزانية يقذف بهـا . لقد صرعتني ، وظننت اني قد متّ في الحال ، ولكن ساحقات البطاطا اللعينات هذه ليس في جوفها شيء . وقتلت ابنَ الزانية بنار بندقيّي . أنا أحمل بندقيـة ، دائماً ، لكي لا يدركوا اني ضابط . »
فسأله سيمونز :
— « كيف بدا عندئذ ؟ »
فتابع ايتور كلامه قائلاً :
— « كانت تلك هي القنبلة الوحيدة التي يملكها. ولست أدري لماذا قذف بهـا . يخيّل إليّ انـه كان يطمح دائماً إلى أن يلقي قنبلة من القنابل .. ولعله لم يشهد قط قتالاً حقيقياً ، لقد قتلتُ ابنَ الزانية في الحال . »
فسأله سيمونز :
— « كيف بدا حين قتلته ؟ »
فقال إيتور :
— « يا للجحيم ! ومن أين أعرف ؟ لقـد أصبتـه في بطنـه . لقد خشيت أن أخطيء الهـدف إذا صوبت النار إلى رأسه . »
فسألته :
— « منذ متى رقيت إلى درجة ضابط ، يا ايتور ؟ »
— « منذ سنتين . سوف أصبح رئيساً (كابتن) . منذ متى أصبحت أنت ملازماً أول ؟ »
— « منذ ثلاث سنوات . »
فقال إيتور :
— « ليس في إمكانك أن تصبـــح رئيساً (كابتن) لأنك

لا تعرف اللغة الايطالية معرفة حسنة . أنت تستطيع أن تتكلم ، ولكنك لا تحسن القراءة والكتابة . ينبغي أن تنعم بثقافة ما لكي تكون رئيساً . لماذا لا تلتحق بالجيش الأميركي ؟ »

— « من الجائز أن أفعل . »

— « يا الهي . شدّ ما أتمنى لو أستطيع أنا ذاك . كم يبلغ راتب الكابتن ، يا ماك ؟ »

— « لست أدري على وجه الضبط . حوالى مئتين وخمسين دولاراً ، في ما أظن . »

— « يا للمسيح ! ما أكثر الأشياء التي أستطيع القيام بها بمئتين وخمسين دولاراً ! من الخير لك أن تسارع إلى الالتحاق بالجيش الاميركي ، يا فْرِدْ . ولعلك ان تجد وسيلةً لأدخالي أنا أيضاً . »

— « حسن . »

— « أنا أستطيع أن أقود سرية بالايطالية . وفي ميسوري أن أتعلم كيف أفعل ذلك بالانكليزية ، في سهولة . »

فقال سيمونز :

— « ولسوف تصبح جنرالاً . »

— « لا . إن ثقافتي لا تؤهلني لرتبة جنرال . الجنرال يجب أن يعرف أشياء كثيرة إلى حد رهيب . أنتم فتية مضحكون . انكم تحسبون أن الحرب مهزلة : انتم لا تملكون من المخ مقداراً يؤهلكم لأن تكونوا عُرَفاء من الدرجة الثانية ! »

فقال سيمونز :

— « أحمد الله على اني في غير حاجة إلى ذلك . »

— « لعلك أن تصبح في حاجة إلى ذلك إذا ما عبّأوكم كلكم ، أنتم المتقاعسين . أوه ، كم أتمنى ان أراكما ، انتما الاثنين ، في شرذمتي . و « ماك » أيضاً . سوف أجعلك مرافقي العسكري ،

يا ماك . »

فقال ماك :

— « أنت فتى عظيم ، يا إيتور . ولكني أخشى أن لا تكون رجلاً عسكري الروح . »

فقال إيتور :

— « سوف أصبح كولونيلاً قبل أن تنتهي الحرب . »

— « إذا لم يقتلوك . »

— « انهم لن يقتلوني . »

قال ذلك ومسّ بأبهامه وسبابته النجوم التي على رقبة ثوبه . ثم أضاف :

— « أترى ماذا أفعل ؟ اننا نلمس نجومنا دائماً كلما أشار أحد إلى الموت في ساحة المعركة . »

فقال ساوندرز وهو ينهض واقفاً :

— « فلنذهب ، يا سيم . »

— « حسن . »

فقلت :

— « إلى اللقاء . يتعين عليّ أنا أيضاً أن أذهب . » كانت الساعة التي في داخل المشرب تشير إلى السادسة إلا ربعاً . « سيياوو ، ايتور ! »

فقال إيتور :

— « سيياوو ، فرَد ! يسعدني جداً انك ستفوز بالمدالية الفضية . »

— « لست أعلم اني سأفوز بها . »

— « بل انك ستفوز بها من غير شك ، يا فرَد . لقد سمعت انك سوف تفوز بها من غير شك . »

فقلت :

— « حسناً ، إلى اللقاء . إبتعد عن المتاعب ، يا ايتور . »

— « لا تقلق عليّ . أنا لا أحتسي الخمر ولا أتسكع . أنا لست عبداً من عبيد الخمر ولا موكّلاً ببائعات اللذة اتبعهن حيثما وُجدن . إني أعرف ما هو صالح لي . »

فقلت :

— « إلى اللقاء ! يسعدني انك سوف ترقّى إلى رتبة كابتن . »

— « لست في حاجة إلى الانتظار حتى ارقّى . سوف أمنح هـذه الرتبة جزاء ما أبليت في الحرب من بلاء حسن . أنت تدري . ثلاثة نجوم مع السيفين المتصالبيْن والتاج من فوقهما . ذاك أنا ! »

— « حظاً سعيداً ! »

— « حظاً سعيداً . متى سترجع إلى الجبهة ؟ »

— « قريباً جداً . »

— « حسناً . سوف أراك هناك . »

— « إلى اللقاء . »

— « إلى اللقاء . واجتنبِ ارتكاب المعاصي . »

وهبطت شارعاً خلفياً قادني إلى طريق مختصرة انتهت بي إلى المستشفى. كان ايتور في الثالثة والعشرين . وكان أحـد أعمامه قد نشّأه في سان فرانسسكو ، وكان يزور أباه وأمه في تورينو عندما أعلنت الحرب. وكانت له أخت أرسِلت معه إلى أميركا يوم ارسِل هو بالذات لكي تحيا إلى جانب عمها ، وكانت على عتبة التخرج من مدرسة المعلمين والمعلمات تلك السنة . كان من ذاك الصنف من الابطال الذين يُسئمون كل من يجتمع بهم . ولم يكن في ميسور كاثرين أن تحتمله .

وقالت :

— « إن عندنا أبطالاً أيضاً . ولكنهم على العموم ، يا حبيبي ، أكثر رصانة . »

— « أنا لا أتضايق منه . »

— « وأنا ما كنت لأتضايق منه لو لم يكن على هذا الغرور كله ، ولو لم يكن يُسئمني ، ويُسئمني ، ويُسئمني . »

— « إنه يسئمني أيضاً . »

— « لطفٌ منك أن تقول هذا ، أيها الحبيب . ولكنك في غير حاجة إلى ذلك . انت تستطيع أن تتصوره في الجبهة وأنت تعرف أنه ذو غَناء ، ولكنه يمثّل عندي نوع الفتيان الذي أكرهه . »

— « أدري . »

— « جميل منك إلى حدّ فظيع أن تدري . وأنا أبذل جهدي كي أحبه ، ولكنه فتى رهيب ، رهيب حقاً . »

— « لقد قال ، هذا الاصيل . إنه سوف يرقّى إلى رتبة كابتن . »

فقالت كاثرين :

— « أنا سعيدة . لا ريب في أن هذا سوف يسرّه . »

— « ألا تتمنين أن أرقّى إلى رتبة أجلّ شأناً ؟ »

— « لا ، أيها الحبيب . كل ما أبتغيه هو أن تنعم برتبة كافية للسماح لنا بالدخول إلى مطاعم أفضل . »

— « تلك هي ، بالضبط ، الرتبة التي أحملها . »

— « إن رتبتك رائعة . أنا لا اريد لك أية رتبة اضافية . قد تسوّل لك نفسك ذلك . أوه ، أيها الحبيب ، أنا سعيدة جداً بكونك غير مغرور . ولقد كان خليقاً بي أن أتزوجك حتى ولو كنتَ مغروراً ، ولكن مما يوقع السكينة في نفس المرأة أن يكون زوجها رجلاً غير مغرور . »

كنا نتحدث ، في رفق ، على الشرفة . وكان مفروضاً في القمر أن يطلع ، ولكن كان ثمة ضباب يغشى المدينة ، فلم يطلع القمر ، وما هي إلا لحظة حتى شرع الرذاذ يسقط ، فدخلنا . وفي الخارج تحوّل الضباب إلى مطر ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى هطل المطر غزيراً ، فسمعناه ينقر على السطح نقراً . فنهضتُ ووقفتُ لدى الباب لأرى أيتسرّب المطر إلى الداخل أم لا . وإذ وجدتُ انه لا يتسرب تركت الباب مفتوحاً .

وسألتني كاثرين :

— « ومن رأيت أيضاً ؟ »

— « السيد والسيدة ميارز . »

— « إنهما مخاوقان غريبان . »

— « يقولون إنه كان في وطنه في إصلاحية المجرمين . وان السلطة اجازت له الخروج من البلاد ليموت . »

— « ومنذ ذلك الحين عاش سعيداً في ميلانو . »

— « سعيداً ؟ لست أدري إلى أيّ حد . »

— « سعيداً إلى حد كافٍ بعد السجن على ما أعتقد . »

— « إنها سوف تحمل بعض الأشياء إلى هنا . »

— « إنها تحمل أشياء رائعة . هل كنت ولدها العزيز ؟ »

— « أحد أولادها . »

فقالت كاثرين :

— « أنتم جميعاً أولادها الأعزاء . إنها تفضل الأولاد الأعزاء . استمع إلى المطر . »

— « إنه يهطل في غزارة . »

— « ولسوف تحبني أنت دائماً ، أليس كذلك ؟ »

— « نعم . »

— « ولن يُحدث المطر أيّ فرق ؟ »
— « لا . »
— « هذا حسن . لأني خائفة من المطر . »
فقلت :
— « لماذا ؟ »
كان النعاس قد غلب عليّ . وفي الخارج كان المطر يهطل في اطّراد .
— « لست أدري ، يا حبيبي . لقد كنت طوال عمري أخشى المطر . »
— « أنا أحبه . »
— « أنا أحب النزهة أثناء المطر . ولكنه شديد القسوة على الحب . »
— « سوف احبك دائماً . »
— « سوف احبك في المطر ، وفي الثلج ، وفي البَرَد و — ماذا أيضاً ؟ »
— « لست أدري . أحسب أني نعسان . »
— « إمضِ إلى النوم ، يا حبيبي ، ولسوف أحبك أياً كان الأمر . »
— « أنتِ لستِ خائفة من المطر حقاً ، أليس كذلك ؟ »
— « ليس حين أكون معك . »
— « لماذا تخافين المطر ؟ »
— « لست أدري . »
— « قولي لي : »
— « لا تحملني على ذلك . »
— « قولي لي . »
— « لا . »

– « قولي لي . »

– « حسن . أنا أخاف المطر لأني أرى نفسي ، أحياناً ، وقد متّ وهو يهطل . »

– « لا . »

– « وفي بعض الاحيان يتراءى لي أنك متّ وهو يهطل . »

– « هذا أقرب إلى المعقول . »

– « لا ، لا ، يا حبيبي . لأن في استطاعتي أن أصونك من الخطر . أنا أعلم اني قادرة على ذلك . ولكن المرء لا يستطيع أن يصون نفسه وينقذها . »

– « كفى ، ارجوك . أنا لا أريد أن أراك تتكلمين مثل امرأة اسكتلندية ومثل مجنونة في هذه الليلة . ان أيام لقائنا توشك على الانتهاء . »

– « لا . ولكني اسكتلندية ومجنونة. ومع هذا فسوف أكفّ عن ذلك . إنه كله هراء . »

– « اجل إنه كله هراء . »

– « إنه كله هراء . إنه ليس إلا هراء . أنا لست خائفة من المطر . أنا لست خائفة من المطر . اوه ، اوه ، يا الهي ، اني أتمنى أن أكون غير خائفة . »

كانت تبكي . وواسيتها ، فأقلعت عن البكاء . ولكن المطر استمرّ يهطل في الخارج .

الفصل العشرون

وذات يوم ذهبنا ، عند الأصيل ، لنشهد سباق الخيل . ولقد ذهبت فيرغوسون معنا أيضاً ، وكذلك كروويل رودجرز . وهو الفتى الذي جُرحت عيناه بسبب انفجار القنبلة الصغيرة . وارتدت الفتاتان ملابسهما بعد طعام الغداء ، على حين جلست أنا وكروويل رودجرز على السرير في غرفته وطالعنا النتائج التي حققتها الخيل في الحفلات السابقة ونبوءات الصحيفة السباقية . كان رأس كروويل معصوباً ، ولم يكن يبالي كثيراً بهذه السباقات ، ولكنه كان يطالع الصحيفة السباقية على نحو موصول ، ويحرص على متابعة أنبائها كلها قتلاً للوقت . لقد قال إن الخيل لا تساوي شيئاً ، ولكنا لا نملك حق الاختيار . وكان ميبارز العجوز يحبه ويعطيه بعض « المعلومات » الخاصة . وكان ميبارز يكسب في كل شوط تقريباً ، ولكنه يكره إعطاء المعلومات لأن ذلك يخفض الأسعار . وكان السباق أبعد ما يكون عن الاستقامة . فالرجال الذين طُردوا من حلبة السباق في كل مكان أقبلوا للتسابق في ايطاليا . وكانت « معلومات » ميبارز جيدة ولكنني كنت أكره أن أسأله لأنه كان لا يجيب في بعض الاحيان ، ولأنه كان في استطاعتك دائماً ان ترى أن اجابته على سؤالك تؤذيه . ولكنه استشعر انه مضطر لأخبارنا لسبب ما ، وكان كرهه لتزويد كروويل بمعلوماته أقل على كل

حال . كانت عينا كروويل قد أوذيتا ، وكانت الاصابة التي نزلت باحداهما خطيرة . وكان ميارز يشكو بلاءً في العينين ، ومن أجل ذلك أحبّ كروويل . وكان ميارز لا يخبر زوجته على أيّ الخيول يراهن ، البتة ، وكانت هي تكسب وتخسر ، تخسر في الكثرة الكبيرة من الأحوال ، وتتحدث طوال الوقت :

وانطلقنا نحن الاربعة إلى سان سيرو في عربة مكشوفة . كان نهاراً رائعاً ، ولقد اجتزنا الحديقة العامة ، واتّبعنا خط الترام ، ثم غادرنا المدينة حيث كانت الطريق مغبرّة . كان ثمة دارات ذات أسيجة حديدية ، وحدائق غناء واسعة ، وخنادق تجري فيها المياه ، وبساتين يعلو الغبار أوراق نباتاتها الخضراء . كان في ميسورنا أن ننظر عبر السهل ونرى البيوت الريفية والمزارع الغنية الخضراء بمجاري الريّ التي تخترقها ، والجبال القائمة إلى الشمال . كانت ثمة عربات كثيرة تنطلق إلى ميدان السباق ، ولقد اجاز لنا المراقبون الواقفون بالباب ان ندخل من غير بطاقات لاننا كنا نرتدي البذلة العسكرية . وترجلنا من العربة واشترينا نسخاً من برنامج الحفلة ، ومشينا عبر الباحة الداخلية ، ثم عبر حفلة السباق الملساء الكثيفة إلى المرتع (البادوك) . كانت المدرجات خشبية عتيقة ، وكانت أكشاك المراهنة تحت المدرجات ، وفي صف ممتدّ قرب الاصاطب * . وكان يحتشد على طول سياج الباحة الداخلية جمعٌ من الجند غفير . وكان المرتع مكتظاً بالناس ، وكانوا يطوفون بالخيل في ساحة مستديرة قائمة تحت الاشجار ، ووراء المدرج الكبير : لقد رأينا اناساً نعرفهم ، وجئنا بكرسيين لفيرغوسون وكاثرين ، وشرعنا نتأمل الجياد .

لقد دارت ، واحداً اثر واحد ، مطأطئة رؤوسها ، يقود كلاً منها سائسه . وكان أحد الجياد ذا لون أسود ضارب إلى

* جمع اصطبل .

الارجواني ، ولقـد أقسم كرروويل اغلظ الأيمان ان القوم صبغـوه بذلك اللون صبغاً . وراقبناه ، فظهر لنا ان كلام كرروويل جائز . وكان ذلك الجواد قـد خرج في اللحظة الـتي اعلن فيهـا الجرس ضرورة امتطاء الفرسان صهوات الجياد . وبحثنا عنه في البرنامج مسترشدين بالرقم الذي على ذراع سائسه ، فاذا بنا نقرأ أنه جواد مخصيّ يدعى جابالاك . وكان الشوط خاصاً بالجياد التي لم تربـح قط جائزة مقدارها الف لير أو يزيد . وكانت كاثرين واثقة ان لونه قد غُيِّر . وقالت فيرغوسون إنهـا لا تستطيع أن تقطع برأي . أما أنا فاعتقدت أنـه يبدو مُريباً . واتفقنا كلنـا على أن من واجبنـا أن نراهن عليه ، ففعلْنـا بمئة لير . وكانت لوائح الارباح المحتملة تُظهر أنـه سوف يعود على المراهنين بربـح تبلغ نسبته ٣٥ إلى ١ . ومضى كرروويل واشترى البطاقات ، فيما كنا نحن نراقب الفرسان يقومون بدورة أخيرة ثم يتجهون ، تحت الاشجار ، إلى الحَلْبة ، ويَجْرون في تؤدة نحو المنعطف الذي ستنطلق منه الجياد .

وارتقينا المدرّج لنراقب السباق . ولم يكن عندهم في سان سيرو حاجز متمغّط آنذاك ، فما كان من معطي الاشارة إلا أن صفّ جميع الجياد ، الـتي بدت في موقفها من الحلبة صغيرة جـداً ، ثم أذن لهـا بالانطلاق بضربة من سوطه الطويل . ومرّت الجياد أمامنـا يتقدمها الجواد الأسود بمرحلة حسنة ، وعند المنعطف كانت الشقة بينه وبين سائر الجياد بعيدة . وتابعتُ الجياد بنظارتيّ المقرّبتين وهي تندفع في الجـانب البعيد ، فرأيتُ فارسَ الجوادِ الاسود ينـاضل لكبـح جماحه ، ولكنه لم يستطع كبحه ، حتى إذا دارت الجياد حول المنعطف واندفعت في خط مستقيم كان الجواد الأسود يتقدمهـا كلها بخمسة عشر طولاً . واستمرّ في عَدْوه الخاطف حتى استدار حول المنعطف بعد أن بلغ الغاية .

فقالت كاثرين :

— « أليس هذا رائعاً ؟ سوف نكسب أكثر من ثلاثة آلاف لير. ينبغي أن يكون جواداً مدهشاً . »

فقال كرووبل :

— « أرجو ان لا ينحلّ لونه قبل أن يدفعوا الينا ما كسبناه . »

فقالت كاثرين :

— « لقد كان جواداً بديعاً حقاً ، وإني لأتساءل هل راهن مستر ميارز عليه ؟ »

فرفعت صوتي مخاطباً ميارز :

— « هل راهنت على الجواد الفائز ؟ »

فهزّ برأسه أن نعم .

فقالت مسز ميارز :

— « أما أنا فلم أراهن عليه . على أيّ جواد راهنتم ، يا أولادي ؟ »

— « على جابالاك . »

— « فعلاً ؟ لقد أعطى ليرَهُ خمسة وثلاثين ليراً . »

— « لقد أحببنا لونه . »

— « أنا لم أحبه . لقد بدا لي أنه مرهَق لا روح فيه . لقد نصحوني بأن لا أراهن عليه . »

فقال ميارز :

— « إنه لن يعود على المراهنين بربح كثير . »

فقلت :

— « لقد أشارت اللوائح إلى أن كل لير سوف يعود على حاملي الأوراق بخمسة وثلاثين ليراً . »

فقال ميارز :

— « إنه لن يعود عليهم بربح وفير . لقد راهنوا عليه ، في الدقيقة

الأخيرة ، بكثير من المـال . »

— « من هم هؤلاء ؟ »

— « كيمبتون والغلمان . سوف ترى . ان اللير الواحد لن يعود على المراهن بليرين اثنين . »

فقالت كاثرين :

— « واذن فلن نفوز بثلاثة آلاف لير . أنا لا أحب هذه السباقات الملتوية الفاسدة ! »

— « سوف نفوز بمئتي لير . »

— « هذا مبلغ تافه . إنه لن يعود علينا بفائدة ما . لقد حسبتُ أننا سوف نفوز بثلاثة آلاف . »

فقالت فيرغوسون :

— « هذا وضع ملتوٍ مثير للاشمئزاز . »

فقالت كاثرين :

— « طبعاً ، لو لم يكن الوضـع ملتوياً لمـا راهنّـا على ذلك الجواد البتة . ولكنني مع ذلك كان خليقاً بي أن أحب الثلاثة آلاف لير . »

فما كان من كرولي إلا أن قال :

— « فلننزل ونشرب كأساً وبعد ذلك نرى كم سيدفعون . »

وهبطنا المدرّج ، وقصدنا إلى حيث نصبوا الأرقام ، وقُرع الجرسَ إيذاناً بالدفع ، ووضعوا الرقم ١٨,٥٠ أمام جابالاك ، مجلياً ، ومعنى ذلك أن اللير الواحـد قصّر عن اعطـاء المراهنين حتى ليرَيْن اثنين ؛

ومضينا إلى المشرب ، تحت المدرّج الكبير ، وشربنا كأساً مـن الويسكي الممزوجة بالصودا . وهناك وجدنا شخصين ايطاليين نعرفهما ، وماك آدمز نائب القنصل ، فرافقونا عندما رجعنا إلى حيث كانت كاثرين وفيرغوسون تنتظران . كان الايطاليان بالغَيْ التهذيب ، ولقد تحدّث

ماك آدمز إلى كاثرين عندما هبطنا لنراهن على جياد جديدة . كان مستر ميبارز واقفاً قرب كشك الرهان التبادلي .

وقلت لكروويل :

— « إسأله على أي جواد راهن ؟ »

فسأله كروويل :

— « على أي جواد راهنت ، يا مستر ميبارز ؟ »

فأخرج ميبارز برنامج السباق وأشار بقلمه الرصاصي إلى رقم خمسة .

فقال له كروويل :

— « هل يزعجك ان نراهن عليه أيضاً ؟ »

— « بادر إلى ذلك . بادر إلى ذلك ، ولكن لا تخبر زوجتي اني دللتك عليه . »

— « هل ترغب في كأس ؟ »

— « لا ، شكراً . أنا لا أحتسي الخمر أبداً . »

وراهنّا بمئة لير على الجواد رقم خمسة مجلياً ، وبمئة لير عليه مصلّياً ، ثم شربنا كأساً أخرى من الويسكي الممزوجة بالصودا . كنت أستشعر نشاطاً بالغاً . وتلقّفنا ايطاليَيْن إضافيين ، تناول كل منهما كأساً معنا ، ورجعنا إلى الفتاتين : وكان هذان الايطاليان بالغي التهذيب أيضاً ، وقد ضارعا في ذلك الرجلين الايطاليين اللذين تلقّفناهما من قبل . وما هي إلا لحظة حتى لم يعد في ميسور أحد أن يقعد . وقدّمتُ ا اق إلى لأوركاثرين .

— « على أيّ جواد راهنتم ؟ »

— « لست أدري . لقد اختاره لنا مستر ميبارز . »

— « الا تعرف اسم الجواد ؟ »

— « لا . في استطاعتك أن تجديه في البرنامج : رقم خمسة على ما أظن . »

فقالت :

— « إن لك ايماناً مؤثّراً . »

وكسب رقم خمسة السباق ، ولكنه لم يعد على المراهنين بشيء : واستبدّ الغضب بميارز .

وقال :

— « إن عليك أن تدفع مئتي لير لكي تربح عشرين . اثني عشر ليراً من أجل عشرة . هــذا شيء لا يستحق العناء . لقــد خسرت زوجتي عشرين ليراً . »

فقالت كاثرين لي :

— « سوف أذهب معك . »

ونهض الايطاليون . وهبطنــا المدرج ، وتقــدمنا نحــو المرتع (البادوك) .

وسألتني كاثرين :

— « هل يعجبك هذا ؟ »

— « نعم ، يخيّل إليّ ذلك . »

فقالت :

— « كل شيء على ما يرام ، في ما أحسب . ولكني ، ايها الحبيب ، لا أحتمل أن أرى كل هؤلاء الناس . »

— « نحن لا نرى كثيراً من الناس . »

— « لا . ولكن الزوجين ميارز هذين وذلك الرجل المصرفيّ وزوجته وبناته .... »

فقالت :

— « إنه يدفع حوالاتي حالَ اطلاعه عليها . »

— « أجل ، ولكن شخصاً آخر سوف يفعل ذلك إذا أحجم هو عنه . لقد كان هؤلاء الفتية الأربعة الأخيرون فظيعين . »

– « في استطاعتنا ان نبقى هنا ونراقب السباق من وراء الحاجز : »

– « ذلك شيء رائع . ولنراهن ، يا حبيبي ، على جواد لم نسمع به قط ، جواد لن يراهن عليه مستر ميارز . »

– « حسن . »

وراهنّا على جواد يدعى « لايت فور مي » Light For Me فجاء رابعاً بين جياد خمسة . واتكأنا على الحاجز ، وراقبنا الجياد وهي تنطلق ، مُقَعْقِعةً بحوافرها ، ورأينا الجبال في المدى البعيد ، وميلانو وراء الاشجار والحقول .

– « أنا أستشعر الآن اني ابهج نفساً من ذي قبل . » كذلك قالت كاثرين . كانت الجياد تنقلب على أعقابها ، من خلال الباب ، ندية بالعرق المتصبب من اجسادها ، وكان الفرسان يهدّئون من هياجهـا ، ويتقدمون بها نحو الاشجار حيث ترجّلوا عنها .

– « ألا ترغب في كأس ؟ في استطاعتنا ان نشرب ههنا شيئاً وأن نراقب الجياد في وقت واحد . »

فقلت :

– « حسن . سوف آتي بكأسين . »

فقالت كاثرين :

– « لا . النادل سوف يأتي بهما . »

ورفعت يدها ، فأقبل النادل من الـ « باغودا بار » المجاور للاصاطب وجلسنا الى مائدة حديدية مستديرة .

– « ألا تستمتع بالشراب ، أكثر ، حين نكون وحدنا ؟ »

فقلت :

– « نعم . »

– « لقد شعرت بوحشة بالغة عندما كنا جميعاً هناك . »

فقلت :

— « يلوح لي ان هذا المكان عظيم . »
— « نعم . وانه لسباقٌ رائع حقاً . »
— « إنه جميل . »
— « لا تَدَعني أفسد عليك متعتك ، يا حبيبي . سوف أرجع في أية لحظة تشاء . »

فقلت :

— « لا . سوف نبقى هنا ونحتسي كأسينا . ثم نهبط حتى الخندق المائي لنشهد سباق الحواجز . »

فقالت :

— « أنت لطيف معي الى حد فظيع . »

وبعد أن سلخنا فترةً على انفراد نازعتنا النفس الى رؤية الآخرين من جديد . لقد قضينا وقتاً طيباً .

الفصل الحادي والعشرون

في أيلول (سبتمبر) أقبلت أولى الليالي الباردة ، ثم اعتدل الجو في النهارات ، وبدأت الاوراق في الحدائق العامة تصفرّ ، وادركنا أن الصيف قد انقضى . كان القتال في الجبهة يسير على نحو سيء جداً ، وكانوا قد عجزوا عن احتلال سان غابرييل . وكان القتال من أجل الاستيلاء على نجد بينسيزّا قد انتهى ، وحوالى منتصف الشهر كان القتال من أجل سان غابرييل قد أوشك على الانتهاء أيضاً . إنهم لم يستطيعوا احتلاله . وكان إيتور قد رجع الى الجبهة ، وكانت الجياد قد أرسلت الى رومة ، ولم يعد ثمة حفلات سباق . وكان كروويل قد ذهب الى رومة أيضاً تمهيداً لاعادته الى أميركا . وقامت المظاهرات ضد الحرب مرتين في المدينة ، أما في تورين فكانت المظاهرات خطيرة جداً . وفي النادي أخبرني مايجور بريطاني أن الايطاليين خسروا مئة وخمسين ألف رجل في نجد بينسيزّا وفي سان غابرييل . وقال انهم خسروا ، بالاضافة الى ذلك ، أربعين ألفاً في الـ « كارسو » . لقد شربنا معاً ، ولقد استرسل في الحديث . قال ان القتال هنا قد انتهى بقدر ما يتعلق الأمر بهذا العام ، وإن الايطاليين قد نهشوا أكثر مما يستطيعون ان يمضغوا . وقال ان الهجوم في الفلاندر على وشك الاخفاق . واذا ما خسر الحلفاء عدداً

من الرجال موازياً للذي خسروه هذا الخريف فعندئذ يهلكون بعد عام واحد . لقد قال إن الهلاك قد حلّ بنا كلنا ، ولكننا نظل في حال لا بأس بها ما دمنا نجهل ذلك . لقد هلكنا جميعاً . ولكن المهم ان لا نتبيّن هذه الحقيقة . وكانت الدولة التي تدرك هذا ، بعد سائر الدول ، هي القمينة بأن تكسب الحرب . واحتسينا كأساً أخرى . هل كنت أنتسب الى أركان حرب ما ؟ لا . أما هو فكان . كانت كلها عبثاً ولعباً . ولقد كنا وحدنا في النادي ، جالسين على إحدى الارائك الجلدية الكبيرة . وكان حذاؤه العسكري ذو الجلد الداكن مصقولاً صقلاً حسناً . كان حذاءً عسكرياً جميلاً . لقد قال انها كانت كلها عبثاً ولعباً . انهم لا يفكرون الا بالفرق وما تملكه الدولة من القوى البشرية . وهم يتشاحنون حول الفرق ، حتى اذا فازوا بها عملوا على ذبحها ذبحاً . كان الهلاك قد حلّ بهم جميعاً . وكان الالمان يكسبون الانتصارات . وحق الرب انهم لجنود . لقد كان الهونيّ القديم جندياً . ولكن الهلاك قد ألمّ بهم أيضاً . لقد ألمّ بنا الهلاك جميعاً . وسألته عن الروس . فقال ان الهلاك قد أصابهم منذ حين . ولسوف أرى وشيكاً انهم قد هلكوا . والنمساويون أيضاً قد ألمّ بهم الهلاك وهم لن يستطيعوا الخلاص من هذه الورطة إلا بمعونة بعض الفرق الهونية . * هل كان يعتقد انهم سيشنّون هجوماً ما في هذا الخريف ؟ طبعاً ، إنهم سيفعلون . وكان الهلاك قد نزل بالايطاليين . كل امرىء كان يعرف هذه الواقعة . ان الهون القدماء سوف يهبطون من خلال الترنتينو ويقطعون السكة الحديدية عند فيسانتزا وعندئذ ماذا يفعل الايطاليون ؟ فقلت : لقد جربوا ذلك عام ١٦ . فقال : ليس مع الالمان . فقلت : بلى . فقال : ولكنهم لن يفعلوا ذلك في أرجح الظن . الأمر بسيط أكثر مما ينبغي . إنهم سوف يحاولون شيئاً معقداً ثم يهزمون على نحو

* المراد بالفرق الهونية الفرق الألمانية . (المعرب)

ملوكيّ . وقلت : يتعيّن عليّ أن أذهب . يتعيّن عليّ أن أرجع الى المستشفى . فقال : الى اللقاء . ثم أضاف في ابتهاج : أتمنى لك حظاً سعيداً ! كانت ثمة مغايرة كبيرة بين تشاؤمه العالمي ومرحه الشخصي .

وعرّجتُ على مزين ، فحلقت لحيتي ، وانقلبت الى غرفتي في المستشفى . كانت رجلي في حال حسنة ما كنت أطمع في مثلها . وكنت قد ذهبت قبل ثلاثة أيام لفحصها . وكان عليّ أن أخضع لبعض المعالجات قبل أن أقلع عن التردد الى مستشفى ماغيور ، فمشيت في محاذاة الرصيف وأنا أبذل غاية الجهد لكي لا أعرُج . كان تحت القناطر رجل عجوز يحمل أوراقاً سوداء يرسم عليها بمقصه صوراً من النوع المعروف بـ « السيلوويت » . ووقفت أراقبه . كانت فتاتان قد اتخذتا وضعاً ملائماً للتصوير ، ولقد قصّ صورتيهما المظلّلتين (سيلوويت) معاً مُعملاً مقصّه في سرعة بالغة ، ناظراً اليهما ورأسه ممالٌ الى جانب . كانت الفتاتان تضحكان . وأراني الصورتين المظللتين قبل ان يلصقهما على ورق أبيض ويقدّمهما الى الفتاتين .

وقال :

— « انهما جميلتان . ما رأيك في أن أصنع لك صورة مماثلة ، أيها الملازم ؟ »

ومضت الفتاتان وهما تتأملان صورتيهما المظللتين وتضحكان . كانتا فتاتين وسيمتين . وكانت إحداهما تعمل في الحانة القائمة تجاه المستشفى.

فقلت :

— « حسن . »

— « إرفع قبعتك عن رأسك . »

— « لا . صوّرني وهي على رأسي . »

فقال الرجل العجوز :

— « إنها لن تكون جميلة جداً . »

ثم أشرق وجهه وأضاف :

— « ولكنها ستكون أكثر عسكرية . »

وقص الورقة السوداء ، ثم فصل ما بين الكثافتين ، وألصق الصورة على لوح من الورق المقوّى وقدّمها الي .

— « كم ؟ »

فلوّح بيده قائلاً :

— « لا شيء على الاطلاق . لقد أحببت أن أقدّمها اليك هدية . »

وقدمت اليه بعض القطع النحاسية قائلاً :

— « أرجوك . لا تحرمني هذه المتعة . »

— « لا . لقد صنعْتُ لك تلك الصورة لمجرّد المتعة ليس غـير . أعطها لفتاتك . »

— « شكراً جزيلاً . والى اللقاء القريب . »

— « الى اللقاء . »

ومضيت الى المستشفى . كان ثمة بعض الرسائل : رسالة رسمية ورسائل أخرى . لقد مُنحت اجازة نقاهة تنسحب على ثلاثة اسابيـع ، أرجع بعد انقضائها الى الجبهة . وأعدت تلاوة الرسالة في عناية : حسناً ذلك كان مضمونها . وبدأت الاجازة في الرابع من أكتوبر عندمـــا أتممت برنامج المعالجة .ان ثلاثة اسابيع تساوي واحداً وعشرين يومـاً. يعني ان الاجازة سوف تنقضي في الخامس والعشرين من اكتوبر . وأعلمت ادارة المستشفى اني لن أعود لتناول العشاء ، ومضيت الى المطعم الواقـع غير بعيد عن المستشفى ، لكي أتعشى . وقرأتُ الرسائل التي وردتـــني والـ « كوريير ديلا سيرّا »» على المائدة . كانت ثمة رسالة من جدي تنطوي على أنباء عائلية ، وتشجيع وطنيّ ، وشيك بمئتي دولار ، وبضع قصاصات من الصحف . وكانت هناك أيضاً رسالة باردة من كاهـــن زمرتنا ، ورسالة من صديق طيّار يعمل في سلاح الجو الفرنسي فهـو يتحدث عن أعمال الفرقة التي كان عضواً فيها ، ومذكرة من رينالدي

يسألني فيها الى متى سأظل مختبئاً في ميلانو ، وما هي الاخبار كاملةً . لقد رجاني أن أحمل اليه بعض أسطوانات الفونوغراف مرسلاً إليّ بياناً بها . وشربت زجاجة صغيرة من الشيبانتي مع الطعـــام ، ثم تناولــت بعد ذلك فنجاناً من القهوة وكأساً من الكونياك . وأنهيت تلاوة الصحيفة ووضعت رسائلي في جيبي ، وتركت الصحيفة على المائدة مع البقشيش وخرجت . وفي غرفتي في المستشفى نزعت ثيابي ، وارتديت بيجامــة ومبذلاً (روب دو شامبر) ، وأسدلت الستائر على الباب المؤدي الى الشرفة ، وقعدت في سريري وأنشأت أقرأ في صحف بوسطن الـــتي كانت السيدة ميارز قد تركتها لاولادها في المستشفى . كان فريـــــق « شيكاغو هوايت سوكس » قد ربح بطولة « العصبة الاميركية ». وكان فريق « عمالقة نيويورك » يتقدم الجميع في « العصبة الوطنية » . وكان بايب روث « قاذفاً » يلعب مع فريق بوسطن . كانت الصحف مسئمة ، وكانت الانباء محلية عتيقة ، وكانت أخبار الحرب كلها قديمة . أما الانباء الاميركية فلم تكن تتحدث الا عن معسكرات التدريب . وكنت سعيداً لعدم وجودي في معسكر تدريب . وكانــت أخبار لعبة البايسبول هي كل ما استطعت أن أقرأه ، وهذه الاخبار نفسها لم تثر في ذات نفسي أيّ شوق . كان من المستحيل عليّ أن أقرأ مجموعة الصحف هذه كلها في شوق . وكانت قد أمست عتيقة بعض الشيء ، ولكني سرّحت النظر فيها فترة قصيرة ، وتساءلت هل دخلت أميركـــا الحرب فعلاً ، وما اذا كان ذلك سيحملها على تعطيل الاتحادات الرياضية الكبرى . أغلب الظن انها لن تفعل . كانت سباقات الخيل لا تزال تُجرى في ميلانو وقد انتهت الحرب الى وضع ليس في الامكان ان تنتهي الى أسوأ منه . وكانوا قد عطلوا سباقات الخيل في فرنسا . ومن هناك بالذات أقبل جوادنا « جابالاك » . ولم يكن من المنتظر أن تبدأ كاثرين خدمتها الليلية الا في الساعة التاسعة . وسمعت وقع قدميها

عندما مضت لمباشرة خدمتها هذه ، ورأيتها مرةً تجتاز الرواق . لقد قصدت الى بضع غرف أخرى ، واخيراً وفدت على غرفتي :

وقالت :

— « لقد تأخرتُ عليك ، يا حبيبي . كانت لديّ شواغل كثيرة. كيف حالك ؟ »

وحدّثتها عن الاوراق وعن الاجازة .

فقالت :

— « هذا رائع . الى أين تريد ان تذهب ؟ »

— « لن اذهب الى أي مكان . أريد أن أبقى هنا . »

— « هذه حماقة . اختر مكاناً تذهب اليه وعندئذ أذهب معك .

— « وكيف تعتزمين ان تتدبري ذلك ؟ »

— « لست أدري . ولكني سأجد الوسيلة . »

— « أنت رائعة الى حد بعيد . »

— « لا ، لست رائعة . ولكن الحياة ليست صعبة القياد حين لا يكون لديك ما تخسره . »

— « ماذا تعنين ؟ »

— « لا شيء . كنت أفكر فقط الى أي حد تبدو صغيرة تلك العقبات التي كانت في وقت من الاوقات ضخمة جداً . »

— « يخيّل اليّ أنه سيكون من العسير عليك ان تتدبري الامر . »

— « لا ، لا ، يا حبيبي . إني عند الحاجة مستعدة لأن أقدم استقالتي ، والسلام . ولكن المسألة لن تصل الى هذا الحد . »

— « الى أين يجب أن نذهب ؟ »

— « لا فرق عندي . الى أي مكان تريده أنت . الى أي مكان لا نعرف فيه أحداً من الناس . »

— « أليس من فرق عندك حقاً ؟ »

— « مطلقاً . سوف أحب أي مكان نذهب اليه . »

لقد بدت قلقة متوترة الاعصاب .

— « ما بالك ، يا كاثرين ؟ »

— « لا شيء . لا شيء على الاطلاق . »

— « بلى ، ان ثمة شيئاً . »

— « لا ، لا شيء . لا شيء فعلاً . »

— « أنا أعرف أن هناك شيئاً . أخبريني ، يا حبيبتي . في استطاعتك أن تخبريني . »

— « ليس ثمة شيء . »

— « أخبريني . »

— « لست أرغب في ذلك . أنا أخشى ان أعكر صفو سعادتك أو أن أثير قلقك . »

— « لن يصيبني شيء من ذلك إن لم يكن فيه ما يقلقك أنتِ . »

— « لست أريد أن أفضي بذلك اليك . »

— « بلى . »

— « أهو حتم عليّ ؟ »

— « نعم . »

— « أنا حامل ، يا حبيبي . منذ ثلاثة أشهر تقريباً . إن هذا لم يقلقك ، أليس كذلك ؟ أرجوك ، أرجوك ، ان لا تقلق . ليس في هذا ما يوجب قلقك . »

— « حسن . »

— « فعلاً ؟ »

— « من غير شك . »

— « لقد فعلتُ كل شيء . لقد تناولتُ كل شيء ، ولكن عبثاً . »

— « أنا لست قلقاً . »

— « لم يكن في ميسوري أن أجتنب ذلك ، يا حبيبي ، ولم أقلق من جراء ذلك . ينبغي أن لا تقلق أو تحزن . »

— « أنا قلق عليك ليس غير . »

— « ذلك هو . ذلك ما لا ينبغي لك ان تفعله .إن النساء يحملن كل يوم . كل امرأة تحمل وتنجب أولاداً . هذه مسألة طبيعية . »

— « أنت رائعة الى حد بعيد . »

— « لا ، لستُ كذلك . ولكن ينبغي ان لا تبالي ، يا حبيبي . سوف أحاول أن لا أورثك اي ما بلاء . أنا أعلم اني أورثتك بلاء الآن، ولكن ألم أكن فتاة طيبة حتى هذه اللحظة ؟ أنت لم تعرف ذلك قط من قبل ، أليس كذلك ؟ »

— « لا . »

— « سوف يكون الأمر كله هكذا . كل ما عليك ان تفعله هو ان لا تقلق . في استطاعتي أن أرى أمارات القلق على محياك . أقلع عن هذا . ما رأيك في كأس من الخمر ، أيها الحبيب ؟ أنا أعرف أن كأس الخمر قادرة دائماً على ادخال البهجة الى فؤادك . »

— « لا . أنا أحسّ اني مبتهج . إنك رائعة الى حد بعيد . »

— « لا لستُ كذلك . سوف أتدبر الامر لكي نذهب معاً الى أي مكان تختار الذهاب اليه . إن الجو سوف يكون رائعاً في تشرين الاول (أكتوبر) . ولست أشك في أنا سوف نقضي وقتاً طيباً ، ايها الحبيب ، ولسوف أكتب اليك كل يوم بعد أن تمضي الى الجبهة . »

— « أين ستكونين ؟ »

— « لست أدري حتى الآن . ولكن في مكان ما ، في مكان رائع. سوف أهتم بهذا كله . »

وران علينا الهدوء فترة ولم ننطق بكلمة . كانت كاثرين قاعدة على السرير ، وكنت أنظر اليها ، ولكن أياً منا لم يلمس الآخر . كنا

منفصلين مثل شخصين استبدّ بهما الارتباك لأن ثالثاً دخل عليهما الغرفة فجأة . وبسطتْ يدها وأمسكتْ يدي .

— « أنت لست غاضباً ، أليس كذلك يا حبيبي ؟ »

— « لا . »

— « ولا تشعر أنك قد وقعت في شرَك ؟ »

— « ربما قليلاً . ولكن ليس من جانبكِ أنت . »

— « أنا لم أقصد من جانبي . ينبغي أن لاَ تكون أبله . لقد عنيتُ مجرد الوقوع في الشرك . »

— « ان المرء ليشعر دائماً انه قد وقع في الشرك ، بيولوجياً . »

ولم تتحرك ، ولم تسحب يدها ، ولكني شعرت انها قد ذهبت الى بعيد ، الى بعيد جداً .

— « ان « دائماً » ليست لفظة لطيفة . »

— « آسف . »

— « لا بأس . ولكنك ترى أني لم أرزق قط ولداً من قبل ، بل لم أحب قطّ أحداً من قبل . ولقد بذلت غاية جهدي لكي أكون وفق ما تشتهي وبعد هذا كله تقول « دائماً » .

فاقترحت :

— « أنا على استعداد لأن أقطع لساني ! »

— « أو ه ، يا حبيبي ! » قالت ذلك ، ورجعت من المكان النائي الذي كانت قد ذهبتْ اليه . « يجب أن لا تؤاخذني . » والتقينا كرة أخرى ، وزال الارتباك كله . « نحن في الحقيقة شخص واحد ، وليس ينبغي لنا أن نسيء الفهم عمداً . »

— « نحن لا نفعل ذلك . »

— « ولكن الناس يفعلون . إنهم يتحابون ثم يسيء أحدهم فهم الآخر عمداً ، ويتشاجرون ، وفجأة لا يعودون شخصاً واحداً . »

– « إننا لن نتشاجر . »

– « ليس ينبغي لنا أن نفعل . لأنه لا يوجد غيرنا نحن الاثنين وفي العالم يوجد سائر الناس . فاذا ما شجر بيننا شيء هلكْنا ، واستردّنا الناس من جديد . »

فقلت :

– « إنهم لن يستردونا . لانك بالغة الشجاعة . وليس يصيب الشجعان شيء أبداً . »

– « انهم يموتون طبعاً . »

– « نعم ، ولكن مرةً واحدة . »

– « لست أدري . من قال ذلك ؟ »

– « الجبان يموت الف ميتة ، ولكن الشجاع لا يموت إلاّ ميتةً واحدة . »

– « طبعاً . من قال ذلك ؟ »

– « لست أدري . »

وقالت :

– « لعل قائل هذا الكلام رجل جبان . لقد عرف أشياء كثيرة عن الجبناء ، ولكنه لم يعرف شيئاً عن الشجعان . ان الشجاع قد يموت ألفَيْ ميتةٍ إذا كان ذكياً . كل ما في الأمر أنه لا يتحدث عن ذلك البتة . »

– « لست أدري . إن من العسير على المرء أن ينفذ إلى عقل الشجاع . »

– « أجل . ذلك يفسر لك كيف يظلّون هكذا . »

– « أنتِ ثقة في الموضوع . »

– « أصَبْت ، يا حبيبي . إني استحق هذه الصفة . »

— « أنتِ شجاعة . »

فقالت :

— « لا . ولكني اتمنى لو أكون . »

فقلت :

— « أما أنا فلا اتمنى ذلك . أنا أعرف واقعي . لقد خبرتُ الحياة خبرةً طويلة ساعدتني على الفوز بهذه المعرفة . أنا أشبه شيء بلاعب بايسبول يسجّل بضرباته مئتين وثلاثين ويعلم انه لا يُحسن خيراً من ذلك . »

— « وما هو لاعب البايسبول الذي يسجل مئتين وثلاثين ؟ ذلك شيء مثير إلى حد فظيع . »

— « لا ، على الاطلاق . ان هذا يعني أنه لاعب بايسبول متوسط . »

فوخزتني قائلة :

— « ولكنه لاعبٌ على كل حال . »

فقلت :

— « أعتقد أننا كلينا مغروران . ولكنكِ أنتِ شجاعة . »

— « لا . ولكني أتمنى لو أكون . »

فقلت :

— « كلانا شجاع . وأنا أكون بالغ الشجاعة حين أشرب كأساً . »

فقالت كاثرين :

— « نحن رائعان . »

ومضت إلى الخزانة ، وجاءتني بزجاجة الكونياك وبكأس ، وقالت :

— « اشرب كأساً ، يا حبيبي . لقد كنت لطيفاً إلى حد بعيد . »

— « لا . أنا لا أشعر بالحاجة إلى ذلك . »

— « خذ واحدة . »

— « حسن . »

فملأتُ ثلث الكوب بالكونياك واجترعتُهُ دفعة واحدة .

فقالت :

— « لقد كانت هذه جرعة كبيرة جداً . أنا أعرف أن البراندي جُعلت للأبطال ، ولكنّ عليك أن لا تغالي في ذلك . »

— « أين سنسكن بعد الحرب ؟ »

فقالت :

— « في مأوى العجزة ، في أغلب الظن . فمنذ ثلاث سنوات وأنا أتطلع ، على نحو صبياني متطرف ، إلى انتهاء الحرب في عيد الميلاد . أما الآن فأنا لا أتوقع انتهاءها إلا بعد أن يصبح ابننا ضابطاً في البحرية . »

— « لعله أن يصبح جنرالاً . »

— « إذا قدّر لهذه الحرب أن تصبح حرب « مئة عام » أخرى فسوف يكون لديه متسع من الوقت ليجرب الخدمة في كل من الجيش والبحرية . »

— « ألا تريدين أن تشربي كأساً ؟ »

— « لا . انها تجعلك سعيداً ، دائماً . يا حبيبي ، ولكنها لا توقع في رأسي إلا الدوار . »

— « ألم تشربي شيئاً من البراندي في حياتك قط ؟ »

— « لا ، يا حبيبي . أنا زوجة محافظة جداً . »

ومددت يدي إلى أرض الغرفة التماساً للزجاجة وملأت كأساً أخرى .

فقالت كاثرين :

— « من الخير لي أن أذهب والقي نظرة على مواطنيك . ولعلك

أن تقرأ الصحف ريثما أعود . »

– « أيتعين عليكِ حقاً أن تذهبي ؟ »

– « عاجلاً أو آجلاً . »

– « حسن . اذهبي الآن اذن . »

– « سوف أرجع بعد قليل . »

فقلت :

– « وعندئذ أكون قد أنهيت قراءة الصحف . »

الفصل الثاني والعشرون

وانخفضت الحرارة تلك الليلة ، وفي اليوم التالي هطل المطر . وفي طريق عودتي من مستشفى ماغيور إلى الغرفة اشتد تهطال المطر حتى بلغتها وأنا مبلل ندي . وهناك في غرفتي كان المطر يتساقط على الشرفة في غزارة ، وكانت الريح تقذف الابواب الزجاجية به . وغيرت ملابسي ، وشربت شيئاً من البراندي ، ولكن البراندي لم تبدُ طيبة المذاق . واستشعرت ، خلال الليل ، بغثيان . وفي الصباح ، بعد أن تناولت الفطور ، تقيأت .

وقال طبيب المستشفى :

— « ليس في ذلك شك . انظري إلى بياض عينيه ، يا آنسة .

ونظرت مس غايج . وكلفاني أن أنظر في مرآة . كان بياض» عينيّ أصفر ، وكنت مصاباً بالبرقان . وبقيت مريضاً بهذا الداء اسبوعين اثنين . ومن أجل ذلك لم نقض اجازة نقاهة معاً . كنا قد اعتزمنا الذهاب إلى بالانتزا ، على بحيرة « لاغو ماغيور » . فالجوّ جميل ، هناك ، في الخريف عندما تذوى أوراق الشجر . ان ثمة نزهات تستطيع أن تقوم بها ، وإن في امكانك أن تتصيد سمك الأطروط في البحيرة . وكان الذهاب إلى بالانتزا خيراً من الذهاب إلى ستريزا لأن الناس

في بالانترا كانوا أقل . إن من اليسير جداً على المرء أن ينتقل من ميلانو إلى ستريزا ، وهذا ما يجعل هذه الأخيرة حافلة دائماً بأناس تعرفهم. وهناك في بالانترا قرية جميلة ، وفي استطاعتك أن تجذف إلى الجزر التي يسكنها الصيادون . وانك لواجد في كبرى تلك الجزر مطعماً . ولكننا لم نذهب .

وذات يوم ، وكنت طريح الفراش بالبرقان ، دخلت عليّ مس فان كامبن ، وفتحت الخزانة ، فرأت الزجاجات الفارغة هناك . كنت قد كلفت البواب بأن يخرج من غرفتي عدداً كبيراً منها ، وأحسب انها رأته وهو يمضي بها ، فوفدت عليّ فوجدت مقداراً آخر منها . كانت في المحل الأول زجاجات فيرموت ، وزجاجات مارسالا ، وزجاجات كابري ، وقوارير شيانتي فارغة ، وبضع زجاجات كونياك . وكان البواب قد أخرج الزجاجات الضخمة ، تلك التي كانت تحتوي الفيرموت وقوارير الشيانتي المغطاة بالقش ، وترك زجاجات البراندي إلى الأخير. وكان ما عثرت عليه مس فان كامبن هو زجاجات البراندي وزجاجة على شكل دب كانت تحتوي على شراب الـ « كوميل » . وأثارتها هذه الزجاجة التي على شكل دب اثارة خاصة . فرفعتها عالياً . كان الدب قاعداً على مؤخرته رافعاً قدميه إلى أعلى . وكان في رأسه الزجاجي فلينة ، وبضع بلورات دبقة في قعره . وأنشأتُ أضحك .

وقلت :

— « كان فيها كوميل . ان افضل الكوميل يجيء في هذه الزجاجات المصنوعة على شكل دب . إنها ترد من روسيا . »

وسألتني مس فان كامبن :

— « هذه كلها زجاجات براندي ، أليس كذلك ؟ »

فقلت :

— « لا أستطيع أن اراها كلها . ولكنها زجاجات براندي في

أرجح الظن . »

— « منذ متى أقدمتَ على هذا الصنيع ؟ »

فقلت :

— « لقد اشتريتها وحملتها إلى هنا بنفسي . كان يزورنا بين الفينة والفينة ضباط ايطاليون ، ولقد احتفظت بالبراندي لأقدمها اليهم . »

فقالت :

— « ألم تكن أنت نفسك تشربها ؟ »

— « لقد شربتُها أنا نفسي أيضاً ؟»

فقالت :

— « براندي ؟ احدى عشرة زجاجة فارغة من البراندي ، وهذا الشراب الدبّي ! »

— « كوميل . »

— « سوف اكلف أحداً بأخراجها من هنا . هل هذا كل ما عندك من زجاجات فارغة ؟ »

— « في الوقت الحاضر . »

— « وكنت أشفق عليك لأصابتك باليرقان ! يا لضياع الشفقة فيك ! »

— « شكراً . »

— « أحسب ان المرء لا يستطيع أن يلومك لعدم رغبتك في العودة إلى الجبهة . ولكني أودّ لو أراك تجرب وسيلة ادلّ على الذكاء من تعريض نفسك للاصابة باليرقان من طريق الاسراف في الشراب . »

— « من طريق ماذا ؟ »

— « من طريق الاسراف في الشراب . لقد سمعتَني جيداً على ما أظن . »

فلم أنبس ببنت شفة . وأضافت :

ـ « أخشى أن تضطر للعودة إلى الجبهة حال شفائك من البرقان ... اللهم إلا إذا اكتشفت وسيلة أخرى . ولست أعتقد أن البرقان المفتعل افتعالاً يؤهلك للفوز بأجازة نقاهة . »

ـ « لا تعتقدين ؟ »

ـ « لا . »

ـ « هل أصبتِ ذات يوم بالبرقان ، يا مس فان كامبن ؟ »

ـ « لا . ولكني رأيت كثيرين مصابين به . »

ـ « هل لاحظتِ كيف يستمتع المرضى بدائهم ذاك ؟ »

ـ « أحسب ان هذا خير من الجبهة . »

فقلت :

ـ « مس فان كامبن ، هـل عرفتِ ذات يوم رجلاً حاول أن يفتعل العجز من طريق رَفْس نفسه على الخصيتين ؟ »

وتجاهلت مس فان كامبن السؤال . كان عليها إما ان تتجاهله وإما أن تغادر الغرفة . ولم تكن مستعدة لمغادرة الغرفة لأنها أبغضتني منذ زمن طويل ، وكانت هذه فرصة نادرة للتشفي مني .

وقالت :

ـ « لقد عرفت رجالاً كثيرين فروا من الجبهة بأن عمدوا إلى جرح أنفسهم بأنفسهم . »

ـ « لم يكن هذا هو السؤال . أنا أيضاً رأيت رجـالاً جرحوا أنفسهم بأنفسهم . لقد سألتكِ هل رأيت في يوم من الايام رجلاً حاول أن يفتعل العجز بأن راح يرفس نفسه على الخصيتين ؟ لأن هذا هو أقرب الاحاسيس إلى البرقان . وهو إحساس لم يعرفه غير عدد قليل جداً من النساء في ما أعتقد . وهـذا ما حملني على أن أسألكِ هـل أصبتِ ، ذات يوم ، بالبرقان يا مس فان كامبن ، لأن ... »

وغادرت مس فان كامبن الغرفـة . وبعـد ذلك بقليل دخلت مس غايـج :

— « ماذا قلت لفان كامبن ؟ كانت ثائرة . »

— « كنا نقارن بين الاحاسيس . كنت أعتزم أن أشير إلى أنها لم تعرف المخاض قط ... »

فقالت غايـج :

— « أنت مجنون . انها سوف تسلخ جلدك . »

— « لقد سلختـه ؛ لقد أضاعت عليّ إجازة نقاهتي ، وقد تسعى لتقديمي للمحاكمة أمام المجلس الحربي . إنها من الانحطاط بحيث لا تتورع عن ذلك . »

فقالت غايـج :

— « إنها لم تحبك في يوم من الايام . علام هذا كله ؟ »

— « هي تزعم اني أسرفت في الشراب لكي أصيب نفسي باليرقان ، وبذلك أتخلص من العودة إلى الجبهة . »

فقالت غايـج :

— « بوه ! أنا مستعدة لأن أقسم انك لم تشرب خمراً قط . كل امرئ سوف يقسم انك لم تشرب خمراً قط . »

— « لقد عثرتْ على الزجاجات . »

— « قلت لك مئة مرة أن لا تبقي هذه الزجاجات هنا . أين هي الآن ؟ »

— « في الخزانة . »

— « أعندك حقيبة ثياب ؟ »

— « لا . ضعيها في ذلك الخُرْج . »

ووضعت مس غايـج الزجاجات في الخرج . وقالت :

— « سوف أعطيها إلى البواب . »

وتقدمتْ نحو الباب .

ولكن مس فان كامبن برزت فجأة وقالت :

— « دقيقة واحدة . سوف آخذ أنا هذه الزجاجات . »

كان البواب معها ، ووجهت اليه الخطاب قائلة :

— « إحملها من فضلك . أريد أن أطلع الطبيب عليها قبل أن أضع تقريري . »

وابتعدت مجتازةً الرواق . وحمل البواب الخرج . لقد عرف أي شيء كان فيه .

ولم يحدث شيء غير خسارتي اجازة النقاهة .

الفصل الثالث والعشرون

وفي الليلة التي كنت أعتزم فيها العودة إلى الجبهة ارسلت البواب ليحجز لي مقعداً في القطار القادم من تورين . وكان ذلك القطار يتشكّل في تورين ، ويصل إلى ميلانو حوالى الساعة العاشرة والنصف ليلاً فيمكث في المحطة حتّى انطلاقه منها عند منتصف الليل . وكان عليك أن تكون هناك عند وصوله لكي تفوز بمقعد . واصطحب البواب صديقاً له ، وكان مدفعياً يقضي اجازته وكان يعمل في دكان خياط . وقد أكد البواب ان في امكانه ، بمعونة ذلك الصديق ، أن يحجز لي مقعداً . وأعطيتهما مبلغاً من المال يشتريان به تذكرتين تخولانهما الدخول إلى رصيف المحطة . وعهدتُ اليهما بنقل أمتعتي . كان ثمة خُرج كبير وجرابان .

وحوالى الساعة الخامسة ودّعت أهل المستشفى ومضيت لسبيلي . كان البواب قد وضع أمتعتي في حُجَيْرته فأخبرته اني سوف أفد على المحطة قبل منتصف الليل بقليل . ونادتني زوجته « سينيورينو » وانشأت تبكي . ثم كفكفت عبراتها ، وصافحتني ، وانخرطت في البكاء من جديد . عندئذ ربّتّ على ظهرها ، فبكت كرةً أخرى . كانت قد رتقت ملابسي وجواربي ، وكانت امرأة بدينة شديدة القِصر بهيجة

الطلعة ذات شعر أشيب . وحين بكت ، انهار وجهها كله . وهبطتُ الطريق حتّى الزاوية التي تقوم عندها احدى الحانات وانتظرت في داخلها مطلاً من النافذة . كان الظلام قد هبط ، وكان الجو بارداً شديد الضباب . ودفعت ثمن القهوة والـ « غرابّا » وراقبت الناس ، على ضوء النور المنبعث من النافذة ، وهم يروحون ويجيئون . ورأيت كاثرين فنقرتُ على زجاج النافذة . فالتفتت ، فرأتني ، وابتسمتْ . وخرجت أنا للقائها . كانت قد طرحت على كتفيها رداء ازرق داكناً ، وكانت تعتمر بقبعة من لبّاد رَخْص . وتمشّينا معاً على الرصيف ، مجتازَيْن بالحانات ، ثم عبرنا ساحة السوق ، وصعّدنا في الشارع ، واجتزنا الطريق المقنطر حتّى انتهينا إلى ساحة الكاتدرائية . كانت ثمة خطوط تراموای ، وكانت الكاتدرائية قائمة خلف هذه الخطوط . كانت بيضاء وندية في الضباب . وعبرْنا خطوط الترامواي . وإلى يسارنا كانت الدكاكين والمحلات التجارية ، مضاءةَ النوافذ ، ومدخل الـ « غالبريا » . كان الضباب يرين على الساحة ، وحين اقتربنا من صدْر الكاتدرائية وجدناه ضخماً جداً ووجدنا حجارتها ندية .

— « هل ترغبين في الدخول ؟ »

فقالت كاثرين :

— « لا . »

وتابعنا سيرنا . كان ثمة جندي يقف مع صديقة له في ظل نصف قنطرة حجرية من انصاف القناطر الساندة التي أمامنا . واجتزنا بالجندي وصاحبته . كانا ملتصقين بالعمود الحجري ، وكان الجندي يلف الفتاة بمعطفه .

وقلت :

— « إنهما مثلنا . »

فقالت كاثرين :

— « لا احد مثلنا . »

كان في ملاحظتها هذه كآبة بالغة .

— « أتمنى لو كان لديهما مكان يذهبان اليه . »

— « جائز أن لا يفيدهما ذلك شيئاً . »

— « لست أدري . ينبغي أن يكون لكل امريْ مكان يذهب اليه . »

فقالت كاثرين :

— « إن لديهما الكاتدرائية . »

كنا قد ابتعدنا عن الكاتدرائية الآن . فعبرْنا الطرف الأقصى من الساحة والتفتنا إلى الكاتدرائية . كانت رائعة وسط الضباب . وكنا نقف تجاه محل من محلات بيع الأدوات الجلدية . كان ثمة في واجهة المحل حذاء فارس وخرْج ، وحذاء تزلج . وبدت كلٌ من هذه السلع وكأنها معروضة على حدة . كان الخرج في الوسط ، وكان حذاء الفارس في ناحية ، وحذاء التزلج في أخرى . وكان الجلد داكناً ومزيتاً فهو رخص مثل سَرْج مستعمل . وعلى هذا الجلد الداكن المزيّت ألقى النور الكهربائي أضواء ساطعة .

— « سوف نتزلج في يوم من الايام . »

فقالت كاثرين :

— « بعد شهرين يبدأ التزلج في مورين . »

— « دعينا نذهب إلى هناك . »

فقالت :

— « حسن . »

واجتزنا بواجهات أخرى ، وانعطفنا هابطَيْن شارعاً فرعياً .

— « ان قدميّ لم تطأ هذا الشارع قط من قبل . »

فقلت :

— « هذه هي الطريق التي أسلكها كلما ذهبت إلى المستشفى . »

كانت طريقاً ضيقة ، وقد لزمنا جانبها الايمن . كان ثمة كثير من الناس يمشون في الضباب . وكانت هناك محال تجارية ، وكانت جميع الواجهات مضاءة . وتأملنا واجهة بائع جبن . ثم وقفت تجاه دكان تاجر أسلحة ، وقلت :

— « فلندخل دقيقة . يجب ان اشتري سلاحاً . »

— « أيّ نوع من السلاح .؟ »

— « غدّارة . »

ودخلنا ، وحللت حمالتي ووضعتها ، بجرابها الفارغ الخاص بالغدارة ، على منضدة العرض . وكانت خلف المنضدة امرأتان. وجاءتني المرأتان بعدة غدارات .

وقلت وأنا أفتح جراب الغدارة :

— « يجب أن تتلاءم مع هذا الجراب . »

كان جراباً جلدياً رمادياً ، وكنت قد اشتريته مستعملاً لكي ألبسه في المدينة .

وسألتني كاثرين :

— « هل عندهم غدارات جيدة ؟ »

فقلت :

— « إنها كلها متماثلة تقريباً . »

ثم التفتّ إلى المرأة وسألتها :

— « هل أستطيع أن أجرب هذه ؟ »

فقالت :

— « ليس لديّ الآن مكان لأطلاق النار . ولكنها جيدة جداً . انك لن تخطئ الهدف بها أبداً . »

وضغطت على « لسان » الغدارة ، وخفضت « كلبها » . كان النابض قاسياً ولكنه يعمل في سلاسة . وسدّدت الغدارة وضغطت على « اللسان »

من جديـد .
فقالت المرأة :
– « إنها مستعملة . وكان صاحبهـا القديم ضابطـاً بارعـاً في الرمـاية . »
– « وكنتِ أنتِ التي بعته إياها ؟ »
– « نعم . »
– « وكيف استرجعتِها منه ؟ »
– « من العسكري المرافق له . »
فقلت :
– « لعلّ غدارتي عندكِ أيضاً . كم ثمن هذه ؟ »
– « خمسون ليراً . إنها رخيصة جداً . »
– « حسن . أريد حافظتيّ خرطوش اضافيتين وعلبة خراطيش . »
وجاءتني بذلك من تحت منضدة العرض .
– « وسألتني :
– « هل تحتاج إلى سيف ؟ إن لديّ بعض السيوف المستعملة الرخيصة . »
فقلت :
– « أنا ذاهب إلى الجبهة . »
فقالت :
– « أوه . نعم . واذن فلن تكون في حاجة إلى سيف . »
ودفعت الخراطيش والغدارة ، وملأت « الخزان » وأعدته الى مكانه . ثم وضعت الغدارة في جرابها الفارغ ، وملأت الحافظتين الاضافيتين بالخراطيش ، ووضعتهما في الفجوتين اللتين فوق الجراب ، ثم لبستُ الحمالة .
لقد استشعرتُ الغدارةَ ثقيلةً على الحمالة . ولكني قلت في ما بيني وبين نفسي إن من الخير ان أحمل مثل هذه الغدارة .

وقلت :

— « ها قد أصبحت كامل السلاح . ذلك هو العمل الوحيد الذي كان يتعين عليّ أن أتذكّر القيام به . لقد سرق أحدهم غدارتي الأخرى وأنا في طريقي إلى المستشفى . »

فقالت كاثرين :

— « أرجو أن تكون غدارةً جيدة . »

وسألتني المرأة :

— « هل تريد شيئاً آخر ؟ »

— « لست أعتقد ذلك . »

فقالت :

— « إن للغدارة حبلاً في طرفه كلاّبة .

— « لقد لاحظت ذلك . »

كانت المرأة تريد أن تبيعني شيئاً آخر .

— « ألا تحتاج إلى صفّارة ؟ »

— « لست أعتقد ذلك . »

وودعتنا المرأة ، وخرجنا نمشي على الرصيف . ونظرت كاثرين إلى النافذة ، فأطلّت المرأة علينا وانحنت تحية لنا .

— « ما هذه المرايا الصغيرة المنزّلة في تلك الألواح الخشبية ؟ »

— « إنها وسيلة لاجتذاب الطيور . إنهم يفتلونها في الحقول ، فتراها القبّرات ، فتندفع نحوها ، فيطّلق الايطاليون النار عليها . »

فقالت كاثرين :

— « إنهم شعب ذكي . أنتم لا تطلقون النار على القبّرات في أميركا ، أليس كذلك يا حبيبي ؟ »

— « لسنا نستهدفها على وجه التخصيص . »

وعبرنا الشارع وبدأنا نمشي في الجانب الآخر منه .

وقالت كاثرين :

– « إني أشعر بارتياح الآن : كان الضيق يستبد بي عندما انطلقنا. »

– « اننا نشعر بالارتياح كلما كنا معاً . »

– « ولسوف نكون دائماً معاً . »

– « نعم ، باستثناء أني سأمضي لسبيلي في منتصف الليل . »

– « لا تفكر في ذلك ، يا حبيبي . »

وصعّدنا في الشارع . كان الضباب قد جعل الاضواء صفراء .

وسألتني كاثرين :

– « ألم تتعب ؟ »

– « وأنت ؟ »

– « لا بأس . من الطريف أن يمشي المرء . »

– « ولكن يحسن بنا ان لا نسرف فيه . »

– « كما تريد . »

وانعطفنا هابطين شارعاً فرعياً لا أضواء فيه ؛ ومشينا في ذلك الشارع فترة . ثم وقفت وقبّلت كاثرين . وفيما أنا أقبّلها استشعرت يدها على كتفي . كانت قد جذبت الرداء المطروح على ظهري وأحاطت نفسها به حتى لقد غطى كلاً منا . كنا واقفين في الشارع مستندين إلى جدار عـال .

وقلت :

– « فلنذهب إلى مكان ما . »

فقالت كاثرين :

– « حسن . »

وواصلنا طريقنا حتى انتهت بنا تلك الطريق إلى شارع أعرض ممتد على ضفة قناة . وعلى الجانب الآخر من ذلك الشارع كان جدار آجري وأبنية . وتجاهنا ، في أقصى الشارع ، رأيت تراماً يعبر جسراً .

— « في استطاعتنا أن نفوز بعربة خيل عند الجسر . »

ووقفت على الجسر ، وسط الضباب ، أنتظر عربة . ومرّت بضع حافلات ترام ملأى بأناس عائدين إلى بيوتهم . ثم إنّ عربة أقبلت ، ولكنها كانت تقلّ شخصاً ما . كان الضباب يتحول إلى مطر .

وقالت كاثرين :

— « في استطاعتنا أن نذهب سيراً على الاقدام أو أن نأخذ الترام . »

وأوقف السائق فرسه ، وخفض الأشارة المعدنية على عدّاده الآلي . كان غطاء العربة مرفوعاً ، وكانت على سترة السائق قطرات ماء . كانت قبعته المُقَرْنَشَة تلتمع تحت المطر . وجلسنا معاً في المقعد الخلفي ، فوجدنا نفسينا — تحت غطاء العربة — في ظلام حالك .

— « إلى أين سألتَهُ أن يذهب ؟ »

— « إلى المحطة . إن ثمة تجاه المحطة فندقاً نستطيع أن نقصد اليه . »

— « وهل نستطيع أن نذهب على هذه الحال ، من غير أمتعة ؟ »

فقلت :

— « أجل . »

كانت طريقنا إلى المحطة طويلة ، وكان علينا أن نجتاز عدداً من الشوارع الفرعية تحت المطر .

وسألتني كاثرين :

— « ألن نتعشى ؟ أنا أخشى أن يستبدّ بي الجوع . »

— « سوف نتعشى في غرفتنا . »

— « ليس لديّ ما ألبسه . بل ليس لديّ حتى قميص نوم . »

فقلت :

— « سوف نذهب ونشتري واحداً . »

ووجهت الخطاب إلى سائق العربة :

— « إذهب إلى الـ « فيا مانزوني » واصعد بنا ذلك الشارع . »

فهز رأسه ، وانعطف إلى اليسار عند أول زاوية . وفي الشارع الكبير أنشأت كاثرين تبحث عن دكانٍ ما .

وقالت :

— « هو ذا محلّ . »

وأوقفتُ السائق ، وترجلتْ كاثرين ، واجتازت الرصيف ودخلت المحل . وقبعتُ في مقعد العربة الخلفي أنتظرها . كان المطر يهطل ، وكان في ميسوري أن أستروح عبق الشارع النديّ ورائحة الفرس وقد تصاعد البخار من جسده تحت المطر . ورجعت كاثرين حاملة رزمة ، وامتطت متن العربة . فانطلقنا .

وقالت :

— « كنت مبذّرة جداً . يا حبيبي ، ولكنه قميص نوم رائع . »

حتى إذا وصلنا إلى الفندق سألتُ كاثرين أن تبقى في العربة ريثما أدخل الفندق وأتحدّث إلى مديره . كان ثمة عدد كبير من الغرف الشاغرة . فرجعت إلى العربة ، ودفعت إلى السائق اجرته ، ودخلت الفندق أنا وكاثرين . وحمل غلام الفندق الرزمة . ورافقنا المدير ، في حفاوة بالغة ، حتى المصعد الكهربائي . كان ثمة مقادير وافرة من النحاس والقطيفة الحمراء . وامتطى المدير متن المصعد معنا .

— « هل يرغب السيد والسيدة في تناول طعام الغداء في غرفتهما ؟ »

فقلت :

— « نعم . هل لك أن تبعث بلائحة الطعام إلى الغرفة ؟ »

— « هل ترغبان في شيء خصوصي للعشاء ، بعض الطيور أو عجّة « سُوفليه » مثلاً ؟ »

واجتاز المصعد ثلاثة أدوار ، مشيراً إلى كل منها بتكّة خافتة . ثم انه تكّ تكّةً أخيرة ووقف :

— « ما عندك من صنوف الطير ؟ »

— « في استطاعتي ان أقدّم اليكما دُرّاجاً أو ودقوقاً * »

فقلت :

— « نريد ودقوقاً . »

وهبطنا الرواق . كانت السجادة بالية . وكان ثمة كثير من الابواب . وكف المدير عن السير وأخرج مفتاحاً فتح به أحد الأبواب .

— « هي ذي غرفة فاتنة . »

ووضع غلام الفندق الرزمة على مائدة كانت في وسط الغرفة . وازاح المدير الستائر .

وقال :

— « الضباب كثيف في الخارج . »

كان أثاث الغرفة من القطيفة الحمراء . وكان فيها عدد كبير من المرايا ، وكرسيان ، وسرير عريض ذو غطاء من الأطلس . وكان ثمة باب يؤدي إلى الحمام .

وقال المدير :

— « سوف أبعث اليكما بلائحة الطعام . »

وانحنى وخرج .

ومضيت إلى النافذة ، ثم سحبت حبلاً أسدل الستائر القطيفية الكثيفة . كانت كاثرين جالسة على السرير تتأمل الثريا البلورية . كانت قد نزعت

* woodcock

قبعتها ، فتوهج شعرها تحت الضوء . ورأت نفسها في احدى المرايا ، ورفعت يديها إلى شعرها . ورأيتها في ثلاث مرايا أخرى . لقد بدت غير سعيدة . ولقد تركتْ « شالها » يسقط على السرير .

– « ما بالك ، يا حبيبتي ؟ »

فقالت :

– « أنا لم أشعر قط في يوم من الأيام وكأني بائعة لذة . »

وقصدتُ إلى النافذة ، وازحت الستارة جانباً ، ونظرت إلى الخارج : لم يخطر لي ببال أن الأمر قد يبدو على هذه الشاكلة .

وقلت :

– « ولكنك لست بائعة لذة . »

– « أعرف ذلك ، يا حبيبي . ولكن ليس من السائغ أن تستشعر المرأة وكأنها بائعة لذة . »

كان صوتها جافاً صدئاً .

وقلت :

– « لقد كان هذا خير فندق نستطيع أن نقصد اليه . »

وأطللت من النافذة . وعبر الساحة ، كانت اضواء المحطة . وكانت العربات تجتاز الشارع ، ولقد رأيت الاشجار في الحديقة العامة . وانعكست أضواء الفندق على الرصيف النديّ . وقلت في نفسي : أوه ، يا للجحيم ، أينبغي لنا أن نتجادل الآن ؟

وقالت كاثرين :

– « تعال إلى هنا ، أرجوك . »

كان الصدأ قد زايل صوتها وأردفت :

– « تعال ، أرجوك . لقد عدتُ فتاة طيبة . »

ونظرتُ إلى السرير . كانت تبتسم .

وتقدّمت نحوها ، وجلست على السرير إلى جانبها ، وقبّلتها .

— « أألنتِ فتاتي الطيبة ؟ »

فقالت :

— « أنا لك من غير ريب . »

وإثر تناولنا الطعام شعرنا بانتعاش . وبعد ذلك غاب علينا الابتهاج الشديد . وما هي إلا فترة حتى شعرنا وكأن تلك الغرفة بيتنا . كانت غرفتي في المستشفى هي بيتنا ، وهذه الغرفة كانت بيتنا أيضاً بالطريقة نفسها .

وفيما نحن نأكل طرحت كاثرين صُدْرتي على منكبيها. كنا جائعين جداً ، وكان الطعام جيداً ، وشربنا زجاجة كابري ، وزجاجة « سان ايستيف » . لقد شربت القدر الأعظم ، ولكن كاثرين شربت بعض الشيء ، ولقد أبهج ذلك فؤادها . وكان عشاؤنا يتألف من ديك من النوع المعروف بالـ « ودقوق » مع بطاطا « سوفيله »،ومصفّى الكستناء ، وسلطة ، وأخيراً زاباغليون * كحلوى .

وقالت كاثرين

— « انها غرفة رائعة . كان ينبغي ان نقضي فيها جميع أيامنا في ميلانو . »

— « انها غرفة مضحكة . ولكنها حسنة . »

وقالت كاثرين :

— « الرذيلة شيء مُذهل . وهذه القطيفة الحمراء رائعة من غير شك . والمرايا جذابة جداً . »

— « أنت فتاة عظيمة . »

— « اني لاتساءل كيف يكون شعور المرء حين يفيق صباحاً بعد نومه في هذه الغرفة . ولكنها في الواقع غرفة رائعة . »

وأترعتُ كأساً اخرى بشراب « سان ايستيف . »

* zabaglione

— « أتمنى لو نستطيع ان نقترف إثماً حقيقياً .إن كل ما نفعله يبدو بريئاً وبسيطاً إلى أبعد الحدود . أنا لا أستطيع أن أعتقد أننا نقترف أيّ اثم . »

— « أنتِ فتاة عظيمة . »

— « كلّ ما في الأمر اني جائعة . جائعة إلى حد فظيع . »

فقلت :

— « أنتِ فتاة بسيطة رائعة . »

— « أنا فتاة بسيطة . إن أحداً لم يفهم هذه الحقيقة غيرك . »

— « لقد قضيتُ أصيلاً كاملاً ، ذات يوم — ولعل ذلك كان بُعَيْد اجتماعنا لأول مرة — وأنا أفكّر كيف يمكن أن نذهب معاً الى فندق كافور ، وكيف سيكون شعورنا لو ذهبنا . »

— « لقد كانت هذه جسارة بالغة منك . نحن لسنا الآن في فندق كافور ، أليس كذلك ؟ »

— « لا . إنهم ما كانوا ليَقْبلونا هناك . »

— « سوف يتقْبلوننا في وقت ما . ولكن هذا هو الذي يجعلنا شيئاً مختلفاً ، يا حبيبي . أنا لم أفكر قط في أيما شيء . »

— « ألم تفكري في شيء البتة ؟ »

فقالت :

— « قليلاً . »

— « أوه ، أنت فتاة قريبة إلى الفؤاد . »

وأترعتُ كأساً أخرى .

فقالت كاثرين :

— « أنا فتاة بسيطة جداً . »

— « لم أحسَبْكِ هكذا باديء الأمر . لقد حسبتكِ فتاة طائشة . »

— « لقد كنت طائشة بعض الشيء . ولكني لم أكن طائشة على صورة معقدة . أنا لم أربكك ، اليس كذلك يا حبيبي ؟ »

فقلت :

— « الخمر شيء عظيم . إنها تُنسيك كل ما هو رديئ . »

فقالت :

— « إنها لذيذة ؛ ولكنها أصابت والدي اصابة خطيرة بداء النقرس. »

— « أنك أب ؟ »

فقالت كاثرين :

— « نعم . إنه مصاب بالنقرس . ولكن تكون مضطراً ابداً إلى الاجتماع به . أليس لك أب ؟ »

فقلت :

— « لا . إن لي زوج أمّ . »

— « هل تعتقد اني سأحبه ؟ »

— « لن يكون من واجبك ان تجتمعي اليه . »

فقالت كاثرين :

— « نحن سعيدان جداً . أنا لا أبالي بأيما شيء منذ اليوم . أنا سعيدة جداً بأن أكون زوجتك . »

وأقبل النادل ، واسترجع الصحون والاطباق . وبعد فترة هيمن علينا السكون ، وكان في ميسورنا أن نسمع المطر يهطل . وتحت ، في الشارع ، زمّرت سيارة .

وقلت :

« ولكني اسمع من ورائي دائماً
عربة الزمان المجنحة تقترب مسرعة . »

وقالت كاثرين :

— « أنا أعرف هذه القصيدة . إنها من نظم مارفيل . ولكنها تتحدث عن فتاة تأبى الحياة مع رجل . »

وغلب الصفاء البالغ على رأسي ، واستعدت هدوئي ، واستشعرت الرغبة في التحدث عن الوقائع .

— « أين تعتزمين أن تلدي ؟ »

— « لست أدري . في أفضل مكان أستطيع أن أجده . »

— « وكيف تعتزمين أن تتدبري ذلك ؟ »

— « على أحسن وجه استطيعه . لا تقلق ، يا حبيبي .قد نُرزَق عدة أولاد قبل أن تنتهي الحرب . »

— « لقد حان وقت السفر أو كاد . »

— « أدري . وفي استطاعتنا ان نذهب الآن إذا شئت . »

— « لا . »

— « إذن لا تقلق ، يا حبيبي .لقد كنت رائعاً حتى الآن. فعلام هذا القلق الذي يستبدّ بك ؟ »

— « لست قلقاً . هل ستكتبين إليّ كثيراً ؟ »

— « كل يوم . هل يطلعون على بريدك ؟ »

— « إنهم لا يحسنون قراءة الانكليزية إلى درجة تُنزل الاذى بأحد : »

فقالت كاثرين :

— « سوف أجعلها مبهمة جداً . »

— « ولكن ليس أكثر مما ينبغي . »

— « سوف أكتفي بجعلها مبهمة قليلاً . »

— « يخيل إليّ ان لحظة الانطلاق قد حانت . »

— « حسن يا حبيبي . »

— « أنا أكره مفارقة بيتنا الرائع . »

— « وأنا أيضاً . »
— « ولكن علينا أن نمضي . »
— « حسن . ولكنا لم يقدّر لنا قط أن نستقر في بيتنا دهـراً طويـلاً . »
— « سوف نحظى بذلك يوماً . »
— « سوف أعدّ لك بيتاً رائعاً عندما ترجع . »
— « من يدري ، لعلي ان ارجع في الحال . »
— « ربما أصبتَ بجرح طفيف في القدم . »
— « أو في شحمة الاذن . »
— « لا . أنا أريد أن تظل أذناك على حالها . »
— « وقدماي ؟ الا تريدين ان يظلا على حالهما ؟ »
— « لقد جُرحتْ قدماك قبل اليوم . »
— « ينبغي ان نذهب ، يا حبيبي . لم يعد في امكاننا ان نتأخر . »
— « حسن . أخرج أنت أولاً . »

الفصل الرابع والعشرون

وهبطنا السلم بدلاً من ان ننزل بالمصعد الكهربائي . كانت السجادة التي تكسو السلّم بالية . وكنت قد دفعت نفقات العشاء حين جيء به إلى الغرفة ، وكان النادل الذي حمله الينا جالساً على كرسي قرب الباب . وما إن رآنا حتى وثب وانحنى احتراماً ، فمضيت معه إلى الغرفة الجانبية ودفعت اليه فاتورة الغرفة . كان مدير الفندق قد تذكّرني كصديق من أصدقائه ورفض ان أدفع اليه الأجرة مقدماً ، ولكنه حين انسحب تذكّر أيضاً أن يطلب إلى النادل ان يرابط لدى الباب لكي لا أخرج من غير دفع . وأحسب أن ذلك قد حدث في مرات سابقة ، حتى مع أصدقائه . إن للمرء في زمن الحرب عدداً كبيراً جداً من الأصدقاء .

وسألت النادل أن يحضر لنا عربة ، فأخذ رزمة كاثرين من يدي ، وخرج حاملاً مظلة . وفي الخارج رأيناه من خلال النافذة يعبر الشارع تحت المطر . لقد وقفنا في الغرفة الجانبية ، وسرّحنا الطرف عبر النافذة .

— « ما الشعور الذي يسيطر عليكِ ، يا كات ؟ »

— « النعاس . »

— « أما أنا فأحسّ بالفراغ والجوع . »

— « هل لديك ما تأكله ؟ »

— « بلى . في جرابي . »

ورأيت العربة مقبلة . ووقفتْ . وخفض الفرس رأسه تحت المطر . وترجّل النادل ، وفتح مظلته ، وتقدّم نحو الفندق . والتقيناه لدى الباب ، وخرجنا تحت المظلة ، فاجتزنا الرصيف إلى حيث كانت العربة واقفة عند حافة الطريق . كانت المياه تجري في القناة .

وقال النادل :

— « رزمتك هناك . على المقعد . »

وظل واقفاً ، والمظلة في يده ، حتى دخلنا العربة ونقدته البقشيش.

وقال :

— « شكراً كثيراً . ورحلة ممتعة . »

وهزّ الحوذي الزمام ، فانطلق الفرس . واستدار النادل تحت المظلة ورجع إلى الفندق . وأنشأت العربة تهبط بنا الشارع . وانعطفنا نحو اليسار ، ثم وقفنا إلى اليمين ، تجاه المحطة . كان اثنان من الجنود القَرَبينيين * واقفين تحت الضوء ، مجتنبَيْن المطر بشق النفس . والتمع الضوء على خوذتيهما . وبدا المطر واضحاً وشفافاً وسط الضياء المنبعث من المحطة . وأقبل من المحطة حمال رافعاً منكبيه في وجه المطر .

وقلت :

— « لا . شكراً . لست في حاجة اليك . »

ورجع يتقي المطر تحت مدخل المحطة المسقوف . والتفتّ إلى كاثرين . كان وجهها في الظل ، تحت غطاء العربة المرفوع .

— « والآن نستطيع ان نقول إلى اللقاء . »

* Carabinieri وقد شرحناها في هامش سابق .

— « ألا استطيع أن أدخل ؟ »

— « لا . »

— « إلى اللقاء ، يا كات . »

— « هل لك أن تعطيه عنوان المستشفى ؟ »

— « من غير ريب . »

وأعطيت الحوذي العنوان الذي ينبغي أن يوصلها اليه . فهز برأسه .
وقلت :

— « إلى اللقاء . اعتني جيداً بنفسكِ وبكاثرين الصغيرة . »

— « إلى اللقاء يا حبيبي . »

فقلت :

— « إلى اللقاء . »

وترجلتُ تحت المطر ، وانطلقت العربة . وانحنت كاثرين ، فرأيتُ وجهها في الضياء . وابتسمت لي ولوّحت بيدها . وصعّدت العربة في الشارع . وأومأت كاثرين إلى مدخل المحطة . فنظرت ، فلم أجد غير الجنديين القربينيين ومدخل المحطة . وأدركت أنها ترغب إلي أن أدخل المحطة اجتناباً للمطر . ودخلتُ، ووقفتُ ، وراقبت العربة وهي تنعطف عند الزاوية . ثم انني عبرت المحطة ، وهبطت المجاز إلى القطار .

كان بواب المستشفى على رصيف المحطة يبحث عني . وتبعتُه إلى القطار ، وشققتُ طريقي وسط الحشد ، وعلى طول المعبر ، حتى دخلت باباً قادني إلى المقصورة الملأى التي كان المدفعي يحتلّ احدى زواياها . كان خُرْجي وجراباي فوق رأسه في شبكة الأمتعة . وكان كثير من الناس واقفين في الرواق ، ولم نكد ندخل المقصورة حتى راح كلّ من فيها ينظر الينا . لم يكن في القطار أماكن كافية ، وكان القوم كلهم متجهّمي الوجوه . ونهض المدفعي لي لكي أجلس مكانه .

وربّت شخص ما على كتفي : فأجلت طرفي في ما حولي ، فاذا هو كابتن مدفعية فارع الطول ، مهزول الجسم ، تنسحب على خده ندبة حمراء . كان قد نظر — وهو بعدُ في المجاز — من خلال الزجاج ، ثم دخل .

وسألته :

— « ماذا تريد ؟ »

كنت قد استدرت وواجهتُهُ . كان أطول مني ، وكان وجهه مهزولاً جداً تحت ظل خوذته ، وكانت الندبة جديدة ملتمعة . كان كل امرئ في المقصورة ينظر إليّ .

وقال :

— « ليس لك الحق في أن تفعل هذا . ليس لك الحق في أن تكلف جندياً بحجز مقعد لك . »

— « ومع ذلك فقد أقدمتُ على هذا . »

وبلع ريقه . ورأيت حنجرته تعلو ثم تهبط . ووقف المدفعي تجاه المقعد . ونظر الينا آخرون من خلال الزجاج . ولم ينبس احدٌ ممن كانوا في المقصورة ببنت شفة .

— « ليس لك الحق في أن تفعل ذلك . لقد جئت إلى هنا قبل مجيئك بساعتين . »

— « ماذا تريد ؟ »

— « المقعد . »

— « وأنا أيضاً أريده . »

وراقبتُ وجهه ، وكان في ميسوري أن أستشعر أن كل من في المقصورة ضدي . ولم أستطع أن ألومهم . فقد كان الرجل مُحقّاً . ولكنني أردت المقعد . ومع ذلك ، فأن احداً لم ينطق بكلمة .

وقلت في ذات نفسي : « اوه ، يا الجحيم ! »

ثم قلت :

— « اجلس ، سينيور كابيتانو ! »

وافسح المدفعي طريقاً للكابتن الفارع الطول ، فجلس . ونظر إليّ . كان متجهم الوجه . ولكنه كان قد فاز بالمقعد .

وقلت للمدفعي :

— « إيتِ بأمتعتي . »

و خرجنا إلى المجاز . كان القطار حاشداً ، وعرفت أن لا أمل لي في الفوز بمقعد . وأعطيت كلاً من البواب والمدفعي عشرة ليرات . * فاجتازا المَعْبر وهبطا إلى الرصيف ناظرَيْن إلى النوافذ ، ولكنْ لم يكن ثمة مقاعد شاغرة .

وقال البواب :

— « لعل بعضهم أن يغادر القطار في بريسيا . »

فقال المدفعي :

— « بل إن ركاباً إضافيين سوف يمتطون القطار في بريسيا . »

وصافحتهما مودعاً ، وانصرفا . كانا مبتئسَيْن . وفي داخل القطار كنا كلنا واقفين في المجاز عندما انطلق القطار . وراقبت أضـواء المحطة والأفنية أثناء انطلاقه . كان المطر لا يزال يهطل ، وما هي إلا فترة قصيرة حتى أصبحت النوافذ مبللة ، ولم يعد في ميسورك أن ترى شيئاً . وبعد ذلك نمت على أرض المجاز . لقد وضعت محفظتي المنطوية على دراهمي وأوراقي داخل قميصي وبنطلوني بحيث انتهت إلى ساق بنطلوني . ونمت طول الليل ، ولم أستيقظ إلا في بريسيا وفيرونا عندما امتطى متن الحافلة أناسٌ جُدُد ، ولكنني عدت فاستسلمت للرقاد في الحال . لقد وضعت رأسي على أحد الجرابَيْن واحدى ذراعيّ حول الأخرى ، وكنت أستشعر ثقل الكيس على جسدي . كان

* جمع لير .

في ميسور كل امرئ أن يخطو من فوقي إذا لم يرغب في أن يطـأنـي بقدميه ؛ وكان كثير من الرجال نائمين على الأرض على طول المجاز ؛ في حين وقف آخرون ممسكين بقضبان النوافذ أو متكئين على الأبواب . فقد كان هذا القطار حاشداً على نحو موصول .

الكتاب الثالث

الفصل الخامس والعشرون

كان الفصل فصل الخريف . وكانت الاشجار كلها عارية، وكانت الطرق موحلة . ومن يودين ركبت شاحنة أوصلتني إلى غوريتزيا . وفي الطريق اجتزنا بشاحنات أخرى ، وسرّحت طرفي في الريف : كانت شجرات التوت عارية من أوراقها ، وكانت الحقول سمراء . كان ثمة على الطريق أوراق ندية ميتة تساقطت من صفوف الاشجار الجرداء ، وكان الرجال يعملون في الطريق فهم يملأون الاخاديد بحجارة مكسّرة كُدّست اكواماً أكواماً على جانب الطريق بين الاشجار . ورأينا المدينة وقد علاها الضباب الذي حجب الجبال. وعبرنا النهر . ورأيت أنه يجري جيّاشاً عالي الموج . كان المطر قد هطل ، وما يزال ، في الجبال . ودخلنا المدينة ، بعد ان اجتزنا المصانع أولاً ، وتبدّت لنا البيوت والدارات ؛ وقد لاحظت أن عدداً اضافياً كبيراً من البيوت قد أصيب بأذى . وفي أحد الشوارع الضيقة اجتزنا بسيارة اسعاف من سيارات الصليب الأحمر البريطاني . كان السائق يعتمر بقلنسوة من النوع الذي ندعوه « كاسكيت » ، وكان وجهه مهزولاً برْنَزَتْهُ * الشمس . ولم أعرفه . وترجلت من الشاحنة

* جعلت لون بشرته كالبرونز .

في الساحة الكبيرة تجاه منزل رئيس البلدية . وناولني السائق خُرْجي فوضعته على ظهري ، ومضيتُ مؤرجحاً جرابيّ الاثنين ، إلى دارتنا. إني لم أشعر بمثل شعور المرء العائد إلى بيته .

وهبطتُ المجاز ذا الحصباء الندية ، ناظراً إلى الدارة من خلال الاشجار . كانت النوافذ كلها موصدة ، ولكن الباب كان مفتوحاً . ودخلت ، فوجدت الماجور جالساً إلى طاولة في الحجرة العارية المعلّقِ على جدرانها خرائطُ وبيانات مطبوعة بالآلة الكاتبة .

وقال :

— « هالو ! كيف أنت ؟ »

لقد بدا أكبر سناً وأكثر جفافاً .

فقلت :

— « بخير . كيف تجري الأمور ؟ »

فقال :

— « انتهى كل شيء . ضع أمتعتك واجلس . »

فوضعت خرجي وجراباي على الأرض ، ووضعت قلنسوتي على الكيس . ثم إني جئت بالكرسي الآخر ، وكان على مقربة من الحائط ، وجلست إلى المكتب .

وقال الماجور :

— « لقد كان صيفاً سيئاً . هل أنت معافىً الآن ؟ »

— « نعم . »

— « هل حصلت على سمات الشرف ؟ »

— « نعم . لقد حصلت عليها . شكراً جزيلاً . »

— « دعني أراها . »

وحللت أزرار معطفي وأزحته بحيث استطاع أن يرى الشريطتين :

— « هل حصلت على المداليات ؟ »

— « لا . على براءاتها فقط . »

— « المداليات سوف تأتي في ما بعد . إن ذلك يستغرق وقتاً إضافياً . »

— « ماذا تريد مني أن أفعله الآن ؟ »

— « السيارات كلها ليست هنا . إن ستاً منها في الشمال، في كابوريتو. هل تعرف كابوريتو ؟ »

فقلت :

— « نعم . »

لقد تذكرت انها بلدة صغيرة بيضاء واقعة في احد الأودية ، وان فيها برج أجراس . كانت بلدة صغيرة نظيفة ، وكان في ساحتها العامة نافورة ماء رائعة .

— « اننا نعمل هناك في هذه الأيام . ان ثمة كثيراً من الجرحى . لقد انتهى القتال . »

— « وأين الأخرى ؟ »

— « هناك اثنتان في الجبال ، واربع لا تزال في بينسيزا . وفريقا الاسعاف الآخران ينشطان في الـ « كارسو » مع الجيش الثالث . »

— « ماذا تريد مني أن أفعله ؟ »

— « تستطيع أن تذهب إلى بينسيزا وتتولى أمر السيارات الأربع إذا شئت . لقد سلخ جينو فترة طويلة وهو يعمل هناك. أنت لا تعرف تلك المواطن ، أليس كذلك ؟. »

— « لا . »

— « لقد جرت الأمور فيها على نحو سيء . لقد خسرنا ثلاث سيارات . »

— « سمعت بذلك . »

— « أجل ، لقد كتب اليك رينالدي وأخبرك بذلك . »

— « أين رينالدي ؟ »

— « إنه هنا في المستشفى . لقد قضى أيام الصيف والخريف وهو يعمل على نحو موصول . »

— « في استطاعتي ان أصدّق ذلك . »

وقال الماجور :

— « كانت الاحوال سيئة . وليس في استطاعتك ان تصدّق مبلغ السوء الذي انتهت اليه . لقد كنتُ أعتقد دائماً أنه كان من حسن حظك أن تُجْرَحَ يوم جُرِحْتَ بالذات . »

— « أعرف هذا . »

وقال الماجور :

— « العام القادم سوف يكون اسوأ ، من الجائز أن يشنوا هجوماً الآن . هم يقولون انهم سوف يهجمون ولكني لا أستطيع أن أصدق ذلك . لقد فات الأوان . هل رأيت النهر ؟ »

— « نعم . لقد ارتفع منسوبُهُ . »

— « لست أعتقد أنهم سوف يهجمون الآن ، بعد أن بدأت الامطار في التهطال . وإن الثلج سوف يتساقط وشيكاً . ولكنْ حدثني عن مواطنيك . هل تعتقد أن أميركيين آخرين سوف يعملون في صفوفنا مثلك ؟ »

— « إنهم يدربون جيشاً مؤلفاً من عشرة ملايين . »

— « أرجو أن نفوز ببعضهم . ولكن الفرنسيين سوف يستولون عليهم كلهم . إننا لن نفوز بأحد منهم هنا . حسن . إبق هنا الليلة ، واذهب غداً بالسيارة الصغيرة وأطلب إلى جينو أن يعود . سوف أبعث معك من يعرف الطريق . جينو سوف يخبرك بكل شيء . انهم لا يزالون يطلقون النار من مدافعهم ، بعض الشيء ، ولكن كل شيء قد انتهى . أنت لا بد راغب في أن

ترى البينسيزا . »

— « أنا سعيد بأن أراها . وإني لسعيد بالعودة إلى العمل معك، يا سيدي الماجور . »

وابتسم قائلاً :

— « لطفٌ كثير منك أن تقول هذا . لقد سئمتُ هذه الحرب إلى أبعد الحدود . ولو اني كنت بعيداً لما رجعت إلى هنا ، على ما أعتقد . »

— « هل الوضع رديئ إلى هذا الحد ؟ »

— « نعم . بل إنه أردأ من ذلك . إذهَبْ واغتسِلْ وابحَثْ عن صديقك رينالدي . »

وخرجتُ وصعدت السلم حاملاً أمتعتي . لم يكن رينالدي في الغرفة ، ولكن أمتعته كانت هناك ، وقعدت على السرير ، وفككت وِقاءَ ساقي ، ونزعتُ الحذاء عن رجلي اليمنى . ثم استلقيت على السرير . كنت متعباً ، وكانت ساقي اليمنى تؤلمني . لقد بدا من الحمق أن أستلقي على السرير وإحدى رجليّ حافية ، وهكذا قعدت وحَلَلْتُ فردة الحذاء الأخرى ، وطرحتها على الارض ، ثم استلقيت على البطانية كرة أخرى . كانت نافذة الغرفة موصدة وكان هواؤها حبيساً كريه العبق ، ولكنني كنت من التعب بحيث تقاعست عن النهوض لفتح النافذة . ورأيت أن أشيائي كلها كانت في احدى زوايا الغرفة. وفي الخارج كان الليل يهبط . لقد استلقيت على السرير وفكرت في كاثرين ، وانتظرت رينالدي . كنت أعتزم ان أحاول عدم التفكير في كاثرين إلا في الليل قبل أن آوي إلى النوم . ولكنني كنت الآن متعباً ولم يكن لديّ ما أعمله ، وهكذا استلقيت على السرير وفكرت فيها . وإنما كنت أفكر فيها عندما دخل رينالدي ، كان هو هو لم يتغير فيه شيء. ولعل جسمه أن يكون قد هَزُل بعض الشيء .

وقال :

— « وأخيراً ، أيها الطفل ! »

واستويت قاعداً على السرير ، فأقبل نحوي ، وجلس ، وطوّقني بذراعه .

وأضاف :

— « أيها الطفل العجوز الطيب ! »

وضربني على ظهري ضربة مرنانة ، فأمسكت بكلتا ذراعيه .

وقال :

— « أيها الطفل العجوز . دعني أرى ركبتك . »

— « ينبغي أن أنزع بنطلوني . »

— « انزع بنطلونك ، أيها الطفل . نحن كلنا أصدقاء هنا . أريد ان أرى اي نوع من العمل أجْرَوْه عليها . »

فوقفت ، ونزعت بنطلوني ، ورفعتُ طوق الركبة . وجلس رينالدي على الأرض ، ولوى الركبة في رفق إلى وراء وإلى أمام . وأمرّ إصبعه على طول الندبة . ووضع إبهامَيْه معاً على رَضْفَة الركبة ، وهزّ الركبة بأصابعه في رفق .

— « أهذا أقصى تَمَفْصُلٍ * تَقْدِر عليه ؟ »

— « نعم . »

— « من الاجرام أن يعيدوك إلى القتال . كان ينبغي ان يتمّ لك قبل ذلك تَمَفْصُلٌ كامل . »

— « إنها اليوم أحسن مما كانت بكثير . لقد كانت صلبة مثل لوح من خشب . »

ولواها رينالدي أكثر . وراقبت يديه . كانت له يدا جراح بارع . ونظرت إلى أعلى رأسه . كان شعره لماعاً ، مسرّحاً تسريحاً حسناً . ولوى

* **Articulation** أو مدى حركة المفاصل.

ركبتي أكثر مما ينبغي .

فصرخت :

— « آي ! »

فقال رينالدي :

— « ينبغي أن تخضع لمعالجة إضافية بواسطة الآلات . »

— « إنها اليوم أفضل مما كانت . »

— « أرى ذلك ، أيها الطفل . هـذا شيء أعرف عنه أكثر مما تعرف أنت . »

ونهض ، وقعد على السرير ، ثم أضاف :

— « الركبة في ذات نفسها لا بأس بها . » (كان قد انتهى الآن من الركبة) « حدثني كل شيء عن كل شيء . »

فقلت :

— « ليس هناك ما أخبرك به . لقد عشت حياة هادئة . »

فقال :

— « أنت تسلك مسالك رجل متزوج . ماذا جرى لك ؟ »

فقلت :

— « لا شيء . وأنت ماذا جرى لك ؟ »

فقال :

— « إن هذه الحرب تقتلني . إنها توقع في نفسي غماً شديداً . »

وطوى يديه على ركبته .

فقلت :

— « اوه ! »

— « ما بالك ؟ ألا يجوز لي أن أعرف حتى بعض الحوافز البشرية ؟ »

— « لا . أستطيع أن أرى انك كنت تقضي وقتاً طيباً . هات حدثني

عن ذلك : »

— « لقد سلخت الصيف كله والخريف كله في اجراء العمليات الجراحية . أنا أعمل على نحو موصول . أنا انهض بأعمال الناس جميعاً. انهم يتركون لي جميع الجراحات الصعبة . وحق الرب ، ايها الطفل ، أنا في سبيلي إلى ان أصبح جراحاً مدهشاً . »

— « مثل هذا النبأ يسرني أكثر . »

— « أنا لا أفكر أبداً . لا ، وحق الآلهة ، أنا لا افكر : أنا اجري عمليات جراحية . »

— « هذا صحيح . »

— « أما الآن ، ايها الطفل ، فقد انتهى كل شيء . أنا لا أجري عمليات جراحية الآن ، وهذا هو ما يضايقني إلى أبعد حد . ان هذه الحرب حرب فظيعة ، أيها الطفل . صدقني عندما أقول لك ذلك : انك ترفع من معنوياتي . هل جئتني بالاسطوانات ؟ »

— « نعم . »

كانت ملفوفة بالورق ضمن صندوق من الكرتون موضوع في جرابي . وكنت من التعب بحيث تقاعست عن اخراجها منه .

— « و أنت ، ألست تستشعر النشاط والارتياح ، أيها الطفل ؟ »

— « إني أستشعر الجحيم ! »

فقال رينالدي :

— « هذه الحرب فظيعة . هيا . سوف نسكر كلانا ، ونأخذ بأسباب الابتهاج . وعندئذ نطرد الهموم ونستشعر النشاط . »

وقلت :

— « لقد اصبت باليرقان . أنا لا أستطيع ان أسرف في الشراب . »

— « اوه ، أيها الطفل ، واذن فهكذا رجعت الي : رصيناً وذا كبد مريضة . أقول لك ان هذه الحرب شيء رديّ . لماذا خضنا

غمارها على أية حال ؟ »

— « سوف نشرب كأساً . أنا لا أريد أن أسكر ولكني سأشرب كأساً . »

وعبر رينالدي الغرفة متجهاً نحو المنضدة وجاء بكأسين وزجاجة كونياك .

وقال :

— « إنه كونياك نمساوي . كونياك النجوم السبعة . ان هذا هو الشيء الوحيد الذي استولوا عليه في سان غابرييل . »

— « هل كنت معهم هناك ؟ »

— « لا . أنا لم أكن في أي مكان . لقد كنت هناك طوال الوقت اجري عمليات جراحية . أنظر اليها . أيها الطفل . هذا كوب فرشاة أسنانك العتيقة . لقد احتفظت به هذه المدة كلها ليُذكرني بك . »

— « لكي يُذكرك بتنظيف أسنانك بالفرشاة . »

— « لا . إن عندي كوبي الخاص . لقد احتفظت به ليُذكرني بما كنت تفعله في الصباح . إنه يريني إياك . مقسماً الأيمان ، ملتهماً الاسبرين . لاعناً البغايا . محاولاً أن تمسح عن أسنانك آثار الـ « فيلا روسا » . إني كلما رأيت هذا القدح فكرتُ في جهودك من أجل تنظيف ضميرك بفرشاة أسنان . »

قال ذلك واقترب من السرير ، ثم أضاف :

— « قبّلني مرةً وقلْ لي أنت لم تصبح رجلاً رصيناً . »

— « أنا لن أقبّلك أبداً . أنت قرد . »

— « أدري . أنت نموذج الفتى الانكلوسكسوني الطيب . أدري . أنت فتى الندامة وتوبيخ الضمير ، أدري . سوف انتظر حتى أرى الانكلوسكسوني يمسح العهارة بفرشاة أسنان . »

— « صب قليلاً من الكونياك في الكأس . »

وقرع كل منا كأسه بكأس صاحبه . وهزأ رينالدي بي :

— « سوف اسقيك حتى تسكر ، وأنتزع كبدك ، وأضع لك مكانها كبداً ايطالية جيدة تعيد اليك رجولتك . »

ورفعت الكأس التماساً لمقدار اضافي من الكونياك . وفي الخارج كان الظلام حالكاً . ومضيت ، والكأس في يدي ، وفتحت النافذة . كان المطر قد كف عن التهطال . وكان الجو قد أمسى أكثر برداً في الخارج ، وكان الضباب يغشى الاشجار .

وقال رينالدي :

— « لا تقذف بالكونياك من النافذة . إذا كنت لا تستطيع أن تشربه فأعطني إياه . »

فقلت :

— « في استطاعتك ان تركض . »

كنت سعيداً بأن أرى رينالدي من جديد . لقد سلخ سنتين وهو « ينكرزني » ويناكدني ، ولقد أحببت ذلك منه دائماً . ان كلاً منا قد فهم الآخر فهماً جيداً .

وسألني من السرير :

— « هل أنت متزوج ؟ »

كنت مستنداً إلى الجدار قرب النافذة .

— « لم أفعل بعد . »

— « هل أنت عاشق ؟ »

— « نعم . »

— « لتلك الفتاة الانكليزية ؟ »

— « نعم . »

— « أيها الطفل المسكين ! وهل هي لطيفة معك ؟ »

— « طبعاً . »

— « أعني هل هي لطيفة معك على نحو عمليّ ؟.. »
— « إخرس . »
— « سأخرس . سوف ترى اني رجل مهذب إلى أبعد حد .
أهبي ... »
فقلت :
— « رينين . أرجوك ان تخرس . إذا اردت أن تكون صديقي فاخرس . »
— « أنا لا أريد أن أكون صديقك . إني صديقك فعلاً . »
— « اذن فاخرس . »
— « حسن . »
ومضيت إلى السرير وقعدت إلى جانب رينالدي . كان ممسكاً بكأسه محدقاً إلى الأرض .
— « لقد فهمت ، يا رينين . أليس كذلك ؟ »
— « اوه ، نعم . لقد واجهتُ ، طول حياتي ، مسائل لا يجوز الخوض فيها . أما معك فلم يُتح لي ذلك إلا قليلاً . وأحسب انه لا بدّ ان يكون لديك شيء منها أيضاً . »
قال ذلك وعاود النظر إلى الأرض .
— « وأنت أليس لديك مثل هذه المسائل ؟ »
— « لا . »
— « على الاطلاق ؟ »
— « لا . »
— « هل استطيع ان اقول كيت عن املك وان أقول كيت عن أختك ؟ »
فسارع رينالدي إلى القول :
— « أو عن اختك ! »

وانفجرنا كلانا بالضحك .

وقلت :

ـ « يا للسوبرمان العجوز ! »

فقال رينالدي :

ـ « لعلي أستشعر الغيرة منك . »

ـ « لا . أنت لا تستشعر ذلك . »

ـ « أنا لا أعني هذا النوع من الغيرة . اني أقصد شيئاً آخر هل لك أصدقاء متزوجون ؟ »

فقلت :

ـ « نعم . »

فقال رينالدي :

ـ « أنا ليس لي أصدقاء متزوجون . بل ليس لي أصدقاء عشاق . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « إنهم لا يحبونني . »

ـ « لماذا ؟ »

ـ « أنا الافعى . أنا أفعى العقل . »

ـ « لقد التبس عليك الأمر . كانت التفاحة هي العقل . »

ـ « لا . الافعى كانت العقل . »

قال ذلك وغدا أكثر ابتهاجاً .

وقلت :

ـ « انك تكون أفضل بكثير حين لا تفكر تفكيراً عميقاً إلى هذا الحد . »

فقال :

ـ « أنا احبك ، أيها الطفل . انك تزيل ورَمي عندما أصبح مفكراً ايطالياً عظيماً . ولكني أعرف أشياء كثيرة لا أستطيع أن أقولها . أنا

أعرف أكثر مما تعرف أنت . »

— « نعم ، هذا صحيح . »

— « ولكنك سوف تكون أسعد حالاً . حتى مع تبكيت الضمير سوف تكون أسعد حالاً . »

— « لست أظن ذلك . »

— « أوه ، بلى . هذا صحيح . فأنا اليوم لا استشعر السعادة إلا حين أنصرف إلى العمل . »

وعاود النظر إلى الأرض من جديد .

— « سوف تتغلب على ذلك . »

— « لا . أنا لا أحب إلا شيئين آخرين : أحدهما يضرّ بعملي والآخر ينقضي في نصف ساعة أو خمس عشرة دقيقة . وفي بعض الاحيان أقلّ . »

— « وأحياناً أقل من ذلك بكثير . »

— « لعلي قد أحرزت تقدماً ، أيها الطفل . أنت لا تدري . ولكن ليس هناك غير هذين الشيئين وعملي . »

— « سوف تكتشف أشياء جديدة . »

— « لا . إن المرء لا يكتشف أي شيء أبداً . اننا نولد مزوّدين بكل ما نملك ، ونحن لا نتعلم شيئاً البتة . اننا لا نكتشف ابداً شيء جديد . نحن كلنا نبدأ كاملين . يجب أن تسرّ لأنك لست لاتينياً . »

— « ليس هناك شيء اسمه الرجل اللاتيني . أعني التفكير اللاتيني . أنت شديد الاعتزاز بنقائصك . »

ورفع رينالدي بصره عن الأرض ، وضحك .

ثم قال :

— « سوف نكف عن النقاش ، أيها الطفل . لقد تعبت من التفكير إلى هذا الحد . » كان قد بدا متعباً عندما دخل الغرفة . « لقد حان

وقت الطعام ، تقريباً . أنا سعيد بعودتك : أنت أفضل أصدقائي ، وأخي في السلاح . »

فسألته :

– « ومتى يأكل الاخوة في السلاح .؟ »

– « في الحال . سوف نشرب كأساً أخرى اكراماً لكبدك . »

– « مثل القديس بولس . »

– « هذا غير دقيق . إن ما تشير اليه كان يتصل بالخمر والمعدة . اشرب قليلاً من الخمر اكراماً لمعدتك : »

فقلت :

– « سوف أشرب أيّ شيء اشتملت عليه الزجاجة ، واكراماً لأيّ شيء تنص عليه . »

فقال رينالدي :

– « اكراماً لفتاتك . »

ورفع كأسه .

– « حسن جداً . »

– « لن أقول بعد اليوم شيئاً قذراً عنها . »

– « لا تُجْهِدْ نفسك . »

وكرع الكونياك . وقال :

– « أنا طاهر . أنا مثلك ، أيها الطفل . سوف افوز بفتاة انكليزية أيضاً . الواقع اني عرفت فتاتك قبل أن تعرفها أنت ، ولكنها كانت طويلة بعض الشيء ، بالنسبة الي . طويلة إلى حد تصلح معه لأن تكون اختاً لي . »

فقلت :

– « إن لك عقلاً طاهراً إلى حد فاتن . »

– « أليس كذلك ؟ من أجل هذا يدعونني رينالدو بوريسّيمو : »

– « رينالدو سبورشيسّيمو : »

— « هيا ، أيها الطفل ، سوف ننزل ونأكل ما دام عقلي طاهراً . »

وغسلت يديّ ووجهي ، وسرّحت شعري ، وهبطنا السلم . كان رينالدي مخموراً بعض الشيء . وفي الحجرة التي كنا نأكل فيها ، لم يكن الطعام جاهزاً تماماً .

وقال رينالدي :

— « سوف أذهب واجيئ بالزجاجة . »

وغادر الحجرة وارتقى السلم . ولم أكد اجلس إلى المائدة حتى رجع بالزجاجة وصبّ لكل منا كأساً من الكونياك . »

فقلت :

— « هذا كثير . »

ورفعت الكأس ، ونظرت نحو المصباح الذي على المائدة .

— « ليس كثيراً بالنسبة إلى معدة فارغة . انه شيء رائع : انه يحرق المعدة حرقاً كاملاً . وليس ثمة ما هو اسوأ منه لك . »

— « حسن جداً . »

وقال رينالدي :

— « تدمير ذاتيّ ، يوماً فيوماً . انه يدمر المعدة ويجعل اليد ترتعش . وهو الشيء الذي يحتاج اليه الجراح على وجه الضبط . »

— « هل تنصح به ؟ »

— « بكل حماسة . أنا لا أصطنع غيره . تجرّعْهُ ، أيها الطفل، وارتقبْ أن يلمّ بك المرض عمّا قريب . »

وشربت نصف الكأس . وفي الرواق سمعت النادل يصيح :

« الحساء ! الحساء جاهز ! »

ودخل الماجور ، وأومأ الينا برأسه ، وقعد . لقد بدا وراء المائدة ضئيل الجسم إلى حد بعيد .

وتساءل :

— « ألسنا أكثر عدداً من ذلك ؟ »

ووضع النادل وعاء الحساء على المائدة : فملأ صحنه ؛

وقال رينالدي :

— « لا . إلا إذا جاء الكاهن ؛ لو عرف ان فيديريكو هنا اجاء في الحال . »

فسألته :

— « أين هو ؟ »

فقال المايجور :

— « إنه في رقم ٣٠٧ » .

كان منهمكاً بحسائه . ومسحَ فمه ، مجففاً في عناية شاربَهُ الاشيبَ المعقوف . ثم أضاف :

— « سوف يجيْ في ما أعتقد . لقد تلفنتُ لهم ، وسألتهم أن يخبروه أنك هنا . »

فقلت :

— « إني أفتقد ضجة مطعمنا القديمة . »

فقال المايجور :

— « اجل . إنه اليوم هادئ . »

فقال رينالدي :

— « سوف أكون أنا صخّاباً . »

وقال المايجور :

— « إشرب شيئاً من الخمر ، يا آنريكو . »

وأترع كأسي . وجيْ بالسباغيتّي (المعكرونة) وانهمكنا كلنا في التهامها . ولم نكد نأتي عليها حتى أقبل الكاهن . كان هو هو ، ضئيل الجسم أسمر ، مكتنزاً . ونهضت ، وصافحته . ووضع يده على كتفي وقال :

– « لقد جئت حالما سمعت بعودتك : »

فقال الماجور :

– « اجلس . لقد تأخرتَ . »

وقال رينالدي :

– « مساء الخير ، أيها الكاهن Priest . »

واستعمل اللفظة الانكليزية . وكانت تلك عادةً من العادات أطلقها الكابتن الشديد التندّر بالكاهن ، وكان الكابتن يعرف شيئاً من الانكليزية.

فقال الكاهن :

– « مساء الخير ، رينالدي . »

وجاءه النادل بالحساء ، ولكنه قال إنه يفضل أن يستهل طعامه بالسباغيتي (المعكرونة) .

وسألني :

– « كيف أنت ؟ »

فقلت :

– « في خير حال . وأنت ؟ »

وقال رينالدي :

– « ما رأيك في شيء من الخمر . أيها الكاهن Priest ؟ أشرب قليلاً من الخمر إكراماً لمعدتك . سنّة سنّها القديس بولس ، كما تعرف . »

فقال الكاهن في كياسة :

– « أجل ، أعرف . »

وملأ رينالدي له كأساً ، وقال :

– « ذاك القديس بولس ! إنه هو مصدر المتاعب كلها . »

ونظر الكاهن اليّ وابتسم . كان في ميسوري ان أرى أن المداعبة المريرة لم تمسّهُ الآن .

وتابع رينالدي :

— « ذلك القديس بولس ! لقد كان فاسقاً سكيراً ، حتى إذا فقد الحرارة قال ان هذا كله شرّ . عندما أصبح رجلاً متهدماً وضع القواعد لنا نحن الذين ما يزال الدم يجري حاراً في عروقنا . أليس هذا صحيحاً ، يا فيديريكو ؟ »

وابتسم الماجور . كنا نتناول الآن صحناً من اللحم والخضر .

وقلت :

— « من عادتي أن لا أبدي رأيي في قديس من القديسين بعد أن يهبط الليل . »

فرفع الكاهن بصره عن صحنه وابتسم لي .

وقال رينالدي :

— « عجيبٌ ، إنه يقف الآن في صف الكاهن . أين مداعبو الكاهن القدماء الطيبون ؟ أين كافالكانتي ؟ أين بروندي ؟ أين سيزار ؟ هل كُتب عليّ أن أداعب هذا الكاهن ، وحدي ، من غير نصير ؟ »

فقال الماجور :

— « انه كاهن طيب . »

فقال رينالدي :

— « أجل إنه كاهن طيب . ولكنه كاهن على كل حال . إني أحاول أن أعيد إلى زمرتنا بهجة الايام الخالية . اني اريد أن أجعل فيديريكو سعيداً . إلى الجحيم بك ، أيها الكاهن . »

ورأيت الماجور ينظر اليه ويلاحظ أنه سكران . كان وجهه المهزول شاحباً ، وكان شعره يبدو فاحماً بالنسبة إلى بياض جبينه .

وقال الكاهن :

— « حسن ، يا رينالدو . حسن . »

فقال رينالدي :

— « إلى الجحيم بك . إلى الجحيم بهذه المهنة اللاعينة كلها . »

واستوى في كرسيه .

وقال لي الماجور :

— « إنه مرهَق رازح تحت ثقل الاجهاد . »

وأتى على صحن اللحم ، ومسح الصلصة بقطعة من خبز .

وقال رينالدي للمائدة :

— « أنا لا أبالي مثقال ذرة . إلى الجحيم بالمهنة اللاعينة كلها ! »

وأجال بصره حول المائدة ، في تحدٍّ . كانت عيناه شاردتين ، وكان وجهه شاحباً .

فقلت :

— « حسن . إلى الجحيم بالمهنة اللاعينة كلها . »

وقال رينالدي :

— « لا . لا . لا تستطيع أن تفعل ذلك . لا تستطيع أن تفعل ذلك . أقول لك لا تستطيع أن تفعل ذلك : أنت جاف ، وأنت فارغ ، وليس ثمة شيء آخر . أقول لك ليس هناك شيء آخر ولا أقلّ شيء . أنا أعرف ذلك عندما أكفّ عن العمل . »

وهزّ الكاهن رأسه . وأقبل النادل وأخذ صحن اللحم .

والتفت رينالدي إلى الكاهن وقال :

— « لماذا تأكل اللحم ؟ ألا تعرف ان اليوم الجمعة ؟ »

فقال الكاهن :

— « اليوم الخميس . »

— « هذا كذب . اليوم الجمعة . أنت تأكل جسد الرب . إنه لحم الله . إنه لحم جندي نمساوي . ذلك هو ما تأكله . »

فقلت متمماً النكتة القديمة :

ـ « اللحم الابيض هو لحم ضبّاط . »
وضحك رينالدي . وأترع كأسه .
وقال :
ـ « أرجو أن تغضوا الطرف عني . أنا مخبول بعض الشيء . »
فقال الكاهن :
ـ « ينبغي أن تأخذ إجازة . »
وهز الماجور رأسه . وحدّق رينالدي إلى الكاهن .
ـ « تعتقد أن عليّ أن آخذ اجازة ؟ »
فهز الماجور رأسه للكاهن . وواصل رينالدي تحديقه اليه .
وقال الكاهن :
ـ « كما تشاء . لا تأخُذْ اجـازة إذا كنت غير راغب في أخذها . »
فقال رينالدي :
ـ « إلى الجحيم بك ! أنت تحاول ان تتخلص مني . كل ليـلة يحاولون التخلص مني . ولكني أذودهم عن نفسي . وأيّ بأس إذا أخذت اجازة ؟ الناس كلهم يأخذون اجازات . أولاً ... »
واسترسل متخذاً وضع المحاضر :
ـ « أولاً ، يكون ثمة بثرة صغيرة ليس غير . وبعد ذلك نلاحظ طفْحاً بين الكتفين . ثم لا نلاحظ أيّ شيء على الاطلاق . اننا نضع ثقتنا في الزئبق . »
فاعترضه الماجور في هدوء :
ـ « أو في السالفارسان* ... »
فقال رينالدي ، وقد بدا شديد الاعتزاز الآن :
ـ « نتاج زئبقيّ . أنا أعرف شيئاً أفضل من ذلك كله . أيهـا

* مستحضر طبي لمعالجة الامراض الزهرية .

الكاهن العجوز الطيب ، أنت لن تصاب بذلك ابداً . الطفل سوف يصاب به . إنه حادثُ عمل . حادثُ عملٍ بسيط . »

وجاء الخادم بالحلوى والقهوة . وكانت الحلوى ضرباً من الكاتو المصنوع من لب الخبز . وكان المصباح يرسل دخاناً ، وكان الدخان الأسود يرتفع صُعُداً في داخل الزجاجة .

وقال الماجور :

— « إيتِ بشمعتين ، وأرِحْنا من هذا المصباح . »

فجاء الخادم بشمعتين مضاءتين كلٌ منهما في صحن . وأخرج المصباح ونفخ عليه ابتغاء اطفائه . كان رينالدي هادئاً الآن ، وكان يبدو سويّاً . وتحدّثنا . وبعد القهوة قصدنا جميعاً إلى الرواق .

وقال رينالدي :

— « أنت تريد أن تتحدث مع الكاهن . أما أنا فيجب أن أذهب إلى المدينة . طاب مساؤك ، أيها الكاهن *Priest* . »

فقال الكاهن :

— « طاب مساؤك ، يا رينالدو . »

وقال رينالدي :

— « سوف أراك يا فْريدي . »

فقلت :

— « نعم . لا تتأخر في العودة . »

فكشّر ساخراً مني وشخص نحو الباب .

وكان الماجور واقفاً معنا ، فقال :

— « إنه مُرْهق جداً ، مُجْهد جداً وهو يظن أنه مصاب بالسفلس أيضاً . ولست اصدق ذلك ، ولكنه قد يكون مصاباً به . إنه يعالج نفسه بما يعالَجُ به ذلك الداء . أنت سوف تفارقنا قبل طلوع الشمس ، أليس كذلك يا آنريكو ؟ »

— « نعم . »

فقال :

— « وداعاً ، اذن . حظاً طيباً . ان بيلوزي سوف يوقظك ، ويرافقك . »

— « وداعاً أيها السيد المايجور . »

— « وداعاً . إنهم يتحدثون عن هجوم نمساوي ولكنني لا أصدق ذلك . أنا أرجو أن لا يحـــدث شيء مثل هذا . وعلى أيـــة حال فأنه لن يقع هنا . جينو سوف يخبرك بكل شيء . التلفون يعمل الآن جيداً . »

— « سوف اتلفن لك على نحو نظامي . »

— « أرجوك أن تفعل . طاب مساؤك .لا تَدَع رينالدي يسرف في شرب البراندي إلى هذا الحد . »

— « سوف أحاول ذلك . »

— « طاب مساؤك أيها الكاهن . »

— « طاب مساؤك ، أيها السيد المايجور . »

ومضى إلى مكتبه .

الفصل السادس والعشرون

وتقدمت نحو الباب وأطللت منه . كان المطر قد انقطع ، ولكن كان ثمة ضباب .

وسألت الكاهن :

— « ما رأيك في الصعود إلى الدور العلوي ؟ »

— « لن أستطيع البقاء إلا قليلاً . »

— « هيّا نصعد . . »

وارتقينا السلم . ومضينا إلى غرفتي . واستلقيت على سرّير رينالدي . وقعد الكاهن على سريري الصغير الذي كان الخادم قد أقامه .

كان الظلام يهيمن على الغرفة . وقلت :

— « حسناً ، كيف أنت فعلاً ؟ »

— « بخير . أنا متعب الليلة . »

— « وأنا متعب أيضاً ، ولكن لغير ما سبب . »

— « وما رأيك في الحرب ؟ »

— « أعتقد انها سوف تنتهي وشيكاً . لست أدري لماذا ، ولكني أحسّ ذلك . »

— « كيف تحسّه ؟ »

— « هل سبق لك أن رأيت المايجور على هذا اللطف ؟ إن كثيراً من الناس أصبحوا مثله الآن . »

فقلت :

— « أنا نفسي أستشعر مثل هذا التطور أيضاً . »

وقال الكاهن :

— « لقد كان صيفاً فظيعاً » . كان أكثر وثوقاً من نفسه الآن منه يوم رحلتُ . « انت لا تستطيع أن تصدق كيف كان ذلك الصيف . ولكنك على أية حال كنتَ هناك وفي استطاعتك أن تتخيل على أي نحو انقضت تلك الايام . إن كثيراً من الناس لم يدركوا حقيقة الحرب إلا هذا الصيف . وكثير من الضباط الذين حسبْتُ انهم لن يدركوا حقيقتها البتة أصبحوا يدركونها الآن . »

— « ما الذي سيحدث ؟ »

قلت ذلك ورحت أربّت بيدي على البطانية .

فأجاب :

— « لست أدري ، ولكني لا أعتقد أن في إمكانها أن تستمر أكثر مما استمرت بكثير . »

— « ما الذي سيحدث ؟ »

— « سوف يكفّون عن القتال . »

— « مَنْ ؟ »

— « كلا الفريقين . »

فقلت :

— « أرجو ذلك . »

— « ألا تعتقد هذا ؟ »

— « أنا لا أعتقد ان كلاً من الفريقين سوف يكفّ عن القتال في الحال . »

— « وأنا أيضاً لا أعتقد . فهذا أكثر مما يستطيع المرء أن يتوقعه . ولكني حين أرى التغيرات الطارئة على الناس يتبدّى لي ان الحرب لا يمكن أن تستمرّ . »

— « من الذي ربح الجولة هذا الصيف ؟ »

— « لا أحد . »

فقلت :

— « لقد ربحها النمساويون . لقد حالوا بينهم وبين الاستيلاء على سان غابرييل . لقد كسبوا . إنهم لن يكفّوا عن القتال . »

— « إذا شعروا بمثل ما نشعر به نحن فقد يكفّون . لقد عانوا مثل ما عانينا . »

— « لم يسجل التاريخ أن أحداً كفّ عن القتال وهو منتصر . »

— « أنت توقع اليأس في نفسي . »

— « أنا لا أستطيع أن أقول إلا ما أعتقده . »

— « وأذن فأنت تعتقد انها سوف تستمر وتستمر ؟ وان شيئاً ان يحدث أبداً ؟ »

— « لست أدري . كل ما أعتقده هو أن النمساويين لن يكفّوا عن القتال بعد أن أحرزوا نصراً . اننا لا نصبح مسيحيين إلا في حال الهزيمة . »

— « النمساويون مسيحيون ، باستثناء البشناق . * »

— « أنا لا أعني مسيحيين بالمعنى الحرفي . لقد قصدت مثل المسيح . »

فلم يقل شيئاً .

— « نحن أكثر لطفاً ، الآن ، لأننا هُزمنا . كيف كان يمكن

* البشناق هم سكان البوسنة .

السيد المسيح أن يكون لو أن بطرس أنقذه في « حديقة الزيتون » ؟

– « كان يظل كما نعرفه تماماً . »

فقلت :

– « لست أظن ذلك . »

فقال :

– « أنت توقع اليأس في نفسي . أنا أعتقد أن شيئاً سوف يحدث ، وأصلّي من أجل ذلك . ولقد أحسست بأن حدوث ذلك سيكون وشيكاً . »

فقلت :

– « إن شيئاً قد يحدث . ولكنه لن يحدث إلاّ لنا . ولو أنهم يحسّون بمثل احساسنا اذن لكان كل شيء حسناً . ولكنهم هزمونا . إنهم يحسّون احساساً آخر . »

– « إن كثيراً من الجند قد استشعروا دائماً مثل هذا الشعور . وليس مردّ ذلك إلى أنهم قد هُزِموا . »

– « لقد هُزِموا منذ البدء . لقد هزموا عندما انتزعوهم من مزارعهم وأدخلوهم في الجيش . ذلك هو السبب الذي من أجله يتمتع الفلاح بالحكمة ، لأنه قد هزم منذ البداية . سلِّمْهُ مقاليد السلطة وانظر مبلغَ حكمته . »

ولم يقل شيئاً . كان يفكر .

وقلت :

– « إن معنوياتي أنا منحطة الآن . وهذا ما يجعلني لا أفكر في هذه الأمور البتة . أنا لا أفكر أبداً ، ومع ذلك فحين أشرع في الحديث أقول ما اكتشفته بعقلي من غير تفكير . »

– « لقد كنت أرجو شيئاً . »

– « الهزيمة ؟ »

— « لا . شيئاً أكثر . »

— « ليس ثمة شيء أكثر من الهزيمة . ما عدا النصر . والنصر قد يكون اسوأ .. »

— « لقد رجوت ، طوال فترة مديدة ، أن ننعم بالنصر . »

— « وأنا أيضاً . »

— « أما الآن فلست أدري .. »

— « لا بدّ من واحد منهما ، آخر الأمر . »

— « أنا لم أعد اؤمن بالنصر . »

— « وأنا أيضاً . ولكني لا أؤمن بالهزيمة . على الرغم من أن الهزيمة قد تكون أفضل . »

— « ما الذي تؤمن به ؟ »

فقلت :

— « بالنوم . »

فنهض قائلاً :

— « آسف جداً لبقائي هذه المدة كلها . ولكني أحب أن أتحدث اليك حباً كثيراً . »

— « من الجميل جداً أن نتحدث كرةً ثانية . لقد قلت ما قلتُه عن النوم من غير أن أعني شيئاً . »

ونهضنا ، وتصافحنا في الظلام .

وقال :

— « أنا أبيت في رقم ٣٠٧ الآن . »

— « سوف أنطلق إلى مراكز الاسعاف في ساعة مبكرة من صباح غد . »

— « سأراك عندما ترجع . »

— « ولسوف نتمشى ونتحدث معاً . »

وسرت معه حتى الباب .

وقال :

– « لا تنزل . أنا سعيد جداً بعودتك ، على الرغم من أن هذه العودة لا تبعث الارتياح في نفسك . »

ووضع يده على عاتقي .

فقلت :

– « سيان عندي .. طاب مساؤك . »

– « طاب مساؤك ، سيياوو ! »

فقلت :

– « سيياوو ! »

كان النعاس يكاد يقتلني .

الفصل السابع والعشرون

وأفقت عندما دخل رينالدي الغرفة ، ولكنه لم يتكلم ، فاستسلمت للرقاد من جديد . وفي الصباح ارتديت ملابسي ومضيت لسبيلي قبل أن تشرق الشمس . إن رينالدي لم يفق عندما غادرتُ الغرفة .

لم أكن قد رأيت مقاطعة الـ « بينسيزا » من قبل . ولقد وجدت ان من الغريب أن اصعّد في هذا المنحدر الذي كان يحتله النمساويون ، وراء البقعة التي جُرحتُ فيها عند ضفة النهر . كان ثمة طريق جديدة شديدة الانحدار ، وكثير من الشاحنات . ووراء ذلك أمست الطريق مستوية ، ورأيت وسط الضباب غابات وكثباناً شديدة الانحدار . كان ثمة غابات احتُلّت في سرعة فلم تُسْحَق سحقاً . وأبعد إلى الوراء ، حيث الطريقُ غير مصونة بالكثبان ، كان يحجب هذه الطريق من جانبيها ومن أعلاها ضربٌ من البساط الكثيف . وكانت الطريق تنتهي بقرية مدمرة . وكانت خطوط القتال تمتد في مرتفع وراء ذلك بقليل . وحوالى هذه الخطوط انتثرت المدافع في كثرة . وكانت البيوت مدمرة تدميراً ماحقاً ، ولكن كل شيء كان منظماً تنظيماً حسناً جداً ، وكان ثمة لوحات اعلانية في كل مكان . وعثرنا على جينو ، فجاءنا بشيء من القهوة ، وبعد

ذلك ذهبت معه واجتمعت إلى اناس مختلفين ، وتفقّدت مراكز الاسعاف . وقال جينو ان السيارات البريطانية كانت تعمل في الـ « رافن » ، تحت الـ « بينسيزا » بقليل . كان شديد الاعجاب بالبريطانيين . وقال انه لا يزال ثمة قَدْر معيّن من قصف المدافع ولكنْ عدد الجرحى قليل . ولسوف يتكاثر عدد المرضى عما قريب بعد أن شرع المطر في التهطال . وكان من المفروض أن يشن النمساويون هجوماً ، ولكن جينو لم يكن يعتقد انهم سيفعلون . وكان من المفروض أيضاً أن نشن نحن هجوماً أيضاً ، ولكنهم لم يجيئوا بأية قوات جديدة ، وهذا ما جعله يعتقد ، كذلك ، ان هذا الهجوم لن يقع . كان الطعام نادراً ، وكان يُسعده أن يتناول وجبة طعام كاملة في غوريتزيا . أيّ نوع من العشاء كان العشاء الذي تناولته ؟ وأجبته عن سؤاله هذا ، فقال ان هذا خليق به أن يكون شيئاً رائعاً . ولقد تأثر على نحو أخصّ بالـ « دولس » . ولم أصفه له في تفصيل ، بل اكتفيت بالقول إنه يدعى « دولس » ، وأحسب أنه اعتقد أن هذا « الصحن » اللذيذ كان أكثر أناقة من « كاتو » لبّ الخبز .

هل كنت أعرف إلى اين كان يعتزم أن يذهب ؟ فقلت لا ، ولكني أعرف ان بعض السيارات الأخرى كانت في كابوريتو . فقال إنه يرجو أن يصعّد في ذلك الاتجاه : كانت بقعة صغيرة لطيفة ، وكان يحب الجبل الشامخ القائم خلفها : كان فتيّ قريباً إلى النفس ، وكان كل امرئ يحبه في ما يبدو . لقد قال ان الجحيم الفعلي كان في سان غابرييل ، وفي الهجوم الذي شُنّ وراء « لوم » والذي اخفق إخفاقاً كبيراً : وقال ان النمساويين قوات مدفعية ضخمة في الغابات ، على قمة تيرنوفا وراءنا وفوقنا ، وكانوا يقصفون الطريق قصفاً عنيفاً بعد أن يهبط الليل . وكانت ثمة بطارية

مدافع بحرية أثارت أعصابه إلى أبعد الحدود . كان في ميسور المرء أن يتبينها بسبب من خط سيرهـا المنخفض . وكان دويّ الانفجار يُسْمع أولاً ثم يعقبه الصفير في الحـال تقريباً . وكان من عادتهم أن يطلقوا النار من مدفعين في آن معاً ، أحدهما في إثر الآخر ، وكانت شظايا الانفجار هائلة . وأراني واحدة منها ، قطعة معدنية مصقولة مسنّنة يزيد طولها على قدم . لقد بدت أشبه شيء بالمعدن المضاد للاحتكاك .

وقال جينو :

— « أنا لا أعتقد انهـا ذات فعالية كبيرة ، ولكنهـا تلقي الرعب في فؤادي . إنهـا كلها تبدو وكأنها قادمة مباشرة من اجلك . انك تسمع الهدير أولاً ، وبعد ذلك في الحال تسمع الصفيرَ والانفجار . أيّ فائدة من عدم اصابتك بجرح ما ، إذا كانت تلك القنابل تروّعك حتى الموت ؟ »

وقال إنه كان ثمة في الخطوط المواجهة لنا الآن كرواتيون وبعض المجر . وإن قواتنا لا تزال في مواقع هجومية . ولم يكن ثمة جهاز اتصال لاسلكي يُذكر ، ولا مكانٌ نستطيع أن نرتدّ اليه إذا ما قام النمساويون بهجوم . كانت هناك مواقع دفاعية ممتازة على طول الجبال المنخفضة المنبثقة من النّجاد ، ولكنّ أيما شيء لم يُعمَل من أجل إعدادها للدفاع . وسألني جينو آخر الأمر رأيي في مقاطعة بينسيزا على اية حال .

فأجبته إني كنت أتوقع أن أجدها أكثر استواءً ، أشبهَ بنجد من النجاد . أنا لم أتصور من قبل انها مكسّرةٌ إلى هذا الحد . »

فقال جينو :

— « بيانو عال ، ولكن من غير بيانو . »

ورجعنا إلى حيث كان يقطن في قبو أحد المنازل . وقلت اني كنت

أحسب ان سلسلة النجاد التي تستوي عند قمتها وذات العمق الضيئل يمكن أن يُدافع عنها على نحو أكثر سهولة مما يُدافَعُ عن سلسلة من الجبال الصغيرة . وأضفت قـائلاً ان الهجوم فوق جبل مـا ليس أشد عسراً من الهجوم فوق الارض المستوية . فقال :

— « ذلك يتوقف على طبيعة الجبال . انظر إلى سان غابرييل مثلاً . »

فقلت :

— « نعم ، ولكن المتاعب بدأت على القمة حيث الأرض مستوية . لقد تسلّقوا القمة في كثير من السهولة . »

فقال :

— « لا . لم يكن الأمر سهلاً إلى هذا الحد . »

فقلت :

— « أنا معك . ولكن هـذه الحالة كانت حالة خاصة ، لأن سان غابرييل قلعة أكثر منه جبلاً ، على أية حال . لقد سلخ النمساويون سنوات طويلة في تحصينه . »

وكنت أعني أنه من وجهة النظر التكتيكية وفي حرب تتميز ببعض الحركة لا تساوي سلسلة الجبال شيئاً كخطّ يُدافع عنه لأن من اليسير جداً الالتفاف حولهـا . ينبغي أن يتمتع الجيش بالقـدرة على شيء من الحركة ، والجبل ليس مَرِناً جداً . وإلى هذا فالمرء يطلق النار دائماً على نحو مرتفع جداً عندما يكون هو في مـكان منخفض . فاذا ما قام العدوّ بحركة التفـاف فعندئذ تُترك خيرة المقاتلين في أشدّ القمـم شموخاً . أنا ما كنت أؤمن بحرب تدور رحاها في الجبال . وقلت إنني كنت قـد فكرت في ذلك كثيراً . إنك تنتزع من العدوّ جبلاً ، وانهم ينتزعون منك جبلاً ، ولكن ما إن يجدّ الجدّ حتى يُضطرّ كل من الفريقين إلى الهبوط إلى السهل .

وسألني :

— « ماذا كنت تفعل لو كانت لديك حدود جبلية ؟ »
فقلت :
— « أنا لم أدرس هذه المسألة بعد » . وضحكنا كلانا . « ولكن في الأيام السالفة كان النمساويون يُهْزَمون دائماً في الاراضي شبه المربّعة المجاورة لفيرونا . كانوا يستدرجونهم إلى السهل ويُنْزِلون بهم الهزيمة هناك . »
فقال جينو :
— « أجل . ولكن هؤلاء كانوا فرنسيين ، ومن اليسير على المرء حلّ المشاكل العسكرية حين يحارب في اراضي الاعداء . »
فوافقته على ذلك قائلاً :
— « هذا صحيح . ولكن حين يحارب المرء في وطنه يعجز عن معالجة الاشياء معالجة علمية إلى هذا الحد . »
— « لقد فعل الروس ذلك لكي يوقعوا نابوليون في الفخ . »
— « صحيح . ولكن بلادهم واسعة جداً . ولو انك حاولت التراجع لأيقاع نابوليون في الفخ في ايطاليا إذن لوجدت نفسك في برينديزي . »
فقال جينو :
— « مدينة فظيعة . هل زرتها في يوم من الأيام ؟ »
— « زيارة خاطفة . »
فقال جينو :
— « أنا رجل وطني . ولكني لا أستطيع أن أحب برنديزي أو تارانتو . »
فسألته :
— « هل تحب البينسيزا ؟ »
فقال :

— « التربة مقدسة . ولكني أتمنى لو انها تُنبت مقداراً أعظم من البطاطا . هل تدري ؟ إننا عندما جئنا إلى هنا وجدنا حقول بطاطا كان النمساويون قد زرعوها . »

— « هل كانت ثمة أزمة مواد غذائية فعلاً ؟ »

— « أنا شخصياً لم أجد قط كفايتي من الطعام : ولكني أكول ضخم ، ومع ذلك فلم أذق طعم الجوع . إن مقادير الطعام متوسطة : والجنود المقاتلون في خط النار ينعمون بتغذية جيدة. أما جنود الاحتياط فلا يفوزون بمثل تلك التغذية : إن ثمة خطأ ، في مكان ما . يجب أن يكون هناك طعام وفير . »

— « الضباط الخنازير يبيعونه في مكان آخر . »

— « نعم . انهم يقدمون إلى الكتائب المقاتلة في خط النار كل ما يستطيعون أن يقدموه ، ويهملون الجنود العاملين في الخطوط الخلفية فهم يَشْكون نقصاً كبيراً في الغذاء : لقد التهموا مقادير البطاطا النمساوية كلها ، وكستناء الغابات . إن عليهم أن يغذّوهم تغذية أفضل : نحن أكولون من الطراز الأول : أنا واثق من أن ثمة طعاماً وافراً . وإنه لممّا يؤذي الجند إلى أبعد الحدود أن يواجهوا نقصاً في الغذاء . هل لاحظتَ في يوم من الأيام الفرقَ الذي يُحدثه ذلك في طريقة تفكيرك ؟ »

فقلت :

— « اجل ، إن هذا ليس قادراً على ان يكسب حرباً ، ولكنه قادرٌ على ان يخسر حرباً . »

— « لن نتكلم عن خسارة الحرب . كفانا ما يدور من حديث عنها . ان ما تمّ عمله في هذا الصيف لا يمكن ان يذهب سدىً. »

ولم أنطق بكلمة . فقد كنت ارتبك دائماً لدن سماعي هذه الكلمات: مقدّس ، مجيد ، تضحية ، وتعبير « يذهب سدى ». لقد سبق لنا أن

سمعناها ، ونحن واقفون احياناً تحت المطر ، بعيداً عن مجال السمع تقريباً ، بحيث ما كان يبلغ آذاننا غير الكلمات المهتوف بها . وسبق لنا أن قرأناها في البيانات الجدارية التي كان ملصقو الاعلانات يلصقونها منذ عهد بعيد فوق بيانات أخرى . ولم أكن قد رأيت أي شيء مقدّس. والاشياء التي كانت مجيدة ، لم يكن فيهـا شيء من المجد ، والتضحيات كانت أشبه بمسالخ شيكاغو ، مع هذا الفارق . وهو ان اللحم هنا يُدفن في الارض ليس غير . لقد كان ثمـة كلمات كثيرة ليس في استطاعتك احتمال سماعها ، وكانت اسماء الاماكن هي وحدها ذات شرف وكرامة في آخر الأمر . والشيء نفسه كان يصح على بعض الارقام وبعض التواريخ ، وهـذه بالاضافة إلى اسماء الاماكن كانت كل ما تستطيع أن تقوله وانت واثق من أنه ينطوي على معنى . إن الكلمات المجردة ، مثل المجد والشرف والشجاعة والقداسة، كانت مقذعة بالقياس إلى الاسماء العينية الخاصة بالقرى ، وارقام الشوارع ، واسماء الانهار ، وارقـام الكتائب العسكرية ، وتواريخ الأيام . إن جينو كان رجلاً وطنياً ، ومن أجل ذلك كان يقول أشياء تفرّق ما بيننا ، ولكنه كان أيضـاً فتىً لطيفـاً ، وكنت أفهم وطنيّته . لقـد وُلد وطنياً. وفـارقني مستقلاً السيارة مع بيدوزي لكي يرجع إلى غوريتزيا .

كانت العواصف تهب طوال ذلك النهار . وساقت الريح الامطارَ بسياطها ، وفي كل مكان كان وحلٌ ومياه راكدة. كان جصّ المنازل المهدمة رمادياً نديّـاً . وفي ساعة متأخرة من الأصيل كفّ المطر عن التهطال ، ومن مركز الاسعاف الثاني رأيت الريف وقد جعله الخريف عارياً نديّـاً ، وكالت السحب قمم الكثبان ، والحُصُر تظلّل الطرق رطبة يقـطر منها الماء . وأطلعت الشمس رأسها مرة قبل أن تغرب ، والتمعت فوق الغابات العارية وراء الكثبان . وكانت ثمة مدافع نمساوية

كثيرة في الغابات فوق تلك الكثبان . ولكن عدداً قليلاً منها فحسب كان يطلق النار . وراقبتُ هبّات الدخان المستديرة المنبعثة من قنابل الشّرَبْنيل * والتي كانت تظهر في السماء ، فجأة ، فوق بيت ريفي متهدم قرب خط النار . كانت هبّاتٍ رخصةً في وسطها وميض أبيض ضارب إلى الصفرة . وكنت تلمحُ الوميض، ثم تسمع الانفجار ، ثم ترى كُرَةَ الدخان وقد شوّهتها الريح وبدّدتها . وكانت أنقاض البيوت حافلة بكُرَات قنابل الشرَبنيل الحديدية ، وكذلك كانت الطريق المحاذية للبيت المهدّم — حيث كان مركز الاسعاف — حافلةً بتلك الكرات أيضاً ، ولكن النمساويين لم يصوبوا النار إلى المركز في ذلك الأصيل . وحمّلنا سيارتين اثنتين ، وهبطنا الطريق المحجوبة بالحُصُر الندية ، واخترقت أشعة الشمس الأخيرة فجواتِ الحُصُر . وقبل أن ننتهي إلى الطريق المكشوفة وراء التلّ ، كانت الشمس قد غربت . وهبطنا الطريق المكشوفة ، وحين انعطفت بنا عند زاوية قادتنا إلى ساحة محجوبة بالحُصُر ، شرع المطر يهطل كرةً أخرى .

وهبت الريح في الليل ، وفي الساعة الثالثة صباحاً ، وتحت وابل من المطر الغزير ، بدأ قصف المدافع . وزحف الكرواتيون عبر المروج الجبلية وعبر الغابات الصغيرة ، حتى خط النار . لقد قاتلوا في الظلام ، تحت المطر ، ولكن هجوماً معاكساً قام به رجال مذعورون من خط النار الثاني ، ردّهم على أعقابهم . كانت المدافع تقصف على نحو موصول ، وكانت الصواريخ تنطلق في المطر ، وكانت نيران الرشاشات والبنادق تدوّي على طول الجبهة . ولم يعاود الكرواتيون الهجوم ، وأصبحت الجبهة أهدأ من ذي قبل ، وبين عَصَفَات الريح والمطر كان في ميسورنا أن نسمع صدى قصفٍ هائل منبعث من مكانٍ بعيد في ناحية الشمال .

---

* Shrapnel

كان الجرحى يفدون إلى مركز الاسعاف ، وكان بعضهم يُحملون على نقالات ، وبعضهم يمشون ، وبعضهم يُنقلون على ظهور جنود تقدّموا بهم عبر الحقول . كانوا مبللين حتى البشرة ، وكانوا كلهم مروّعين . وملأنا سيارتين بجرحى محمولين على نقالات جيء بهم من قبو المركز . وفيما أنا أوصد باب السيارة الثانية وأحكم اغلاقه استشعرت المطر على وجهي يتحول إلى ثلج . كانت رقاقات الثلج تتساقط ثقيلة وسريعة وسط المطر .

وعندما أشرقت الشمس كانت العاصفة لا تزال تهبّ . ولكن تساقط الثلج كان قد انقطع . كان قد ذاب حال سقوطه على الأرض الندية ، وكان المطر قد بدأ يهطل من جديد . وبعد إشراق الشمس مباشرة شُنّ هجوم جديد ولكنه لم يكن ناجحاً . وطوال النهار توقعنا هجوماً آخر ، ولكنه لم يقع إلاّ مع غروب الشمس . وبدأ القصف من ناحية الجنوب تحت سلسلة الكثبان الطويلة الحافلة بالغابات ، حيث كانت مدافع النمساويين محتشدة في تركيز . وتوقعنا ان تمطرنا المدافع بنيرانها ، ولكن ذلك لم يحدث . كان الليل قد شرع يهبط . وأطلقت نيران المدافع في الحقل ، خلف القرية . فكان للقنابل الساقطة بعيداً دويّ مُريح .

وسمعنا ان الهجوم في الجنوب كان مخفقاً . إنهم لم يهجموا تلك الليلة ، ولكننا سمعنا انهم قد أحدثوا ثغرة في خطوطنا الشمالية . وفي موهن من الليل جاءنا الأمر بالاستعداد للتراجع . لقد أخبرني الكابتن بذلك ، في مركز الاسعاف . كان قد تلقى ذلك الامر من قيادة اللواء . وبعد فترة قصيرة فارق خط التلفون وقال إن ذلك كان كذباً . كان اللواء قد تلقى أوامر تطلب اليه الاحتفاظ بخط البينسيزا مهما كلف الامر . وسألت عن الثغرة التي أحدثها النمساويون في خطوطنا ، فقال انه سمع في اللواء ان النمساويين اخترقوا مواقع الجيش

السابع والعشرين قرب كابرّيتو . كانت معركةٌ كبيرةٌ قد دارت رحاها في الشمال طوال النهار .

وقال :

— « إذا تركهم أبناء الزنا يمرّون حلّت بنا الهزيمة . »

فقال أحد الضباط الاطباء :

— « الألمان هم الذين يقومون بالهجوم . »

وكانت كلمة « الالمان » شيئاً يوقع الرعب في النفس . وكنا لا نريد أن تكون لنا أية صلة بالألمان .

وقال الضابط الطبيب :

— « إن ثمة خمس عشرة فرقة من الالمان . لقد اخترقوا خطوطنا، ولسوف يقطعون علينا خط الرجعة . »

— « في اللواء يقولون ان علينا أن نحتفظ بهذا الخط . إنهم يقولون ان العدو لم يخترق مواقعنا على نحو خطير ، واننا سوف نقيم خطاً دفاعياً عبر الجبال ، ابتداءً من مونت ماغيور . »

— « من قال لهم هذا ؟ »

— « قيادة الفرقة . »

— « إن الأمر بالتراجع جاء من قيادة الفرقة . »

فقلت :

— « اننا نعمل بأمرة قائد الفيلق . أما هنا فأني أتلقى الأوامر منك . وطبيعيّ اني سوف أذهب إذا سألتني أن أذهب ، ولكن حاول أن تحصل على أوامر واضحة لا لبس فيها . »

— « الأوامر تقضي بأن نبقى هنا . وعليك أن تنقل الجرحى من هنا إلى مركز الجلاء . »

فقلت :

— « اننا في بعض الاحيان نجلو عن مركز الجلاء إلى مستشفيات

الميدان أيضاً . قل لي ، فأنا لم أشهد قط تراجعاً — إذا ما اضطر جيش إلى التراجع فكيف يُجْلَى جميع الجرحى ؟ »

— « إننا لا نُجلي الجرحى كلهم.إننا ننقل أكبر عدد منهم نستطيع نقله ونخلّف الباقين وراءنا . »

— « وما الذي يتعيّن عليّ أن أحمله في السيارات ؟ »

— « معدّات المستشفى . »

فقلت :

— « حسن . »

وفي الليلة التالية بدأ التراجع . كنا قد سمعنا ان الألمان والنمساويين قد اخترقوا خطوط دفاعنا في الشمال، وانهم يهبطون أودية الجبال نحو « سيفيدال » و « يودين » . كان التراجع نظامياً ، مأتمياً ، نديّاً . ففي موهن من الليل ، ونحن نمضي وئيداً فوق الطرق الحاشدة ، مررنا بقوات تسير تحت المطر ، وبمدافع ، وخيول تجر بعض العربات ، وبغال وشاحنات ، وكان كل اولئك يتقهقر مبتعداً عن الجبهة . لم يعد ثمة فوضى واختلاط أكثر مما يكون في الزحف من فوضى واختلاط .

وتلك الليلة ساعَدْنا على إخلاء مستشفيات الميدان التي أقيمت في قُرى النجد الأقلّ خراباً ، هابطين بالجرحى إلى بلافا ، عند مجرى النهر . وفي اليوم التالي سلخنا النهار بطوله ، تحت وابل المطر ، ونحن نكدح لأخلاء المستشفيات ومركز الاجلاء في بلافا . كانت الامطار تهطل على نحو موصول ، ولقد غادر جيش البينسيزا النجدَ تحت مطر تشرين الأول (اكتوبر) ، وعَبَرَ النهرَ ، هناك حيث كانت الانتصارات الكبرى قد بدأت في ربيع تلك السنة نفسها . ووصلنا إلى غوريتزيا في ظهيرة اليوم التالي . كان المطر قد انقطع ، وكانت المدينة خالية تقريباً. وفيما نحن نصعّد في الشارع كان القوم يرحّلون بنات الماخور الخاص

بالجند على متن احدى الشاحنات . كان عددهن سبعاً ، وكنّ يعتمرن بقبعاتهن ويرتدين معاطفهنّ ، ويحملن حقائب ثياب صغيرة . كانت اثنتان منهن تبكيان . ومن بين الاخريات ابتسمت واحدة لنا ،وأخرجت لسانها . كانت لها شفتان غليظتان ممتلئتان وعينان سوداوان .

وأوقفت السيارة ، ومضيت فتحدثت إلى القيّمة . لقد قالت ان البنات العاملات في الماخور الخاص بالضباط غادرن المكان في ساعة مبكرة من ذلك الصباح . إلى أين كن ذاهبات ؟ فأجابت : إلى كونيغليانو . وأدير محرك الشاحنة . ومرة ثانية اخرجت الفتاة ذات الشفتين الغليظتين لسانها لنا . ولوّحتِ القيّمة بيدها. وواصلت البنتان عويلهما . أما الأخريات فنظرن إلى المدينة في تطلّع وشوق ؛ وعدت أنا إلى السيارة .

وقال بونيلو :

— « يجب أن نذهب معهن . مثل هذه الرحلة خليقة بأن تكون رحلة جميلة . »

فقلت :

— « ورحلتنا سوف تكون جميلة أيضاً ! »

— « لا ، إنها ستكون مزعجة إلى حد جهنمي . »

فقلت :

— « هذا ما أعنيه . »

واتخذنا سبيلنا إلى الدارة .

وقلت :

— « كم أتمنى لو أكون هناك عندما يثب واحد من اولئك الغلمان الجُفاة إلى الشاحنة ويحاول مغازلتهن . »

— « أتظن انهم سوف يفعلون ؟ »

— « من غير ريب . ان كل امرئ في الجيش الثاني يعرف تلك

القيّمة . »

كنا قد انتهينا إلى الجزء الخارجي من الدارة .

وقال بونيلو :

— « إنهم يدعونها الأم العليا . البنات جديدات ، أما هي فكل امرئ يعرفها . لا ريب أنهم قد جاءوا بالبنات قبل التراجع مباشرة . »

— « لا بدّ أن ينعمن بحظ أفضل في وقت قريب . »

— « هذا صحيح . وإني لأتمنى لو أهبط عليهن بدون مقابل . ان الرسم فاحش في ذلك الماخور . على أية حال . ويخيّل الي ّ ان الحكومة تستغلنا وتبتز أموالنا . »

وقلت :

— « أخرج السيارة وكلف الميكانيكيين أن يفحصوها . غيّر الزيت ، وتأكد من سلامة جهاز توزيع القوة على العجلات (الدفير انسيال) . إملأها حتى الشفة ، واذهب ونم قليلاً . »

— « حسن ، أيها السيد الملازم . »

كانت الدارة خالية . كان رينالدي قد انتقل مع المستشفى . وكان الماجور قد مضى مصطحباً هيئة المستشفى العاملة في السيارة الخاصة بتلك الهيئة . ووجدت على النافذة مذكرة موجّهة الي ّ تكلفني بأن أملأ السيارات بالمواد المركومة في الرواق وبأن أتوجه نحو بوردينون . كان الميكانيكيون قد غادروا المكان قبل ذلك . فرجعت أدراجي إلى المرأب . وأقبلت السيارتان الأخريان وأنا هناك ، وترجّل سائقاهما منهما . كانت السماء قد بدأت تمطر من جديد .

وقال بياني :

— « أنا نعسان إلى درجة جعلتني أستسلم للرقاد ثلاث مرات منذ غادرنا بلافا . ما الذي نعتزم أن نفعله ، أيها الملازم ؟ »

— « سوف نغير الزيت ونشحّم السيارات ، ونملأها حتى الشفة ، ثم نقودها إلى مدخل الدارة لكي نحمّلها بسقط المتاع الذي خلّفوه وراءهم . »

— « عندئذ ننطلق ؟ »

— « لا . سوف ننام ثلاث ساعات . »

فقال بونيلو :

— « أنا سعيد بأن أنام ، وحق المسيح . لقد عجزت على البقاء يقظان وأنا أقود السيارة . »

وسألت :

— « كيف سيارتك ، يا إيمو ؟ »

— « حسنة جداً . »

— « ايتني بسترة سعدان * . اريد أن أساعدك في تزييت السيارة . »

فقال إيمو :

— « لا تزعج نفسك بذلك ، أيها الملازم . إنه ليس شيئاً يستحق هذا العناء . إذهب واحزم امتعتك . »

فقلت :

— « أمتعتي كلها محزومة . سوف أذهب وأخرج ما تركوه لنا من سقط المتاع . قودوا السيارات إلى مدخل الدارة حالما تصبح جاهزة . »

وقادوها إلى مدخل الدارة ، فملأناها بمعدات المستشفى المركومة في الرواق . وحين تمّ لنا ذلك اصطفت السيارات الثلاث في المجاز المنحدر ، تحت الاشجار والامطار . ودخلنا إلى الدارة .

وقلت :

— « اوقدوا ناراً في المطبخ ، وجفّفوا ثيابكم . »

فقال بياني :

---

* Monkey Suit سترة ضيقة كان البحارة يرتدونها .

– « أنا لا يهمني أن تكون ثيابي جافة . أريد أن أنام . »
وقال بونيلو :
– « وأنا سوف أنام في سرير الماجور . »
فقال بياني :
– « إني لا أبالي أين أنام . »
وفتحت الباب وقلت :
– « يوجد هنا سريران . »
فقال بونيلو :
– « لقد طالما تساءلتُ ما الذي كان يوجد في هذه الغرفة . »
فقال بياني :
– « كانت هذه هي غرفة صاحب الوجه العجوز الشبيه بوجه السمكة . »
فقلت :
– « ناما انتما الاثنان هنا . اني سوف أوقظكما . »
فقال بونيلو :
– « النمساويون سوف يوقظوننا إذا نمتَ أكثر مما ينبغي ، أيها الملازم . »
– « أنا لا أنام أكثر مما ينبغي أبداً . أين ايمو ؟ »
– « ذهب إلى المطبخ . »
فقلت :
– « اذهبا إلى النوم . »
فقال بياني :
– « سوف أنام ؛ لقد سلخت النهار بطوله وأنا نائم في مقعدي . كان الجزء الأعلى من رأسي يسقط فوق عينيّ على نحو موصول . »
وقال بونيلو :

— « انزع حذاءك العالي : إن هذا سرير صاحب الوجه الشبيه بوجه السمكة . »

— « إن صاحب ذلك الوجه لا يساوي شيئاً في نظري : »

قال ذلك واستلقى على السرير بحذائه الموحل ، ووضع رأسه على ذراعه . ومضيت إلى المطبخ . كان إيمو قد أشعل ناراً في الموقد، ووضع فوقها غلاّية ماء .

وقال :

— « لقد خطر لي أن أشرع في صنع شيء من الـ « باستا آسسييوتا ». سوف نكون جائعين عندما نستيقظ . »

— « ألست نعسان ، يا بارتولوميو ؟ »

— « بعض الشيء فقط . وعندما يغلي الماء سوف أتركه . وبعد ذلك تخمد النار . »

فقلت :

— « من الافضل لك ان تأوي إلى النوم . في استطاعتنا أن نأكل شيئاً من الجبن ولحم البقر المعلّب . »

فقال :

— « هذا أفضل : ان الشيء السّاخن سوف يكون مفيداً لهذين الفوضويين . إذهب أنت ونم ، أيها الملازم . »

— « هناك سرير في غرفة الماجور . »

— « نم أنت هناك . »

— « لا . سوف أصعد إلى غرفتي القديمة . هل ترغب في شيء من الشراب ، يا بارتولوميو ؟ »

— « عندما نذهب ، إيها الملازم . إن معاقرة الخمر ان تفيدني الآن شيئاً . »

— « إذا استيقظتَ في مدى ثلاث ساعات ووجدتني لا أزال نائماً

فأيقظني ، هل عندك مانع ؟ »

— « ليس لديّ ساعة ، أيها الملازم . »

— « هاك ساعة معلقة على الجدار في غرفة الماجور . »

— « حسن . »

عندئذ اجتزت حجرة الطعام والرواق ، ثم ارتقيت السلم الرخامي إلى الغرفة التي كنت أبيت فيها مع رينالدي . كان المطر يهطل . ومضيت إلى النافذة ، ونظرت إلى الخارج . كان الليل قد بدأ يهبط ، ورأيت السيارات الثلاث مصطفة تحت الاشجار . كانت الاشجار تقطر تحت المطر . وكان الجو بارداً ، وكانت القطرات تتدلى من الأغصان ، ورجعت إلى سرير رينالدي ، واستلقيت عليه . واستسلمت للرقاد .

وأكلنا في المطبخ قبل أن ننطلق . كان إيمو قد أعدّ لنا طبقاً من السباغيتي المضاف اليها بعض البصل واللحم المعلّب المفرومين . وجلسنا حول المائدة . وشربنا زجاجتين من الخمر كانتا قد خلّفتا في قبو الدارة . كانت الظلمة سائدة في الخارج ، وكان المطر ما يزال يهطل . وجلس بياني إلى المائدة والنعاس يستبدّ به استبداداً عظيماً .

وقال بونيلو :

— « أنا أحب التراجع أكثر مما أحب الزحف . في التراجع يتاح لنا أن نعاقر الباربيرا . »

فقال إيمو :

— « نحن نشربها الآن . أما غداً فقد نشرب ماء المطر . »

— « غداً سوف نكون في يودين . سوف نشرب الشامبانيا . إن يودين هي مدينة المتهربين من الخدمة العسكرية . استيقظ ، يا بياني ! سوف نشرب الشامبانيا غداً في يودين ! »

فقال بياني :

— « أنا يقظان . »

وملأ طبقه بالسباغيتي واللحم . ثم أضاف :

— « ألم تستطع أن تجد شيئاً من مرق البندورة المتبّل ، يا بارتو ؟ »

— « لم يكن ثمة شيء من ذلك . »

وقال بونيللو :

— « سوف نشرب الشامبانيا في بودين . »

وأترع كأسه بالباربيرا الحمراء الصافية .

فقال بياني :

— « قد نشرب الـ .... قبل ان نصل الى يودين . »

وسألني ايمو :

— « هل أكلت حتى الشبع ، أيها الملازم ؟ »

— « لقد امتلأت . أعطني الزجاجة ، يا بارتولوميو . »

فقال ايمو :

— « عندي لكل منا زجاجة كاملة أبقيتها الى حين نتطاق بالسيارات. »

— « هل نعمت بشيء من النوم ؟ »

— « أنا لا أحتاج الى كثير من النوم . لقد نمت قليلاً . »

فقال بونيلو وقد استخفه الشراب وأبهج فؤاده :

— « غداً سوف ننام في سرير الملك . »

فقال بياني :

— « بل قد ننام غداً في الـ .... »

فقال بونيلو :

— « سوف أنام مع الملكة . »

ونظر اليّ ليرى صدى النكتة في نفسي .

فقال بياني والنعاس يداعب عينيه :

— « سوف تنام مع الـ ... »

فقال بونيلو :

– « هذه خيانة ، ايها الملازم . أليست هذه خيانة ؟ »
فقلت :
– « إخرس . ان قليلاً من الخمر أضاع صوابك . »
وفي الخارج كان المطر يهطل بغزارة . ونظرت الى ساعتي . كانت تشير الى التاسعة والنصف .
وقلت :
– « لقد آن لنا أن ننطلق . »
ونهضت واقفاً . فسألني بونيلو :
– « مع من تعتزم أن تركب ، أيها الملازم ؟ »
– « مع ايمو . ولسوف تتبعنا أنت . أما « بياني » فيمضي في أثرنا جميعاً . سوف نسلك الطريق المؤدية الى كورمونس . »
فقال بياني :
– « أنا أخشى أن يغلبني النعاس فأنام . »
– « حسن . سوف أركب معك . ويتبعنا بونيلو ، ثم ايمو . »
فقال بياني :
– « هذه هي الطريقة الفضلى . لأني نعسان جداً . »
– « سوف أقود أنا السيارة . وعندئذ يصبح في استطاعتك ان تنام فترة قصيرة . »
– « لا . أنا أستطيع أن أقود السيارة ما دمت عارفاً ان ثمة من سيعمد الى إيقاظي اذا استسلمت للنوم . »
– « أنا سوف أوقظك . اطفىء الانوار يا بارتو . »
فقال بونيلو :
– « ولمَ لا تتركها مضاءة ؟ اننا لن نحتاج الى هذا المنزل بعد اليوم ؟ »
فقلت :

ـ « ان في غرفتي صندوق سفر عسكرياً صغيراً . هل لك أن تساعدني على انزاله ، يا بياني ؟ »

فقال بياني :

ـ « سوف نأخذه ، هيا ، يا آللو . »

وانطلق الى الرواق مع بونيلو . وسمعتهما يرتقيان السلم :

وقال بارتولوميو ايمو :

ـ « لقد كان هذا مكاناً رائعاً . » ووضع زجاجتي خمر وقطعة من الجبن في كيسه . « إننا لن نجد مكاناً مثله بعد اليوم . الى اين سوف ينسحبون ايها الملازم ؟ »

ـ « الى ما وراء التاغليامانتو ، كما يقولون . المستشفى وقطاع القيادة يجب أن يكونا في بوردينون . »

ـ « ان هذه البلدة أفضل من بوردينون . »

فقلت :

ـ « أنا لا أعرف برردينون . لقد مررتُ بها مجرد مرور . »

فقال ايمو :

ـ « إنها ليست بالمكان الرائع . »

الفصل الثامن والعشرون

واجتزنا المدينة تحت المطر والظلام . كانت المدينة خالية مهجورة . ولم يكن هناك غير بعض القوات والمدافع التي تجوز بالشارع الرئيسي . كان ثمة كثير من الشاحنات أيضاً وبعض العربات المنطلقة في الشوارع الاخرى والمتجهة نحو الطريق الرئيسية . وحين انتهينا الى الطريق الرئيسية بعد ان اجتزنا المدابغ ، كانت العساكر والشاحنات وعربات الخيل والمدافع تشكل خطاً طويلاً يتحرك في بطء . وتقدّمنا في تؤدة ولكن في اطراد تحت المطر ، ومقدّم سيارتنا يكاد يصطدم بمؤخرة شاحنة مثقلة بأحمال عالية . وقد غُطيت تلك الاحمال بقطع من الخيش النديّ . ثم ان الشاحنة وقفت . فوقفت القافلة كلها . وانطلقت الشاحنة من جديد ، فتقدّمنا بعض الشيء ، ثم توقفنا . وترجلت من السيارة ورحت أسير قُدُماً في خط متعرج بين الشاحنات والعربات وتحت أعناق الخيل المبللة . كانت العقبة التي اعترضت سبيل القافلة لا تزال بعيدة . وفارقتُ الطريق ، وعبرتُ الخندق على لوح خشبي معترض ، واتخذت سبيلي عبر الحقول . وفيما أنا أمضي قُدُماً عبر الحقول كان في ميسوري أن أرى القافلة المحتجزة ، بين الاشجار ، تحت المطر . واجترت نحواً من ميل . ولم يتحرك خط السير ، ومع ذلك ، فمن الناحية الثانية وراء

العربات المحتجزة ، استطعت أن أرى العساكر تتقدم . ورجعتُ الى السيارات . إن هذه العقبة التي تعترض سبيلنا قد تمتدّ حتى يودين نفسها. وكان بياني نائماً فوق المقود . فصعدت وقعدت الى جانبه واستسلمت للرقاد أيضاً . وبعد بضع ساعات سمعت الشاحنة التي أمامنا تهدر هدير الانطلاق . فأيقظت بياني ، وانطلقنا ، متقدّمين بضع ياردات ، ثم متوقفين ، ثم منطلقين من جديد . كان المطر لا يزال يهطل .

وتعطل سير القافلة كرة أخرى في موهن من الليل ، فلم تستطع بعدُ تقدّماً . وترجّلت من السيارة وارتددت لارى ايمو وبونيلو . كان يقعد الى جانب بونيلو في سيارته مهندسان برتبة رقيب . ولم يكادوا يرون اليّ مقبلاً نحوهم حتى تصدّروا في جلستهم .

وقال بونيلو :

— « لقد تُركا ليفعلا شيئاً لأحد الجسور . ولكنهما عجزا عن اللحاق بوحدتهما فأركبتهما معي . »

— « اذا سمح سيدي الملازم . »

فقلت :

— « لا بأس . »

وقال بونيلو :

— « الملازم أميركي . انه مستعد لأن يسمح لاي امرىء بالركوب.»

وابتسم أحد الرقيبين . أما الآخر فسأل بونيلو ما اذا كنت ايطالياً من أميركا الشمالية أو أميركا الجنوبية .

— « انه ليس ايطالياً . انه اميركي شماليّ من أصل انكليزي . »

كان الرقيبان لطيفين ولكنهما لم يصدقا ما قاله بونيلو . وفارقتهم ورجعت الى ايمو . كان الى جانبه على المقعد فتاتان ، وكان هو جالساً في الزاوية الخلفية يدخن .

وقلت :

— « بارتو ! بارتو ! »

فانفجر ضاحكاً وقال :

— « تحدّث اليهما أيها الملازم. أنا لا أستطيع آن أفهمهما. هاي ! »

ثم انه قرص الفتاة قرصة ودية . فما كان من الفتاة الا أن أحكمت وضع « شالها » حول جسَمها ، وردّت يده عنها .

وقال :

— « هاي ! قولي للملازم ما اسمك وما الذي تعملينه هنا . »

ونظرت الفتاة اليّ في ضراوة. أما الفتاة الأخرى فأطرقت ولم ترفع عينيها . وقالت الفتاة الّتي نظرت اليّ كلاماً ما في لهجة لم أفهم كلمة منها : كانت مكتنزة الجسم ، سمراء ، وكانت تبدو في نحو السادسة عشرة .

وقلت وأشرت الى الفتاة الاخرى :

— « سوريلا ؟ »

فأومأت برأسها وابتسمت .

وقلت :

— « حسن »

وربّتّ على ركبتها . واستشعرت انها تصلبت حين مسَسْتها . أما أختها فلم ترفع عينيها المطرقتين قط . ومن يدري ، فلعلها كانت تبدو أصغر من أختها بسنة واحدة . وراح ايمو يداعب الفتاة الكبرى ، ولكنّها ردّته عنها . وسخر منها وقال مشيراً الى ذاته :

— « رجل طيب »

ثم أضاف مشيراً إليّ :

— « رجل طيّب . لا تقلقي . »

ونظرت الفتاة اليّ نظرة ضارية . كانت كل من الفتاتين أشبه بطائر برّي غير مستأنس .

وتساءل ايمو

– « وعلام ركبت معي اذا كانت لا تحبني ؟ لقد صعدتا الى السيارة في اللحظة التي دعوتها فيها . » والتفت الى الفتاة وأضاف : « لا تقلقي لا خوف من ...» واستعمل كلمة غير لائقة ، « لامجال مجال لـ ..... »

كان في ميسوري أن أرى انها فهمت الكلمة ، وكان ذاك كل شيء . وتطلعت عيناها اليه في ذعر بالغ . وأحكمت لفّ نفسها بالشال

وتابع ايمو :

– « السيارة ملأى . لا خوف من .... لا مجال لـ ..... »

كانت الفتاة تجفل بعض الشيء كلما لفظ تلك الكلمة . ثم إنها قعدت تمتصلبة ونظرت اليه وشرعت تبكي . لقد رأيت شفتيها ترتعشان ، والدموع تنحدر بعد ذلك على وجنتيها المكتنزتين . ومن غير ان ترفع أختها عينيها ، أمسكت بيدها ، وظلّتا هكذا قاعدتين جنباً الى جنب . ثم إن الكبرى ، التي كانت جدّ ضارية ، شرعت تنتحب .

وقال ايمو :

– « يخيّل إليّ أني قد روّعتها . أنا لم أقصد الى ترويعها . »

وأخرج بارتولوميو حقيبته وقطع قطعتين من الجبن ، وقال :

– « خذي . أقلعي عن البكاء ! »

وهزّت الأخت الكبرى رأسها وواصلت بكاءها ، ولكن الصغرى أخذت الجبن وانشأت تأكل . وبعد برهة وجيزة قدّمت الصغرى الى أختها قطعة الجبن الثانية ، فأكلت الاختان معاً . وظلت الأخت الكبرى تنتحب بعض الشيء .

وقال ايمو :

– « لا بد ان يزايلها الاضطراب بعد قليل . »

وخطرت له فكرة فسأل الفتاة التي الى جانبه :

ــ « عذراء ؟ »

فهزت برأسها في قوة . وأشار الى أختها قائلاً :

ــ « عذراء أيضاً ؟ »

فأومات الفتاتان برأسيهما ، وقالت الكبرى كلاماً ما باللغة العامية .

فقال بارتولوميو :

ــ « حسن جداً . حسن جداً . »

وبدت كلتا الفتاتين وقد داخلهما الابتهاج .

وتركتهما جالستين معاً وقد قعد ايمو في الزاوية الخلفية . ورجعت الى سيارة بياني . ولم تتحرك قافلة السيارات والعربات . ولكن الجنود واصلوا تقدمهم على جانب الطريق . كان المطر لا يزال يهطل مدراراً ، وتراءى لي أن توقف القافلة مرّة بعد مرة ناشيء عن الاثر الذي أحدثته المياه في المحركات . وأرجح الظن انه ناشيء عن استسلام الخيل أو الرجال للنوم . ومع ذلك فان السير قد يتعرقل في المدن عندما يكون كل امرىء مستيقظاً . لقد كان مردّ ذلك الى تمازج الخيل والسيارات. لقد تعارضا ولم يُسْعف أي منهما الاخر . وزادت عربات الفلاحين الطين بلة . والفتاتان اللتان مع بارتو كانتا فتاتين رائعتين . إن الجيش المتقهقر لا يتسع لفتاتين عذراوين . فتاتين عذراوين حقاً . ومن يدري فلعلهما كانتا شديدتي التديّن أيضاً . وأغلب الظن أنه لولا الحرب لكنا جميعاً في السرير . في السرير حيث أريح رأسي على وسادة. فراش ولوح خشب . متصلب مثل لوح خشب في فراش . لقد كانت كاترين الآن في فراشها بين بطانتين اثنتين ، احداهما فوقها والثانية تحتها . على أي جانب كانت نائمة ؟ لعلها لم تكن نائمة . لعلها كانت مستلقية في سريرها تفكّر بي . إعصفي ، إعصفي ، أيتها الرياح الغربية . حسناً ، لقد عصفت . ولم يكن ذلك الذي هطل هو المطر الصغير . لا . كان هو المطر الكبير . لقد أمطرت السماء طوال الليل . وأيّ مطر

كان ذلك ! أيّ مطر ! انظر اليه . آه ، يا إلهي ، ليتني كنت وحبيبتي بين ذراعيّ في السرير ، حبيبتي كاثرين . ليت حبيبتي الحلوة كاثرين تستطيع أن تتحول الى مطر . احمليها ايتها الرياح إليّ . حسناً لقد كنا فيه . كان كل امرىء أسيره ، ولم يستطع المطر الصغير أن يسوّي الاشياء . وقلت بصوت عال ، « طاب مساؤك يا كاثرين . أرجو أن تنامي نوماً عميقاً . واذا لم يكن ذلك مزعجاً كثيراً ، ايتها الحبيبة ، فأني أسألك ان تنامي على الجانب الآخر . سوف آتيك بشيء من الماء البارد . بعد فترة قصيرة يطلع الصبح ، ولن يكون الحال على هذا السوء كله . يؤسفني ان تكوني منزعجة الى هذا الحد . حاولي ان تنامي ، يا حبيبتي . »

فقالت :

— « كنت نائمة طوال الوقت . ولقد كنت أنت تتكلم وأنت نائم . هل أنت بخير ؟ »

— « أأنت هنا حقاً ؟ »

— « طبعاً أنا هنا . أنا لن أبتعد عنك . إن هذا لن يعكّر حبنا أبداً . »

— « أنت رائعة وحلوة الى أبعد الحدود . أنتِ لن تمضي لسبيلكِ في الليل ، أليس كذلك ؟ »

— « طبعاً ، أنا لن أمضي لسبيلي ، أنا هنا دائماً . سوف أجيء كلما أردت أنت أن أجيء. »

وقال بياني :

— « .... ، لقد انطلقت القافلة من جديد . »

وقلت :

— « لقد كنتُ مستسلماً للرقاد . »

ونظرتُ الى ساعتي . كانت الساعة الثالثة صباحاً . ومددت يدي الى

ما وراء المقعد بحثاً عن زجاجة من الباربيرا .

فقال بياني :

— « لقد تكلمتَ بصوت عال . »

فقلت :

— « كنت أرى مناماً باللغة الانكليزية . »

كان المطر قد تراخى ، وكنّا نتخذ سبيلنا قُدُماً . وقبل انبلاج الفجر سُمّرت القافلة كـرةً أخرى . وحين أرسلت الشمس الأولى أشعتها وجدنا أنفسنا في مرتفـع من الأرض ، ووقع بصري على طريق الانكفاء ممتدّة أمامنا على مدى النظر ، وكان كل شيء مسمّراً في مكانه ، ما عدا قوات المشاة التي كانت تواصل سيرها . وانطلقنا من جديد ، ولكني أدركت — بعـد أن رأيت سرعة التقدم في ضوء النهار — اننا سوف نضطر الى تنكّب تلك الطريق الرئيسية ، ونمضي عبر الحقول اذا كنا نطمع في الوصول الى يودين .

وفي موهن من الليل انضمّ الى القافلة كثير من الفلاحين تدفقـوا من مختلف أنحاء الريف ، فاذا بنا نرى في القافلة عربات مثقلة بالأدوات المنزلية . كان ثمة مرايا ناتئة بين الفُرش والحشايا ، ودجاج وبـطّ مشدودة الى العربات . وكان ثمة ماكينة خياطة في العربة التي أمامنـا ، تحت المطر . كانوا قد استنقذوا أثمن الاشياء . وفي بعض العربات قعدت النسوة محتشدات حذَرَ المطر ، ومشى بعضهن الى جانب العربات غير مبتعدات عنها الا قليلاً . كان في القافلة الآن عدد من الكلاب . وكانت هذه الكلاب تمشي بين عجلات العربات . كانت الطريق موحلة ،وكانت الخنادق المحاذية ملأى بالماء . ووراء الاشجار التي تكتنف الطريق من جانبها بدَت الحقول ندية جداً ومبتلة جداً الى حدّ يجعل محاولة اجتيازها أمراً بالغ العسر . وترجلتُ من السيارة ، وصعّدت في الطريق بعـض الشيء ، متطلعاً الى مكان أستطيع أن أرى فيه الى بعيد بحثاً عن طريق

فرعية نستطيع ان نجتازها عبر الحقول . كنت أعرف أن هناك كثيراً من الطرق الفرعية ، ولكني لم أكن راغباً في طريق مسدود لا يقود الى شيء . وما كان في استطاعتي أن أتذكر تلك الطرق لاننا كنا نجتازها دائماً بالسيارة ، منطلقين على الطريق الرئيسية بأقصى السرعة ، وكانت كلها تبدو متشابهة الى حد بعيد . وكنت على مثل اليقين الآن من أن علينا أن نعثر على احدى تلك الطرق إذا ما طمعنا في الوصول الى المكان الذي نقصد . ولم يكن أحد يدري أين كان النمساويون ، ولا كيف كانت الحال في جبهة القتال ، ولكني كنت واثقاً من انه اذا كف المطر عن التهطال واقبلت الطائرات وقذفت تلك القافلة بقنابلها فعندئذ ينتهي كل شيء . ولن يقتضينا الموقف غير مغادرة بضعة جنود لسياراتهم ومصرع عدد من الخيل حتى تتعطل الحركة على الطريق تعطلاً كاملاً .

لم يكن المطر يهطل في غزارة بالغة ، الآن ، ولقد خيّل اليّ ان السماء سوف تصحو . وتابعت سبيلي على حافة الطريق ، حتى اذا وجدت درباً يقود الى الشمال بين حقلين يكتنفهما من كل جانب سياج من الاشجار بدا لي أن من الخير لنا ان نسلكه ، وأسرعتُ عائداً الى السيارات . وطلبت الى بياني أن ينعطف في الاتجاه الآخر . ورجعت لأخبر بونيلو وإيمو . وقلت :

— « اذا ظهر لنا ان الطريق غير نافذة ففي ميسورنا ان نستدير من جديد ونعاود اللحاق بالقافلة . »

وسألني بونيلو :

— « وماذا نفعل بهذين ؟ »

كان الرقيبان جالسين الى جانبه على المقعد . كان شعر لحيتيهما قد نبت ، ومع ذلك فقد كان سمتُهما عسكرياً في ذلك الصباح الباكر . فقلت :

— « سوف يساعداننا في دفع العربات الى أمام . »

ورجعت الى ايمو وقلت له إننا سنحاول الانطلاق عبر الحقول :
فسألني ايمو :
ـ « وما الذي سأفعله بفتاتيَّ العذراوين ؟ »
كانت الفتاتان مستسلمتين للرقاد .
فقلت :
ـ « انهما لن تفيدانا كثيراً . كان من الخير لك ان تُقلَّ بسيارتك أشخاصاً يستطيعون ان يدفعوها . »
فقال ايمو :
ـ « في استطاعتنا ان نضعهما في المقعد الخلفي . هناك متسع لهما في السيارة . »
فقلت :
ـ « لا بأس في ذلك اذا كنت راغباً فيهما . ولكن حاول ان تتلقّف شخصاً عريض الظهر قادراً على مساعدتك في دفع السيارة الى أمام. »
فابتسم ايمو وقال :
ـ « سأتلقّف واحداً من البيرساغليري . ان لهم أعرض الظهور . ذلك أن السلطات العسكرية تقيس ظهورهم . كيف أنت أيها الملازم ؟ »
ـ « ممتاز . وأنت ؟ »
ـ « ممتاز . ولكني جائع جداً . »
ـ « لا بد أن نجد شيئاً في نهاية هذه الطريق ، ولسوف نتوقف هناك ونأكل . »
ـ « وكيف رجلك . ايها الملازم ؟ »
فقلت :
ـ « ممتازة . »
ووقفت على موطىء السيارة ، وتطلّعت الى بعيد ، فكان في استطاعتي أن أرى سيارة بياني تستدير وتبتعد في الطريق الفرعي الصغير . أقد

بدت سيارته وهي تنطلق خلال الاشجار الجرداء القائمة على الجانبين. واستدار بونيلو بسيارته ولحق به . ثم ان ايمو استدار ، بدوره ، سالخاً نفسه من القافلة سلخاً ، وتبعنا سيارتي الاسعاف على الطريق الضيقة ، وسط سياج الاشجار . وانتهت بنا تلك الطريق الى مزرعة . وهناك وجدنا بياني وبونيلو وقد توقفا في الفناء . كان البيت منخفضاً وطويلاً . وكانت تعلو الباب شباكة خشبية امتدت عليها أغصان الكرمة . وكان في الفناء بئر ، وكان بياني يمتح الماء منه لكي يملأ مشعاع السيارة (الراداياتور) . ان اضطراره الى الاكثار من السير محتفظاً بناقل الحركة في الموضع الذي يكون فيه عادة عند الانطلاق ، قد بخر كل ما كان في المشعاع من ماء . وكان البيت مهجوراً . ونظرت إلى وراء؛ كان البيت قائماً على مرتفع يسير فوق السهل ، وكان في ميسورنا أن نشرف على الريف كله ، فرأينا الطريق ، والأسيجة ، والحقول ، وخط الاشجار الممتد على طول الطريق الرئيسية حيث كانت قواتنا تتراجع . كان الرقيبان قد دخلا إلى البيت مستكشفين . وكانت الفتاتان قد استيقظتا وراحتا تنظران إلى الفناء ، وإلى البئر ، وإلى سيارتي الاسعاف الواقفتين أمام البيت ، وإلى السائقين الثلاثة المجتمعين حول البئر . وخرج واحد من الرقيبين وفي يده ساعة حائط .

وقلت :

— « أعدها إلى مكانها . »

فنظر إلي ، وارتد إلى المنزل ، ثم رجع من غير أن تكون تلك الساعة في يده .

وسألته :

— « أين رفيقك ؟ »

— « لقد ذهب إلى المرحاض . »

ووثب فاتخذ لنفسه مكاناً في السيارة . كان يخشى أن نخلفه وراءنا.

وتساءل بونيلو :

— « وفطور الصباح ، أيها الملازم ؟ في استطاعتنا ان نأكل شيئاً ما . إن ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً . »

— « هل تعتقد أن هذه الطريق الممتدة في الجانب الآخر سوف تنتهي بنا إلى مكان ما ؟ »

— « من غير شك . »

— « حسن . فلنأكل . »

ومضى بياني وبونيلو فدخلا البيت ؛

وقال إيمو للفتاتين :

— « هلّما ! »

وبسط يده إليها لكي يساعدهما على الترجل من السيارة . وهزّت الاخت الكبرى رأسها : لقد رفضتا الذهاب إلى بيت مهجور . ولقد اكتفت كل منهما بأن أتبعتنا نظرها .

وقال ايمو :

— « إنهما صعبتا المراس . »

ودخلنا البيت الريفي معاً . كان بيتاً واسعاً قاتماً . انطباعة موحشة؛ كان بونيلو وبياني في المطبخ ؛

فقال بياني :

— « ليس لدينا شيء كثير نأكله. لقد « نظفوا » البيت تنظيفاً . »

وانشأ بونيلو يقطّع قرصاً كبيراً من الجبن الابيض فوق طاولة المطبخ الثقيلة .

— « وأين كان هذا الجبن ؟ »

— « في القبو . لقد وجد بياني خمراً أيضاً وتفاحاً . »

— « هذا فطور صباحيّ جيد . »

كان بياني ينتزع السدادة الخشبية عن دنّ خمر مغطّى بأغصان

مجدولة . ثم أمال الدنّ وملأ بالخمر قدراً نحاسية .
وقال :
— « ان رائحتها زكية . إيتنا ببعض الكؤوس يا بارتو . »
ودخل الرقيبان .
وقال بونيلو :
— « دونكما بعض الجبن ، أيها الرقيبان . »
وقال أحد الرقيبين ، وهو يأكل شيئاً من الجبن ويشرب كأساً من الخمر :
— « ينبغي أن نذهب . »
فقال بونيلو :
— « سوف نذهب . لا تقلق . »
فقلت :
— « الجيش يزحف على معدته . »
فتساءل الرقيب :
— « ماذا ؟ »
— « من الافضل أن نأكل . »
— « أجل ، ولكن الوقت ثمين . »
فقال بياني :
— « أعتقد ان ابنَيْ الزنا قد أكلا من قبل . »
ونظر الرقيبان اليه . كانا يكرهاننا كلنا .
وسألني أحدهما :
— « هل تعرف الطريق ؟ »
فقلت :
— « لا . »
وتبادلا النظرات .
وقال أولهما :

— « من الافضل لنا أن ننطلق . »

فقلت :

— « نحن منطلقون . »

وتجرعتُ كأساً أخرى من النبيذ . كان مذاقُهُ ممتازاً بعد الجبن والتفاح .

وقلت :

— « احملوا الجبن . »

وخرجتُ . وخرج بونيلو حاملاً دنّ النبيذ .

وقلت :

— « هذا أكبر مما ينبغي . »

ونظر اليه في أسف ، وقال :

— « أظن ذلك . أعطني حافظات الماء المعدنية حتى املأها . »

وملأ تلك الحافظات . فسال بعض النبيذ على حصباء الفناء . ثم إنه تناول الدنّ ووضعه وراء الباب مباشرة .

وقال :

— « في استطاعة النمساويين أن يجدوه من غير أن يكسروا الباب. »

وقلت :

— « فلننطلق . أنا وبياني سوف نمضي في المقدمة . »

كان المهندسان قد أخذا مكانهما إلى جانب بونيلو . وكانت الفتاتان تأكلان جبناً وتفاحاً . أما ايمو فكان يدخن. وانطلقنا هابطين الطريق الضيقة . والتفتّ إلى السيارتين اللاحقتين بنا وإلى البيت الريفي . كان بيتاً حجرياً جميلاً ، منخفضاً ، متيناً ، وكان الجزء الحديدي من البئر جيداً جداً . وأمامنا امتدت الطريق ضيقةً موحلةً ، وكان ثمة سياج عالٍ يكتنف كلا الجانبين . وخلفنا ، كانت السيارات تتبعنا وكأنها لاصقة بنا .

الفصل التاسع والعشرون

عند الظهر تورّطنا في طريق موحلة تبعد ، على قَدْر ما استطعنا أن نتصوّر ، نحواً من عشرة كيلو مترات عن يودين . كان المطر قد كف عن التهطال خلال الأصيل ، وثلاث مرات كنا قد سمعنا الطائرات مُقبلةً ، ورأيناها تمرّ فوق سَمْت الرأس ، وراقبناها تمضي بعيداً إلى اليسار وسمعناها تقصف الطريق الرئيسية بقنابلها . واتخذنا سبيلنا في عسر ، عبر شبكة من الطرق الثانوية . والواقع اننا وجدنا أنفسنا أمام كثير من الطرق غير النافذة ، ولكننا كنا في هذه الحال نرتدّ إلى الوراء فنعثر على طريق جديدة ، وهكذا كنا نقترب من يودين على نحو موصول . وفيما كانت سيارة إيمو ترتدّ على هذا النحو للخروج من أحد الدروب المسدودة انتهت إلى أرض ليّنة بالوحل على جانب الطريق ، فاذا بالدواليب تزلق وتغرز في التربة أعمقَ فأعمق حتى لقد استقرت السيارة على « الديفير انسيال » . ولم يكن أمامنا الآن إلا أن نحفر حول الدواليب ، وان نضع ثمة اغصاناً يابسة حتى يكون في إمكان السلاسل أن تُمسك ، وعندئذ ندفع السيارة حتى نعيدها إلى الطريق . كنا كلنا قد ترجّلنا ووقفنا حول السيارة . ونظر الرقيبان اليها وتفحّصا العجلات . ثم هبطا الطريق منصرفين من غير أن يقولا كلمة . ولحقتُ بهما .

وقلت :

ـ « تعالا . إقطعا بعض الأغصان . »

فقال أحدهما :

ـ « إن علينا أن نذهب ؟ »

فقلت :

ـ « شمرا عن سواعدكما ، واقطعا بعض الأغصان . »

فقال واحد منهما :

ـ « علينا أن نذهب . »

أما الآخر فلم يقل شيئاً . كانا يتعجّلان المضيّ . ولم يجرؤا على النظر إليّ .

وقلت :

ـ « إني آمركما بالعودة إلى السيارة وبقطع الاغصان . »

فاستدار أحد الرقيبين وقال :

ـ « يتعين علينا ان نمضي لسبيلنا : فما هي إلاّ فترة يسيرة حتى تُطوّقوا : انك لا تستطيع أن تأمرنا . أنت لست ضابطنا . »

فقلت :

ـ « إني آمركما بقطع الأغصان . »

فاستدارا ، وهبطا الطريق :

فصحت :

ـ « قفا ! »

فواصلا هبوط الطريق الموحلة ، بين السياجين المحيطين بها من الجانبين :

ـ « آمركما أن تقفا ! »

فأسرعا في سيرهما بعض الشيء . وفتحتُ حافظة الغدارة الجلدية ، وأخرجت الغدارة ، وسددّتها إلى ذلك الذي كان أكثرهما كلاماً ،

وأطلقت النار . واخطـأتُهُ ، وعندئذ أطلق الاثنان ساقيهما للريـح . وأطلقت النـار ثلاث مرات ، فجندلتُ واحداً منهما . في حين ولّى الثاني عبر السياج وغاب عن البصر . وصوبت اليه النار من خلال السياج فيما كان يعلو عبر الحقل . وفرغت الغدارة ، فزوّدتها بمخزن خراطيش جديد . ورأيت أن الرقيب الثاني أمسى أبعد من أن تصوَّب اليه النار . كان يعلو بعيداً عبر الحقل ، مطأطئاً رأسه . وبدأت أشحن مخزن الخراطيش عندما برز بونيلو أمامي وقال :

— « دعني أجهز عليه . »

فناولته الغدارة ، فهبط إلى حيث كان الرقيب الهندسي منطرحاً عبر الطريق مستقبلاً الأرض بوجهه . وانحنى بونيلو فوقه ، ووضع فم الغدارة على رأس الرجل ، وضغط على الزناد . ولكن الغدارة أبت أن تعمل .

وقلت :

— « يتعين عليك ان تردّ الزناد إلى وراء . »

فردّه إلى الوراء ، وأطلق النار مرتين . وأمسك برجلَيْ الرقيب ، وسحبه إلى جانب الطريق حتى أمسى في محاذاة السياج . ثم إنه رجع وأعاد الغدارة إليّ .

وقال :

— « ابن الزنا ! »

ونظر إلى الرقيب ، ثم أضاف :

— « لقد رأيتني أجهز عليه ، أليس كذلك أيها الملازم ؟ »

فقلت :

— « يتعيّن علينا أن نقطع الاغصان في سرعة . هل أصابت ناري الرقيبَ الآخر ؟ »

فقال إيمو :

— « لست أعتقد ذلك . كان أبعد من أن يصاب بغدارة من الغدارات . »

فقال بياني :

— « يا للوغد القذر ! »

كنا كلنا نقطع أفناناً وأغصاناً . كان كل شيء قد أخرج من السيارة . وكان بونيلو يحفر أمام الدواليب . وحين أنجزنا استعدادنا هذا أدار إيمو المحرك ووضع ناقل السرعة في الموضع الذي يكون فيه عند الانطلاق . ودارت الدواليب على نفسها مُطلقة وحولاً وأغصانا . ودفعت السيارةَ أنا وبونيلو حتى شعرنا وكأن مفاصلنا تطقطق . ولكن السيارة أبت أن تتحرك .

وقلت :

— « هزّها إلى وراء وإلى أمام ، يا بارتو . »

فرجع بالسيارة إلى وراء ثم تقدّم بها إلى أمام . فما كان من الدواليب إلا أن أمعنت في الوحل غرزاً . وعندئذ عادت السيارة فاستقرت على « الديفيرانسيال » من جديد . وأخذت الدواليب تدور دوراناً حراً في الحفر التي سبق لها أن أحدثَتْها .

وتصدّرتُ وقلت :

— « فلنجرب أن نسحبها بحبل . »

— « لا أعتقد أن ذلك سوف يفيدنا شيئاً ، أيها الملازم . إننا لن نستطيع سحبها في خط مستقيم . »

— « يتعين علينا أن نجرب ذلك . إنها لن تخرج من الوحل بأية طريقة أخرى . »

ولم تستطع سيارتا بياني وبونيلو شيئاً أكثر من المضيّ قُدُماً هابطتَيْن الطريقَ الضيقة . وشددنا احدى السيارتين إلى الأخرى بحبل ، ورحنا نشدّ . فلم يكن من الدواليب إلاّ أن ضغطت على جوانب الأثلام

ليس غير .

وصحت :

— « كفى . لقد أخفقت التجربة . »

وترجّل بياني وبونيلو من سيارتيهما ، وارتدّا نحونا . وترجّل إمو . أما الفتاتان فكانتا جالستين على جدار حجري ، عند حافة الطريق ، على بُعْد أربعين ياردةً تقريباً .

وسألني بونيلو :

— « ما قولك ، أيها الملازم ؟ »

فقلت :

— « سوف نحفر حول الدواليب ، ونجرّب الأفادة من الاغصان كرة أخرى . »

ونظرت إلى الطريق . لقد كانت الغلطة غلطتي . فأنا الذي قُدْتهم إلى هنا . وكانت الشمس على وشك أن تنبثق من وراء السحب ، وكانت جثة الرقيب مطروحة إلى جانب السياج .

وقلت :

— « سوف نضع سترته ومعطفه تحت الدواليب . »

ومضى بونيلو ليأتي بهما . وقطعت بعض الأغصان ، وراح إمو وبياني يحفران أمام الدواليب وبينها . وقطعت المعطف ثم شرطته قسمين ، ووضعتهما تحت الدولاب في الوحل ، ثم كوّمت الأغصان لكي تتمكن الدواليب من الجري فوقها . كنا على استعداد للانطلاق ، وصعد إمو إلى مقعد السيارة وأدار محركها . ودارت الدواليب على نفسها ، ودفعنا السيارة ودفعنا . ولكنْ على غير طائل .

وقلت :

— « قضي الأمر . هل ثمة أيما شيء تريد أخذه من السيارة ، يا بارتو ؟ »

وامتطى إمو متن السيارة — حاملاً الجبن وزجاجتين من خمر ومعطفه — إلى جانب بونيلو . وكان بونيلو ، الجالس وراء المقود ، يتحرّى جيوب سترة الرقيب .

وقلت :

— « من الأفضل لك أن تطرح هذه السترة . أين فتاتا بارتو العذراوان ؟ »

فقال بياني :

— « في استطاعتهما أن تقعدا في الجزء الخلفي . أنا لا أعتقد أن رحلتنا ستكون طويلة بعد الآن . »

وفتحتُ باب السيارة الخلفيّ .

وقلتُ :

— « هلمّا ! ادخلا ! »

وصعدت الفتاتان إلى السيارة وقعدتا في الزاوية . لقد بدا أنهما لم تنتبها إلى اطلاق النار . واستدرت لكي ألقي نظرة على الطريق . كان الرقيب منطرحاً بقميصه التحتيّ القذر الطويل الردنين . وامتطيت متن السيارة إلى جانب بياني ، وانطلقنا . كنا نعتزم أن نحاول اجتياز الحقل . وحين امتدت الطريق في الحقل ترجّلتُ ، ومشيت أمام السيارتين . إننا إذا وُفّقنا إلى اجتياز الحقل وجدنا طريقاً جديدة على الجانب الآخر . ولكننا لم نستطع أن نعبر الحقل . كانت أرضه لينةً جداً ، وكانت موحلةً الى حد جعل ذلك أمراً متعذراً على السيارتين. وحين سُمّرت السيارتان نهائياً وعلى نحو كامل ، بعد أن غرزت دواليبهما حتى محاورِها ، تركناهما في الحقل ومضينا على أقدامنا في اتجاه يودين .

وحين انتهينا إلى الطريق المؤدية إلى الطريق الرئيسية أشرتُ اليها لافتاً نظر الفتاتين بقولي :

— « أسلكا تلك الطريق . انكما لا بدّ أن تلقيا أناساً . »

ونظرتا إليّ . وأخرجتُ حافظة نقودي وأعطيت كلاً منهما ورقة نقدية من فئة الليرات العشرة . ثم أضفت مشيراً باصبعي :

— « اسلكا تلك الطريق . اصدقاء . أسْرَة ! »

ولم تفهما ، ولكنهما ضغطتا أصابعهما على الورقتين النقديتين ، وراحتا تهبطان الطريق . والتفتتا إلى الوراء وكأنهما كانتا تخافان أن أسترجع المال منهما . وراقبتهما وهما تهبطان الطريق ، وقد طوقتْ كل منهما نفسها بشالها تطويقاً محكماً ، وأخذت تتلفت نحونا في ذعر . كان السائقون الثلاثة يضحكون .

وسألني بونيلو :

— « كم تعطيني إذا ذهبت في ذلك الاتجاه . أيها الملازم . »

فقلت :

— « من الخير لهما ، إذا ما قُبض عليهما ، أن لا تكونا وحدهما بل أن تكونا وسط جمهرة من الناس . »

فقال بونيلو :

— « أعطني مئتي لير أرجع سائراً على قدميّ نحو النمسا . »

فقال بياني :

— « ولكنهم سوف ينتزعون ذلك المبلغ منك . »

فقال إيمو :

— « من يدري ؟ لعل الحرب أن تنتهي . »

كنا نصعّد في الطريق بأسرع ما نستطيع التصعيد . وكانت الشمس تحاول أن تطل من وراء السحب . وعلى جانب الطريق انتصبت شجرات توت . ومن خلال الاشجار كان في ميسوري أن أرى سيارتينا الكبيرتين غارزتين في تراب الحقل . والتفت بياني إلى الوراء أيضاً .

وقال :

— « سوف يتعيّن عليهم أن ينشئوا طريقاً لكي يخرجوهما . »
وقال بونيلو :
— « أتمنى ، وحق المسيح ، لو كان عندنا دراجات هوائية . »
فسألني إيمو :
— « هل يركبون الدراجات الهوائية في أميركة ؟ »
— « كانوا يفعلون ذلك في الماضي . »
فقال إيمو :
— « إنها شيء عظيم هنا . الدراجة شيء رائع . »
فقال بونيلو :
— « أتمنى ، وحق المسيح ، لو كان عندنا دراجات . أنا لست ممن يصبرون على المشي . »
وتساءلت :
— « أيكون هذا اطلاقَ نار ؟ »
لقد بدا لي أني سمعت صدى نار تطلق من مكانٍ بعيد .
فقال إيمو :
— « لست أدري . »
وأصغى :
فقلت :
— « أظن انه اطلاق نار . »
فقال بياني :
— « إن ما سنراه هو سلاح الفرسان . »
— « لست أظن أن عندهم سلاح فرسانٍ البتة . »
فقال بونيلو :
— « أتضرع إلى المسيح أن لا يكون عندهم مثل ذلك السلاح . أنا لا أريد أن أُطعن برمح فارس من الفرسان . »

فقال بياني ، وكنا نغذُّ الخطى :

— « انك أنت الذي قتلت ذلك الرقيب من غير شك ، أيها الملازم . »

فقال بونيلو :

— « أنا الذي قتلته . أنا لم أقتل أحداً قط في هذه الحرب ، ولقد تمنيت طوال عمري أن أقتل رقيباً . »

فقال بياني :

— « لقد قتلتَهُ في هدوء . إنه لم يكن يعدو بسرعة عندما قتلتَهُ . »

— « لا بأس . هذا شيء لن أنساه في حياتي أبداً . لقد قتلتُ ذلك الرقيب الوغد . »

فسأله إيمو :

— « وماذا ستقول في الاعتراف أمام الكاهن ؟ »

— « سوف أقول : باركني ، يا أبتاه ، لقد قتلتُ رقيباً . »

فضحكوا جميعاً .

وقال بياني :

— « إنه فوضوي . إنه لا يذهب إلى الكنيسة . »

فقال بونيلو :

— « وبياني فوضوي أيضاً . »

وسألتهم :

— « هل أنتم فوضويون فعلاً ؟ »

— « لا ، أيها الملازم . نحن اشتراكيون . نحن من إيمولا . »

— « هل ذهبت إلى هناك في يوم من الأيام ؟ »

— « لا . »

— « وحق المسيح ، إنها موطن جميل ، أيها الملازم . يجب

أن تذهب إلى هنـــاك بعد الحرب ، ولسوف نريك شيئاً جـديراً بالمشاهدة . »

ـ « هل أنتم كلكم اشتراكيون ؟ »

ـ « كلنا . »

ـ « أهي مدينة جميلة ؟ »

ـ « رائعة . إنك لم ترَ مدينة في مثل روعتها . »

ـ « وكيف اتفق لكم أن أصبحتم اشتراكيين ؟ »

ـ « نحن كلنا اشتراكيون . كل امرئ هو اشتراكي. لقد كنا دائماً اشتراكيين . »

ـ « تعال أيها الملازم . سوف نجعلك اشتراكياً أيضاً . »

وأمامنا ، انعطفت الطريق إلى اليسار ، وكان ثمة كثيب صغير ، ووراء سور حجريّ كانت حديقة تفاح . وفيما الطريق تصعّـد في الكثيب ، كفّوا عن الكلام . لقد مشينا معاً ، في سرعة بالغة ، وكأننا نسابق الزمن .

الفصل الثلاثون

وبعد ذلك بلغنا طريقاً تؤدي إلى نهر . وكان ثمة على هذه الطريق، المصعّدة إلى الجسر ، صف طويل من الشاحنات والعربات المهجورة . لم يكن من حولنا أحد . وكان النهر فائضاً ، وكان الجزء الاوسط من الجسر قد نُسِف . كانت القنطرة الحجرية قد سقطت في النهر، وكانت المياه السمراء تجري فوقها . وصعّدنا في الضفة باحثين عن مكان نستطيع العبور عنده . وكنت أعلم أن أمامنا ، إذا واصلنا التصعيد ، جسر سكة حديدية ، ولقد بدا لي أننا قد نوفق إلى العبور هناك . وكان الممر ندياً موحلاً . ولم يقع بصرنا على جنود البتة ؛ لقد رأينا شاحنات وذخائر مهجورة ليس غير . وعلى طول ضفة النهر لم يكن شيء غير الاغصان النديّة والتربة الموحلة . وواصلنا تصعيدنا في الضفة ، وأخيراً بَصُرْنا بجسر السكة الحديدية .

وقال إيمو :

— « يا له من جسر جميل ! »

كان جسراً حديدياً بسيطاً طويلاً يمتد عبرَ ما كان في العادة حوضاً جافاً من أحواض الانهار .

وقلت :

– « من الخير لنا أن نستعجل ، ونعبر قبل أن ينسفوه . »

فقال بياني :

– « ليس هناك من ينسفه . لقد رحلوا كلهم . »

فقال بونيلو :

– « أغلب الظن أنه ملغوم . أعبُرْ أنت أولاً ، أيها الملازم . »

فقال إيمو :

– « إسمع إلى الفوضوي . أطلُبْ اليه أن يعبر هو أولاً . »

فقلت :

– « سوف أعبر . ليس من المعقول أن يُلْغَم على نحوٍ يجعله ينفجر إذا ما مسّته قدما رجل واحد . »

فقال بياني :

– « أسمعت ؟ هذا دماغ . أليس عندك دماغ أيها الفوضوي ؟ »

فقال بونيلو :

– « لو كان عندي دماغ لما كنتُ هنا . »

فقال إيمو :

– « هذا جواب جميل ، أيها الملازم . »

فقلت :

– « أجل ، إنه جواب جميل . »

كنا في تلك اللاحظة قد حاذينا الجسر . وكانت السحب قد تراكمت في السماء ، كرة أخرى ، وهطل المطر رذاذاً . لقد بدا الجسر طويلا صلباً . وصعدنا إلى رصيف الجسر .

وقلت :

– « تقدّموا واحداً واحداً . »

وبدأت أعبر الجسر . لقد راقبتُ العوارض الخشبية والخطوط الحديدية بحثاً عن أيما أسلاك أو أمارات تدلّ على وجود متفجرات ولكني لم أرَ شيئاً البتة . وتحت قدميّ ، بين فجوات العوارض الخشبية ، جرى النهر موحلاً متعجلاً . وإلى الأمام ، عبر الريف النديّ ، كان في استطاعتي أن أرى يودين وقد جادها الغيث . ونظرتُ من الناحية الأخرى من الجسر . كان في عالية النهر ، غير بعيد عني ، جسر آخر . وفيما أنا أتأمل ذلك الجسر عَبَرَتْهُ سيارة صفراء ملونة بلون الوحل . كان جانبا الجسر عاليين ، ولم تكد السيارة تنطلق حتى غاب هيكلها عن البصر . ولكني رأيت رأسَيْ السائق والرجل الجالس إلى جانبه ، ورأسَيْ الرجلين الجالسين في المقعد الخلفي . كانوا كلهم يعتمرون بخُوَذٍ ألمانية . ثم ان السيارة اجتازت الجسر وغابت عن البصر خلف الاشجار وخلف العربات المهجورة . ولوّحت بيدي إلى إيمو ، وكان قد أمسى فوق الجسر ، وإلى الآخرين بأن يتقدموا . ثم اني انطرحت على الارض وجثمت في محاذاة رصيف الخط الحديدي. وجثم إيمو معي أيضاً .

وسألته :

— « هل رأيت السيارة ؟ »

— « لا . كنا نراقبك . »

— « إن سيارة من سيارات القيادة الألمانية قد عبرت الجسر الأعلى . »

— « سيارة من سيارات القيادة ؟ »

— « نعم . »

— « باسم مريم العذراء ! »

وأقبل الآخران ، وجثمنا كلنا في الوحل خلف الرصيف ، ناظرين عبر الخط الحديدي إلى الجسر ، وإلى صف الأشجار ،

والخندق ، والطريق .

— « هل تعتقد ، إذن ، أنهم قطعوا علينا خط الرجعة ، أيها الملازم ؟ »

— « لست أدري . كل ما أدريه هو أن سيارة من سيارات القيادة الألمانية قد اجتازت تلك الطريق . »

— « ألا تشعر انك مضحك بعض الشيء ، أيها الملازم ؟ أليس في رأسك أحاسيس عجيبة ؟ »

— « لا تمزح ، يا بونيلو : »

وتساءل بياني :

— « ما رأيكم في كأس من الشراب ؟ إذا كنا قد حُوصرنا حقاً فعندئذ يكون من الخير لنا أن نحتسي كأساً . »

وفتح حافظة شرابه ونزع الفلينة عنها .

وقال إيمو مشيراً إلى الطريق :

— « انظر ! انظر ! »

وعلى طول حواجز الجسر الحجري ، كان في ميسورنا أن نرى خوذاً ألمانية تتحرك . كانوا منحنين إلى أمام ، وكانوا يتقدمون في بطء يكاد يكون خارقاً للعادة . حتى إذا اجتازوا الجسر بَصُرْنا بهم : كانوا كتيبة من ركاب الدراجات الهوائية ؛ ولقد رأيت وجهي الجنديين اللذين كانا يتقدمانهم جميعاً . كانا متوردي الخدود ناضحَيْن بالعافية. وكانت خوذتاهما منخفضتين ، فوق الجبين ، وفوق جانب من الوجه . وكانت قربينتاهما * مُعَلقتين بهيكلَيْ دراجتيهما . وكانت قنابلُ عَصَوِيَّةٌ تتدلى ، ومقابضها إلى أدنى ، من حزاميهما . كانت خوذتاهما وملابسهما العسكرية الرمادية نديّة ، وكانا ينطلقان في رشاقة ، متطلّعين إلى أمام وإلى اليمين والشمال . كان ثمّة اثنان — ثم صف مؤلف من أربعة

* القربينة **Carbine** ضرب من الغدارات او البنادق .

ثم اثنان ، ثم دزينة تقريباً ، ثم دزينة أخرى — ثم واحد ليس غير . انهم لم يتكلموا قط . وإلى هـــذا فقد كان خرير النهر خليقاً بأن يحول بيننا وبـــين سماعهم . كانوا الآن قـــد بلغوا أعلى الطريق وغابوا عن الانظـــار .

وقال إيمو :

— « باسم السيدة العذراء ! »

وقال بياني :

— « لقد كانوا ألماناً . إنهم لم يكونوا نمساويين . »

فقلت :

— « ولكن لماذا لم يكن ههنا أحدٌ ليوقفهم ؟ لماذا لم ينسفوا الجسر ؟ لماذا لم ينصبوا المدافع على طول هذا الرصيف ؟ »

فقال بونيلو :

— « هذا سؤال يحسن بك أنت أن تجيب عنه . »

وكنت مغضباً جداً . فقلت :

— « المسألة كلها حماقة في حماقة . هناك ، في سافلة النهر ، نسفوا جسراً صغيراً . وهنا يتركون جسراً قائماً على الطريق الرئيسية . إلى أين ذهبوا ؟ لماذا لا يحاولون أن يوقفوا زحفهم ؟ »

فقال بونيلو :

— « أجبْنا أنت ، أيها الملازم . »

والتزمتُ الصمت.فلم يكن ذلك الأمر يعنيني على أية حال. كل ما كان عليّ أن أفعله هو أن أصل إلى بوردينون مع ثلاث من سيارات الاسعاف.وكنت قد أخفقت في ذلك.وكل ما كان عليّ أن أفعله الآن هوأن أبلغ بوردينون. ومن يدري ، فمن المحتمل أن لا أتمكن من الوصول حتى إلى يودين.وأي بأس في ذلك ؟ المهمّ الآن أن احتفظ بهدوئي،وان أجتنب الموت برصاص العدو أو الوقوع في إساره .

وسألتُ بياني :

– « ألم تفتح حافظة شراب ؟ »

وقدّمها اليّ ، فأخذت جرعة طويلة ، وقلت :

– « من الخير لنا أن ننطلق. ومع ذلك، فليس ثمة ما يدعو إلى العجلة . هل تريدون أن تأكلوا شيئاً ؟ »

فقال بونيلو :

– « ليس ثمة مكان نستطيع البقاء فيه . »

– « حسناً . سوف ننطلق . »

– « هل نلتزم هذا الجانب ؟ بعيداً عن مدى البصر ؟ »

– « من الأفضل ان نمشي فوق . انهم قد يعرّجون على هذا الجسر أيضاً . نحن لا نريد ان يبرزوا فوقنا قبل أن نراهم . »

ومشينا في محاذاة السكة الحديدية. وعلى جانبينا امتد السهل النديّ . وأمامنا ، عبر السهل ، كان كثيب يودين. لقد انهارت سقوف القصر على الكثيب. ولقد كان في ميسورنا أن نرى برج الاجراس وبرج الساعة. وفي الحقول كان عدد وافر من شجرات التوت . وأمامنا رأيت مكاناً نُزعت منه خطوط السكة الحديدية . كانت العوارض الخشبية التي تدعّم السكة قد نزِعت أيضاً وطرحت على الرصيف.

وقال إيمو :

– « انطرحوا أرضاً ! انطرحوا أرضاً ! »

وانطرحنا في محاذاة الرصيف . كان ثمة عدد آخر من ركاب الدراجات الهوائية يجتازون الطريق . وأطللتُ من وراء الحافة ، ورأيتهم يمضون قُدُماً .

وقال إيمو :

– « لقد رأونا ولكنهم تابعوا سبيلهم . »

فقال بونيلو :

– « سوف نلقى حتفنا هناك ، أيها الملازم . »

فقلت :

— « إنهم لا يريدوننا . إنهم يبحثون عن شيء آخر . ولسوف نكون في خطر أكبر إذا ما فاجأونا . »

فقال بونيلو :

— « أنا أفضل أن أمشي هنا ، بعيداً عن الأنظار . »

— « حسن . سوف نمشي في محاذاة الخط الحديدي . »

فتساءل إيمو :

— « هل تعتقد أن في ميسورنا أن ننجو ؟ »

— « من غير ريب . إن عددهم لم يتكاثر حتى الآن . سوف ننجو في الظلام . »

— « أيّ شيء كانت تفعله سيارة القيادة تلك ؟ »

فقلت :

— « الله أعلم . »

وواصلنا تقدمنا في محاذاة الخط الحديدي . وتعب بونيلو من السير في وحل الرصيف فأقبل ليسير معنا . كان الخط الحديدي يتجه الآن نحو الجنوب مبتعداً عن الطريق الرئيسية ، ولم يعد في ميسورنا أن نرى ما الذي كان يجري على طول الطريق . وانتهينا الى جسر صغير فوق احدى القنوات . كان ذلك الجسر قد نُسف ، ولكنا تابعنا طريقنا عبر ما بقي من العقد . لقد سمعنا النار تطلق امامنا ؛

وعدنا فالتزمنا السير في محاذاة الخط الحديدي من جانب القناة الآخر . لقد اتجه الخط إلى المدينة مباشرة ، عبر الحقول المنخفضة . وتجاهنا كان في ميسورنا أن نرى خط السكة الحديدية الآخر . وإلى الشمال كانت الطريق الرئيسية حيث سبق لنا أن رأينا راكبي الدراجات . وإلى الجنوب كانت طريق فرعية صغيرة تمتد عبر الحقول وقد اكتنفتها الاشجار الكثيفة من جانبيها الاثنين . وخطر لي ان من الافضل أن نتجه نحو الجنوب ، وان نتقدم عبر الريف — بعد أن ندور حول المدينة — إلى كامبوفورميو وإلى طريق تاغليامانتو الرئيسية . وكان في امكاننا أن نجتنب طريق الانسحاب الرئيسية بالتزام الطرق الثانوية وراء يودين . كنت

أعلم أن ثمة ، عبر السهل، كثيراً من الطرق الجانبية.وهكذا هبطت رصيف السكة الحديدية .

وقلت :

— « هيّا ! »

اننا سوف نتجه نحو الطريق الجانبية ونحاول الوصول إلى جنوب المدينة . وهبطنا كلنا رصيف السكة الحديدية.وأطلقت علينا النار من ناحية الطريق الجانبية . ولكن الرصاصة غارت في وحل الرصيف.

وصحت :

— « ارتدوا إلى الوراء . »

ورحت اصعّد في الوحل الزلق . كان السائقون يتقدمونني . وارتقيت الرصيف بأسرع ما استطعت الانطلاق . وأقبلت رصاصتان أخريان من وراء الدغل الكثيف . وفيما كان إيمو يعبر الخط الحديدي، ترنّح وزلت قدمه وخرّ مستقبلاً الأرض بوجهه. وسحبناه من جانب الخط الآخر وقلّبْناه على ظهره. وقلت : « ينبغي أن نجعل رأسه إلى أعلى » . فما كان من بياني إلا ان عدّل وضعه وفقاً لما أشرتُ به . كان منطرحاً في الوحل ، في جانب الرصيف ، ورجلاه مسددتان إلى أدنى الكثيب . كان تنفّسه غير منتظم . وكان كلما تنفس جرى الدم من أنفه . وقرْفَصْنا ثلاثتنا حوله ، تحت المطر . لقد أصابته الرصاصة في الجزء الأدنى من مؤخر العنق،وكانت الرصاصة قد ارتفعت إلى اعلى، ثم خرجت من تحت العين اليمنى .لقد مات فيما كنت أحاول وقف النزف الدموي من جرْحيه . وخفض بياني رأس القتيل،ومسح وجهه بقطعة من ضمادات النجدة،ثم تركه وشأنه :

وقال :

— « اللئام ! »

فقلت :

— « إنهم لم يكونوا ألماناً . ليس ممكناً أن يكون هنا أي ألماني . »

فقال بياني مستعملاً الكلمة كنعت أو صفة :

— « ايطاليون . إيطالياني ! italiani . »

ولم يقل بونيلو شيئاً . كان قاعداً على جانب إيمو غير ناظر اليه. والتقط بياني قبعة إيمو التي كانت قد تدحرجت بعيداً عن الرصيف ووضعها على رأس إيمو . ثم أخرج حافظة شرابه .

— « هل تريد أن تأخذ جرعة ؟ »

وقدّم بياني الحافظة إلى بونيلو .

فقال بونيلو :

— « لا . »

واستدار نحوي ، وقال :

— « كان من الجائز ان يصيبنا مثل ذلك عند خط السكة الحديدية في أي لحظة من اللحظات . »

فقلت :

— « لا . لقد حدث هذا لأننا بدأنا نعبر الحقل . »

وهزّ بونيلو رأسه ، وقال :

— « لقد مات إيمو . ترى ، دور أي منا سوف يجيئ بعده ، أيها الملازم ؟ ما الذي سوف نفعله الآن ؟ »

فقلت :

— « إن الذين أطلقوا النار كانوا ايطاليين . إنهم لم يكونوا ألماناً . »

فقال بونيلو :

— « يخيل اليّ انهم لو كانوا ألماناً اذن لقتلونا جميعاً . »

فقلت :

— « إن الخطر ليتهددنا من جانب الايطاليين أكثر مما يتهددنا من جانب الألمان. ذلك ان حرس المؤخرة يخشى كل شيء. أما الألمان فيعرفون ماذا يريدون » .

فقال بونيلو :

— « هذا منطق صائب ، أيها الملازم . »

فتساءل بياني :

— « إلى أين سنذهب الآن ؟ »

— « من الأفضل لنا أن نختبئ في مكان ما إلى أن يهبط الظلام . إذا استطعنا أن ننتهي إلى الجنوب كان ذلك حسناً جداً . »

فقال بونيلو :

— « قد يتعين عليهم ان يقتلونا جميعاً لكي يثبتوا أنهم كانوا على صواب في المرة الأولى . أنا لن أعرّض نفسي لرصاصهم أبداً . »

— « فلنحاول أن نجد مكاناً نختبئ فيه ، وليكن أقرب ما يكون إلى يودين ، ثم ننطلق بعد أن يهبط الظلام . »

فقال بونيلو :

— « فلنذهب إذن . »

وهبطنا الجانب الشمالي من الرصيف . ونظرت إلى الوراء . كان إيمو منطرحاً في الوحل عند منحدر الرصيف . لقد بدا صغيراً جداً . وكانت ذراعاه ممدّدتين إلى جانبيه ، وكانت ساقاه مطوّقتين بعصابتين جلديتين . إن كل فردة من حذائه العالي الساق كانت تواجه الفردة الأخرى ، وعلى وجهه كانت قبعته . لقد بدا وكأنه ميّت منذ زمن بعيد . وكان المطر ينهمر . وكنت قد أحببت إيمو كما لم أحبّ احداً ممن قدّر لي ان أعرفهم في اي ما وقت مضى . وكانت أوراقه في جيبي . ولسوف اكتب إلى أسرته . وتجاهنا ، عبر الحقول ، كان بيتٌ ريفيّ . كانت تحيط به الاشجار ، وكانت ابنية المزرعة مشيدة على مقربة دانية جداً من البيت . وكان للدور الثاني شرفة تقوم على عدة أعمدة .

وقلت :

— « من الأفضل أن يبتعد بعضنا عن بعض ابتعاداً طفيفاً . سوف أمضي أنا في المقدّمة . »

وتقدّمت نحو المنزل الريفي : كان ثمة مجازٌ يمتدّ عبر الحقل .

وفيما كنت أجتاز الحقل بدا لي ان شخصاً ما قد يطلق علينا النارمن وراء الاشجار المحيطة بالبيت الريفي أو من البيت الريفي نفسه.ومشيت نحو ذلك البيت ، ورأيته في وضوح شديد . كانت شرفة الدور الثاني تتصل بمخزن العلف ، وكانت حزم التبن تنبثق من بين الأعمدة . كان الفناء مبلّطاً، وكانت جميع الاشجار تَقْطُرُ مطراً . وكان ثمة عربة ضخمة فارغة ذات دولابين ، وكانت يدا هذه العربة مرفوعتين إلى أعلى في وجه المطر.وتقدمت نحو الفناء ، وعبرته ، واستظلَلْتُ بالشرفة. وكان باب البيت مفتوحاً،فدخلت. ودخل بونيلو وبياني في اثري . كان البيت مظلماً . وشخصت إلى المطبخ . كان ثمة رماد في الموقد الكبير المفتوح . وكانت القدور تعلو الرماد ، ولكنها كانت فارغة . وأجلت البصر في ما حولي ، ولكني لم أستطع أن أجد شيئاً يؤكل .

وقلت :

— « ينبغي ان نختبئ في مخزن العلف . هل تعتقد أن في استطاعتنا ان نجد شيئاً نأكله ، يا بياني ، وان تجيئنا به إلى هناك ؟ »

فقال بياني :

— « سأبحث . »

وقال بونيلو :

— « وأنا سوف أبحث أيضاً . »

فقلت :

— « حسن . سوف أصعد وألقي نظرة على مخزن العلف . »

ووجدت سلماً حجرية ترتفع درجاتها الأولى عند الأصطبل . كانت تنبعث من الاصطبل رائحة جافة وسائغة في المطر.وكانت الماشية كلها قد ولّت، وأغلب الظن ان القوم ساقوها أمامهم عندما ركنوا للفرار.وكان مخزن العلف نصف مليْ بالتبن . كان ثمة نافذتان في السطح ، واحدة كانت مسدودة بألواح خشبية ، والأخرى لم تكن غير كوة مستديرة ضيقة في الجانب الشمالي . وكان ثمة منحدر يمكّن القوم من قذف التبن إلى الماشية. وكانت روافدُ خشبية ضخمة

تعرّض الباب الذي يُرفع باليد والذي كانت العربات تقف تحته عندما كان التبن يُرفع إلى أعلى المخزن . وسمعت وقع المطر على السطح ، وشممت رائحة التبن ، وعندما هبطت السلم شممت رائحة الروث الجاف النظيفة في الاصطبل. واستطعنا أن ننزع أحد الالواح الخشبية ، وان نطل من النافذه الجنوبية على فناء البيت . كانت النافذة الأخرى تطل على الحقل نحو الشمال. وكان في ميسورنا أن نخلص من أيّ من النافذتين إلى السقف ومن ثم نهبط إلى الارض ، أو أن نهبط منحدر التبن إذا كانت السلم غير قابلة للاستعمال . كان مخزن علف كبيراً ، وكان في ميسورنا ان نختبئ في التبن إذا ما سمعنا صوت امرئ ما . لقد بدا وكأنه مكان صالح . وكنت واثقاً من أنه كان في استطاعتنا ان نصل إلى الجنوب لو لم يطلقوا النار علينا . لقد كان من المستحيل أن يكون هناك جنود ألمان . كانوا يتقدمون من الشمال ويهبطون الطريق من سيفيدال. إنهم ما كان يمكن أن يفدوا من ناحية الجنوب . والواقع ان الايطاليين كانوا أشد علينا خطراً . لقد كانوا مذعورين يطلقون النار على أيما شيء يقع تحت أبصارهم. والبارحة خلال التراجع ، سمعنا ان كثيراً من الالمان المرتدين ملابس عسكرية ايطالية اندسوا في صفوف المنسحبين . ولم أصدق أنا ذلك. فقد كان هذا اشاعة من تلك الأشاعات التي يسمعها المرء دائماً في الحرب . كان واحداً من تلك الاشياء التي يصنعها العدو لك دائماً. إنك لم تسمع ان احداً من الجند المرتدين ثياباً عسكرية ألمانية قد اندس بينهم ليوقع الاضطراب في صفوفهم. ولعل بعضهم قد فعل، ولكن ذلك بدا – في نظري – شيئاً عسيراً . أنا لم أصدّق ان الألمان قد أقدموا على ذلك ، بل لم أكن اؤمن انهم كانوا مضطرين إلى هذا الصنيع . فلم تكن ثمة حاجة إلى زرع الفوضى في تراجعنا . ان ضخامة الجيش وقلة الطرق تكفّلتا بذلك . إن أحداً لم يصدر أية أوامر ، فلنترك الألمان وشأنهم . ومع هذا ، فقد كانوا يطلقون النار علينا وهم يحسبوننا ألماناً . لقد صرعوا إيمو . كانت رائحة التبن مستطابة ، وكان الاختباء في مخزن العلف ، وسط التبن ، كافياً لأن يجعلك تنسى جميع السنوات السالفة. وكم من مرة اختبأنا في التبن وتحدثنا واصطدنا عصافير

الدوري ببنادقنا العاملة بالهواء المضغوط عندما كانت تغطّ على المثلث المفتوح في الجزء الاعلى من جدار مخزن العلف. كان ذلك المخزن قد زال الآن، وفي احدى السنوات كانوا قد قطعوا غابة الشوكران، فلم يبق فيها غير الأرومات، ورؤوس الاشجار اليابسة، والاغصان، والأعشاب التي تنبت في المواطن المحترقة حديثاً. لم يكن في ميسورنا أن نعود من حيث أتينا. وإذا لم نتقدّم إلى أمام ما الذي سوف يحدث؟ إن علينا أن لا نفكر بالعودة إلى ميلانو. وإذا ما رجعنا إلى ميلانو ما الذي سوف يحدث؟ وأصختُ إلى اطلاق النار، في الشمال، في اتجاه يودين. كان في ميسوري أن اسمع طلقات المدافع الرشاشة. لم يكن ثمة قصف مدافع. وكان هذا شيئاً ذا مغزى. لا ريب في أنهم قد وجدوا بعض القوات على الطريق. وحدّقت في ضياء المخزن النصفيّ، فرأيت بياني واقفاً على الباب الافقي الذي يُفتح باليد. كان يحمل تحت ذراعه قطعة نقانق (سجق) طويلة، وابريقاً مليئاً بشيء ما، وزجاجتي خمر.

وقلت:

— «اصعد. هذه هي السلم.»

ثم أدركت أن عليّ أن أساعده في حمل تلك الاشياء، فنزلت. كان دوار طفيف قد أصاب رأسي بسبب من استلقائي على التبن. كنت نائماً تقريباً.

وسألته:

— «أين بونيلو؟»

فقال بياني:

— «سوف أخبرك.»

وارتقينا السلم. وهناك فوق التبن وضعنا ما كان معنا من أشياء. وأخرج بياني مدية ذاتَ نازعةٍ للسدّادات، ونزع السدادة عن احدى زجاجتي الخمر.

وقال:

— «إن عليهما خاتماً شمعياً أيضاً. لا بدّ أن تكونا من صنف جيد.»

وابتسم.

وسألته :

– « أين بونيلو ؟ »

فنظر اليّ ، وقال :

– « لقد ذهب . انه يريد أن يستسلم للعدو . »

ولم أقل شيئاً ما .

– « كان يخشى أن نُقتل . »

وتناولت زجاجة الخمر ولم أقل أيّ شيء .

– « وهكذا ترى أننا لا نؤمن بالحرب على أية حال ، أيها الملازم. »

وسألته :

– « ولماذا لم تذهب أنت ؟ »

– « لم أرد أن أفارقك . »

– « إلى أين ذهب ؟ »

– « لست أدري . أيها الملازم . لقد ولى . »

فقلت :

– « حسناً . ارجو أن تقطّع النقانق . »

فحدق اليّ بياني في ذلك الضياء النصفي ، وقال :

– « لقد قطعّتهُ ونحن نتحدث . »

وجلسنا وسط التبن ، وأكلنا النقانق ، واحتسينا الخمر. إنها من غير شك خمر احتفظوا بها لعُرس من الأعراس. كانت عتيقة جداً حتى لقد بدأ لونها يَنْصُل .

وقلت :

– « أطلّ أنت من هذه النافذة ، يا لويجي . ولسوف أذهب أنا وأطل من النافذة الاخرى . »

كان كل منا قد شرع يحتسي الخمر من احدى الزجاجتين.فأخذت زجاجتي معي ، ومضيت فاستلقيت على التبن وأطللت من النافذة الضيقة على الريف

الندي. ولست أدري ما الذي توقعتُ أن أراه، ولكني لم أرَ غير الحقول، وشجرات التوت الجرداء، والمطر المنهمر. وشربت الخمر، ولكنها لم توقع في نفسي اثراً ما. كانوا قد احتفظوا بها منذ عهد طويل، وكانت قد أمست اشلاء وفقدت جودتها ولونها. وراقبت الظلمة وهي تخيم في الخارج، لقد هبطت في سرعة بالغة. وكان خليقاً بتلك الليلة أن تكون مظلمة جداً بسبب المطر. حتى إذا هيمنت الدجنة لم تبقَ فائدة تُرتجى من المراقبة. فمضيت نحو بياني. كان نائماً. ولم أوقظه، بل قعدت إلى جانبه فترة من الزمن. كان رجلا ضخم الجسم، ولقد نام نوماً عميقاً. وبعد برهة يسيرة ايقظته، وانطلقنا.

كانت تلك ليلة غريبة جداً. أنا لا أدري أي شيء توقعتُه، ولعلي توقعت الموت أو اطلاق النار في الظلام ثم الفرار. ولكن شيئاً لم يحدث. وانتظرنا، منطرحين على طولنا وراء الخندق المحاذي للطريق الرئيسية ريثما مرّ فوجٌ ألماني. حتى اذا توارى الفوج عن الانظار، عبرنا الطريق واتجهنا نحو الشمال. ومرتين متواليتين، تحت المطر، وجدنا أنفسنا على مقربة دانية من بعض الجنود الالمان، ولكنهم لم يرونا. واجتزنا المدينة في اتجاه الشمال من غير أن نرى أيّ جندي ايطالي، وبعد فترة يسيرة انتهينا الى خطوط التراجع الرئيسية، وسلخنا الليل بطوله ونحن نمشي نحو تاغليامانتو. والحق اني لم أكن قد أدركت من قبل مبلغ ضخامة التراجع. كانت البلاد كلها تولي الادبار، لا الجيش وحده. ومشينا طوال الليل، مسرعين أكثر من العربات. وآلمتني رجلاي وكنت مرهقاً، ومع ذلك تقدمنا في خطىً ثابتة. لقد كان بونيلو على حماقة بالغة عندما قرّر الاستسلام للعدو. فلم يكن ثمة أيّ خطر. كنا قد شققنا طريقنا عبر جيشين اثنين من غير ان يصيبنا حادث ما. ولو أن إيمو لم يُقتل، اذن لما شعرنا بأن ثمة أيّ خطر. إن أحداً لم يتعرض لنا عندما سرنا على نحو مكشوف في محاذاة الخط الحديدي. لقد حدث القتل فُجاءةً ولغير ما سبب. وتساءلت أين كان بونيلو.

وسألني بياني:

— « كيف أنت الآن ايها الملازم ؟ »

كنا نتقدم في جانب من طريق ازدحمت بالعربات والجنود .

— « ممتاز . »

— « حسن . كل ما علينا ان نفعله الآن هو المشي .لا داعي بعدُ للقلق .»

— « لقد كان بونيلو معتوهاً . »

— « كان معتوهاً الى أبعد الحدود . »

— « ما الذي ستفعله في شأنه ايها الملازم ؟ »

— « لست أدري . »

— « ألا تستطيع أن تقول بكل بساطة ، إن العدو قد أسره ؟ »

— « لست أدري . »

— « لأنه اذا استمرت الحرب انزلوا بعائلته اذى كبيراً . »

فقال احد الجند :

— « الحرب لن تستمر . نحن عائدون الى بيوتنا . لقد انتهت الحرب . »

— « الناس جميعاً عائدون الى بيوتهم . »

— « نحن كلنا عائدون الى بيوتنا . »

وقال بياني :

— « هيا أيها الملازم . »

كان يريد ان يتخطّاهم .

— « ملازم ؟ من يحمل رتبة ملازم ؟ A basso gli ufficiali (فليسقط الضباط) . »

وجذبني بياني من ذراعي وقال :

— « من الخير أن أناديك باسمك . إنهم قد يحاولون ايذاءك . لقد أطلقوا النار على بعض الضباط . »

وأسرعنا فتخطّيناهم .

وتابعت الحديث فقلت :

— « أنا لن أضع تقريراً يؤدي الى انزال الاذى بعائلته . »

فقال بياني :

— « اذا انتهت الحرب فلن يكون لذلك اىما أثر. ولكني لا أعتقد أنها انتهت. إن انتهاءها شيء صالح أكثر مما ينبغي . »

فقلت :

— « سوف نتحقق من ذلك قريباً جداً . »

— « لست أعتقد أنها انتهت . إنهم كلهم يعتقدون انها انتهت ولكني لا أصدق ذلك . »

وهتف أحد الجند :

— « Viva la Pace (فليحي السلم) . نحن عائدون الى بيوتنا ! »

فقال بياني :

— « إنه لرائع جداً أن نرجع كلنا الى بيوتنا. ألا تحب أن ترجع الى بيتك؟ »

— « بلى . »

— « إننا لن نرجع أبداً . أنا لا أعتقد انها انتهت . »

وهتف جندي :

— « Andiamo a casa (نحن ذاهبون الى بيوتنا) »

وقال بياني :

— « إنهم يطرحون بنادقهم. انهم ينزعونها عن أكتافهم ويطرحونها أرضاً فيما هم يسيرون ، وبعد ذلك يهتفون . »

— « يجب أن يحتفظوا ببنادقهم . »

— « هم يعتقدون انهم اذا طرحوا بنادقهم فلن تستطيع السلطة حملهم على القتال . »

وفي الظلمة والمطر ، وفيما نحن نتخذ سبيلنا في جانب الطريق ، استطعت أن أرى أن قوات كثيرة لا تزال تحتفظ ببنادقها . لقد رأيناها منتصبة فوق معاطفهم.

وصاح أحد الضباط :

— « من أي لواء أنت ؟ »

فأجابه أحدهم :

— « Brigata di Pace (لواء السلم !) »

ولم يقل الضابط شيئاً .

— « ماذا يقول ؟ ماذا يقول الضابط ؟ »

— « فليسقط الضابط . Viva la Pace! (فليحي السلم !) »

فقال بياني :

— « هيا ! »

وتخطّينا سيارتي اسعاف بريطانيتين مهجورتين بين جمهرة من العربات .

وقال بياني :

— « إنهم من غوريتزيا . أنا أعرف السيارتين . »

— « لقد اجتازتا مسافةً أبعد من تلك التي اجتزناها . »

— « ولكن أين سائقاها ! »

— « أغلب الظن أنهما يتخذان سبيلهما أمامنا . »

فقلت :

— « لقد توقف الزحف الالماني خارج يودين . وهؤلاء الناس سوف يوفقون كلهم الى عبور النهر . »

فقال بياني :

— « أجل . وهذا ما يجعلني أعتقد ان الحرب سوف تستمر . »

فقلت :

— « كان في استطاعة الالمان ان يتقدموا . اني لأتعجب لماذا لم يتقدّموا . »

— « لست أدري . أنا لا أعرف شيئاً عن هذا الضرب من الحرب . »

— « أظن انهم مضطرون الى انتظار وسائط النقل . »

فقال بياني :

— « لست أدري . »

كان كثير اللطف بطبعه . ولكنه ما ان يتحدث مع أحد حتى يغدو جافياً .

- « هل أنت متزوج يا لويجي ؟ »
- « أنت تعلم اني متزوج »
- « أهذا هو السبب الذي من أجله لم ترد أن تقع في الامر ؟ »
- « هذا احد الاسباب . هل أنت متزوج . ايها الملازم ؟ »
- « لا . »
- « وبونيلو غير متزوج ايضاً . »

فقلت :

- « ان كون المرء متزوجاً لا يدل على شيء . ولكني أميل الى الاعتقاد أن الرجل المتزوج يرغب دائماً في العودة الى زوجته . »

لقد كنت أجد متعة في التحدث عن الزوجات .

فقال بياني :

- « هذا صحيح . »
- « كيف قدماك ؟ »
- « إنهما تؤلمانني ألماً شديداً . »

وقبل ان يرتفع الضحى بلغنا ضفة الـ « تاغليامانتو »،وهبطنا في محاذاة النهر الفائض الى الجسر حيث كانت حركة المواصلات على أشدّها .

وقال بياني :

- «يتعيّن عليهم ان يكونوا قادرين على الصمود وراء هذا النهر . »

وفي الظلام بدت مياه النهر عالية جداً . لقد دوّمت المياه ، وانبسطتْ الى مدى بعيد . كان الجسر الخشبي على مبعدة ثلاثة ارباع الميل تقريباً ، وكان النهر - الذي كان يجري عادة في مجارٍ ضيقة في الحوض المفروش بالحصى تحت الجسر بكثير - يكاد يمسّ خشب الجسر . وتابعنا سبيلنا على الضفة، ثم انضممنا الى الحشود التي كانت تعبر الجسر . وتقدمتُ في بطء ، تحت المطر ، على بضعة اقدام من الماء ، وقد شعرت بالازدحام يعصرني عصراً . وفجأة وجدت نفسي أمام صندوق ذخيرة من صناديق المدفعية . وأطللت من جانب الجسر ،

وراقبت النهر . والآن وقد أصبحنا عاجزين عن السير بسرعتنا الطبيعية استشعرت أني تعب جداً . لم يكن ثمة ابتهاج ما في عبور الجسر . ولقد تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يحدث لو أن طائرة قصفته بقنابلها في وضح النهار .

وناديت :

— « بياني . »

فقال :

— « ها أنا ذا أيها الملازم . »

كان يتقدمني بعض الشيء ، وسط الزحام . ان أحداً لم يكن يتكلم . وكان القوم كلهم يحاولون ان يعبروا الجسر بأسرع ما يستطيعون . تلك كانت هي الفكرة الوحيدة المسيطرة عليهم . وكنا قد وصلنا الى الضفة الأخرى تقريباً . وفي الطرف الأقصى من الجسر كان عدد من الضباط والكارابينيري واقفين على الجانبين وفي ايديهم أضواء كشافة . لقد رأيت ظلالهم الداكنة مرتسمة على صفحة السماء . وفيما نحن نقترب منهم رأيت أحد الضباط يشير الى رجل من الحشد المصطف هناك . فاندفع أحد الجنود الكارابينيريين نحوه ، ثم عاد ممسكاً به من ذراعه . لقد أزاحه من الطريق . وكنا قد أصبحنا أمامهما وجهاً لوجه ، تقريباً. كان الضباط يتفرسون في وجه كل فرد من أفراد القافلة ، وكانوا يتبادلون بعض الكلمات أحياناً ، ويتقدمون الى أمام لكي يشعلوا ضوءاً كشافاً في وجه شخص ما . وكانوا قد أخرجوا رجلاً آخر قبل أن نبلغ تلك النقطة مباشرة . ورأيت الرجل . كان ضابطاً برتبة عقيد ، لقد رأيت النجوم تلتمع على كمه عندما صوبوا اليه الضوء الكشاف . كان أشيب الشعر ، وكان قصيراً وبديناً . وجذبه الكاربينيري الى ما وراء خط الضباط . وفيما نحن نمر ، لمحت واحداً أو اثنين منهم ينظران الي . ثم إن أحدهم أشار الي وراح يتحدث الى جندي من الكارابينيري. ورأيت الكارابينيري يتقدم نحوي . لقد شق لنفسه طريقاً وسط الحشد ، ثم أمسك بي من طوق قميصي .

وقلت :

— « ماذا دهاك ؟ »

ولطمته على وجهه . لقد رأيت وجهه تحت القبعة ، ورأيت شاربيه المعقوفين والدم يسيل من خده . واندفع جندي آخر نحوي .

وقلت :

— « ماذا دهاك ؟ »

ولم يجب . كان ينتظر الفرصة للقبض عليّ . ووضعت يدي خلف ظهري لكي أخرج غدارتي .

— « ألا تعلم أنه ليس في ميسورك أن تمسّ ضابطاً ؟ »

وأمسك بي الجندي الآخر من خلاف ، وجذب ذراعي الى أعلى جذباً عنيفاً حتى لقد التوَت في مفصلها . واستدرت معه ، وأخذ الجندي الآخر بخناقي. ورفستُه على قصبَتَي ساقيه ، وضربته على أرْبيّة وركه بأحدى ركبتي .

وسمعت أحدهم يقول :

— « أطلقوا النار عليه اذا قاوم . »

وحاولت أن أصيح :

— « ما معنى هذا كله ؟ »

ولكن صوتي لم يكن عالياً جداً . ووجدت نفسي الآن على حافة الطريق .

وقال ضابط :

— « أطلقوا النار عليه اذا قاوم . أبعدوه الى الوراء . »

— « مَنْ أنت ؟ »

— « سوف تعرف . »

— « مَنْ أنت ؟ »

فقال ضابط آخر :

— « بوليس الجيش . »

— « لماذا لا تسألونني التقدم نحوكم بدلاً من تكليف واحد من هذه « الطائرات » بأيقافي ؟ »

ولم يجيبوا . إنهم لم يكونوا ملزمين بالاجابة . لقد كانوا ينتسبون الى شرطة الجيش . »

وقال الضابط الأول :

— « أرجعوه الى الوراء مع الآخرين.إنه يتكلم الايطالية برطانة، كما ترى.»

فقلت :

— « وكذلك أنت ، أيها الـ ..... »

فكرر الضابط الأول :

— « أرجعوه الى الوراء مع الآخرين . »

وقادوني الى ما وراء صف الضباط تحت الطريق ، نحو جمع من الناس احتشدوا في حقل محاذٍ لضفة النهر . وفيما نحن نتقدم نحوهم سمعنا طلقات نار. لقد رأيت وميض الغدارات وسمعت دويّ رصاصها . وأخيراً بلغنا الحشد . كان ثمة أربعة ضباط واقفين معاً وأمامهم رجل يقف الى كل جانب من جانبيه جندي من الكارابينيري . وكان جمع من الناس واقفين يحرسهم عدد من الكارابينيري . ووقف قرب الضباط المستجوبين أربعة من جنود الكارابينيري ايضاً ، منحنين على غداراتهم . كانوا يعتمرون بقبعات عراض.ودفعني الجنديان الممسكان بي الى الحشد الواقف في انتظار الاستجواب . ونظرت الى الرجل الذي كان الضباط يستجوبونه . كان هو العقيد البدين القصير الأشيب الذي انتزعوه من قافلة الهاربين . كان المستجوبون يتمتعون بكامل الفعالية ، والبرود، ورباطة الجأش التي يتمتع بها الايطاليون المطلقون النار من غير أن يطلق النار عليهم أحد .

— « من أي فوج أنت ؟ »

فأجابهم .

— « من أي فرقة ؟ »

وأجابهم .

— « ما الذي جعلك تنفصل عن فرقتك ؟ »

وأجابهم .

– « هل تعلم ان على الضابط أن يكون الى جانب رجاله ؟ »

فقال إنه يعلم .

وكان ذلك كل شيء . وتكلم ضابط آخر :

– « انك أنت وأمثالك الذين سمحتم للبرابرة بتدنيس ثرى الوطن المقدس. »

فقال العقيد :

– « أرجوك ...»

– « ان خيانتك وخيانة أمثالك هي التي جعلتنا نخسر ثمرات النصر . »

فسأله العقيد :

– « هل قدّر لك أن قمت بعملية تراجع ؟ »

– « ينبغي لايطاليا ان لا تتراجع أبداً . »

لقد وقفنا هناك تحت المطر واستمعنا الى هذا . كنا نواجه الضباط ، وكان الاسير يقف تجاههم ، بعيداً عنا بعض الشيء .

وقال العقيد :

– « اذا كنتم تعتزمون قتلي رميا بالرصاص فأرجو أن تفعلوا ذلك من غير ما استجواب اضافي . ان الاستجواب أحمق . »

ورسم اشارة الصليب . وتشاور الضباط . وكتب أحدهم شيئاً على رزمة من الورق .

وقال :

– « فارقَ جنوده : حُكم بالموت رمياً بالرصاص . »

وقاد جنديان من الكارابينيري العقيد الى ضفة النهر . لقد مشى تحت المطر ، عجوزاً حاسر الرأس ، يحيط به جنديّ كارابينيري عن يمينه وآخر عن يساره. ولم أشهدهما يعدمانه رمياً بالرصاص ولكني سمعت الطلقات النارية . كان الضباط يستجوبون أسيراً آخر . وكان هذا أيضاً ضابطاً فارقَ جنوده ، إنهم لم يسمحوا له بأعطاء أيّ تفسير لذلك . ولقد انتحب عندما تلي الحكم الصادر بحقه كما هو

مدوّن على رزمة الورق . وكانوا يستجوبون رجلاً آخر عندما أعدموه رمياً بالرصاص . كانوا يحرصون على الانهماك في استجواب الرجل الآخر فيما تسدد النار الى صدر المستجوب السابق . وبهذه الطريقة يحسمون الأمر ولا يدعون أيما مجال للتردد . ولم أدر ما الذي ينبغي أن أفعله : أأنتظر حتى أستجوب أم أركن الى الفرار في الحال؟ لقد كنت في نظرهم من غير ريب المانياً في بزة عسكرية ايطالية . لقد قرأت ما كان يجول في عقولهم ؛ اذا كان عندهم عقول يجول فيها شيء . لقد كانوا شباناً في ميعة العمر ، وكانوا ينقذون بلادهم . وكان الجيش الثاني يعاد تشكيله وراء الـ « تاغليامانتو »، وكانوا ينفذون حكم الموت بالضباط من رتبة عقيد فما فوق لمفارقتهم جنودهم . وكانوا يحاكمون في سرعة بالغة أيضاً جميع المهيّجين الالمان المرتدين بزات عسكرية ايطالية . كانوا يعتمرون خوذاً فولاذية . وكان اثنان منا فقط يعتمرون مثل تلك الخوذ . وكان بعض الجنود الكارابينيري يعتمرون مثلها أيضاً . أما الكارابينيري الآخرون فكانوا يعتمرون قبعات عراضاً . وكنا ندعوهم « الطائرات » . لقد وقفنا تحت المطر ، وكانوا يستدعوننا واحداً اثر واحد لكي نُستجوب ثم نُقتل رمياً بالرصاص . وكان المستجوبون يتمتعون بذلك التعلق الجميل بالعدالة الصارمة وبذلك التعبد لها اللذين يتمتع بهما رجال يوزّعون الموت من غير أن يتعرّضوا هم لأيما خطر من أخطاره. كانوا يستجوبون زعيماً (كولونيل) من جند المشاة . وكان ثلاثة ضباط آخرين قد أضيفوا الينا في تلك اللحظة .

— « أين كان فوجه ؟ »

ونظرتُ الى الكارابينيري . كانوا ينظرون الى الوافدين الجدد. وكان الآخرون ينظرون الى الزعيم (الكولونيل). فانحنيت نحو الأرض ، وشققت طريقي بين اثنين من الرجال وعدوت الى النهر ، منكّس الرأس . واندفعت في محاذاة الضفة ثم غطست في النهر مثيراً رشاشاً صارخاً . كانت المياه باردة جداً ، ولقد بقيت تحتها أطول ما استطعت أن أبقى . كان في ميسوري أن أستشعر التيّار يعصف بي ، وبقيت تحت الماء حتى خيّل إلي اني لن أرتفع فوقه بعد أبداً . ولم أكد

أرتفع فوق الماء حتى أخذت نفساً وعاودت الغوص من جديد . كان من اليسير عليّ أن أبقى تحت الماء ما دمت ألبس كل هذه الملابس وأنتعل حذائي العسكري الطويل الساق.وحين ارتفعت كرة ثانية فوق الماء رأيت أمامي قطعة من خشب فبسطت يدي نحوها ، وتعلّقت بها بيد واحدة . وأبقيت رأسي خلف الخشبة ، ولم أحاول قط أن أنظر من فوقها . أنا لم أكن راغباً في رؤية الضفة . كان ثمة طلقات نارية عندما فررتُ وطلقات نارية عندما انبثقتُ من تحت الماء أوّل مرة. لقد سمعتها حين أصبحت فوق سطح الماء تقريباً ، ولم يكن هناك طلقات نارية الآن . ودوّمت قطعة الخشب وسط التيار ، وأمسكت بها بيد واحدة . ونظرت الى الضفة . لقد تراءت وكأنها تعلو في سرعة بالغة . وكان في التيار كثير من الخشب . وكان الماء بارداً جداً . واجتزنا نباتات خفيضة أطلعت رؤوسها فوق الماء في احدى الجزر . وتمسكت بقطعة الخشب بيدي الاثنتين . وأجزت لها أن تسوقني سوقاً . كان الشاطيء قد غاب الآن ، عن البصر .

الفصل الحادي والثلاثون

انك لا تدري كم قضيتَ في مياه النهر عندما يندفع التيار في سرعة بالغة . إنه يبدو لك وقتاً طويلاً ، وقد يكون قصيراً جداً. كان الماء بارداً ومرتفعاً جداً، وكان قد حمل من الضفتين عند ارتفاع النهر أشياء كثيرة تطفو على سطحه . وكنت محظوظاً بعثوري على قطعة خشب ضخمة اتعلق بها ، فكنت أغوص في الماء المثلوج ، وذقني مُسندة الى الخشبة ، ممسكاً بها ، أيسرَ ما استطعت أن أمسك بيديّ الاثنتين . وخشيت آلام المغص وتمنيت لو أمضي نحو الشاطيء . وهبطنا النهر في منعطف طويل . كانت الشمس قد أرسلت طلائع أشعتها، وبذلك أصبح في ميسوري أن أرى القصب الملتف على طول الشاطيء . كان ثمة أمامنا جزيرة مخضوضرة الاعشاب . وكان التيار يندفع نحو الشاطيء . وتساءلت هل يتعيّن عليّ أن أخلع حذائي وملابسي وأحاول السباحة حتى الشاطيء أم لا ، ولكنني صممت آخر الامر على الاحجام عن ذلك . ولم تكن تسيطر عليّ غير فكرة واحدة هي أن أبلغ الشاطيء بطريقة أو بأخرى ، واني سوف أكون في وضع سيء اذا وطئت البر حافي القدمين . كان عليّ أن أصل الى ميسّر بأية طريقة .

وراقبتُ الشاطيء يقترب مني ، ثم يبتعد ، ثم يقترب كرة أخرى . كنّا نطفو في بطء شديد . وكان الشاطيء قريباً جداً الآن . كان في ميسوري أن أرى الأغصان على أجمة الصفصاف . وتذبذبت قطعة الخشب في تؤدة حتى لقد

أصبح الشاطيء خلفي، وادركت أننا كنا في دوّامة . واستدرنا في بطء. وحين رأيت الضفة كرة أخرى ، وكانت قد أمست على مقربة دانية جداً ، حاولت التمسك بيد واحدة ودفع الخشبة الى الضفة الاخرى ، مستعيناً على ذلك برجليّ وبيدي الثانية، ولكن جهودي ذهبت ادراج الرياح . كنت أخشى الخروج من الدوامة . ورفعت قدميّ ، وأنا متعلق بيدٍ واحدة ، حتى حاذتا جانبَ الخشبة ودفَعتُها في عنف نحو الضفة . كان في ميسوري أن أرى القصب والنباتات . ولكن التيار كان يُقصيني على الرغم من زخمي وسباحتي بأقصى سرعة قدِرْتُ عليها . وحسبتُ آنذاك اني سوف أغرق بسبب من حذائي الطويل الساق ، ولكني اندفعت ضدّ التيار وشققت طريقي عبر الماء،وحين رفعت بصري كانت الضفة تتقدم نحوي ، فواصلت الاندفاع ضد التيار والسباحة في ذعر ثقيل القدمين حتى بلغتُها . وتعلقتُ بغصن الصفصاف ، ولم تكن لي بقية من قوة تمكنني من أن أرفع نفسي ،ولكني عرفت اني لن أغرق بعد الآن . والواقع أنه لم يخطر لي قط ، وأنا متشبث بالخشبة،أني قد أغرق . لقد شعرت بالجوع وبألم في المعدة والصدر نتيجة الجهد الذي بذلتُ ، وتعلّقت بالأغصان وانتظرت . وحين فارقني انحراف المزاج تقدمتُ عبر دغل الصفصاف ، واسترحت من جديد ، وذراعاي تطوّقان بعض النباتات الصغيرة ، ويداي متشبثتان بالاغصان . ثم اني زحفت على بطني عبر الصفصاف حتى بلغت الضفة. كان ظلام نصفيّ يخيم على الكون ، ولم تقع عيناي على أحد . وانطرحت متمدداً على الضفة ، وسمعتُ خرير النهر وانهمار المطر .

وبعد لحظات ، نهضتُ ورحت أمشي على طول الشاطئ . وكنت أعرف انه لم يكن ثمة جسر عبر النهر حتى لاتيسانا . وخيّل إليّ اني أواجه الآن سان فيتو . وبدأت اقلّب الرأي متسائلاً ما الذي ينبغي أن أفعله . لقد كان أمامي خندق يمتد عبر النهر . فتقدمت نحوه . لم أكن قد رأيت حتى تلك اللحظة شخصاً ما ، وقعدت على مقربة من بعض النباتات عند حافة الخندق،وخلعت نعليّ وأفرغتها من الماء . ثم اني نزعت سترتي،وأخرجت محفظتي فاذا بأوراقي

ونقودي كلها مبللة . وعصرت سترتي . ونزعت بنطلوني ، وعصرته أيضاً ، ثم اني فعلت الشيء نفسه بقميصي وثيابي التحتية. وبعد أن صفعْتُ نفسي عدة مرات وفركت جسدي ارتديت ملابسي من جديد. كنت قد أضعت قبعتي .

وقبل أن أرتدي سترتي نزعت النجوم القماشية عن ردنيّ ، ووضعتها في جيبي الداخلية مع نقودي . كانت أوراقي المالية مبللة ولكنها كانت سليمة . وعَدَدْتها ، فاذا هي ثلاثة آلاف لير ونيف . واستشعرتُ ملابسي رطبةً ولزجة . وربّتّ على ذراعيّ في عنف رغبةً مني في الابقاء على الدورة الدموية . كانت ثيابي التحتية صوفية،وكنت أدرك اني لن أصاب بالزكام إذا واصلتُ الحركة . كانوا قد استولوا على غدارتي في الطريق ، ووضعت حافظة الغدارة الجلدية تحت سترتي . لم يكن لديّ معطف ، وكان الجوّ الممطر بارداً . ورحت أصعّد في ضفة القناة . كانت الشمس قد أشرقت . وكانت أرض الريف نديّة ، خفيضة ، كئيبة . وكانت الحقول جرداء ، نديّة . وعند الافق البعيد، كان في ميسوري أن أرى برج أجراس مرتفعاً فوق السهل. ووصلت إلى طريق ما . وتجاهي ، رأيت بعض القوات العسكرية تهبط الطريق . وطلعتُ على جانب الطريق ، فتجاوزتني تلك القوات من غير أن تلقي اليّ بالاً . كانت فصيلة من جنود المدفعية تصعّد متجهة نحو النهر . وتابعت سيري هابطاً الطريق .

في ذلك اليوم عبرتُ السهل البندقي (الفينيسي) . انها منطقة خفيضة ، ولقد بدت تحت المطر أشد تسطّحاً أيضاً . وكانت ثمة في جانب البحر ، مستنقعات ملحية ، وعدد قليل جداً من الطرق . كانت جميع الطرق تحاذي مصبّ النهر حتى البحر. ولكي تعبر الريف كان عليك ان تسلك المجازات على على طول القنوات . وإنما كنت اجتاز المنطقة من الشمال الى الجنوب ، وكنت قد عبرْت خطين من خطوط السكة الحديدية وكثيراً من الطرق ، وأخيراً وصلت عند نهاية إحدى الطرق ، الى خط حديدي يمتد ، في تلك البقعة ، بمحاذاة أحد المستنقعات. كان هو الخط الحديدي الرئيسي الممتد من البندقية الى تريستا،

وكان ذا رصيف عالٍ صلب ، وسطح صلب ،واتجاه مزدوج . وعلى مسافة ما ، كانت رايةٌ تشير الى ان ثمة محطة ، وكان في ميسوري أن أرى بعض الحرس . وفي الناحية الأخرى كان جسرٌ يمتد فوق جدول يصب في المستنقع . وكان في ميسوري ان أرى على الجسر حرساً أيضاً : وفي خلال اجتيازي الحقولَ ، إلى الشمال ، كنت قد رأيت قطاراً يمر فوق هذا الخط الحديدي ، على نحو مرئيّ من بعيد عبر السهل المسطح ، وخيّل إليّ ان ذلك القطار ربما كان قادماً من بورتوغروورو . وراقبتُ الحرس ، وانطرحت على رصيف السكة الحديدية بحيث كان في استطاعتي أن أرى الطريق من كلا الجانبين. وتقدّم حرس الجسر مصعّداً نحو المكان الذي انطرحت فيه، ثم استدار وانقلب متجهاً نحو الجسر . وظللت مستلقياً في مكاني ، وكنت جائعاً ، وانتظرت القطار . وكان القطار الذي رأيته من الطول بحيث لم تستطع القاطرة ان تجرّه إلا في بطء شديد ، وكنت واثقاً من انني قادرٌ على التعلق به . وبعد أن كدت أيأس من الفوز بقطار ، رأيت قطاراً مقبلاً . وكانت القاطرة ، وهي تندفع إلى أمام ، تكبُرُ شيئاً بعد شيء. ونظرتُ إلى حارس الجسر. كان يمشي على الجانب الأقرب من الجسر ، ولكن على الجانب الآخر من خط السكة الحديدية . وكان ذلك خليقاً بأن يجعله لا يراني عند مرور القطار . وراقبت القاطرة وهي تقترب . كانت تسير متثاقلة مرهقة . وكان في ميسوري أن ارى انها تقطر عدداً كبيراً من الحافلات . وكنت أعلم أن على متن القطار حرساً ، وحاولت أن أرى أين كانوا ، ولكني وقد اضطررت إلى البقاء بعيداً عن الأنظار لم أستطع أن ألمح احداً منهم . وانتهت القاطرة إلى حيث كنت منطرحاً ، تقريباً . وحين أمست في محاذاتي ، لاهثة مبهورةً حتى في السهل ، ورأيت الميكانيكي قد تخطّاني انتصبت واقفاً ووثبت إلى مقربة دانية من الحافلات المنطلقة. إن وقوفي أمام الخط الحديدي أقل إثارة لشكوك الحرس ، إذا كان الحرس يراقبون الخط . ومرّت عدة شاحنات مقفلة. ثم رأيت عربة خفيضة مفتوحة من النوع الذي يدعوه الايطاليون « غندولاً » : كانت مغطّاة بالخَيْش . وانتظرت حتى تخطتني أو كادت، ثم وثبتُ وتعلقت

بقضبان التسلق الخلفية . فاذا بي على متن القطار . ودبَبْتُ بين « الغندول » وبين إفريز الشاحنة العالية المقطورة بها . وكنت على مثل اليقين من أن أحداً لم يرني . كنت ازحف متعلقاً بقضبان التسلق ، ورجلاي على مِصدّ * الشاحنة. وكنا قد بلغنا الجسر تقريباً.وتذكرتُ الحرس.وحين تخطّيناه، نظر اليّ . كان شاباً صغيراً ، وكانت خوذته أكبر من أن تلائمه. وحدّقتُ اليه في ازدراء، فأشاح ببصره عني . لقد حسب اني واحد من رجال السكة الحديدية .

وابتعد بي القطار عنه.ورأيت علائم الانزعاج بادية عليه ما تزال،فهو يراقب الشاحنات الأخرى أثناء مرورها .وانحنيت لأرى كيف كان الغطاء الخيشيّ مشدوداً إلى الشاحنة . كانت ثمة عرىً معدنية، وكان موثقاً عند الحافة بحبل. وأخرجت مديتي ، وقطعت الحبل ، ومددتُ يدي متحسساً . كانت ثمة أشياء قاسية ناتئة تحت الغطاء الخشبيّ الذي توتّر من جراء المطر.ونظرت إلى أعلى وإلى أمام . كان في الشاحنة التي تجاهي حرس،ولكنه كان ينظر إلى أمام . وأفلتّ قضبان التسلق، وغُصْتُ تحت الخيش.وارتطم جبيني بشيء ما . وكانت الصدمة عنيفة، واستشعرت الدم يجري على وجهي،ولكني دبَبْت وبقيتُ منطرحاً على طولي . ثم إني استدرت وأوثقت الغطاء الخيشيّ .

كنت الآن تحت الغطاء الخيشيّ ، بين المدافع . كانت تفوح منها رائحة زيت وشحم سائغة . ولقد استلقيت هناك وأصخْتُ إلى المطر يتساقط على الغطاء الخيشيّ ، وإلى صوت انسياب العربة على الخط الحديدي .وتسرّب إليّ ضوء ضئيل . ورحت أنظر إلى المدافع . كانت قد أُلبِسَتْ سترانها الخيشية . وخيّل إليّ انها لا بدّ مُرْسَلَة من الجيش الثالث. وكان جبيني قد تورّم من أثر الصدمة ، ولقد أوقفت النزف بالتزام السكينة وعدم الحركة وبتَرْك الدم يتخثّر ، ثم نزعت الدم المتجمّد إلا عن الجرح نفسه.لم يكن الجرح شيئاً ذا بال . ولم يكن لديّ منديل، ولكني كنت اتحسّسه بأصابعي وأغسل مواضع الدم

* استعملنا هذه اللفظة مقابل ما يدعوه العامة « تابونيه » tampon وهو الحاجز الحديدي الذي يخفف من وقع الاصطدام على السيارة او الحافلة الحديدية .

الجاف بماء المطر المتساقط من الغطاء الخيشيّ ، وانظفها برُدْن سترتي. كنت حريصاً على ان لا أبدو مُريباً . وكنت أعلم ان عليّ ان اترجل من القطار قبل وصوله إلى ميستر، لأنهم سوف ينصرفون عندئذ إلى الاهتمام بأمر المدافع. فلم يكن لديهم مدافع يستطيعون أن يفقدوها أو ينسوها . كنت جائعاً إلى حد مروّع .

الفصل الثاني والثلاثون

وإذ استلقيت على ارض الشاحنة ، والمدافع إلى جانبي تحت الغطاء الخيشيّ ، فقد أصابني البلل ، والبرد ، واستشعرت اني أكاد أموت من الجوع . وأخيراً انفتلت على نفسي وتمددت على معدتي واضعاً رأسي على ذراعيّ. كانت ركبتي متصلبة،ولكنها كانت في حالٍ مُرْضية جداً. كان الدكتور فالانتيني قد أجرى لها جراحة موفقة.وكنتُ قد قمت بنصف عملية الانسحاب مشياً على قدميّ ، وسبحتُ بركبته جزءاً من الـ « غاليامنتو » . كانت هي رُكبته من غير ريب.أما الركبة الأخرى فكانت ركبتي أنا.إن الاطباء يصنعون لك اشياء وعندئذ لا يعود جسدك ملْكاً خالصاً لك . كان الرأس رأسي ، وكذلك كانت احشائي . وكنت استشعر هناك جوعاً شديداً . ولقد كان في ميسوري اناحسّ بها تتقلب على نفسها.وكان الرأس رأسي ، ولكنْ لا لكي استعمله، ولا لكي أفكر به،بل لكي أتذكّر فحسب،ولكي أتذكّر من غير إسراف أيضاً ...

كان في استطاعتي ان أتذكر كاثرين ، ولكني كنت أعرف اني خليق بأن أجنّ إذا فكرتُ فيها وأنا لا أزال غير واثق من اني سأراها ؛ وهكذا ما كان ينبغي لي أن أفكر فيها ... إلاّ قليلاً ،وإلاّ فيها،في الشاحنة التي تجري في تؤدة ، والتي كانت عجلاتها تحدث ضجة خاصة في انطلاقها فوق الخط

الحديدي ، وقد تسرّبت بضع خيوط من الضياء عبر الغطاء الخيشي ، وفي استلقائي مع كاثرين على أرض الشاحنة. إن اضطرارك إلى الاستلقاء من غير تفكير ، مكتفياً بالشعور والاحساس ، أقسى من أرض الشاحنة ، وقد طال الفراق عليك أكثر مما ينبغي ، وتبللت ثيابك ، وأبتِ الارض التي تتمدد عليها إلا السير في بطء ، واستشعرتَ الوحشةَ فليس لك رفيق غير ثياب ندية وارض صلبة اتخذتَ منها زوجة .

إنك لم تحبّ أرض الشاحنة ، أو المدافع ذات السترات الخيشية ، أو رائحة المعدن المشحّم ، أو رائحة غطاء خيشي يرشح منه المطر ، على الرغم من أن الاقامة تحت الغطاء الخيشي وبين المدافع عذبة جداً . ولكنك احببت شخصاً آخر كنت تعرف الآن انه لا يمكن أن يكون هناك ، وقد أصبحتَ الآن ترى في وضوح كثير وفي برود – والوضوح والفراغ أغلب على تلك الرؤية من البرود : لقد رأيت على نحو فارغ لا طائل تحته ، وانت مستلقٍ على معدتك بعد أن شهدت جيشاً يتراجع وجيشاً يتقدم . لقد خسرتَ سيارتك ، ورجالك ، كما يفقد ملاحظ في مخزن من مخازن البيع بضائع فرعه بسبب من اندلاع النار فيها . بيد أنه لم يكن ثمة ، في حالتك أنت ، سند تأمين . لقد خسرت عملك الآن ، ولم تعد لديك مسؤولية ما . وإذا ما قتلوا رمياً بالرصاص ملاحظي مخزن كبير بعد أن شبت النيران فيه بسبب من انهم يتكلمون بالنبرة التي اعتادوا الكلام بها دائماً فعندها لا يكون من المتوقع أن يعود اولئك الملاحظون عندما تُفتتح المخازن التجارية من جديد. إن في امكانهم أن يبحثوا عن عمل آخر – إذا كان ثمة عملٌ آخر ، وإذا لم يلقِ رجال الشرطة القبض عليهم.

كان النهر قد ذهب بغضبي كما ذهب بجميع مسؤولياتي . على الرغم من أن ذلك الغضب كان قد زال عندما أخذ الجندي الكاربينيريّ بخناقي. وتمنيت لو أتخلى عن بذلتي العسكرية على الرغم من قلة مبالاتي بالمظاهر الخارجية . كنت قد نزعت النجوم عن سترتي ، ولكن ذلك كان بدافع من الفطنة وبعد النظر : إنه لم يكن امراً متعلقاً بالشرف . فلم يكن لديّ أي اعتراض عليها ، من حيث

المبدأ . ولكني كنت قد انتهيت . ولقد تمنيت لها حظـاً طيباً . فهناك الصالحون ، وهناك الشجعان ، وهناك الهادئون ، وهناك الأذكياء ،وكلهم يستحقونها . أما أنا فلم أعد واحداً من ممثلي المسرحية، ولم أكن أتمنى غير شيءواحد ، هو ان يصل هذا القطار اللعين إلى ميستر لكي أستطيع أن آ كل واكفّ عن التفكير : إن عليّ أن اتوقف .

إن بياني سوف يخبرهم أنهم قتلوني رمياً بالرصاص،حتى إذا فتشوا الجيوب وأخرجوا أوراق الاشخاص الذين قتلوهم ، لم يجدوا أوراقي . وعندئذ سوف يعتبرونني غريقاً . وتساءلت ما الذي سيقال لأهلي في الولايات المتحدة ؟ قضى متأثراً بجراحه وغير ذلك من الاسباب .لقد كنت جائعاً وحقّ يسوع الطيب . وتساءلت ما الذي حلّ بكاهن زمرتنا . وبرينالدي . لعله كـان في بوردينون . إذا لم يكونوا قد تراجعوا إلى أبعد من ذلك . وعلى أية حال ، فأني لن أراه بعد اليوم.لأنا لن أرى أياً منهم أبد الدهر . كانت حياتنا تلك قد انتهت. ولم أكن أعتقد أنه مصاب بالسفلس،ولم يكن السفلس داءً خطيراً على أية حال، إذا ما عالجتَه في الوقت المناسب ، كما يزعمون. ولكن ذلك كان يثير قلقَهُ. ولقد كان خليقاً بي أن أقلق لو أصِبْتُ أنا به أيضاً. إن كل امرئ خليق بأن يقلق :

أنا لم أخلق للتفكير : لقد خُلقت لالتهام الطعام. أي وربّي. خُلقت لكي آ كل وأشرب وأنام مع كاثرين . هذه الليلة ربما : لا ،لقد كان ذلك مستحيلاً ؛ ولكنْ غداً مساءً ، وان انعم بوجبة طعام دسمة،وغطاء سرير ،وان لا نمضي بعد اليوم إلا معاً .لعلنا مضطران إلى أن نمضي في أسرع وقت ممكن.إنها سوف تمضي معي : أنا أعلم أنها سوف تمضي : ولكن متى سنمضي ؟ لقد كان ذلك موضوعاً للتفكير . كان الليل يهبط : ولقد استلقيت على طولي وفكّرتُ إلى أين ينبغي أن نذهب : لقد كان ثمة مواطن كثيرة .

الكتاب الرابع

الفصل الثالث والثلاثون

وترجلت من القطار في ميلانو ، عندما تمهل في سبيله إلى المحطة . كان ذلك في ساعة مبكرة ، ولم تكن الشمس قد أشرقت . وعَبَرْتُ الخط الحديدي وانسلَلْتُ بين بنايتين ، وهبطت إلى الشارع . كان ثمة خمارة مفتوحة الابواب ، فدخلتها رغبةً في ارتشاف شيءمن القهوة . كان يسودالخمارة جوّ عابق بالصباح الباكر ، وبالغبار المكنوس، والملاعق المغموسة في فناجين القهوة ، والحلقات النديّة الـتي تركتْها كؤوس الخمر . كان صاحب الحانة واقفاً خلف المشْرَب . وكان جنديان يجلسان إلى احدى الطاولات . ووقفت عند المشرب واحتسيت فنجاناً من القهوة وأكلت قطعة من الخبز . كانت القهوة رمادية بالحليب ، فنزعت قشدة الحليب بقطعة من الخبز.ونظر صاحب الخمارة إليّ ، وقال :

— « هل تريد زجاجة من الغرابّا ؟ »

— « لا . شكراً . »

— « على حسابي . »

قال ذلك وملأ كأساً صغيرة ثم دفعها نحوي . وأضاف

— « ما الذي يجري في الجبهة ؟ »

— « لست أدري . »

فقال ، مشيراً إلى الجنديين :

ـ « إنهما ثملان . »

كان في وسعي أن أصدّقه . لقد بَدَوَا ثملَيْن .

وقال :

ـ « أخبرني ، ما الذي يجري في الجبهة ؟ »

ـ « لست أعرف شيئاً عن الجبهة . »

ـ « لقد رأيتك تهبط الجدار . لقد ترجلت من القطار . »

ـ « إن ثمة انسحاباً كبيراً . »

ـ « لقد قرأت الصحف . ما الذي يجري ؟ هل انتهى كل شيء ؟ »

ـ « لست أظن ذلك . »

وأترع الكأس بالغرابّا من زجاجة قصيرة . وقال :

ـ « إذا كنتَ في خطر فأن في استطاعتي أن اخبئك . »

ـ « أنا لا أستشعر أيّ خطر . »

ـ « إذا كنتَ في خطر فابْقَ هنا معي . »

ـ « أين ؟ »

ـ « في هذا البيت . إن كثيراً من الناس ينزلون هنا . إن جميع الذين يتهددهم الخطر ينزلون هنا . »

ـ « وهل ثمة كثيرٌ من الناس المهددين بالخطر ؟ »

ـ « يتوقف ذلك على نوع الخطر الذي تتحدث عنه . هل أنت من أبناء أميركا الجنوبية ؟ »

ـ « لا . »

ـ « هل تتكلم الاسبانية ؟ »

ـ « بعضَ الشيء . »

ومسح المشْرَب ، وقال :

ـ « من العسير على المرء ، الآن ، أن يغادر البلاد . ولكن ذلك ليس

مستحيلاً بأية حال . »

— « ليس لديّ رغبة في مغادرة البلاد . »

— « في استطاعتك أن تبقى هنا ما شئتَ . ولسوف ترى أي رَجُلٍ أنا . »

— « يتعيّن عليّ أن أذهب هذا الصباح ، ولكني سوف أتذكر عنوانك وأرجع اليك . »

وصافحته ، وقال :

— « حين يتكلم المرء هكذا فأنه لا يعود . لقد حسبتانك في خطر حقيقي . »

— « لست استشعر أيّ خطر . ولكني أقدر عنوان الصديق حق قدره . »

ووضعتُ على المشرب ورقة نقدية قيمتها عشرة لِيرات * ثمناً للقهوة .

فقال :

— « اشرب معي كأساً من الغرابّا . »

— « ليس ذلك ضرورياً . »

— « اشربْ كأساً . »

وأترع الكأسين . وقال :

— « تذكّرْ جيداً . إرجــعْ إلى هنا . لا تَدعْ أناساً آخرين يخدعونك عن نفسك . سوف تكون ههنا في مأمن . »

— « أنا واثق من ذلك . »

— « أنت واثق ؟ »

— « نعم . »

كانت أمارات الجدّ بادية عليه . وقال :

— « إذن دعني أقول لك شيئاً . لا تتجوّل وأنت لابس هذا المعطف . »

— « لماذا ؟ »

— « إن في استطاعة المرء أن يرى في كثير من الوضوح أثر النجوم المنزوعة عن رُدْنيْك . إن لون القماش أمسى متفاوتاً . »

* جمع لير .

ولم أنبس ببنت شفة .

— « إذا لم يكن عندك أوراق ففي استطاعتي أن أقدّم اليك أوراقاً . »

— « أية أوراق ؟ »

— « أوراق الأجازة . »

— « لست في حاجة إلى أوراق. إن لدي أوراقاً . »

وقال :

— « حسناً . ولكن إذا احتجتَ إلى أوراق ففي ميسوري أن أقدّم اليك ما تشاء . »

— « وما ثمن هذه الاوراق ؟ »

— « هذا يتوقف على ماهيّتها . إن الثمن معقول . »

— « لست في حاجة إلى أيٍّ منها الآن . »

وهزّ كتفيه .

وقلت :

— « أنا في خير . »

وحين غادرت الحانة قال :

— « لا تنسَ أني صديقك . »

— « لا ، لن أنسى . »

فقال :

— « سوف أراك مرةً ثانية . »

فقلت :

— « حسن . »

وفي الخارج اجتنَبْتُ المحطة ،حيث كان عددٌ من رجال البوليس الحربي ؛ حتى إذا بلغتُ حافةالحديقة العامة الصغيرة امتطيتمتن إحدى العربات ،وأعطيت السائق عنوان المستشفى . وحين وصلنا إلى هناك شخصت إلى كوخ البوّاب . وعانقتني زوجته . وصافحني هو :

— « لقد رجعتَ . أنت سالمٌ لَمْ تصب بأذى . »
— « نعم . »
— « هل تناولت طعام الصباح ؟ »
— « نعم . »
وسألتني زوجته :
— « كيف أنت أيها الملازم ؟ كيف أنت ؟ »
— « رائع . »
— « الا تودّ أن تتناول طعام الصباح معنا ؟ »
— « لا . أشكرك . أخبرني ، مسّ باركلي موجودة هنافي المستشفىالآن؟ »
— « مس باركلي ؟ »
— « الممرضة الانكليزية . »
فقالت الزوجة :
— « فتاتهُ . »
وربّتت على ذراعي وابتسمتْ .
فقال البواب :
— « لا . لقد رحلت . »
وغار قلبي . وقلت :
— « أنت واثق ؟ أنا أعني السيدة الشابة الانكليزية الطويلة الشقراء . »
— « أنا واثق . لقد ذهبَتْ إلى ستّريزا . »
— « متى ذهبتْ ؟ »
— « ذهبت منذ يومين مع السيدة الانكليزية الأخرى . »
فقلت :
— « حسن.أرجوك أن تقدّم إليّ خدمة. لا تُخبر أحداً أنك رأيتني، هذا هامّ جداً . »
فقال البواب :

ـ « لن أخبر أحداً . »

وأعطيته ورقة نقدية قيمتها عشرة لبرات . فردها وقال :

ـ « أعدك بأن لا أخبر أحداً . أنا لا احتاج إلى مال . »

فسألتني زوجته :

ـ « ما الذي نستطيع أن نخدمك به ، أيها السيد الملازم ؟ »

فقلت :

ـ « هذه الخدمة فقط . »

فقال البواب :

ـ « نحن أبكمان. ارجو أن تخبرني عن ايّ شيء أستطيع أن افعله من اجلك ».

فقلت :

ـ « لك ذلك. سوف أراك مرة أخرى . »

ووقفا لدى الباب ، وأتبعاني نظراتهما :

وامتطيتُ متن العربة ، وأعطيت السائق عنوان سيمونز ، وهو أحد الذين كنت أعرفهم ، وكان يدرس فن الغناء .

كان سيمونز يسكن في مكان ناءٍ من المدينة ، قرب « البورتا ماغانتا » .

وقال :

ـ « أنت تفيق باكرا إلى حد رهيب ، يا هنري . »

ـ « لقد أقبلتُ على متن القطار الأول . »

ـ « ما هذا الانسحاب كله ؟ هل كنت في الجبهة ؟ ما رأيك في سيكارة ؟ هي ذي السكاير في تلك العلبة على الطاولة . »

كانت حجرةً واسعة فيها سرير قائم في محاذاة الجدار ،وبيانو في الجانب الآخر منها ، ومزْينة * وطاولة . وجلست على كرسي مجاور للسرير . جلس سيمونز متكئاً على الوسائد وأنشأ يدخن .

وقلت :

---

* المزينة (dresser) قطر ذو مرآة للتزين .

– « أنا في ورطة ، يا سيمونز . »

فقال :

– « وأنا كذلك . أنا دائماً في ورطة . ألا تدخن ؟ »

فقلت :

– « لا . ما الاجراءات التي لا بدّ من اتخاذها للذهاب إلى سويسرا ؟ »

– « أنت تريد الذهاب إلى سويسرا ؟ إن الايطاليين لن يمكّنوك من مغادرة البلاد . »

– « أجل ، أعرف ذلك . ولكني اسأل عن السويسريين . أيّ موقف سكون موقفهم ؟ »

– « إنهم سوف يأسرونك . »

– « أدري . ولكنْ علامَ ينطوي ذلك الأسر ؟ »

– « إنه لا ينطوي على شيء . الأمر بسيط جداً . سوف يكون في ميسورك أن تذهب حيث شئت . وأعتقد أنهم لن يطلبوا اليك أكثر من اثبات الوجود بين الفينة والفينة أو شيئاً مثل ذلك . لماذا ؟ هل تحاول الفرار من وجه البوليس ؟ »

– « ليس هناك شيء محدّد حتى الآن . »

– « لا تقل لي إذا كنت غير راغب في ذلك. ومع هذا فلا ريب في أن من الممتع الاستماع لمثل هذا الحديث. إن شيئاً لا يَحدُثُ هنا. لقد أخفقتُ اخفاقاً فظيعاً في بيياسنتزا . »

– « أنا آسف أعظم الأسف لذلك . »

– « أوه ، أجل . لقد مُنيتُ بفشلٍ فاضح. ومع ذلك، فقد أجدت في الغناء. ولسوف أحاول مرة ثانية هنا في « الابريكو » .

– « أرجو أن أوفق إلى سماعك هناك . »

– « أنت لطيف إلى حد مروّع . ولكنك لست في مأزق حرج، أليس كذلك ؟ »

– « لست أدري . »

— « لا تخبرني إذا كنت غير راغب في ذلك . كيف جاز لك أن تكون بعيداً عن الجبهة اللعينة ؟ »

— « أحسب أني قد نفضتُ يدي منها . »

— « يا لك من فتىً طيب . لقد كنتُ دائماً أعتقد أنك ذو عقل راجح . هل أستطيع أن اساعدك بطريقة ما ؟ »

— « أنت مشغول إلى حد رهيب . »

— « لا ، أبداً ، يا عزيزي هنري . لا ، لست مشغولاً البتة . سوف أكون سعيداً بأن أعمل أيّ شيء . »

« إن لك قواماً هو أقرب ما يكون إلى قوامي . فهل لك أن تمضي وتشتّري لي بذلة مدنية كاملة . إن لديّ بعض الملابس ، ولكنها كلها في رومة . »

— « لقد عشتَ هناك ، أليس كذلك ؟ انها موطنٌ قذر . هل أطقتَ الحياة فيها ؟ »

— « لقد أردتُ أن أكون مهندساً معمارياً . »

— « ليس هذا هو المكان الملائم لذلك . لا تشترِ أية ملابس . سوف أقدم اليك جميع الملابس التي ترغب فيها . سوف تخرج من بين يديّ رجلاً بالغ الاناقة . إنطلقْ إلى حجرة اللبس . إن ثمة خزانة . خذمنها ما تشاء . يا صديقي العزيز ، لستَ في حاجة إلى شراء الملابس . »

— « ومع ذلك فأني أفضل أن اشتريها ، يا سيمونز . »

— « يا صديقي العزيز ، إنه لأيسر عليّ أن اقدمها اليك من أن أخرج وأشتريها . أعندك جواز سفر ؟ انك لن تستطيع الذهاب إلى بعيد بدون جواز سفر . »

— « أجل . أنا لا أزال محتفظاً بجواز سفري . »

— « اذن ، فارتدِ تلك الملابس ، يا صديقي العزيز ، وانطلقْ إلى هلفيتيا * العتيقة . »

---

* Helvitia اسم شعري يطلق على سويسرا . (المعرب)

— « المسألة ليست سهلة إلى هذا الحد . يتعيّن عليّ أن أذهب إلى ستريزا * أولاً . »

— « شيء مثاليّ ، يا صديقي العزيز . ليس عليك إلا أن تجذّف وتعبر البحيرة. ولولا أني أحاول الغناء كرة أخرى لرافقتك إلى هناك. أنا لا بدّ ان أذهب في يوم من الأيام . »

— « في ميسورك أن تتعلم الغناء ** على الطريقة التيرولية هناك . »

— « من غير ريب ، يا صديقي العزيز. سوف أتعلم الغناء على الطريقة التيرولية في يوم من الايام. ومع ذلك ، فأن في استطاعتي فعلاً أن أغني. ذلك هو الجزء العجيب من المسألة . »

— « اراهن على ان في استطاعتك ان تغني . »

فاستلقى على السرير مدخناً لفافة .

— « لا تراهن أكثر مما ينبغي. ولكني برغم ذلك أستطيع أن أغني. هذا شيء مضحك إلى حد لعين ، ولكني أستطيع. أنا أحب أن اغني. اسمع . »

وانشأ يهدر بـ « الآفريقانا » وقد انتفخت أوداجه ، وقال :

— « في استطاعتي أن أغني . سواء أحبوا ذلك أم لم يحبوا . »

وأطللت من النافذة ، وقلت :

— « سوف أنزل وأصرف العربة التي جاءت بي إلى هنا . »

— « إصرفها ثم ارجع ، يا صديقي العزيز ، ولسوف نتناول طعام الصباح معاً . »

ووثب من السرير . ووقف منتصب القامة ، وأخذ نفساً عميقاً ، وشرع يقوم ببعض التمرينات الانشائية . وهبطت السلم ، ودفعت إلى الحوذي اجرته وصرفته .

* Stresa ، مدينة في شمال غربي ايطاليا ، وتقع على بحيرة ماغيور. (المعرب)

** يقصد بالغناء على الطريقة التيرولية الانتقال المتكرر من الصوت العادي الى الصوت الناشز (النشاز) على طريقة الجبليين السويسريين والتيروليين . (المعرب)

الفصل الرابع والثلاثون

واستشعرت ، وأنا في تلك الثياب المدنية ، أني مُقَنَّع في كرنفال . لقد ارتديت الملابس العسكرية دهراً طويلاً حتى لقد أصبحت أضيق بالملابس المدنية . لقد بدا لي وكأن بنطلوني فضفاض أكثر مما ينبغي. وكنت قد اشتريت في ميلانو تذكرة سفر إلى ستريزا . وكنت قد اشتريت قبعة جديدة أيضاً .أنا لم أستطع الاعتمار بقبعة سيمونز ، ولكن ملابسه كانت رائعة . كانت رائحة التبغ تفوح منها ، ولحظة اتخذت مكاني في مقصورة القطار وأطللت من النافذة بدت قبعتي بالغة الجدة وبدت ملابسي بالغة العتق . أما أنا فاستشعرت أني محزون مثل ريف لومبارديا النديّ الذي كان ينبسط أمام ناظريّ من خلال النافذة. كان في المقصورة بعض الطيارين الذين لم يُلقوا اليّ بالاً .لقد تحاموْا النظر اليّ،وكانوا يزدرون أعظم الازدراء مدنياً في مثل سني .ولم أشعر أني أهِنْت . ولو قد فعلوا ذلك في الايام الخالية اذن لأهنتهم ولافتعلتُ معركةً بيني وبينهم . وغادروا القطار عند غالارات ، فسعدْتُ بأن أجد نفسي وحيداً . وكانت لديّ صحيفة ، ولكني لم أقرأها لأني ما كنت راغباً في قراءة شيء عن الحرب . كنت راغباً في نسيان الحرب . وكنت عقدت صلحاً منفرداً . لقد شعرتُ بوحدة موحشة ، ومن هنا كان سروري عظيماً بوصول القطار إلى ستريزا .

وفي المحطة توقعت أن أرى بعض بوابي الفنادق،ولكني لم أجد منهم أحداً.

كان الموسم قد انتهى منذ عهد بعيد، ولم يعد البوابون يقبلون إلى المحطة. وترجلت من القطار وفي يدي حقيبتي. كانت حقيبة سيمونز وكانت خفيفة الحمل جداً، إذ لم يكن فيها غير قميصين اثنين، ووقفت تحت سقف المحطة اتقاءً للمطر، فيما كان القطار يمضي لسبيله. ووجدت رجلاً في المحطة، وسألته أيّ الفنادق لا يزال مشرع الأبواب؟ فعرفت منه أن « الغراناوتيل ودي زيل بوروميه » كان مشرع الأبواب، وكذلك كان حال عدد من الفنادق الصغيرة التي تعمل طوال العام. فانطلقت تحت المطر، قاصداً إلى فندق الـ « إيل بوروميه »، وحقيبتي في يدي. وبَصُرْتُ بعربة تهبط الشارع، فأومأت إلى الحوذي. لقد كان من الافضل أن أبلغ الفندق على متن عربة. وانتهت بنا العربة إلى باب العربات في ذلك الفندق الضخم. فخرج البواب حاملاً مظلته، وكان بالغ اللطف.

واحتللت غرفة صالحة. كانت غرفة واسعة جداً، نيرة جداً، وكانت تطل على البحيرة. كانت السحب شديدة الانخفاض فهي تكاد تمس وجه البحيرة، ولكن المشهد خليق به أن يكون رائعاً في الايام المشمسة. وقلت للمشرفين على الفندق: إني أترقب أن تصل زوجتي في أقرب وقت. وكان ثمة سرير واسع مزدوج ذو غطاء من الأطلس (الساتان). وكان الفندق فخماً جداً. واتخذت سبيلي عبر الاروقة الطوال ـ هابطاً السلّم العريضة، مجتازاً عدداً من الغرف ـ إلى المشرب (البار). وعرفت القيّم على المشرب، وقعدت على كرسي عال لا ظهر له، وأكلت شيئاً من اللوز المملّح ومن البطاطا المقلية. وكان مذاق المارتيني * غضّاً نقيّاً.

وسألني القيّم على المشرب بعد أن مزج لي كأساً أخرى من المارتيني:

ـ « ما الذي تفعله هنا في بورغيز ؟ »

ـ « أنا في اجازة. في اجازة نقاهة. »

* شراب مسكر معروف.

– « ليس ههنا أحد . أنا لا أدري لماذا لا يغلقون أبواب الفندق . »

– « هل كنت تصطاد السمك ؟ »

– « لقد اصطدت بعض الأسماك الجميلة . ان من يخرج للصيد في هذا الفصل يفوز بأشياء جميلة . »

– « هل استلمت التبغ الذي بعثت به اليك ؟ »

– « أجل . ألم تتلقّ بطاقتي ؟ »

وضحكت. فأنا لم أوفق إلى الفوز بذلك التبغ . فقد كان القيم على المشرب يريد تبغاً أميركياً خاصاً بالبيبة (الغليون) ، ولكن أنسبائي كانوا قد كفّوا عن ارساله، أو لعل السلطات صادرت ما ارسلوه إليّ منه. وعلى أية حال، فأن ذلك التبغ لم يأتِ قط .

وقلت :

– « سوف أعثر على شيء من ذلك التبغ في مكان ما . قل لي ، هل رأيت فتاتين انكليزيتين في البلدة ؟ لقد وصلتا إلى هنا أول أمس . »

– « انهما ليستا في الفندق . »

– « إنهما ممرضتان . »

فقلت :

– « لقد رأيت ممرضتين . انتظر دقيقة . سوف أكتشف أين هما . »

– « إن احداهما زوجتي . لقد وفدتُ إلى هنا لألقاها . »

– « والأخرى زوجتي . »

– « أنا لا أمزح . »

فقال :

– « إغفر لي نكتتي البلهاء . أنا لم أفهم. »

ومضى لسبيله ، وبقيت وحدي فترة قصيرة . وأكلت شيئاً من الزيتون ، واللوز المملح ، والبطاطا المقلية ، ونظرت إلى نفسي في الملابس المدنية في المرآة القائمة خلف المشرب . ثم إن القيم على المشرب انقلب راجعاً وقال :

— « إنها في الفندق الصغير المجاور للمحطة . »

— « هل أستطيع أن أفوز ببعض السندويشات ؟ »

— « سوف أطلب لك بعضها تلفونياً . أنت تعلم انه ليس لدينا شيء لأنه ليس في الفندق أحد . »

— « أليس ههنا ، حقاً ، أحد على الاطلاق ؟ »

— « أجل . هناك بضعةُ نفر ليس غير . »

وأقبلت السندويشات. والتهمت ثلاثاً منها، واحتسيت كأسين أخريين من المارتيني . أنا لم أذق من قبل أيما شيء في مثل هذه الغضارة والنقاء .لقد أشعرَتْني اني رجلٌ متمدن . ذلك اني كنت قد سئمت النبيذ ، والخبز ، والجبن ،والقهوة الرديئة ، والغرابا . وجلست على المقعد العالي الذي لا ظهر له ، تجاه خشب الماهوغاني الجميل ، والنحاس، والمرايا ، ولم أفكر في شيء . ووجه اليّ القيم على المشرب سؤالاً .

فقلت :

— « لا تحدّثني عن الحرب . »

كانت الحرب نائية جداً . ولعله لم يكن ثمة حرب البتة . وأياً ما كان،فلم يكن ههنا حرب . عندئذ أدركت ان الحرب قد انتهت بالنسبة إليّ . ولكنني لم أكن أستشعر انها انتهت فعلاً . لقد استشعرت مثل شعور غلام يفكر في الذي يجري ، خلال ساعة ما ، في المدرسة التي غاب عنها ذلك اليوم لغير مــا عذر شرعي .

* * *

كانت كاثرين وهيلين فيرغوسون تتناولان طعام العشاء عندما وصلت إلى فندقهما . لقد رأيتهما جالستين إلى المائدة وأنا واقفٌ في الرواق . كانت كاثرين لا تنظر في اتجاهي ، فرأيت خط شعرها ووجنتها وجيدها الجميل وكتفيها . كانت فيرغوسون تتحدث . ولقد كفت عن الحديث عندما دخلتُ .

وقالت :

— « يا الــٰهي ! »

فقلت :

— « هالو ! »

فقالت كاثرين :

— « ولكنْ هذا أنت ! »

وأشرق وجهها بالبهجة.لقد بدت وكأنها تستشعر من السعادة قدراً أكثر مما ينبغي ، قدراً يوقع في نفسها الشك في صحة ما ترى . وقبّلتُها . وشاع الدم في وجه كاثرين . وجلستُ معهما إلى المائدة .

وقالت فيرغوسون :

— « ما الذي تفعله هنا ؟ هل تناولت طعام العشاء ؟ »

— « لا . »

ودخلت الفتاة التي كانت تقدم الطعام اليهما ، فسألتها أن تحمل إليّ طبقاً . كانت كاثرين تنظر إليّ على نحو موصول ، وكانت عيناها تشعّان بشراً وسعادة .

وسألتني فيرغوسون :

— « ما الذي تفعله هنا وأنت في اللباس المدني ؟ »

— « أنا عضو في الوزارة . »

— « أنت في مأزقٍ ما . »

— « ابتهجي يا فيرغي ! ابتهجي ولو قليلاً ! »

— « أنا لا أستشعر الابتهاج حين أراك . إني أعرف الورطة التي اوقعت هذه الفتاة فيها . أنت لست مشهداً بهيجاً في ناظريّ . »

وابتسمت كاثرين لي، ومسّتني بقدمها من تحت الطاولة .

— « إن احداً لم يوقعني في ورطة،يا فيرغي.إني أورّط نفسي بنفسي. »

فقالت فيرغوسون :

— « أنا لا أستطيع احتماله .إنه لم يفعل شيئاً غير إلباسكِ ثوب الخزي والعار

بحيله الايطالية الحقيرة ؟ ان الامبركيين اسوأ من الايطاليين . »
فقالت كاثرين :
— « الاسكتلنديون قومٌ اخلاقيون جداً . »
— « ليس هذا ما قصدتُ اليه . أنا أعني أساليبه الايطالية الحقيرة . »
— « هل أنا حقير ، يا فيرغي ؟ »
— « أجل ، أنت حقير . أنت أسوأ من حقير .أنت كالأفعى .أنت أفعى في بذلة عسكرية ايطالية . افعى يطوّق عنقها وشاح . »
— « انا لا أرتدي بذلة عسكرية ايطالية الآن . »
— « وهذا ليس إلاّ مثلاً آخر على مسلكك الحقير .لقد مثّلت طوال الصيف دور المحب العاشق ، والقيت في أحشاء هذه الفتاة جنيناً ، وأغلب الظن انلك سوف تنسلّ الآن انسلالاً . »
وابتسمتُ لكاثرين وابتسمت كاثرين لي .
وقالت :
— « سوف نتسلّ نحن الاثنين انسلالاً . »
فقالت فيرغوسون :
— « انتما كلاكما من معدن واحد . أنا خجلةٌ بك ، يا كاثرين باركلي . أنتِ امرأة بلا حياء ، بلا شرف . وإنك لا تقلّين عنه حقارة . »
فقالت كاثرين وهي تربّت على يدها :
— « لا ، يا فيرغي . لا تتهميني . أنتِ تعلمين أننا نحب بعضنا بعضاً . »
فقالت فيرغوسون ، وقد شاع الدم في وجهها :
— « أبعدي يدكِ عني . لو كان في وجهك ذرة من خجل لكنت غير ما أنت الآن.ولكنكِ حامل منذ اشهر لا يعلمها الا الله،وأنتِ تحسبين ذلك مزحةً أو نكتة ، وان وجهك ليطفح بالبشر والابتسام لأن الذي أغواكِ قد عاد .انت امرأة بلا حياء وبلا إحساس . »
وشرعت تبكي ؛ فمضت كاثرين نحوها،وطوّقتها بذراعها .وفيما هي

واقفة تسرّي عن فيرغوسون لم أستطع أن ألمح أي تغيّر في قوامها .

وتنهدت فيرغوسون وقالت :

— « لست أبالي . أنا أعتقد ان ذلك رهيب . »

فواستْها كاثرين قائلة :

— « كفى ، كفى ، يا فيرغي . سوف أعتصم بالخجل . لا تبكي ، يا فيرغي . لا تبكي ، يا فيرغي الطيبة . »

فتنهدت فيرغوسون وقالت :

— « أنا لا أبكي.أنا لا أبكي.إلا بسبب من الهاوية الفظيعة التي تردّيْتِ فيهـا . »

ونظرتْ إليّ ثم أضافت :

— « أنا أكرهك.إنها لا تستطيع ان تحول بيني وبين كرهك،أيهـا الأميركي الايطاليّ الحقير القذر . »

كانت عيناها حمراوين وكان أنفها أحمر أيضاً من أثر البكاء .

وابتسمت كاثرين لي .

فقالت فيرغوسون موجهةً الخطاب اليها :

— « لا تبتسمي له وذراعك تطوّقني . »

— « ليس هذا تصرّفاً عاقلاً ، يا فيرغي . »

فتنهدت فيرغوسون وقالت :

— « أعرف ذلك . ينبغي ان لا تؤاخذاني كلاكما . اني منفعلة إلى أبعـد الحدود . وإني لأتصرف تصرفاً غير عاقل . أنا أعرف ذلك . أنا اريد أن تكونا كلاكما ، سعيدين . »

فقالت كاثرين :

— « نحن سعيدان . أنت لطيفة ، يا فيرغي . »

واستأنفت فيرغوسون بكاءها ، وقالت :

— « أنا لا أحبّ لكما أن تكوناسعيدين على هذه الشاكلة.لماذا لا تتزوجان؟

أنت ليس لديك زوجة اخرى ، اليس كذلك ؟»

فقلت :

– « اجل ، ليس لديّ زوجة أخرى . »

وضحكت كاثرين ؟

فقالت فيرغوسون :

– « ليس ثمة ما يُضحك . إنّ لدى كثير منهم زوجاتٍ اخرى . »

فقالت كاثرين :

– « سوف نتزوج ، يا فيرغي ، إذا كان هذا يرضيك . »

– « لا.ليس من أجل إرضائي.ينبغي لكما ان تكونا أنتما راغبين في الزواج . »

– « لقد كنا مشغولين أكثر مما يجب . »

– « اجل . أدري . كنتما مشغولين في إنجاب الأولاد . »

وحسبتُ أنها سوف تستسلم للبكاء من جديد ، ولكنها أخذت بأسباب السخرية والتهكم ، بدلاً من ذلك ، فقالت :

– « احسب انكِ سوف تذهبين معه هذه الليلة ؟ »

فقالت كاثرين :

– « نعم . إذا رغب هو في ذلك . »

– « وأنا ، أأبقى هنا وحدي ؟ »

– « وهل تخافين البقاء وحدك ؟ »

– « أجل . أنا خائفة . »

– « اذن ، فسوف أبقى معكِ . »

– « لا ، إذهبي معه . اذهبي معه في الحال . لقد سئمت رؤيتكما كليكما . »

– « من الافضل أن نَفْرغَ من عشائنا أولاً . »

– « لا . إذهبا في الحال . »

– « كوني منطقية ، يا فيرغي . »

— « أقول اذهبا في الحال . اذهبا كلاكما . »

فقلت :

— « فلنذهب اذن . »

كان صدري قد ضاق بفيرغي .

— « انتما تتحرقان إلى الذهاب. وانكما لتريان جيداً أنكما راغبان حتى في تركي أتناول الطعام العشاء وحدي . لقد كنت دائماً تواقة للذهاب إلى البحيرات الايطالية، فانظرا الآن على أية صورة قُدّر لي أن أرى تلك البحيرات ! اوه ، اوه ! »

وانتحبَتْ ، ونظرت إلى كاثرين ، وغصّت بالدمع .

فقالت كاثرين :

— « سوف نبقى الى ما بعد العشاء. ولن أتركك وحدك اذا رغبتِ في بقائي . لا ، لن أتركك وحدك يا فيرغي . »

فكفكفت من عبراتها وقالت :

— « لا . لا . أنا أحب أن تذهبي . أنا أحب أن تذهبي. لقد فقدت منطقي. أرجوك ان لا تؤاخذيني . »

وكانت النادلة قد ارتبكت لدن رؤيتها الى هذا البكاء كله . حتى اذا عادت حاملة الصنف الثاني من الطعام سرّى عن نفسها ما لاحظته من التحسّن الـــذي طرأ على الموقف .

* * *

وفي ذلك المساء كانت غرفة الفندق التي احتللناها ، الغرفة ذات الرواق الطويل الفارغ ، وكان حذاءانا الموضوعان خارج الباب ، وكانت السجـــادة الغليظة المنشورة في أرض الغرفة ، والمطر المنهمر خارج النوافذ ، والضياء العذب البهيج المسفوح في الغرفة ، والضياء الخارجي ، والانس بغطاء السرير الناعـــم وبالسرير المريح ، وشعور العائد الى بيته بعد غيبة ، وإحساسه بأنه لم يعد وحيداً ، واستيقاظه في حواشي الليل ليجد المحبوب الى جانبه ، لا غائباً في مكان قصي

– كان ذلك كله أشبه بحلم .ونمنا حين ألمّ بنا النصَب ، حتى اذا أفـاق أحدُنا أفاق الآخر أيضاً لكي لا يستشعر أي منا وحشة التوحّد ولو لحظـة . ان الفتى كثيراً ما يستشعر الرغبة في ان يخلو الى نفسه ، وان الفتاة كثيراً ما تستشعر الرغبة في ان تخلو الى نفسها ، واذا كانا عاشقين حرصا على تحقيق هذه النزعة المتبادلة ، ولكني أستطيع ان أقول مخلصاً ، اننا لم نعرف مثل هذا الشعور قـط. كنا نستشعر الوحدة حين يخلو أحدنا الى الآخر ، نستشعر الوحدة إزاء الآخرين. ولم يتفق لي ذلك الا مرّة واحدة . كنت أستشعر الوحدة وأنا مـع فتيات كثيرات ، وتلك هي الطريقة القادرة على ان تجعلك متوحداً أقوى مـا يكون التوحّد . ولكنا لم نكن نستشعر الوحدة البتة ، ولم نكن نحس بالخوف قط ونحن مجتمعان. ان الليل لا يستوي مع النهار ، وان الاشياء كلها متباينة ، وان أشياء الليل لا سبيل الى تفسيرها في النهار ، اذ ليس من وجود لها آنذاك ، وان الليل قد يكون وقتاً رهيباً بالنسبة الى المتوحدين من الناس بمجرد استشعارهم تلك الوحدة . أما مع كاثرين فلم يكن ثمة ، اذا جاز التعبير ، فرق بين الليل والنهار باستثناء أن الليل كان خيراً من النهار . وحين يواجه الناس العالم بقدر وافر من الشجاعة فان على العالم أن يقتلهم لكي يكسرهم . وهكذا فانه يقتلهم . ان العالم يكسر الناس جميعاً ، وبعد ذلك يُنشيء كثير منهم ، في مواطن الكسر ،أنسجة عظمية جديدة . أما أولئك الذين يستعصون على الكسر فأنه يقتلهم . انه يقتـل ذوي الصلاح البالغ ، واللطف البالغ ، والبسالة البالغة على حدّ سواء . فاذا لـم تكن واحداً من هؤلاء ففي ميسورك ان تثق انه سوف يقتلك ، ولكن لن يكون ثمة أيما داعٍ للعجلة .

* * *

وأذكر اني أفقت في الصباح . كانت كاثرين نائمة ، وكانت أشعـةالشمس تتسرب من خلال النافذة . كان المطر قد كف عن التهطال ، فوثبتُ مـن السرير ومضيت الى النافذة.وهناك ، تحت، تراءت الحدائق عارية من أوراق الشجر ، ولكنها جميلة في نظاميّتها ، وتراءت المجازات المفروشة بالحصباء ،

والاشجارُ ، والجدارُ الحجري الممتد على طول البحيرة ،والبحيرةُ متألقة تحت أشعة الشمس ، والجبال من ورائها . ووقفت عند النافذة،وسرّحت البصر منها، حتّى اذا برحت موقفي ذاك الفيتُ كاثرين مستيقظة تراقبني .

وقالت :

— « كيف أنت أيها الحبيب ؟ إنه نهار بديع ، اليس كذلك ؟ »

— « أجل ، وكيف أنت ؟ »

— « ممتازة . لقد قضينا ليلة رائعة . »

— « هل ترغبين في تناول طعام الصباح ؟ »

كانت راغبة في تناول طعام الصباح . وكذلك كنت أنا . فتناولناه في السرير ،وأشعة شمس نوفمبر تنفذ من خلال النافذة،وصينية الطعام في حجري.

— « ألا تريد الجريدة ؟ كنت دائماً راغباً فيقراءة الجريدة في المستشفى .»

فقلت .

— « لا . لست أريد الجريدة الآن . »

— « أكانت رديئة الى هذا الحد حتى لتأبى ان تقرأ شيئاً عنها ؟ »

— « أنا لا أريد أن أقرأ شيئاً عنها . »

— « كم أتمنى لو كنت معك لكي أطّلع على واقعها أيضاً . »

— « سوف أحدثك عنها اذا ما قُدّر لي يوماً انأنظم فكراتي بعض التنظيم.»

— « ولكن ألا تخشى أن يعتقلوك اذا ما ألفوْك مرتدياً الملابس المدنية ؟ »

— « من الجائز جداً أن يطلقوا عليّ النار . »

— « اذن فلن نبقى هنا . سوف نخرج من هذه البلاد . »

— « لقد فكرت بشيء من هذا . »

— « سوف نغادر هذه الديار . ايها الحبيب ، يجب ان لا تعرّض حياتك للخطر على غير طائل . أخبرني كيف ذهبت من ميستر الى ميلانو ؟»

— « لقد جئت بالقطار . وكنت أرتدي الملابس العسكرية آنئذ. »

— « ألم تكن في خطر آنذاك ؟ »

— « لم أكن في خطر كبير . كانت لديّ رخصة مرور عتيقة . ولقد رتبت تواريخها في ميستر . »

— « أيها الحبيب ، أنت معرّض للاعتقال هنا في كل لحظة . أنا لا أريد شيئاً من ذلك . ومن السخف الاقدام على شيء كهذا . ما الذي سيحلّ بنا اذا ما اعتقلوك ؟ »

— « فلنقلع عن التفكير في هذا. لقد سئمت التفكير في هذا. »

— « أي شيء ستفعله اذا ما أقبلوا لاعتقالك ؟ »

— « سوف أقتلهم بالرصاص . »

— « أترى مبلغ سخافتك ! أنا لن أدعك تخرج من الفندق الا لنغادر البلاد نهائياً . »

— « الى أين سوف نذهب ؟ »

— « أرجوك ان لا تكون هكذا ، أيها الحبيب . سوف نذهب الى حيث تشاء . ولكن أرجوك ان تختار مكاناً نستطيع أن نذهب اليه في الحال . »

— « ان سويسرة تقع على طرف البحيرة . في استطاعتنا ان نذهب الى هناك. »

— « سوف يكون ذلك رائعاً . »

كانت الغيوم تتلبّد في السماء ، وكان الظلام قد شرع يرين على البحيرة . وقلت :

— « أتمنى أن لا نضطر دائماً الى العيش كالمجرمين . »

— « لا تكن هكذا ايها الحبيب . انك لم تعش كالمجرمين دهراً طويلاً . ونحن لا نعيش أبداً كالمجرمين . اننا سوف نقضي وقتاً ممتعاً . »

— « أنا أستشعر وكأني مجرم . لقد فررت من الجيش . »

— « أرجوك ، أيها الحبيب . كن عاقلاً . انت لاتستطيع أن تدعو ذلك فراراً من الجيش . ثم انك لم تفرّ الا من الجيش الايطالي على اية حال . »

وضحكتُ وقلت :

— « أنت فتاة رائعة . فلنأوِ الى السرير . أنا لا أستشعر الراحة الا حين آوي

الى السرير . »

* * *

وبعد قليل قالت كاثرين :

ـ « أنت لا تستشعر وكأنك مجرم ، أليس كذلك ؟ »

فقلت :

ـ « لا . ليس حين أكون معك . »

فقالت :

ـ « أنت فتىً بارد جداً . ولكني سوف أعنى بك . أليس من الرائع ، أيها الحبيب ، اني لا أحس بشيء من غثيان الصباح ؟ »

ـ « هذا عظيم . »

ـ « أنت لا تدرك اية زوجة رائعة عندك ! ولكني لا أبالي . سوف أذهب الى مكانٍ لا يستطيعون ان يعتقلوك فيه ، وعندئذ ننعم بالسعادة . »

ـ « فلنذهب الى هناك في الحال . »

ـ « سوف نفعل ، أيها الحبيب. سوف أذهب الى ايما مكان في أيما وقت تشاء. »

ـ « دعينا لا نفكر في أيّ شيء . »

ـ « حسن . »

الفصل الخامس والثلاثون

اتخذت كاثرين سبيلها في محاذاة البحيرة الى الفندق الصغير لكي ترى فيرغوسون، وقعدت أنا في المشرب وقرأتُ الصحف. كان في المشرب كراسيّ جلدية مريحة فجلست على واحد منها، وقرأتُ حتى أقبل القيّم على المشرب. لقد واصل الجيش تراجعه من غير أن يتوقّف عند الـ « تاغليامانتو ». كان يرتدّ الى نهر الـ « بيياف ». وتذكّرتُ الـ « بيياف ». كانت سكة الحديد التي تقود الى جبهة القتال تجتازه قرب « سان دونا ». وفي تلك النقطة كان النهر عميقاً بطيئاً، وكان ضيقاً جداً. وفي موطنٍ أكثر انخفاضاً كانت مستنقعاتٌ ملأى بالبعوض وقنواتٌ. وكانت ثمة بعض الدارات الجميلة. وذات مرة، قبل الحرب، كنت أصعّد نحو الـ « كورتينا دامبيزو » فلزمْتُ مجراه ساعات عديدة عبر الكثبان. وفي تلك المرتفعات بدا وكأنه نهر أطروط * يجري في رشاقة، نهرٌ ذو امتدادات ضحلة ومياه راكدة في ظل الصخور. وانعطفت الطريق مفترّقةً عنه عند كادور. وتساءلت كيف يستطيع الجيش المعسكر على تلك المرتفعات أن يهبط منها. وأقبل القيّم على المشرب.

وقال :

– « كان الكونت غريفيّ يسأل عنك. »

* الأطروط trout نوع من السمك.

— « من ؟ »

— « الكونت غريفي. أنت تذكر الرجل العجوز الذي كان هنا يوم كنت أنت في المرة الماضية . »

— « أهو هنا ؟ »

— « أجل:هو هنا مع ابنة أخيه . لقد قلت له إنك هنا . إنه يريد ان يلاعبك بالبليارد . »

— « اين هو ؟ »

— « انه يتنزه سيراً على القدمين . »

— « كيف حاله ؟ »

— « إنه أنضر شباباً من ايما وقت مضى . لقد شرب ثلاثة أقداح من الشامبانيا البارحة قبل العشاء . »

— « وكيف لعبُهُ بالبليارد ؟ »

— « حسن . لقد غلبني ، ولقد سرّ سروراً عظيماً عندما أخبرته انك هنا : فليس ههنا أحد حتّى يلاعبه . »

كان الكونت غريفي في الرابعة والتسعين . ولقد عاصر ميترنيخ ، وكان عجوزاً ذا شعر أبيض ، وشاربين ، وكان رفيع التهذيب . لقد عمل في السلك السياسي في كل من النمسا وايطاليا ، وكانت السهرات التي يقيمها احتفالاً بذكرى ميلاده هي الحدث الاجتماعي الاكبر في ميلانو . كان خليقاً به أن يحيا حتّى تبلغ سنه مئة عام ، وكان يلعب البليارد في سلاسة تتغاير مع هشاشته * البالغة من العمر الرابعة والتسعين. وكنت قد لقيته يوم قصدت الى ستريزا ذات مرة سابقة ، وكان ذلك في غير أيام الموسم ، وفيما كنا نلعب البليارد احتسينا الشامبانيا . لقد كانت عادةً رائعة ، ولقد تساهل معي فتبرع لي بخمس عشرة نقطة من أصل مئة ، ومع ذلك فقد غلبني .

— « لماذا لم تخبرني أنه هنا ؟ »

---

* المشاشة : سرعة الانقصاف والانكسار .

— « لقد نسيت . »
— « ومَن هنا أيضاً ؟ »
— « ليس هناك أحد تعرفه . ان نزلاء الفندق كلهم لا يزيدون على ستة . »
— « ماذا تفعل الآن ؟ »
— « لا شيء . »
— « هيا بنا نصطَد السمك . »
— « أستطيع أن أقضي في ذلك ساعة واحدة . »
— « هيا . إيتِ بالصنارة . »

وارتدى القيّم على المشرب سترةً ، وانطلقنا. لقد هبطنا ضفة البحيرة وأخذنا مركباً . وجذّفتُ أنا ، بينما جلس المشربيّ عند مؤخر المركب ، ودلّى صنارته في الماء . كانت صنارة خاصة بصيد سمك الأطروط في البحيرة ، وكانت ذات طُعم دوّار ومُرسِّب ثقيل. وجذفنا في محاذاة الشاطيء ، وقد أمسك المشربيّ بالصنارة في يده ، وأنشأ يَنشُرها بين الفينة والفينة . ومن جانب البحيرة بدت ستريزا مدينة مهجورة . كان ثمة صفوف طويلة من الاشجار الجرداء ، وكانت ثمة الفنادق الكبيرة ، والدارات الموصدة . وجذّفت في اتجاه الـ « ايزولا بيلا » ، وحاذيتُ الجدران حيث تعاظم عمق المياه ، وحيث كنت ترى الجدار الصخري ينحدر في المياه الرائقة . ثم انني جذّفت الى جزيرة الصيادين . كانت الشمس محجوبة خلف سحابة ضخمة ، وكانت المياه قاتمة ، مستوية ، باردة جداً ؛ ولم نوفق الى صيد ما ، على الرغم من أننا رأينا بعض الدوائر التي رسمها السمك في ارتفاعه الى سطح الماء .

وجذّفت في اتجاه جزيرة الصيادين حيث كانت مراكب مشدودة الى الشاطيء ، وحيث كان رجال يصلحون شباك الصيد .

— « ما رأيك في قليل من الشراب ؟ »
— « لا بأس . »

وقدت المركب حتى الرصيف الحجري ، وسحب المشربيّ صنارته من الماء

ولفّها في قعر المركب ، وعلّق الطعم على حافة المركب . ووثبت مترجّلاً من المركب وربطته بحبل . ثم اننا مضينا الى مقهى صغير وجلسنا الى طاولة خشبية عارية ، وطلبنا كأسين من الفيرموت .

— « هل تعبت من التجذيف ؟ »

— « لا . »

فقال :

— « سوف أجذّف في العودة . »

— « أنا أحب التجذيف . »

— « اذا أمسكت أنت بالصنّارة فقد يتغير الحظ . »

— « حسن . »

— « حدّثني عن الحرب كيف تسير ؟ »

— « من سيء الى أسوأ . »

— « لست مضطراً الى الذهاب الى الجبهة . أنا عجوز أكثر مما ينبغي ، مثل الكونت غريفي . »

— « قد يتعيّن عليك أن تذهب في وقت قريب . »

— « في العام القادم سوف يدعون أترابي الى الخدمة . ولكني لن أذهب . »

— « ما الذي ستفعله ؟ »

— « سوف أغادر البلاد . أنا لن أذهب الى الحرب . لقد خضت الحرب مرة في الحبشة . لا ، لا . لماذا ذهبت أنت ؟ »

— « لست أدري . لقد كنت مجنوناً . »

— « أتريد كأساً آخر من الفيرموت ؟ »

— « لا بأس . »

وجذّف المشربي في العودة. وحاولنا الصيد في موضع مرتفع من البحيرة ، وراء ستريزا ، ثم في موضع أكثر انخفاضاً على مقربة من الشاطيء . وأمسكت أنا بالصنّارة ، واستشعرت نبضات الطعم الخافتة وهو يدور ويدور ، بينا كنت

أنظر الى مياه نوفمبر القاتمة ، والى الشاطيء المهجور . وجذّف المشربيّ في خطىً واسعة، وعند كل اندفاعة من اندفاعات المركب كانت الصنارة تختلج. وذات مرة أحسست بسمكة تعضّ الشصّ . فتصلب الخيط وارتد الى الوراء، وجذبته فاستشعرت ثقل السمكة الحي ، ثم اختلج الخيط من جديد . كانت السمكة قد أفلتت :

— « هل بدا لك أنها ضخمة ؟ »

— « ضخمة جداً . »

— « ذات يوم كنت أصطاد وحدي،وكنت أمسك بالخيط بأسناني. واقبلت سمكة أطروط وعضّت على الشصّ ، فكادت تقتلع فمي اقتلاعاً . »

فقلت :

— « الطريقة الفضلى هي أن تضع الخيط فوق رجلك ، وبذلك تحس به جيداً وتصون اسنانك من الضياع . »

ووضعت يدي في الماء . كان الماءبارداً جداً . وكنا قد أصبحنا تجاه الفندق تقريباً :

وقال المشربيّ :

— « يتعيّن عليّ ان أدخل . يجب أن أكون هناك في الساعة الحادية عشرة ، ساعة الكوكتيل . »

— « حسن . »

ورفعت الصنارة ولففتها على عصاً مثلومة الطرفين . ووضع المشربيّ المركب في مُنْزلَق صغير في الجدار الحجري ، وربطه بسلسلة ذات قُفل .

وقال :

— « كلما احتجت الى المركب أعطيتك المفتاح . »

— « شكراً . »

وصعدنا الى الفندق واتجهنا الى المشرب. واذ لم أكن راغباً في كأس أخرى، في تلك الساعة من الصباح ، فقد تابعت سبيلي الى غرفتنا . كانت الخادمة قد

انتهت اللحظة من تنظيف الغرفة وترتيبها ، ولم تكن كاثرين قد رجعت بعد ؛ واستلقيت على السرير وحاولت أن أذود التفكير عن ذهني .

وحين رجعت كاثرين استشعرت الارتياح من جديد . وقالت لي ان فيرغوسون في الدور السفلي . كانت قد أقبلت لتناول طعام الغداء معنا .

فقالت كاثرين :

— « أنا أعلم أنك لن تمانع في ذلك . »

فقلت :

— « لا . »

— « ما بك ، ايها الحبيب ؟ »

— « لست أدري . »

— « أنا أدري . ليس لديك ما تعمله . كنت أنا كل ما تملكه ، ولقد مضيت أنا لسبيلي . »

— « هذا صحيح . »

— « أنا آسفة ، ايها الحبيب . أنا أعلم ان شعور المرء فجأة بأن ليس لديه ما يعمله هو شعور رهيب . »

فقلت :

— « لقد كانت حياتي حافلة دائماً بكل شيء . أما الآن فحين لا تكونين معي أفقد كل شيء في العالم . »

— « ولكني سوف أكون معك دائماً . أنا لم أغب عنك الا ساعتين . أليس ثمة شيء تستطيع أن تعمله ؟ »

— « لقد ذهبت لصيد السمك مع القيم على المشرب . »

— « ألم تستمتع بذلك ؟ »

— « بلى . »

— « لا تفكر في حين لا أكون هنا . »

— « ذلك ما كنت أفعله في الجبهة . ولكن كان لديّ ما أفعله آنذاك . »

فقالت متأكدة :

– « عُطَيْل من غير عمل . »

فقلت :

– « لقد كان عطيل زنجياً . والى هذا فأنا لا أعرف الغيرة . كل ما في الأمر اني أحبك حباً انعدم معه وجود كل شيء . »

– « هل لك ان تكون فتىً صالحاً وأن تعامل فيرغوسون بلطف ؟ »

– « أنا لطيف دائماً مع فيرغوسون الا اذا شتمتني . »

– « كن لطيفاً معها . فكّر في كل هذا الذي ننعم به وفي مدى الحرمـــان الذي تعانيه هي . »

– « ما كنت أحسب انها تبغي ما ننعم به نحن . »

– « بالنسبة الى ذكائك البالغ أستطيع أن أقول، أيها الحبيب، انك لا تعرف شيئاً كثيراً . »

– « سوف أكون لطيفاً معها . »

– « أعلم أنك ستكون كذلك . أنت عذبٌ الى أبعد الحدود . »

– « انها لن تبقى بعد هذا ، أليس كذلك ؟ »

– « لا . سوف أتخلص منها. »

– « وعندئذ نعود الى هنا . »

– « طبعاً . أي شيء تحسبني سأفعله ؟ »

وهبطنا الى الدور السفلي لنتناول طعام الغداء مع فيرغوسون . كانت شديدة الاعجاب بالفندق وبأناقة حجرة الطعام وفخامتها . وتناولنا غداء شهياً مـــع زجاجتين من شراب الـ « كابري » الأبيض . ودخل الكونت غريفي الى حجرة الطعام وحيّانا بانحناءة . وكانت ابنة أخيه الشبيهة بعض الشيء بجدّتي ، ترافقه. وحدثتُ كاثرين وفيرغوسون عنه ، فكان تأثّر فيرغوسون عظيماً . كـــان الفندق فخماً جداً، وضخماً جداً ، وفارغاً ،ولكن الطعام كان جيداً ،وكانت الخمر طيبة المذاق جداً ، وأخيراً أوقعت الخمر في جوانحنا نشاطاً وابتهاجـــاً .

ولم تكن كاثرين في حاجة الى مزيد من النشاط والابتهاج . لقد كانت بالغة السعادة ، وغدَت فيرغوسون مبتهجة جداً . واستشعرت أنا الخفة والنشاط . وبعد الغداء رجعت فيرغوسون الى فندقها .لقد قالت انها راغبة في الاستلقاء على السرير ، فترة قصيرة ، بعد الغداء .

وفي ساعة متأخرة من الأصيل قرع شخص باب غرفتنا :

— « من الطارق ؟ »

— « الكونت غريفي يود أن يسأل : هل تستطيع ان تلعب البليارد معه ؟ »

وألقيت نظرة على ساعتي . كنت قد نزعتها ووضعتها تحت الوسادة :

فهمست كاثرين :

— « أأنت مضطر الى الذهاب ، أيها الحبيب ؟ »

— « أظن أن من الافضل ان أذهب . »

كانت الساعة الرابعة والربع . وفي صوت عال قلت :

— « قل للكونت غريفي إني سأكون في قاعة البليارد عند الساعة الخامسة . »

وحين بلغت الساعة الخامسة الا ربعاً قبّلت كاثرين مودّعاً وذهبت الى الحمام لارتدي ملابسي . وفيما انا أعقد رباط عنقي وأنظر الى المرآة بدَوْت غريباً في عيني نفسي في الملابس المدنية . يتعيّن عليّ ان لا أغفل عن شراء بعض القمصان والجوارب الاضافية .

وسألتني كاثرين ، وقد بدت رائعة وهي مستلقية على السرير :

— « وهل سيطول غيابك ؟ أرجو أن تناولني الفرشاة . »

وراقبتها وهي تُمرّ الفرشاة على شعرها ، حانية رأسها لكي يجتمع ثقل شعرها كله في جانب واحد . كانت العتمة قد هبطت ، وكان النور المنبعث من فوق مقدّم السرير يتلألأ على شعرها ، وعلى جيدها ومنكبيها . وتقدّمت نحوها ، وقبلتها ، وأخذت بيدها الممسكة بالفرشاة ، وارتدّ رأسها وارتمى على الوسادة. وقبّلت جيدها وكتفيها.وأحسست لفرط حبي اياها اني على وشك أن يغمى عليّ .

— « أنا لا أريد ان أذهب . »

ــ « وأنا لا أريدك أن تذهب . »

ــ « اذن فلن أذهب . »

ــ « لا . اذهب . انك لن تغيب غير برهة يسيرة ، وبعد ذلك ستعود . »

ــ « سوف نتناول طعام العشاء ، هنا في الغرفة . »

ــ « اذهب ، وارجع في سرعة . »

ووجدتُ الكونت غريفي في قاعة البليارد . كان يتدرب ، وقد بدا قَصِماً سهل المكسر تحت الضياء المنصبّ على مائدة البليارد . وعلى أحد موائد اللعب بالورق ، بعيداً عن النور بعض الشيء ، كان دلوُ تثليج فضّي يحتضن زجاجتي شمبانيا ، وقد بدا عنقاها وسدّاداتاها فوق قطع الثلج التي فيه . وتصدّر الكونت غريفي عندما اقتربت من المائدة وتقدّم نحوي . وبسط يده اليّ وقال :

ــ « يسعدني الى ابعد الحدود أن ألقاك هنا . لقد كان لطفاً عظيماً منك ان تجيء لتلعب معي . »

ــ « لقد كان لطفاً عظيماً منك ان تدعوني الى ذلك . »

ــ « هل أنت بخير ؟ لقد أنبأوني انك جُرحتَ عند نهر إيزونزو . أرجو ان تكون استعدت عافيتك . »

ــ « أنا في صحة ممتازة . وأنت ؟ »

ــ « أوه . أنا بخير دائماً . ولكني أتخذ سبيلي نحو الشيخوخة . لقد بدأت ألحظ أمارات السن العالية . »

ــ « أنا لا أستطيع أن أصدّق ذلك . »

ــ « حسن . هل تريد ان أقدم اليك مثلاً على ذلك ؟ من الأيسر عليّ ان اتحدث باللغة الانكليزية . أنا أفرض على نفسي نظاماً قاسياً ، ولكني أجد حين أتعب أنه من الأيسر عليّ أن اتحدث باللغة الايطالية . وهكذا أعلم اني أتخذ سبيلي الى الشيخوخة . »

ــ « في استطاعتنا ان نتحدث بالايطالية ، أنا مُتعبٌ بعض الشيء أيضاً . »

ــ « أوه ، ولكنك حين تتعب يكون من الايسر عليك أن تتحدث بالانكليزية . »

— « تعني بالاميركية . »

— « نعم. بالاميركية . أرجوك ان تتحدث بالاميركية. إنها لغة رائعة . »

— « اني نادراً ما ألتقي بعض الاميركيين . »

— « ولا ريب في أنك مشوق اليهم . فالمرء يشتاق الى مواطنيه ،ويشتاق بخاصة الى مواطناته . لقد خبرتُ ذلك بنفسي . هل نبدأ في اللعب أم انك متعب أكثر مما ينبغي ؟ »

— « أنا لست متعباً على الاطلاق . لقد قلتُ ذلك على سبيل الدعابة . ما عدد النقط التي تعتزم أن تسلفني اياها ؟ »

— « هل لعبت كثيراً في المدة الاخيرة ؟ »

— « لم ألعب قط . »

— « أنت بارع في اللعب . سوف أمنحك عشر نقط من أصل مئة . »

— « أنت تطريني . »

— « خمس عشرة نقطة ؟ »

— « سوف يكون هذا شيئاً رائعاً . ولكنك ستغلبني . »

— « هل نتراهن على شيء ؟ لقد كنت ترغب ،دائماً،في التراهن على شيء يدفعه المغلوب الى الغالب . »

— « أعتقد أن هذا أفضل . »

— « حسن . سوف أمنحك ثماني عشرة نقطة، ولسوف ندفع فرنكاً مقابل كل نقطة . »

ولعب لعباً ساحراً . ورغم النقاط التي منحني اياها لم أكن أتقدمه ، حين أحرزت خمسين نقطة ، بأكثر من نقاط أربع . وضغط الكونت غريفي على زر في الجدار لكي يستدعي القيم على المشرب .

وقال :

— « افتح احدى الزجاجتين من فضلك . »

ثم التفت اليّ وقال :

– « سوف نأخذ منبهاً صغيراً . »

كانت الخمر باردة كالثلج ، وكانت مزّاء الى حد بعيد ، ممتازة الى حد بعيد .

– « هل نتحدث بالايطالية ؟ان ذلك لن يزعجك كثيراً ، أليس كذلك ؟ تلك هي نقطة ضعفي الكبرى الآن . »

وواصلنا اللعب ، مرتشفين الخمر بين الضربة والضربة ، متحدثين بالايطالية ، ولكن في اقتصاد ، مركّزين اهتمامنا على اللعب . وحين سجّل الكونت غريفي نقاطه المئة كنت أنا قد سجلت ، برغم النقاط التي منحني اياها منذ البدء ، اربعاً وتسعين نقطة ليس غير . وابتسم الكونت ، وربّت على كتفي .

– « سوف نشرب الزجاجة الأخرى ، سوف تحدّثني حديث الحرب . »

وانتظرني حتى جلست ، فجلس .

وقلت :

– « سأحدّثك عن اىما شيء آخر . »

– « ألا تريد أن تحدّثني عن الحرب ؟ حسن . ما الذي طالعته في الفترة الاخيرة ؟ »

فقلت :

– « لم أطالع شيئاً . أنا أخشى أن أكون خاملاً جداً . »

– « أوه ، ولكن عليك أن تطالع . »

– « وهل ثمة في ايام الحرب انتاج ادبي جدير بالقراءة ؟ »

– « هناك كتاب « النار » للكاتب الفرنسي باربوس ، و « مستر بريتلنغ يرى من خلالها . » * »

– « لا. انه لا يرى شيئاً. »

– « ماذا ؟ »

– « انه لا يرى شيئاً . هذان الكتابان كانا في المستشفى . »

---

* احد مؤلفات هـ.ج . ويلز. (المعرب)

— « اذن [illegible] بطالع [illegible] »

— « أجل [illegible] ما طالعته لم يكن صالحاً البتة . »

— « لقد وجدت [illegible] « مستر بريتلنغ » دراسة جيدة لروح الطبقة الوسطى . »

— « أنا لا أعرف شيئاً عن الروح . »

— « ياللك من فتى مسكين. إن أحداً منا ، نحن الاثنين ،لا يعرف شيئاً عن الروح . هل أنت مؤمن ؟ »

— « في الليل فقط . »

وابتسم الكونت غريفي . وأدار الكأس بأصابعه ، وقال :

— « كنت قد توقعت ان أصبح أكثر تقوى كلما تقدّمت بي السن ولكن ذلك لم يتم . ان هذا مؤسف جداً . »

وسألته :

— « هل ترغب في ان تحيا بعد الموت ؟ »

واستشعرت في الحال ان اشارتي هذه الى الموت كانت حماقة. ولكن الكلمة لم تزعجه، وقال :

— « يتوقف ذلك على الحياة . هذه الحياة حلوة جداً . واني لأتمنى لو أعيش الى الأبد . »

وابتسم ثم أضاف :

— « ولقد كدت أحقق ذلك في الواقع . »

كنا جالسين على كرسيين جديدين عميقين ، وكانت الشامبانيا في دلو الثلج وكأسانا بيني وبينه على المائدة .

— « لو قدّر لك ان تبلغ من السن مبلغي اذن لألفيت كثيراً من الأشيـاء بالغة الغرابة . »

— « أنت لا تبدو عجوزاً البتة . »

— « إن جسدي هو الذي أمسى عجوزاً . وإني لأخشى في بعض الاحيان أن أكسر اصبعاً من أصابعي كما يكسر المرء إصبع طباشير. ولكن روحي ليست أعلى سناً ، ولا أكثر حكمة . »

— « أوه ، ولكنك رجل حكيم . »

— « لا . تلك هي المغالطة العظمى : حكمة الشيوخ . إن السن لا تجعلهم حكماء . إنها تجعلهم أكثر حذراً . »

— « لعل هذا هو الحكمة بعينها . »

— « إنها حكمة مستهجنة . ما الذي يستأثر بأعظم حظ من تقديرك ؟ »

— « شخص أحبه . »

— « وأنا مثلك . هذه ليست حكمة . هل تقدّر الحياة ؟ »

— « نعم . »

— « وكذلك أنا . لأنها كل ما أملكه . ولأنها تمكّنني من احياء السهرات احتفالاً بذكرى ميلادي » .

وضحك ثم أضاف :

— « لعلك أكثر حكمة مني .أنت لا تقيم السهرات احتفالاً بذكرى ميلادك.»

ورشف كل منا شيئاً من الخمر .

وسألته :

— « وما رأيك في الحرب ،بصراحة ؟»

— « أنا أعتقد أنها حماقة . »

— « ومن سيكسبها ؟ »

— « ايطاليا . »

— « لماذا ؟ »

— « انها أمة أكثر فتاء وأنضر شباباً . »

— « وهل تكسب الامم الفتية الحروب دائماً ؟ »

— « انها خليقة بأن تكسبها طوال فترة من الزمن . »

— « وبعد ذلك ما الذي يحدث ؟ »

— « إنها تصبح أمماً عالية السن . »

— « وتزعم انك لست حكيماً ... »

— « هذه ليست حكمة ، ايها الفتى العزيز . هذه سخرية . »
— « إنها تبدو لي حافلة بالحكمة . »
— « ليس كثيراً . وفي استطاعتي ان أعطيك أمثلة معاكسة . ولكنها ليست رديئة . هل أتينا على الشامبانيا ؟ »
— « تقريباً . »
— « هل نشرب قدْراً إضافياً ؟ يتعيّن عليّ بعد ذلك ان ارتدي ملابسي : »
— « من الخير لنا أن لا نشرب قَدْراً اضافياً الآن . »
— « أواثق أنت من أنك لا ترغب في قدْر اضافي ؟ »
— « أجل . »
ونهض وقال :
— « أتمنى لك حظاً طيباً وسعادة عظيمة ، وصحة موفورة الى أبعد الحدود . »
— « شكراً . وأنا أتمنى لك أن تعيش الى الابد . »
— « شكراً . لقد فزتُ بذلك . واذا ما قُدّر لك ذات يوم أن تصبح تقيّاً فصلّ من أجلي حين أموت . إني أسأل كثيراً من أصدقائي أن يفعلوا الشيء نفسه . ولقد توقعت في يوم من الأيام أن أغدو أنا تقياً ولكن ذلك لم يتمّ . »
وخُيّل اليّ أنه ابتسم ابتسامة محزونة ، ولكني لم أكن واثقاً . فقد كان هرماً متغضّن الوجه الى درجة جعلت الابتسامة تشوّه كثيراً من أساريره وتضيع ظلال المعنى كلها .
وقلت :
— « قد أصبحُ تقيّاً جداً . وعلى كل حال ، فسوف أصلّي من أجلك . »
— « لقد توقّعتُ دائماً أن أصبح تقياً . لقد مات أفراد أسرتي كلهم بعد أن بلغوا مرتبة عالية من التقى . ولكني لم أوفق الى شيء من ذلك لسبب من الاسباب . »
— « أعتقد ان الوقت لمّا يحن بعد . »
— « بل لعلّ الأوان قد فات . لعلي اجتزت سنّ الأحاسيس الدينية . »

— « ان عواطفي الدينية لا تستيقظ الا في الليل . »

— « اذن فأنت عاشق أيضاً . لا تنسَ أن الحب عاطفة دينية . »

— « هل تعتقد ذلك ؟ »

— « طبعاً . »

وخطا خطوة نحو المائدة وقال :

— « لقد كان لطفاً منك أن تلاعبني . »

— « لقد فزتُ بمتعة بالغة . »

— « سوف نرتقي السلم معاً . »

الفصل السادس والثلاثون

وفي تلك الليلة ، هبت عاصفة ، وأفقت على صوت المطر وهو يجلد زجاج النافذة بسياطه . كان يتسرب من خلال النافذة المفتوحة. وقرع شخص الباب، ومضيت الى الباب في رفق ، لكي لا أوقظ كاثرين ، وفتحته. كان المشربـي واقفاً هناك ، وكان مرتدياً معطفه ، ممسكاً بقبعته الندية في يده .

— « هل أستطيع أن أقول كلمة ، أيها الملازم ؟ »

— « ما المسألة ؟ »

— « انها مسألة خطيرة جداً . »

وأجلت البصر في ما حولي . كانت الغرفة مظلمة . ورأيت الماء على أرضها قرب النافذة . وقلت :

— « أدخل . »

وأمسكت به من ذراعه وقُدْته الى الحمام، وأوصدت الباب، وأشعلت النور، ثم اني جلست على حافة المغطس .

— « ما المسألة يا اميليو ؟ هل أنت في خطر ؟ »

— « لا . ولكنك أنت في خطر ، أيها الملازم . »

— « ماذا ؟ »

— « سوف يعتقلونك صباحاً . »

— « ماذا ؟ »

— « لقد جئت لأخبرك. كنت في المدينةوسمعتهم يتحدثون في أحد المقاهي. »

ووقف هناك ، مبلّل المعطف ، ممسكاً بقبعته الندية في يده ، ولم يقل شيئاً .

— « لماذا يريدون ان يعتقلوني ؟ »

— « الأمر متعلق بالحرب . »

— « أتعرف ما هو ؟ »

— « لا . ولكني أعرف انهم يعلمون انك كنت هنا من قبلُ في بزة ضابط وانك الآن هنا في الملابس المدنية . لقد أخذوا بعد هذا الانسحاب يعتقلون كل انسان . »

وفكرت لحظة .

— « ومتى سيأتون لاعتقالي ؟ »

— « في الصباح . لست أدري في أية ساعة على وجه الضبط . »

— « بمَ تشير عليّ ؟ »

ووضع قبعته في المغسل . كانت ندية جداً ، وكان الماء يقطر منها على الارض .

— « اذا لم يكن لديك ما تخافه فعندئذ لا يكون الاعتقال شيئاً ذا بال . ولكن الاعتقال بغيض الى النفس دائماً ، وبخاصة في هذه الايام . »

— « أنا لا أريد أن أعتقَل. »

— « إذهب اذن الى سويسرة . »

— « كيف ؟ »

— « في مركبي . »

فقلت :

— « هناك عاصفة . »

— « لقد هدأت العاصفة . البحيرة هائجة ولكنك سوف تكون في نجوة من الخطر . »

— « ومتى يتعين علينا أن ننطلق ؟ »

— « في الحال . قد يقبلون لاعتقالك في ساعة مبكرة من الصباح : »

— « وحقائبنا ؟ »

— « أعدّها في سرعة . واطلب الى السيدة أن ترتدي ملابسها . سوف أتولى أنا نقل الحقائب . »

— « وأين سنلقاك ؟ »

— « سوف أنتظركما هنا . أنا لا أريد أن يراني أحد هناك ، في الرواق : »

وفتحت الباب ، ثم أوصدته ، ومضيت الى الحجرة . كانت كاثرين قد استيقظت .

— « ما المسألة ، ايها الحبيب ؟ »

فقلت :

— « خير ، يا كاثرين . هل لك ان ترتدي ملابسك في الحال وتذهبي الى سويسرة على متن مركب ؟ »

— « وأنت ؟ »

فقلت :

— « أنا ؟ اني أفضل العودة الى السرير : »

— « ولكن ما الذي جرى ؟ »

— « يقول المشربيّ انهم سوف يعتقلونني في الصباح . »

— « هل المشربيّ مخبول ؟ »

— « لا . »

— « اذن أرجوك ان تعجل ، ايها الحبيب ، وان ترتدي ملابسك لكي يكون في امكاننا ان ننطلق . »

ونهضت قاعدة على جانب السرير . كان النعاس لا يزال يداعب عينيها . وأضافت :

— « هل المشربيّ في الحمام ؟ »

– « نعم . »

– « إذن ، فلن أغتسل . أرجوك أن توجّه وجهك الى الناحية الأخرى ، أيها الحبيب . ولسوف أرتدي ملابسي في دقيقة واحدة ليس غير . »

وحين خلعت منامتها وقع بصري على بياض ظهرها ، وما لبثت أن أشحت بوجهي عنها لأنها ارادت أن أفعل ذلك . كان الجنين قد ضخّم جسمها بعض الشيء ، ولم تكن راغبة في أن أراها . وارتديت ملابسي على وقع المطر المنهمر على النوافذ . ولم يكن لديّ أشياء كثيرة أضعها في حقيبتي .

وقلت :

– « ان في حقيبتي متسعاً كبيراً ، يا كاثرين ، اذا كنت في حاجة الى ذلك . »

فقالت :

– « كدتُ أنتهي من حزم أمتعتي . ايها الحبيب ، سوف تجد اني بلهاء الى حد فظيع ، ولكن ما الذي يفعله المشربيّ في الحمام ؟ »

– « هش ! انه ينتظرنا ليحمل حقيبتينا الى تحت . »

– « انه رجل لطيف جداً . »

فقلت :

– « انه صديق قديم . ولقد أرسلت اليه ، تقريباً ، مقداراً من تبغ البيبة في يوم من الايام . »

وأطللت من النافذة المشرعة وسرّحت بصري في الظلام الدامس . ولم أستطع أن أرى البحيرة . كل ما رأيته كان الظلامَ والمطر ، ولكن الريح كانت قد أمست أكثرَ هدوءاً .

وقالت كاثرين :

– « أنا على استعداد ، أيها الحبيب . »

– « حسن . »

ومضيت الى باب الحمام .

وقلت ·

— « دونك الحقيبتين يا اميليو . »
وحمل المشربي الحقيبتين .
وقالت كاثرين :
— « إن مساعدتك إيانا تنمّ عن طيبة بالغة . »
فقال المشربيّ :
— « هذا شيء لا يستحق الذكر ، ايها السيدة . أنا سعيد أن أساعدكما ضمن النطاق الذي لا يورّطني بأي بلاء . إسمعْ » . والتفت اليّ ، « سوف أحمل الحقيبتين وأهبط بهما السلم الخاص بالخدم . ثم أمضي الى المركب . وليس عليكما إلا أن تغادرا الغرفة وكأنكما تعتزمان التنزّه سيراً على الاقدام . »
فقالت كاثرين :
— « إنها ليلة رائعة جديرة بنزهة . »
— « بل انها ليلة بغيضة في الواقع . »
فقالت كاثرين :
— « يسعدني أن يكون معي مظلة . »
واجتزنا الرواق وهبطنا السلم العريضة المكسوة ببساط كثيف . وفي أدنى السلم ، قرب الباب ، كان البواب جالساً الى مكتبه .
وما إن رآنا حتى استبد به الذهول ، وقال :
— « أنت لا تعتزم الخروج من الفندق الآن ، يا سيدي ؟ »
فقلت :
— « بلى نحن نعتزم أن نشهد العاصفة وقد هبّت على سطح البحيرة . »
— « أليس عندك مظلة يا سيدي ؟ »
فقلت :
— « لا . هذا المعطف يذود عني المطر . »
فنظر إليّ في ارتياب وقال :
— « سوف آتيك بمظلة ، يا سيدي . »

وانطلق ثم رجع حاملاً مظلة كبيرة وقال :

ــ « انها كبيرة بعض الشيء ، يا سيدي . »

فأعطيته عشرة ليرات ايطالية وقلت :

ــ « أوه ، أنت رجل طيب جداً . أشكرك كثيراً . »

وفتح الباب ، وأبقاه مفتوحاً حتى انطلقنا تحت المطر . وابتسم لكاثرين ، وابتسمت له . وقال :

ــ « لا تقفا في وجه العاصفة . إنكما إن فعلتما تبللت ملابسكما ، يا سيدي ويا سيدتي . »

إنه لم يكن غير البواب الثاني . وكانت انكليزيته مترجمة ترجمةً حرفية . وقلت :

ــ « سوف نرجع عما قريب . »

وهبطنا المجاز مستعينين بالمظلة العملاقة ، وتقدّمنا عبر الحدائق الندية المظلمة الى الطريق ، واجتزنا الطريق الى المجاز المعرّش * على طول البحيرة . كانت الريح تهب الآن بعيداً عن الشاطيء . وكانت ريحاً باردة ندية من رياح نوفمبر ، ولقد أدركتُ ان الثلج كان يتساقط على الجبال . واجتزنا بالمراكب المقيدة بالسلاسل في مزالقها القائمة على طول الرصيف ، حتى وصلنا الى حيث كان مركب المشربيّ . كانت المياه داكنة إزاء الحجارة . ووثب المشربيّ من وراء صف الاشجار .

وقال :

ــ « الحقيبتان في المركب . »

فقلت :

ــ « أريد أن أدفع اليك ثمن المركب . »

ــ « ما مقدار ما معك من النقود ؟ »

ــ « شيء قليل . »

---

* الذي تكتنفه العرائش .

— « في استطاعتك ان تبعث اليّ بالمال في ما بعد . لا بأس . »
— « كم ؟ »
— « ما تشاء . »
— « قل لي كم . »
— « اذا وفقتما الى النجاة فأرسل اليّ خمسمئة فرنك . إنك لن تستكثر ذلك اذا وفّقت الى النجاة . »
— « حسن . »
— « خذ هذه الساندويشات . » وقدّم اليّ رزمة ، « هذا كل ما كان في المشرب . لقد أمسى كله بين يديك . وهذه زجاجة براندي وهذه زجاجة خمر . »
ووضعتها في حقيبتي وقلت :
— « دعني أدفع اليك ثمن هاتين . »
— « حسناً . أعطني خمسين ليراً . »
وأعطيته ما طلب .
وقال :
— « البراندي جيدة . لا داعي لأن تخشى تقديمها الى زوجتك . ومن الخير لها الآن أن تمتطي متن المركب . »
وأمسك بالمركب ، وكان يرتفع وينخفض في محاذاة الجدار الحجري ، وساعدتُ كاثرين على امتطاء متنه . لقد جلستْ في مؤخرة المركب ، وتدثّرتْ بمعطفها .
— « أنت تعرف الاتجاه ؟ »
— « أجل . يتعيّن علينا أن نصعّد في البحيرة . »
— « وتعرف حتى أية نقطة ؟ »
— « الى ما وراء لوينو . »
— « الى ما وراء لوينو ، وكانّيرو ، وكانّوبيو ، وترانزانو . انك لن تبلغ سويسرة حتى تنتهي الى بريسّاغو . إن عليك ان تجتاز مونت تامارا . »

وسألتني كاترين :

— « كم الساعة ؟ »

فقلت :

— « الحادية عشرة ليس غير . »

— « اذا جذفت على نحو موصول فعندئذ تصل الى هناك حوالى الساعة السابعة صباحاً . »

— « أهي بعيدة الى هذا الحد ؟ »

— « انها تقع على مسافة خمسة وثلاثين كيلو متراً . »

— « وكيف نضمن الا نضلّ السبيل ؟ كان ينبغي آن يكون معنا ، في هذا المطر ، بوصلة . »

— « لا . جذّف الى ايزولا بيلاّ . حتى اذا بلغت الجانب الآخر من « ايزولا مادر » تعيّن عليك أن تساير الريح في اتجاهها . ان الريح سوف تقودك الى بالانترا . وهناك سترى الاضواء . وبعد ذلك لن يكون عليك إلا التجذيف في محاذاة الشاطيء . »

— « واذا غيّرت الريح اتجاهها ؟ »

فقال :

— « لا . هذه الريح سوف تحتفظ باتجاهها ذاك ثلاثة ايام . إنها تهب من ماتارون مباشرة . ان لديك هنا صفيحة تستطيع أن تصطنعها لتحرير المركب من الماء . »

— « دعني أدفع اليك شيئاً من ثمن المركب الآن . »

— « لا . أنا أوثر ان أغامر . اذا وفقت الى النجاة فادفع اليّ كل ما تستطيع أن تدفعه . »

— « حسن . »

— « يخيل اليّ انك لن تغرق . »

— « هذا شيء جيد . »

— « إتجه مع الريح دائماً . »

— « حسن . »
ووثبتُ الى المركب .
— « هل تركتَ شيئاً من المال تسديداً لفاتورة الفندق ؟ »
— « أجل . طيّ ظرف في الغرفة . »
— « حسن . أتمنى لك حظاً سعيداً ، أيها الملازم . »
— « حظاً سعيداً . نحن نشكرك كثيراً . »
— « انكما لن تشكراني اذا ابتلعتكما اللجة . »
وسألتني كاثرين :
— « ماذا يقول ؟ »
— « انه يتمنى لنا حظاً سعيداً . »
فقالت كاثرين :
— « حظاً سعيداً . أشكرك شكراً جزيلاً . »
— « هل انتما على استعداد ؟ »
— « نعم . »

وانحنى ، ودفع المركب الى الماء . وأغرقت المجذافين في الماء ، ثم لوّحت له بأحدى يدي . فلوّح لي المشربيّ مستنكراً . وبصُرْتُ بأضواء الفندق، ورحت أجذّف مبتعداً عن الشاطيء ، في خط مستقيم ، حتى غابت عن ناظري . كانت البحيرة هائجة . ولكنّا كنا ننطلق في اتجاه الريح .

الفصل السابع والثلاثون

وجذّفت في الدجنة مسايراً الريح على نحو موصول . كان المطر قد انقطع فهو لا يهطل إلا في دفقات موجزة بين الفينة والفينة . كانت الظلمة دامســـة ، وكانت الريح باردة . وكان في ميسوري ان ارى كاثرين جالسة في مؤخـــر المركب . ولكني لم أكن قادراً على رؤية المياه التي خوّض فيها نصلا المجذافين . وكان المجذافان طويلين ، ولم يكن ثمة أطواق من الجلد تقيهما شر الانزلاق ، وجذّفت ،وتصدّرت ،وانحنيت الى أمام،وتبيّنت الماء، وغطّست المجذافين، ورحت أجذّف أيسر ما استطعت التجذيف. ولم أكلّف نفسي عناء رفـــع نصْلَيْ المجذافين على نحو أفقي لأن الريح كانت تجري بما نشتهي . كنت أعلم ان يديّ سوف تتقرّحان، وكنت أطمع في إرجاء ذلك أطول مدة ممكنة . كان المركب خفيفاً ، وكان يتقدم في يسر . وخضتُ غمار المياه المظلمة . لقد عميت فلست أرى شيئاً ، وكنت أرجو أن ننتهي وشيكاً الى بالانترا .

ولكنا لم نرَ بالانترا قط . كانت الريح تهب مصعّدة في البحيرة ، واجتزنا الرأس الذي يُخفي بالانترا في الظلام ، ولم نرَ الاضواء قط : حتى اذا رأينـــا آخر الأمر بعض الأضواء ، على مقربة دانية من الشاطىء ، كانت تلك هـــي إنترا . ولكنا لم نعد نرى ، طوال فترة غير قصيرة ، أيما أضواء ، ولم نعــد

نرى الشاطيء ايضاً ، بل جذّفنا في غمرة من الظلام تجذيفاً موصولاً ، وقد حملتنا الأمواج على متونها . وفي بعض الاحيان ، كنت أخطيء المياه بمجذافيّ ، وسط الدجنة، فيا كانت موجة ترفع المركب وتحمله على متنها. كانت البحيرة هائجة جداً ، ولكني واصلت التجذيف حتى أصبحنا ، فجاءةً ، على مقربة دانية من البحيرة عند رأس صخرة ارتفعت الى جانبنا . كانت الامواج تتلاطم فوقها ، واثبة الى أعلى ، ثم ترتد عنها خائبة . وركزت جهدي على المجذاف الايمن ، ورددت المياه بالأيسر ، واندفعنا الى البحيرة من جديد . لقد غاب الرأس عن أنظارنا ، وكنا نصعّد في البحيرة تصعيداً .

وقلت لكاترين :

— « لقد أمسينا في وسط البحيرة . »

— « أما كان من المفروض ان نرى بالانتزا ؟ »

— « لقد أخطأناها . »

— « كيف أنت، أيها الحبيب ؟ »

— « عظيم . »

— « في استطاعتي أن أجذّف عنك بعض الشيء . »

— « لا. أنا ما زلت نشيطاً . »

فقالت كاترين :

— « مسكينة فيرغوسون ! سوف تفِدُ في الصباح على الفندق وتكتشف أننا قد مضينا لسبيلنا . »

فقلت :

— « ان هذا لا يشغل بالي بقدر ما يشغله أمر الوصول الى الجزء السويسري من البحيرة قبل انبلاج الصبح ، وقبل ان تقع أعين الحرس الجمركي علينا . »

— « وهل لا يزال ذلك الجزء من البحيرة بعيداً ؟ »

— « انه يبعد ثلاثين كيلومتراً تقريباً عن هذه النقطة . »

* * *

وجذّفت طوال الليل . وأخيراً تقرحت يداي الى درجة كاد يتعذّر عليّ معها أن أطبقهما على المجذافين . وكدنا نصطدم بالشاطيء مرات عديدة اصطداماً يسحقنا سحقاً. وانما حاولت التزام الشاطيء، جهد الطاقة، لاني كنت أخشى أن أتيه في البحيرة وأن أضيع الوقت. ولقد اقتربنا، في بعض الأحيان، من الشاطيء بحيث كان في ميسورنا ان نرى صفاً من الأشجار ، والطريقَ الممتدة على طول الشاطيء وقد انتصبت الجبال خلفها . وكف المطر عن التهطال ، وساقت الريح الغيـوم حتى لقد شعّ القمر من خلالها . والتفتّ الى الوراء فرأيت رأس كاستانيولا الطويل المظلم ، والبحيرةَ مزبدة الامواج ، والقمرَ فوق الجبال الشامخة المعتمرة بالثلج . ثم ان الغيوم حجبت القمر كرة أخرى ، وغابت الجبال وغابت البحيرة عن البصر ، ولكن الظلمة كانت أضأل من ذي قبل بكثير ، فكان في ميسورنا ان نرى الشاطيء . لقد رأيته في وضوح بالغ ، فانطلقت الى حيث لا يستطيعون أن يروا المركب اذا ما كان جماعة من رجال الحرس الجمركي يراقبون طريق بالانترا . وحين برز القمر من وراء الحجاب ، كرة أخرى ، غدا في استطاعتنا ان نرى على الشاطيء، عند سفوح الجبال ، دارات بيضاء ، وان نرى الطريق البيضاء حيث تبدّت من خلال الاشجار . وطوال الوقت كنت أجذف على نحو موصول .

واتسعت البحيرة ، وعَبْرَها على الشاطيء ، عند سفوح الجبال من الجانب الآخر ، رأينا بضعة أضواء . إنها لوينو من غير ريب . ورأيت الفجوة الوتدية بين الجبال على الضفة الأخرى وقلت إن هذه هي لوينو من غير ريب أيضاً . فاذا كانت هي لوينو فمعنى ذلك اننا اجتزنا مسافة واسعة . ورفعت المجذافين واستلقيت على المقعد . كنت متعباً من التجذيف الى حد لا يوصف . كـــان الألم يعصف بذراعيّ وكتفيّ وظهري . وكانت يداي متقرّحتين .

وقالت كاثرين :

— « في استطاعتي أن أحمل المظلة . وفي ميسورنا أن نتخذ منها شراعـــاً ونطلق مع الريح . »

— « هل تستطيعين ادارة الدفة ؟ »
— « أظن ذلك . »
— « خذي هذا المجذاف ، وضَعيه تحت ذراعك على مقربة دانية من جانب المركب ، وأديري الدفة . ولسوف أحمل أنا المظلة . »

وارتددت إلى مؤخر المركب وأريتُها كيف تمسك بالمجذاف . وتناولتُ المظلة الضخمة التي كان البواب قد قدّمها إلي ، وقعدتُ مواجهاً صدرَ المركب ، وفتحتها . فانفتحت محدثةً صوتاً حاداً . وأمسكت بها من جانبيها ، مباعداً ما بين قدميّ ، وقد عُلّق مقبضها بالمقعد . وانتفخت المظلة بالريح ، واستشعرت أن المركب ينطلق إلى أمام فيما كنت أمسك بجانبي المظلة بأقصى ما استطعت من الأحكام . كانت الريح تدفع المركب دفعاً عنيفاً . ولقد جرى المركب في خفة ورشاقة .

وقالت كاثرين :

— « نحن ننطلق انطلاقاً رائعاً . »

كان كل ما رأيته هو اضلاع المظلة . وتوترت المظلة ،ودفعَتْ ، واستشعرتُ أنها تسوقنا سوقاً .وجمعت ما بين قدميّ وحاولت التشبث بها . وفجأةً ، التوت وأصبح باطنها ظاهرَها.واستشعرتُ أحدَ أضلاعها يصدم جبيني . وحاولت التقاط الجزء الأعلى المتلوي مع الريح ، ولكنه كان منقلباً تماماً ، ووجدتُ نفسي مباعداً ما بين ساقيّ عند مقبض مظلة ممزقة تمزيقاً ، هناك حيث أمسكت قبل لحظة شراعاً منتفخاً بالريح. وحررتُ المقبض من المقعد ، ووضعت المظلة في مقدّم المركب،وارتددت إلى كاثرين التماساً للمجذاف . كانت تضحك . وأمسكتْ بيدي ، وواصلت ضحكها .

وتناولتُ المجذاف وقلت :

— « ما بالك ؟ »
— « لقد بدوتَ مضحكاً جداً وأنت ممسك بتلك المظلة . »
— « أحسب ذلك . »

— « لا تغضب ، أيها الحبيب . لقد كان ذلك مضحكاً إلى حدّ رهيب :
لقد بَدَوْتَ وكأن عرْضك يبلغ عشرين قدماً،وكنت شفيقاً جداً وأنت تمسك المظلة من طرفيها ... »

وغَصّت بريقها .

— « سوف أجذّف . »

— « إسترح قليلاً واشرب كأساً . إنها ليلة ساحرة ، ولقد اجتزنا مسافة صالحة . »

— « يتعين عليّ أن أجنّب المركب غائلةَ منخسفات الموج. »

— « سوف آتيك بكأس . إذن استرحْ قليلاً ، أيها الحبيب . »

ورفعتُ المجذافين إلى أعلى متخذاً منهما شراعين . كانت كاثرين تفتح الحقيبة . وقدّمتْ إليّ زجاجة البراندي.ونزعتُ السدادة بمديتي الجيبيّة ، وأخذت جرعةً طويلة . كانت عذبة وحارّة ، ودبّت الحرارة في أوصالي واستشعرتُ الدفء والبهجة . وقلت :

— « إنها براندي رائعة ! »

كان القمر قد احتجب من جديد ، ولكني استطعت ان ارى الشاطئ :
لقد بدا وكأن ثمة ، أمامنا ، رأس آخر بعيد جداً .

— « هل تنعمين بقَدْر كافٍ من الدفء ؟ »

— « أنا في حال ممتازة . اني استشعر التصلب بعض الشيء . »

— « أفرغي اذن هذه المياه من جوف المركب،وفي استطاعتك أن تمدي رجليك . »

ثم اني جذفت ، وأصخت إلى ركيزتَيْ المجذافين وإلى صوت الصفيحة وهي تغرف المياه من تحت المقعد القائم في مقدم المركب .

وقلت :

— « هل تسمحين لي بهذه الصفيحة ؟ أنا أريد أن أشرب . »

— « ولكنها قذرة إلى حد رهيب . »

— « لا بأس.سوف أغسلها . »

وسمعت كاثرين تغسلها من فوق حافة المركب. ثم إنها قدّمتها إليّ ملأى بالماء . كنت ظمئاً بعد البراندي ، وكان الماء ثلجيّ البرودة ؛ كان بارداً جداً حتى لقد أوقع الألم في أسناني . وتطلعتُ إلى الشاطئ . كنا قد أمسينا أكثر قرباً إلى الرأس الطويل . ولم يكن ثمة أضواء في الخليج الذي أمامنا .

وقلت وأنا أعيد اليها الصفيحة :

— « شكراً . »

فقالت كاثرين :

— « في خدمتك دائماً . إن ثمة مقداراً اضافياً إذا شئت . »

— « ألا تريدين أن تأكلي شيئاً ؟ »

— « لا . سوف استشعر الجوع عما قريب . يجب أن نحتفظ بزادنا إلى تلك اللحظة . »

— « حسن . »

إن ما بدا لنا وكأنه رأس لم يكن غير أكمة بحرية طويلة شاهقة . وامعنت في الابتعاد عن الشاطئ اجتناباً لها . وكانت البحيرة قد ضاقت الآن أكثر بكثير . وبرز القمر من وراء الحجاب كرة أخرى، وكان في ميسورالحرس أن يروا مركبنا على نحو واضح إذا مـا كانوا يراقبون الشاطئ .

وسألتها :

— « كيف أنتِ ، يا كاث ! »

— « بخير . أين نحن ؟ »

— « احسب انه لم يبق أمامنا غير ثمانية أميال أخرى . »

— « يعني انه سوف يتعين عليك أن تجذف هذه المسافة الطويلة كلها ، أيها الحبيب البائس . ألم تمت من التعب .؟ »

— « لا . أنا لا أزال نشيطاً . لقد تقرحت يداي ليس غير . »

وتابعنا تقدمنا مصعّدين في البحيرة. كان ثمة انقطاع في سلسلة الجبال القائمة على الضفة اليمنى ،وانبساط في الأرض مع خط ساحليّ منخفض قدّرتُ أنه كانّوبيو من غير ريب.وحرصت على البقاء بعيداً عن الشاطئ جهد الطاقة، لأن خطر التقائنا بالحرس كان قد أمسى على أشده . وعلى الضفة الأخرى، تجاهنا ، انتصب جبل شامخ ذو قمة أشبه بالقبة . وألمّ بي التعب . ان المسافة التي كان عليّ أن أجتازها مجذّفاً لم تكن طويلة،ولكن حين يكون المرء في مثل البلاء الذي كنا نعانيه تتراءى له طويلةً حقاً . وأدركت ان عليّ أن أجتاز ذلك الجبل وأصعّد في البحيرة خمسة أميال أخرى على الأقل قبل أن نبلغ المياه السويسرية . كان القمر قد غاب الآن ، تقريباً ، ولكنْ قبل غيابه تلبّدت الغيوم في السماء كرة أخرى ، وأمست الظلمة دامسة . وبقيتُ في عرض البحيرة . وبين الفينة والفينة كنت أكفّ عن التجذيف ، وأستريح ، ممسكاً بالمجذافين على نحو جعل الريح تلطم نصلَيْهما .

وقالت كاثرين :

— « دعني أجذف فترة قصيرة . »

— « لست أظن ان ذلك يناسبك . »

— « هراء . ان التجذيف سوف ينفعني . وخليقٌ به أن يقيني من التصلب . »

— « أعتقد أن من الخير لك ألاّ تقدمي على ذلك . »

— « هراء . التجذيف في اعتدال مفيد جداً للسيدة الحامل . »

— « حسن. جذفي اذن في اعتدال.سوف أمضي إلى مؤخر المركب، وعندئذ تتقدمين أنت إلى أمام . تمسّكي بحافتي المركب وانت تتقدمين . »

وقعدتُ في مؤخر المركب ، مرتدياً معطفي ،وقد التوى طوق قميصي إلى أعلى ، وراقبت كاثرين وهي تجذف . لقد جذّفت تجذيفاً حسناً جداً ، ولكن المجذافين كانا أطول مما ينبغي ،وكانا يزعجانها. وفتحتُ الحقيبة والتهمت ساندويشتين ، وأخذت جرعة من البراندي . وسرعان ما عاودني النشاط ، فتجرعت جرعة أخرى .

وقلت :

– « عندما تتعبين أخبريني بذلك . »

ثم أضفت بعد قليل :

– « حذار أن يصدم المجذاف بطنك . »

فقالت كاثرين بين تجذيفتين :

– « إذا حدث ذلك فعندئذ قد تصبح الحياة أكثر بساطة . »

وتجرعتُ جرعة ثالثة من البراندي .

– « كيف أنتِ الآن ؟ »

– « على خير حال . »

– « أنبأيني حين ترغبين في الكفّ عن التجذيف . »

– « حسن . »

وأخذت جرعة أخرى من البراندي ، ثم استعنتُ بحافّتَيْ المركب وتقدّمت إلى أمام .

– « لا . أنا أستمتع بذلك كثيراً . »

– « إرجعي إلى مؤخر المركب . لقد فزتُ بحظ كبير من الراحة . »

وبفضل البراندي جذّفتُ، فترة يسيرة ، في يسر واطّراد . ثم شرعت اضرب المجذاف ضربات خرقاء ، وسرعان ما عاودت التجذيفَ في سرعة وقوة ، وفي حلقي مذاق صفراء* رقيق أسمرناشئ عن مغالاتي في التجذيف بعنفٍ بعد الذي تجرعته من البراندي .

وقلت :

– « أعطيني شيئاً من الماء ، من فضلكِ . »

فقالت كاثرين :

– « ذلك شيء يسير . »

وقبل انبلاج الصبح شرعت السماء ترسل المطر رذاذاً . كانت الريح قد

* الصفراء : السائل الذي يفرزه الكبد .

همدت ، أو لعلّنا كنا قد اتّقيناها بالجبال التي طوقت مُنْحرّف البحيرة . وحين أدركت ان الضحى على وشك ان يرتفع حشدت كامل قواي وجذّفت في عنف وثبات . ولم أكن أعلم أين نحن ، وكنت تواقاً للوصول إلى الجانب السويسري من البحيرة . حتى إذا آذن الصبح بالانبلاج كنا على مقربة دانية من الشاطئ . لقد أصبح في ميسوري أن أرى الصخور والاشجار .

وقالت كاثرين :

— « ما هذا ؟ »

وأرحت جسدي على المجذافين وأصغيت . كان زورقاً بخارياً يشق طريقه في البحيرة على نحو مدوٍّ . واقتربت من الشاطئ ، ولزمتُ الهدوء . وغدا الدويّ أقرب الينا من ذي قبل ، ثم اننا بَصُرْنا بالزورق البخاري وراءنا بعض الشيء ، تحت المطر . كان في الجزء الخلفيّ منه اربعة من حرس الشواطئ . كانت قبعاتهم « الألبينية » تغطي جزءاً كبيراً من رؤوسهم ، وكانت اطواق معاطفهم مائلة إلى أعلى ، وكانت بنادقهم على مناكبهم . لقد بَدوا كلهم أنصاف نائمين في تلك الساعة المبكرة من النهار . وكان في ميسوري أن ارى اللون الأصفر على قبعاتهم ، والعلامات الصفراء على أطواق معاطفهم . وتابع الزورق البخاري تقدمه المدوّي ، وغاب وسط المطر عن العيان .

وجذفت مبتعداً عن الضفة . ذلك بأني ما كنت أريد ، وقد أصبحنا على هذا القرب كله من الحدود ، أن يوقفني أحد حراس الطرق . وبقيت حيث كان في ميسوري أن أرى الشاطئ ، وواصلت التجذيف ثلاثة أرباع الساعة تحت المطر المنهمر . وسمعنا دوي أحد الزوارق البخارية كرة أخرى ، واعتصمت بالهدوء حتى تلاشت ضجة المحرك عبر البحيرة .

وقلت :

— « أعتقد أننا في سويسرة ، يا كاث . »

— « حقاً ؟ »

— « لن نستطيع أن نتأكد من ذلك إلا بعد أن نرى القوات السويسرية . »

– « أو الاسطول السويسري . »

– « الاسطول السويسري ليس ، بالنسبة الينا ، فكاهة يُتندَّر بها . لعل الزورق البخاري الثاني الذي سمعناه جزء من الاسطول السويسري . »

– « إذا كنا في سويسرة فينبغي أن ننعم بفطور عظيم . ان لديهم رقاقات رائعة وزبدة ومربّى في سويسرة . »

* * *

كانت الشمس قد أشرقت الآن ، وكانت السماء ترسل مطراً رقيقاً . كانت الريح لا تزال تهب فوق البحيرة ، وكان في استطاعتنا أن نرى قمم الامواج المزبدة تبتعد عنا وتتجه إلى طرف البحيرة . لقد أصبحت واثقاً أننا في سويسرة . كان ثمة كثير من المنازل القائمة بين الاشجار ، على مَبعدة من الشاطئ . وفي نقطة أعلى ، كانت قرية ذات بيوت حجرية ، وبضع دارات ، وكنيسة . وكنت قد راقبت الطريق المحاذية للشاطئ بحثاً عن الحرس ، ولكني لم أجد أحداً . وأصبحت الطريق على مقربة دانية جداً من البحيرة ، الآن . وبصُرْتُ بجندي يغادر أحد المقاهي . كان يرتدي بذلة عسكرية خضراء ضارباً لونُها إلى الرماديّ ، وخوذة فولاذية مثل الألمان . وكان ذا وجه ناضر بالعافية ، وشاربٍ صغير هو بفرشاة الاسنان أشبه .

والتفت الجندي الينا .

وقلت لكاثرين :

– « لوّحي له بيدكِ . »

فلوحَتْ له ، فابتسم مرتبكاً ، وردّ التحية بمثلها . وجذّفتُ في تؤدة . كنا نجتاز بواجهة القرية المائية .

وقلت :

– « لا ريب في أننا اجترنا مسافةً واسعة داخل الحدود . »

– « نريد أن نتأكد ، أيها الحبيب . نحن لا نريد أن يعيدونا إلى إيطالية . »

– « لقد خلّفنا الحدود وراءنا منذ برهة . وأنا أعتقد اننا الآن في المدينة

الجمركية . وإني لعلى مثل اليقين ان هذه هي بريساغو . »

— « ألن يكون هناك إيطاليون؟ إن المدينة الجمركية تحفل عادةً بجنود من الفريقين . »

— « ليس في أيام الحرب. أنا لا أعتقد أنهم يجيزون للايطاليين أن يعبروا الحدود . »

كانت مدينة صغيرة بهية الطلعة . وكانت تنتشر على طول الخليج قوارب صيد عديدة، وكانت الشباك منشورة على رفوف خاصة. كانت السماء ترسل مطراً نوفمبرياً ناعماً ، ولكنّ كل شيء بدا، برغم المطر ، مبتهجاً صافياً .

— « هل نهبط البر هنا ونتناول طعام الصباح ؟ »

— « لا بأس . »

وركزت جهدي على المجذاف الأيسر ، واقتربت من الضفة ، حتى إذا أمسينا في محاذاة الرصيف جعلتُ المركبَ في وضع مستقيم لكي يكون في ميسورنا أن ننتقل إلى اليابسة. ورفعت المجذافين، وأمسكتُ بحلقة حديدية، ووثبت إلى الحجارة الندية. كنت قد أصبحت الآن في سويسرة. وأوثقت المركب، وبسطتُ يدي إلى كاثرين .

— « هيا ، اصعدي يا كاث . إن بهجة غامرة لتضجّ في جوانحي . »

— « والحقيبتان ؟ »

— « اتركيهما في المركب . »

ووثبت كاثرين إلى اليابسة ، فاذا بنا معاً في سويسرة .

وقالت :

— « يا لها من بلاد جميلة ! »

— « اليس هذا رائعاً ؟ »

— « فلنذهب ونتناول طعام الصباح ! »

— « أليست بلاداً عظيمة ؟ أنا احبّ مَلْمَسها تحت حذائي . »

— « أنا من التصلب بحيث لا أستشعر ذلك في وضوح . ولكنْ يبدو لي أنها

بلاد رائعة ، أيها الحبيب . هل تدرك أننا هنا ، وأننا نجونا من ذلك المكان اللعين ؟ »
— « أنا أدرك ذلك . ادركه حقاً . أنا لم أدرك أيما شيء من قبل . »
— « أنظرْ إلى البيوت . أليست هذه الساحة رائعة ؟ ههنا مكان نستطيع أن نتناول فيه طعام الصباح . »
— « أليس المطر رائعاً ؟ إن ايطالية لم تعرف في يوم من الايام مثل هذا المطر . هذا المطر مبتهج . »
— « اننا في سويسرة ، أيها الحبيب ! هل تدرك أننا في سويسرة ؟ »
ودخلنا المقهى ، وجلسنا إلى مائدة خشبية نظيفة ، وقد عصف بنا ابتهاج مجنون . وأقبلت علينا امرأة بهيّة تبدو عليها سمات النظافة الفائقة ، امرأة ترتدي مئزراً ، وسألتنا أيّ شيء نريد ؟
فقالت كاثرين :
— « رقاقات ومربى وقهوة . »
— « آسفة . ليس عندنا رقاقات في أيام الحرب . »
— « ايتينا بشيء من الخبز ، اذن . »
— « في استطاعتي أن اعدّ لكما بعض الخبز المحمص . »
— « لا بأس . »
— « أريد بعض البيض المقليّ أيضاً . »
— « كم بيضة يريد السيد ؟ »
— « ثلاث . »
— « خذ أربعاً ، أيها الحبيب . »
— « أربع بيضات . »
ومضت المرأة لسبيلها . وقبّلتُ كاثرين وضغطت على يدها في إحكام ، ونظر كل منا إلى الآخر ، وإلى المقهى .
— « أيها الحبيب ، أيها الحبيب ، أليس هذا رائعاً ؟ »
فقلت :

— « إنه عظيم : »

فقالت كاثرين :

— « ليس يسوؤني أن لا يكون لديهم رقاقات. لقد فكرت في الرقاقات طوال الليل . ولكن ذلك لا يسوؤني . إنه لا يسوؤني على الاطلاق. »

— « يخيّل إليّ انهم سوف يعتقلوننا عما قريب . »

— « لا بأس ، أيها الحبيب . دعنا نتناول طعام الصباح أولاً. إنك لن تجد بأساً في الاعتقال بعد طعام الصباح . وإلى هذا ، فليس في استطاعتهم أن يفعلوا بنا شيئاً .فأنت مواطن أميركي وأنا مواطنة انكليزية، ونحن نسلك مسلكاً قانونياً . »

— « أنتِ تحملين جواز سفركِ ، أليس كذلك ؟ »

— « طبعاً . اوه ، فلنكفّ عن التحدث في هذا الموضوع. فلنأخذ بأسباب البهجة والسعادة . »

فقلت :

— « ليس في ميسوري أن أكون أعظم سعادة مني الآ ن . »

وتقدمت نحو مائدتنا هرة رمادية بدينة ذات ذَنَب منتصب وكأنه ريشة زينة ، ومسّت قدمي مسّاً رفيقاً ، وانشأت تموء . وانحنيت وأمررت يدي على وبرها مداعباً . وابتسمت كاثرين لي في بهجة غامرة . وقالت :

— « دونك القهوة . »

* * *

واعتُقلنا بعد طعام الصباح . لقد قمنا بنزهة صغيرة في القرية ، سعياً على الأقدام ، ثم هبطنا إلى الرصيف للأتيان بحقيبتينا . كان أحد الجنود يقوم بالحراسة قرب المركب .

— « أهذا مركبكما ؟ »

— « نعم »

— « من أين أقبلتما ؟ »

— « من أقصى البحيرة . »

– « في هذه الحال يتعين عليّ أن اسألكما المضيّ معي . »

– « وحقيبتانا ؟ »

– « في استطاعتكما أن تحملا الحقيبتين . »

وحملتُ الحقيبتين، ومشت كاثرين إلى جانبي، ومشى الجندي خلفنا إلى مركز الجمرك العتيق . وفي مركز الجمرك استجوبنا ملازم أول ، مهزول جداً ، عسكري الروح إلى حد بعيد .

– « ما جنسيتكما ؟ »

– « أميركي وبريطانية . »

– « اسمحا لي بأن أرى جوازَيْ سفركما . »

وقدمت اليه جوازي وأخرجت كاثرين جوازها من حقيبتها اليدوية .

ودرسَهما فترةً طويلة .

وقال :

– « لماذا دخلتما إلى سويسرة ، بهذه الصورة ، على متن مركب ؟ »

فقلت :

– « أنا رجل رياضي . والتجذيف رياضتي المفضلة . إني أجذف كلما أتيحت لي الفرصة . »

– « لماذا جئت إلى سويسرة ؟ »

– « من أجل رياضة الشتاء . نحن سائحان ، ونحن نريد أن نُسهم في رياضة الشتاء . »

– « إن الرياضة الشتوية لا تجري في هذا المكان . »

– « نحن نعرف ذلك . إننا نريد الذهاب إلى حيث تُجْرَى الرياضة الشتوية . »

– « ما الذي كنتما تفعلانه في ايطالية ؟ »

– « كنت أدرس فن العمارة . أما ابنة عمي فكانت تدرس فن الرسم . »

– « لماذا غادرتما تلك البلاد ؟ »

– « لقد اردنا التمتع بالرياضة الشتوية . إنّ المرء لا يستطيع دراسة الفن

المعماري ما دامت الحرب دائرة . »

فقال الملازم الأول :

— « أرجوكما أن تبقيا حيث أنتما . »

ومضى حاملاً جوازَيْنا .

وقالت كاثرين :

— « أنت رائع . إلزَم هذه الطريق . أنت تريد التمتع بالرياضة الشتوية . »

— « هل تعرفين شيئاً عن فن الرسم ؟ »

فقالت كاثرين :

— « روبنز . »

فقلت :

— « رجل ضخم بدين . »

فقالت كاثرين :

— « تيتيان . »

فقلت :

— « شعر أشقر . تيتيان الأشقر . وماذا تعرفين عن ما نتيغنا ؟ »

فقالت كاثرين :

— « لا تسأل اسئلة صعبة . أنا أعرفه برغم ذلك . رجلٌ فظ . »

فقلت :

— « فظ جداً . كثير من خروق المسامير . »

فقالت كاثرين :

— « وهكذا ترى أني سوف أكون زوجةً رائعة . سوف أكون قادرة على التحدث في الفن مع زبائنك . »

فقلت :

— « ها هو قد أقبل . »

واجتاز الملازم الأول المهزول مركز الجمرك وجوازا سفرنا في يده .

وقال :

— « يتعين عليّ أن ارسلكما إلى لوكارنو.في استطاعتكما أن تركبا عربةً ، ولسوف يصحبكما أحد الجنود إلى هناك . »

فقلت :

— « حسن . والمركب ؟ »

— « المركب مُصادَر . ماذا في هاتين الحقيبتين ؟ »

وفتح الحقيبتين وألقى نظرة على محتوياتهما ، وأخرج زجاجة البراندي.

فسألته :

— « أتحبّ أن تشرب معي كأساً ؟ »

فتصدّر وقال :

— « لا . شكراً . كم تحمل من المال ؟ »

— « الفين وخمسمئة لير . »

وعطفتَهُ رقةٌ . وأضاف :

— « وابنة عملك ، ما مبلغ المال الذي معها ؟ »

وكانت كاثرين تحمل الفاً ومئتي لير أو يزيد. وسُرّ الملازم الأول . وغدا مسلكه معنا أقلّ تشامخاً .

وقال :

— « إذا كنتما تلتمسان الرياضة الشتوية فأفضل مواطنها « وينغن » . إن لأبي فندقاً رائعاً جداً في « وينغن » . وهو يستقبل الضيف على مدار السنة . »

فقلت :

— « هذا شيء عظيم . هل تستطيع أن تعطيني اسمه ؟ »

— « سوف أكتبه لك على بطاقة . »

وقدم إليّ البطاقة في كثير من الكياسة .

— « إن الجندي سوف يرافقكما إلى لوكارنو.إنه سوف يحتفظ بجوازيكما. أنا آسف لهذا ، ولكنه ضروري . وان أملي لكبيرٌ بأنهم سوف يمنحوكما سمة

(فيزا) أو بطاقة اقامة في لوكارنو . »

ودفع الجوازين إلى الجندي . فحملنا الحقيبتين وانطلقنا إلى القرية بحثاً عن عربة .

ونادى الملازمُ الأول الجنديَّ :

— « هاي ! »

وقال له شيئاً ما بالألمانية . فتنكب الجندي بندقيته وحمل الحقيبتين.

وقلت لكاثرين :

— « إنها بلاد عظيمة . »

— « وبلادٌ عملية جداً ! »

وقلت للملازم الأول :

— « أشكرك شكراً كثيراً . »

فلوّح لي بيده ، وقال :

— « خدمة ! »

وتبعنا حارسنا إلى القرية .

وانطلقنا إلى لوكارنو في عربة ، وقد احتل الجندي المقعد الامامي مع السائق . وفي لوكارنو جرى كل شيء على ما يرام . لقد استجوبونا ،ولكنهم كانوا لطفاء لأننا كنا نملك جوازَيْ سفر ومالاً كثيراً . ولست أظن أنهم صدّقوا كلمة واحدة من قصتي ، ولقد وجدتُ أنا كل ذلك سخفاً وحماقة، ولكن الموقف كان أشبه بالذي يجري في المحاكم حيث لا يتطلب المرء شيئاً منطقياً معقولاً ، ولكن شيئاً تقنياً ،وحيث يتعين عليه ان يتشبث به من غير أيما تفسير . ولكننا كنا نحمل جوازي سفر ، ونحمل مالاً ننفقه . وهكذا منحونا سمةً موقتة. كانت هذه السمة عرضة للالغاء في أيّ لحظة.وكان علينا أن نتصل بمركز الشرطة حيثما ذهبنا .

هل كان في ميسورنا أن نذهب حيث شئنا ؟ أجل . إلى أين كنا نريد أن نذهب ؟

ـ « إلى أين تريدين أن تذهبي ، يا كاث ؟ »

ـ « إلى مونترو . »

فقال الموظف :

ـ « إنها موطن رائع جداً. وأنا أعتقد أنكما سوف تعجبان به . »

فقال موظف آخر :

ـ « ولوكارنو هذه ، حيث أنتما الآن ، رائعة جداً أيضاً . وأنا واثق انكما سوف تحبان الحياة هنا في لوكارنو حباً عظيماً . إن لوكارنو مدينة جذابة جداً. »

ـ « نريد مكاناً يستطيع المرء فيه الاستمتاع بالرياضة الشتوية . »

ـ « ليس في مونترو رياضة شتوية . »

فقال الموظف الآخر :

ـ « عفواً . أنا من أبناء مونترو .وليس من ريب في أن ضروب الرياضة الشتوية تجري عند سكة حديد مونترو ـ اوبرلاند ـ بيرنوا . أنت لا تستطيع أن تنكر ذلك . »

ـ « أنا لا أنكره. كل ما قلته هو هذا : ليس في مونترو رياضة شتوية . »

فقال الموظف الآخر :

ـ « أنا أشك في هذا . أنا أشك في صحة هذا الحكم . »

ـ « وأنا أتمسك بذلك الحكم . »

ـ « اني أشك في ذلك الحكم.فأنا نفسي تزلّجت بالزلاّقة * في شوارع مونترو . لقد نعمتُ بذلك ، لا مرةً واحدة ، ولكنْ مراتٍ عديدة. والتزلج بالزلاّقة رياضة شتوية من غير ريب . »

ـ « أيكون التزلج بالزلاقة هو مفهومك من رياضة الشتاء ؟ اؤكد لك انك ستنعم بمتعة بالغة، هنا في لوكارنو . سوف تجد المناخ صحياً،ولسوف تجد الضواحي جذابةً . انك ستعجب بها اعجاباً عظيماً . »

---

* اصطنعنا هذا التعبير مقابل فعل **luge** بالانكليزية و **luger** بالفرنسية ، ويختلف هذا النوع من التزلج عن التزلج العادي بأن المتزلج يقوم به قاعداً لا واقفاً . (المعرب)

— « لقد أبدى السيد رغبته في الذهاب إلى مونترو . »

فسألت :

— « وما التزلج بالزلاقة ؟ »

— « أرأيت ؟ انه لم يسمع حتى بالتزلج بالزلاقة ! »

لقد عنى سؤالي شيئاً كثيراً بالنسبة إلى الموظف الثاني . فقد سرّ به سروراً عظيماً .

وقال الموظف الأول :

— « التزلج بالزلاقة luge-ing هو التزلق tobogganing . »

فهز الموظف الثاني رأسه وقال :

— « اسمح لي أن أخالفك. يتعين عليّ أن أخالفك مرة أخرى . إن الـ toboggan تختلف اختلافاً كبيراً عن الـ luge . فالأولى تصنع في كندا من رقائق خشبية مسطحة. أما الثانية فزلاقة عادية تجري على مزالق . يجب على المرء أن يكون دقيقاً . »

فسألت :

— « أليس في استطاعتنا التزلق ؟ »

— « طبعاً . تستطيع ان تتزلق . تستطيع ان تتزلق أحسن ما يكون التزلق . ففي مونترو تباع « توبوغانات » كندية ممتازة. إن محل « الاخوان اوتشز » يبيع « التوبوغانات » . إنه يستورد « توبوغاناته » الخاصة . »

فأعرض الموظف الثاني وقال :

— « التزلق tobogganing يحتاج إلى مضمار piste خاص . ليس في استطاعتك أن تتزلق في مونترو . أين تعتزمون أن تنزلوا هنا . ؟ »

فقلت :

— « لسنا ندري. لقد جئنا بالعربة من بريساغو. العربة تنتظرنا في الخارج. »

فقال الموظف الأول :

— « انكما لن تخطئا إذا ذهبتما إلى مونترو. سوف تجدان المناخ بهيجاً جميلا.

ولسوف تجدان رياضة الشتاء على مقربة دانية منكما . »

فقال الموظف الثاني :

— « إذا كنتما ترغبان في رياضة الشتاء حقاً فاقصدا إلى إينغادين إو إلى مورّين . يتعين علي ان احتجّ على إغرائك بالذهاب إلى مونترو التماساً لرياضة الشتاء . »

— « في « ليه زافان »، فوق مونترو، سوف تقعان على مختلف ضروب الرياضة الشتوية . »

قال نصير مونترو ذلك ، وحدج زميله بنظرة مغضبة .

فقلت :

— « أيها السيدان ، يخيّل إليّ ان علينا أن نمضي . إن ابنة عمي متعبة جداً. ولسوف نذهب إلى مونترو على سبيل التجربة . »

فصافحني الموظف الأول وقال :

— « اني اهنئكما . »

فقال الموظف الثاني :

— « أعتقد انكما سوف تندمان على مغادرة لوكارنو. وعلى أية حال، فيتعيّن عليكما أن تقصدا إلى دائرة الشرطة في مونترو . »

فقال الموظف الأول :

— « أؤكد لكما انكما لن تجدا في دائرة الشرطة مضايقات ما. ولسوف تجدان جميع السكان هناك أصحاب كياسة وودّ . »

فقلت :

— « أشكركما كليكما شكراً جزيلاً. إننا نقدر نصيحتيكما حق قدرها. »

وقالت كاثرين :

— « وداعاً . إني أشكركما كليكما شكراً كثيراً . »

ورافقانا حتى الباب ، وهناك انحنيا لنا احتراماً ، وإن تكن انحناءة نصير لوكارنو باردة بعض الشيء . وهبطنا السلم وامتطينا متن العربة .

وقالت كاثرين :

– « يا الـهي ، ألم يكن في ميسورنا أن ننصرف بأسرع مما فعلنا ، ايها الحبيب ؟ »

وأعطيت الحوذيّ اسمَ واحد من الفنادق التي نصحني بها أحد الموظفين . وأمسك الحوذي بعنان الفرس .

وهنا قالت كاثرين :

– « لقد نسيتَ الجيش . »

كان الجندي واقفاً في جانب العربة. فقدمت اليه ورقة نقدية من فئة العشرة ليرات ، وقلت :

– « أنا لا أملك حتى الآن شيئاً من العملة السويسرية . »

فشكرني ، وأدّى لنا التحية ، ومضى لسبيله . و انطلقت العربة بنا، متجهة نحو الفندق .

وسألتُ كاثرين :

– « كيف اتفق لك ان اخترتِ مونترو؟ هل ترغبين في الذهاب إلى هناك فعلاً ؟ »

فقالت :

– « لقد كانت أول مكان خطر لي ببال.انها ليست رديئة . وفي استطاعتنا أن نجد مكاناً ما في الجبال . »

« هل أنتِ ناعسة ؟ »

– « أنا على وشك الاستسلام للرقاد . »

– « سوف ننعم بنوم عميق . مسكينة أنتِ يا كات،لقد قضيتِ ليلة طويلة مضنية . »

فقالت كاثرين :

– « بل لقد قضيتُ فترةً ممتعة.وبخاصة عندما اتخذتَ من المظلة شراعاً . »

– « هل تصدّقين أننا في سويسرة ؟ »

– « لا . أنا أخشى أن أستيقظ ويثبت لديّ أن هذا غير صحيح . »

— « وأنا أيضاً . »

— « ولكنه صحيح ، أليس كذلك ، أيها الحبيب؟ أنا لست متجهةً الآن إلى محطة القطار في ميلانو لتوديعك . »

— « أرجو أن لا يكون الأمر كذلك . »

— « لا تقل هذا. إنه يوقع الرعب في نفسي. من الجائز أن نكون ذاهبين إلى هناك . »

فقلت :

— « أنا ثمل إلى حدّ يتعذر عليّ معه أن أعرف . »

— « أرني يديك . »

وبسطتهما لها . كانتا كلتاهما متقرحتين .

وقلت :

— « إن جنبي غير مصاب بجرح ما . »

— « لا تمزح مزاحاً ينطوي على سخرية بالمقدّسات . »

واستشعرت تعباً شديداً ودُواراً في الرأس . كان ابتهاجي كله قد تلاشى . وكانت العربة تنطلق بنا في الشارع .

وقالت كاثرين :

— « يا لليدين البائستين ! »

فقلت :

— « لا تمسّيهما. وحق الآلهة، أنا لا أدري أين نحن . إلى أين نحن ذاهبون أيها الحوذي ؟ »

فأوقف الحوذي فرسه .

— « إلى أوتيل متروبول . ألا تريد أن تذهب إلى هناك ؟ »

فقلت :

— « بلى . حسن جداً ، يا كاث. »

— « حسن جداً ، أيها الحبيب . لا تقلق . سوف ننعم بنوم عميق، ولن

تشعر غداً انك ثمل . »

فقلت :

– « إني احسّ الآن اني ثمل إلى حد بعيد . لقد كان ما شهدناه اليوم أشبه بمغنّاة هزلية . لعلي جائع .. »

– « أنت متعَب ليس غير ،أيها الحبيب . ولا بدّ أن تستعيد نشاطك . »

ووقفت العربة أمام الفندق . وأقبل أحد الخدم ليحمل حقيبتينا :

وقلت :

– « احسّ اني بخير . »

كنا على الرصيف نتخذ سبيلنا إلى الفندق :

وقالت :

– « أنا واثقة أنك ستكون بخير. أنت متعَب ليس غير . لقد وقفتَ على قدميك فترة طويلة . »

– « مهما يكن من أمر ، فالشيء الثابت هو أننا هنا . »

– « أجل نحن هنا حقاً . »

وتبعنا الخادمَ الذي حمل الحقيبتين ، ودخلنا الفندق .

الكتاب الخامس

الفصل الثامن والثلاثون

ذلك الخريف أقبل الثلج في موعد متأخر جداً .لقد نزلنا في بيت خشبي أسمر تحيط به أشجار الصنوبر ، على كتف الجبل . وفي الليل كان الصقيع يُلم بالارض ، فكنا نفيق صباحاً لنجد طبقة جليدية رقيقة تعلو الابريقين الموضوعين على الخزانة ذات الادراج . وكانت السيدة غوتنجن تفدُ على غرفتنا في ساعة مبكرة من الصباح لكي توصد النوافذ وتضرم النار في الموقد الخزفي الطويل . كانت أغصان الصنوبر الجافة تطقطق وترسل الشرر . ومن ثم كانت النار تهدر في الموقد . وكانت السيدة غوتنجن تحمل في زيارتها الثانية الى الغرفة قطعاً من الحطب ضخمة لأذكاء النار وابريق ماء حار. حتى إذا اشاع الدفء في الغرفة حملت الينا طعام الصباح . وكنا نتناول طعام الصباح ونحن قاعدان في السرير نكحّل العين بمشهد البحيرة والجبال القائمة في الناحية الأخرى على الضفة الفرنسية . كانت قمم الجبال مكللة بالثلج . وكانت البحيرة زرقاء ، كالفولاذ ، ضارباً لونُها إلى الرمادي .

وفي الخارج ، تجاه البيت الخشبي، كانت طريق تصعّد إلى الجبل. وكانت ممرّات العربات قاسية كالحديد من أثر الجليد،وكانت الطريق تصعّد في اطراد خلال الغابة وحول الجبل إلى حيث كانت مروج ،وعنابر قمح وأكواخ في المروج عند حافة الغابة المطلة على الوادي.وكان الوادي سحيقاً ،

وكان في قعره جدول يجري إلى البحيرة.حتى إذاهبت الريح في الوادي كان في ميسورك أن تسمع خرير الجدول بين الصخور .

وفي بعض الاحيان كنا نتنكّب الطريق لنسلك مجازاً يمتد عبر غـابـة الصنوبر . كانت تربـة الغـابة ناعمـة تحت أقدامنا ، ولم يكن الصقيع قـد قسّاها كما فعل بالطريق .ولكنا ما كنا نبالي بقَسْوة الطريق لأن نعالنا وأعقاب حذاءينا الطويلي السّاق كانت مزوّدة بالمسامير ، وكانت المسامير تَغْرُزُ في الممرات المنجمدة ، وكانت الاحذية ذات المسامير تجعل السير على الطريق سائغاً منعشاً للنفس . ولكن السير في الغابة كان فاتناً .

وتجاه البيت الذي نزلنا فيه انحـدر الجبل على نحوٍ شبه عمودي إلى السهل الصغير المحاذي للبحيرة ، وكنا نجلس على شرفة البيت ،تحت أشعة الشمس ، ونتأمل تعرّجَ الطريق الهـابطة سفحَ الجبل الأدنى ، وكرومَ العنب المدرّجة ، والعرائشَ الميتة كلها الآن بسبب من برد الشتاء وصقيعه ،والحقولَ التي تفصل ما بينها جدران حجرية ، وبيوتَ المدينة المنتثرة تحت الكروم في السهل الضيق المتاخم لشاطئ البحيرة ؛ وكانت في البحيرة جزيرة فيهـا شجرتان ، وكانت الشجرتان تبدُوان وكأنهما شراعا مركب من مراكب الصيد . كانت الجبال وعرة شديدة الانحدار عند الضفة الأخرى من البحيرة ،وهناك عند أقصى البحيرة كان سهل وادي الرون المنبسط بين السلسلتين الجبليتين .وفي أعلى الوادي ، حيث كانت الجبال تضع حداً له ، كان الـ «دان دو ميدي » . كان جبلاً شامخاً مكسوّاً بالثلج ، وكان يشرف على الوادي ،ولكنه كان نائياً إلى درجة جعلته لا يلقي أيما ظل من الظلال .

وكنا ، كلما كانت أشعة الشمس قوية ،نتناول طعام الغداء على الشرفة ؛ أما في سائر الاحوال فكنا نتناول الطعام في الدور العلوي في غرفة صغيرة ذات جدران خشبية ساذجة وموقد ضخم في الزاوية . واشترينا من المدينة كتبـاً ومجلات ونسخة من كتاب « هويْل » *Hoyle* ، وتعلّمنا كثيراً من ألعاب الورق المخصصة للمناسبات التي يدور فيها اللعب بين لاعبين اثنين ليس

غير . وكانت الغرفة الصغيرة ذات الموقد هي غرفة جلوسنا.وكانت تنتظم كرسيين مريحين وطاولة للكتب والمجلات، وكنا نلعب الورق على مائدة الطعام حين تُرفع عنها الأطباق . وكان السيد والسيدة غوتنجن يسكنان الدور الاسفل ، وكنا نسمعهما يتحدثان احياناً في المساء،ولقد كانا سعيدين جداً أيضاً. كان هو في وقتٍ مضى رئيس نُدُل*،وكانت هي قد عملت خادمة في الفندق نفسه،ولقد اقتصدا شيئاً من المال اشتريا به ذلك المنزل . وكان لهما ولد يتدرّب على مهمّة رئيس الندل . كان يعمل في فندق في زوريخ. وفي الدور السفلي كان بهوٌ تباع فيه الخمر والجعة،وفي بعض الاحيان كنا نسمع — في حواشي الليل — عرباتٍ تقف على الطريق،ورجالاً يرتقون درجات السلم ويمضون إلى البهو ليحتسوا الخمر .

كان في الرواق ، خارج غرفة الجلوس ، صندوق حطب ،فكنت أذكي النار بمحتوياته . ولكننا لم نسهر طويلاً . لقد أوينا إلى الرقاد ، في حجرة النوم الكبيرة ، يلفّنا الظلام . وحين نزعت ملابسي فتحتُ النوافذ ورأيت إلى الليل وإلى النجوم الباردة وإلى شجرات الصنوبر تحت النافذة ، ثم اندسست في الفراش بأسرع ما استطعت . كان الأيواء إلى السرير ماتعاً في تلك اللحظات التي كان الهواء فيها بارداً جداً،نقياً جداً.والتي كان فيها الليل ساجياً خارج النافذة . ونمنا نوماً عميقاً . وإذا كنت قد أفقت في مرهن من الليل فلم يكن ذلك إلاّ لسبب وحيد أعرفه . وعندئذ كنت أردّ لحاف الزغب عليّ في كثير من الرفق لكي لا تفيق كاثرين،ثم أستسلم للرقاد من جديد ، ناعماً بالدفء تحت هذه الخفة الجديدة التي تميّز الأغطية الرقيقة . لقد بدت الحرب نائيةً جداً كمباريات كرة القدم التي تجري في جامعة ما ليس لك بها صلة ، جامعة ينتسب اليها شخص آخر . ولكني عرفت من الصحف أنهم كانوا لا يزالون يقاتلون في الجبال لأن الثلج لم يشأ أن

* جمع نادل ، وهو الخادم في مقهى او فندق . والمقصود برئيس الندل ما يعرف عادة بـ « الميتر دوتيل » .

يتساقط .

* * *

وفي بعض الأحيان كنا نهبط الجبلَ إلى مونترو . كان ثمة مجاز يمتد إلى أدنى الجبل ولكنه كان شديد الانحدار ،وهكذا كان من دأبنا أن نؤثر الطريق العريضة القاسية المنسابة بين الحقول ، والمتغلغلة ، عند نقطةٍ أدنى ، بين جدران الكروم الحجرية ثم بين بيوت القرى القائمة على جانبيها. كانت ثمة قرىً ثلاث : تشيرنيكس ، وفونتانيفان ، وثالثة نسيت اسمها . وعلى الطريق كنا نجتاز بقصر حجري عتيق . وكان ذلك القصر ينتصب مربّع الشكل فوق سَطيحة على كتف الجبل ومن حوله حقول الكرمة المدرّجة ، وقد شُدّت كل عريشة إلى عصا تتكئ عليها ، وجفت العرائش واسمرّت ، وأمست الارض على استعداد لاستقبال الثلج ، والبحيرة المنبسطة تحت ذلك كله مستوية رمادية كالفولاذ . وهبطتِ الطريق مسافة طوية تحت القصر ، ثم انعطفتْ إلى اليمين وانتهت آخر الأمر إلى مونترو بمنحدرٍ رهيب معبّد بالحصى الضخام .

ولم نكن نعرف أحداً في مونترو . لقد مشينا في محاذاة البحيرة. ورأينا البجعَ وكثيراً من النورس وخطاطيف البحر التي كانت تولّي طائرةً كلما اقتربتَ منها وتصيح فيما هي تخفض أبصارها نحو الماء. وهناك في البحيرة كانت أسراب من الطائر المعروف بالغطاس ، صغيرة داكنة، تخلّف حين تسبح آثاراً متطاولة في الماء. وفي المدينة تمشّينا في الشارع الرئيسي ووقفنا نتأمل في واجهات المحال التجارية . كان ثمة عدد كبير من الفنادق الكبيرة التي أوصدت أبوابها ،ولكن معظم المحال التجارية كانت مشرعة الابواب ؛ وكان الناس سعداء جداً برؤيتنا . وكان ثمة صالون حلاقة ممتاز فدخلته كاثرين لتسوّي شعرها . وكانت المرأة التي تدير ذلك الصالون بهيجة جداً ، وكانت هي الشخص الوحيد الذي عرفناه في مونترو. وبينا كانت كاثرين هناك شخصتُ إلى محل لبيع الجعة وشربت شيئاً من جعة

مونيخ الداكنة، وطالعت الصحف. لقد قرأت الـ « كورير ديلا سيرا » والصحف الانكليزية والاميركية الوافدة من باريس . كان قلم الرقيب قد حذف جميع الاعلانات، ولعله فعل ذلك للحؤول دون أي اتصال مع العدو من هذه الطريق. وكانت مطالعة الصحف تبعث الأسى في النفس. فقد كانت الاحوال رديئة جداً في كل مكان . لقد جلستُ في الزاوية ، وقد انتصب امامي قدح ضخم مليء بالجعة الداكنة ، وعلبة مفتوحة من البسكويت المملح ذات غلاف مزجّج مصقول . وأكلت البسكويتات لمذاقها المالح . ولأنها كانت تخلع على الجعة نكهة طيبة ؛ وقرأت عن الكارثة. وتوقعت أن تكون كاثرين في طريقها اليّ ، ولكنها لم تأت . وهكذا أعدت الصحف الى الرفّ . ودفعت ثمن الجعة ، ورحت أصعّد في الشارع بحثاً عنها . كان النهار بارداً . قاتماً . عاصفاً . وكانت حجارة المنازل تبدو باردة . كانت كاثرين لا تزال في صالون التجميل وكانت المرأة تموّج لها شعرها. وجلست في المقصورة الصغيرة وأنشأت أراقبها. كان مشهداً مثيراً ، وابتسمت كاثرين ، وتحدّثت اليّ . وغدا صوتي أجش بعض الشيء بسبب من التأثر . كانت الملاقط تُحدث طقطقة عذبة . وكان في استطاعتي أن أرى كاثرين في ثلاث مرايا ، وكانت المقصورة أنيسة دافئة . ثم ان المرأة رفعت شعر كاثرين ، فنظرت كاثرين في المرآة وأحدثت فيه تغييرات بسيطة نازعةً بعض الملاقط واضعةً بعضها الآخر. ثم انها وقفت وقالت:

— « أنا آسفة لأنني أضعت وقتك الى هذا الحد . »

فابتسمت المرأة وقالت :

— « ولكنك يا سيدي كنتَ تتابع العملية في اهتمام بالغ . أليس كذلك يا سيدي ؟ »

فقلت :

— « أجل ، هذا صحيح . »

وخرجنا ، وأنشأنا نصعّد في الشارع . كان الجو بارداً ، غائماً ، وكانت الريح تعصف . وقلت :

— « أوه ، يا عزيزتي ، أنا أحبك حباً عظيماً . »
فقالت كاثرين :
— « ألسنا نقضي وقتاً ممتعاً ؟ إسمع ، دعنا نذهب الى مكانٍ ما ، ونشرب الجعة بدلاً من الشاي . الجعة صالحة جداً لكاثرين الصغيرة . إنها تحول بينهــا وبين البدانة . »
فقلت :
— « كاثرين الصغيرة . يا لها من متسكّعة متكاسلة !»
فقالت كاثرين :
— « لقد كانت عاقلة جداً . إنها لا تورثني ازعاجاً كثيراً . والطبيب يقول إن الجعة سوف تفيدني وتحول بينها وبين البدانة . »
— « اذا أبقيتها نحيلة وكانت غلاماً فقد يصبح في المستقبل راكب خيل في السباق ! »
فقالت كاثرين :
— « أحسب أن علينا أن نتزوج ، اذا ما أبصر هذا الطفل النور .»
كنا جالسين الى مائدة الزاوية نحتسي الجعة في أحد المحال الخاصة ببيعها . وكانت العتمة تهبط في الخارج . لم تكن الشمس على وشك الغروب ، ولكن النهار كان قاتماً وكان الظلام يُقبل مبكراً .
وقلت :
— « فلنتزوج الآن . »
فقالت كاثرين :
— « لا . إنّ هذا مُربكٌ أكثر مما ينبغي ، الآن . إن حالتي جلية للعيان الى حد بعيد . وإني لن أظهر أمام أحد وأتزوج وأنا في هذا الوضع . »
— « كم أتمنى لو أننا تزوجنا من قبل .»
— « لو فعلنا اذن لكان ذلك أفضل ، في ما أعتقد . ولكن متى سنوفق الى ذلك ، أيها الحبيب ؟ »
— « لست أدري . »

– « أنا أدري شيئاً واحداً، وهو أنني لن أتزوج وأنا في هذا الوضع الأمومي الرائع . »

– « أنت لا تبدين حاملاً على نحو واضح . »

– « أوه، على العكس، ايها الحبيب . لقد سألتني المزينة أيكون هذا هو حملي الأول ؟ فكذبت وقلت : لا ، ان لنا صبيين وبنتين . »

– « ومتى ستتزوج ؟ »

– « حالما أستعيد رشاقتي . إنا نريد أن نقيم عرساً بهياً ، وأن نحمل كل امرىء على القول : يا لهما من عروسين شابين جميلين . »

– « ألست مغتمة معذبة النفس ؟ »

– « وما الذي يدعوني الى ذلك ، ايها الحبيب ؟ ان المرة الوحيدة التي خجلت بها من نفسي هي يوم شعرت ، في ميلانو ، وكأنني بنت من بنات الهوى . ولم يدم ذلك غير سبع دقائق ! والى هذا فقد كان ذلك بسبب من أثاث الغرفة . ألم أثبت اني زوجة صالحة ؟ »

– « أنت زوجة رائعة . »

– « اذن لا تعلق كثيراً من الاهمية على التفاصيل الفنيّة .سوف أتزوّج منك حالما أستعيد رشاقتي . »

– « حسن . »

– « هل تعتقد أن من الخير لي أن احتسي كأساً أخرى من الجعة ؟ لقد قال الطبيب إن حوضي ضيق بعض الشيء ، وان أفضل ما أفعله هو أن أبقي كاثرين الصغيرة مهزولة الجسم. »

واستبد بي القلق فقلت :

– « وماذا قال أيضاً ؟ »

– « ان ضغط الدم عندي رائع أيها الحبيب. لقد أعجب بضغط دمي اعجاباً عظيماً . »

– « وماذا قال عن مسألة ضيق الحوض هذه ؟ »

– « لا شيء . لا شيء على الاطلاق . لقد قال إن عليّ أن لا أتزلج . »

— « إنه لعلى حق . »

— « لقد قال ان الأوان قد فات اذا كنت لم أبدأ بعد . وذهب الى أن في استطاعتي أن أتزلج اذا كنت واثقة من أني لن أقع على الثلج . »

— « انه ساخر ذو قلب كبير . »

— « الواقع انه كان ظريفاً جداً . سوف نعهد اليه بمهمة التوليد عندما يجيئني المخاض . »

— « هل سألته أيتعين عليك أن تتزوجي أم لا ؟ »

— « لا. لقد قلت له اننا متزوجان منذ أربع سنوات . أترى ، أيها الحبيب، انني اذا تزوجت منك أصبحت أميركية . وأياً كان موعد الزواج فان الطفل سوف يكون شرعياً في نظر القانون الاميركي . »

— « وأين عثرت على ذلك ؟ »

— « في تقويم نيويورك العالمي ، في المكتبة . »

— « أنت فتاة عظيمة . »

— « سوف أكون سعيدة جداً باكتساب الجنسية الاميركية. ولسوف نذهب الى اميركا ، أليس كذلك أيها الحبيب ؟ أنا أريد أن أرى شلالات نياغارا . »

— « أنت فتاة رائعة . »

— « هناك شيء آخر أريد أن أراه . ولكني لا أستطيع أن أتذكره . »

— « مرابط الماشية ؟ »

— « لا . أنا لا أستطيع أن أتذكره . »

— « بناية وولوورث ؟ »

— « لا . »

— « الغور الكبير ؟ »*

— « لا . ولكني أحب أن أرى هذا أيضاً . »

* يقصد حديقة الغور الكبير العامة Grand Canyon National Park في آريزونا الشمالية . (المعرب)

— « حسناً . حاولي أن تتذكري . »

— « الباب الذهبي ! ذاك ما أريد أن أراه . أين يقع هذا الباب الذهبي ؟ »

— « في سان فرنسيسكو . »

— « اذن فلنذهب الى هناك . أنا أريد أن أرى سان فرنسيسكو على أية حال . »

— « حسن جداً . سوف نذهب الى هناك . »

— « والآن فلنرتقِ الجبل . ما رأيك ؟ هل نستطيع أن ندرك الـ M.O.B ؟ »

— « هناك قطار بعد الساعة الخامسة بقليل . »

— « فلنحاول أن نمتطي متنه . »

— « حسن . سوف أشرب كأساً أخرى أولاً . »

وحين خرجنا لنصعّد في الشارع ونرتقي سلّم المحطة كان الجو بارداً جداً. كانت ريح باردة تهب من وادي الرون . وكانت واجهات المحال التجارية مضاءة ، وارتقينا السلم الحجري الشديد الانحدار الى الشارع الأعلى ، ثم ارتقينا سلماً آخر انتهى بنا الى المحطة . وكان القطار الكهربائي ينتظر هناك . وقد أضيئت مصابيحه كلها .وكان ثمة وجه ساعة يشير الى موعد الانطلاق . وكان عقرباه يشيران الى الخامسة والدقيقة العاشرة . ونظرت الى ساعة المحطة فاذا بها تشير الى الخامسة والدقيقة الخامسة . وحين امتطينا متن القطار رأيت السائق والمفتش يخرجان من حانة المحطة . وجلسنا وفتحنا النافذة . كان القطار ينعم بتدفئة كهربائية وكان الهواء حبيساً غير نقيّ ، ولكن الهواء الطلق البارد كان يُقبل من خلال النافذة .

وسألتها :

— « هل أنت متعبة يا كاث ؟ »

— « لا . أنا أحسّ أني في أحسن حال . »

— « ان المسافة ليست طويلة . »

— « أنا أحب السفر بالقطار .لا تقلق عليّ،أيها الحبيب . أنا أستشعر نشاطاً بالغاً . »

* * *

ولم يسقط الثلج الا قبل عيد الميلاد بثلاثة أيام . وأفقنا ذات صباح فألفينا الثلج يتساقط . ومكثنا في السرير والنار تتأجّج في الموقد ، وراقبنا الثلج وهو يتساقط . وأخرجت السيدة غوتنجن أطباق الفطور ، ووضعت في الموقد مقداراً اضافياً من الحطب . كانت عاصفة ثلجية ضخمة . ولقد قالت السيدة غوتنجن ان تلك العاصفة انطلقت حوالى منتصف الليل . ومضيت الى النافذة ، وأطللت منها ولكني لم أستطع أن ألمح الناحية الاخرى من الطريق . كانت العاصفة تهب في ضراوة ، وكان الثلج يسقط في عنف ، وانقلبتُ إلى السرير فاستلقيت عليه وأخذنا بأطراف الحديث .

فقالت كاثرين :

ـ « أتمنى لو كان في امكاني أن أتزلج . إنه لما يثير الاشمئزاز أن يكون المرء عاجزاً عن التزلج . »

ـ «سوف نأخذ زُلَيْقة * ونهبط الطريق. ان ذلك ليس أسوأ من الركوب في عربة. »

ـ « ألن ينطوي ذلك على ارتجاج كثير ؟ »

ـ « في استطاعتنا أن نرى . »

ـ « أرجو أن لا ينطوي على ارتجاج كثير . »

ـ « بعد قليل سوف نتمشّى على الثلج . »

فقالت كاثرين :

ـ « قبل طعام الغداء . ان هذا سوف يقوي شهيّتنا . »

ـ « أنا جائع دائماً . »

ـ « وكذلك أنا . »

وخرجنا نتمشّى على الثلج ، ولكنه كان متكوّماً كتلاً كتلاً فلم يكن في ميسورنا أن نجتاز مسافة طويلة. وتقدّمتُ كاثرين وشققت لها طريقاً حتى المحطة. ولكن ما إن وصلنا الى هناك حتى رغبنا عن الذهاب الى أبعد . كان الثلج يتساقط في قوة وعنف ، فتعذّر علينا ـ أو كاد ـ أن نرى شيئاً . وهكذا دخلنا النُزُل

---

* الزليقة bob - sled عبارة عن سطح على دواليب من حديد او خشب و لها محوّل او موجّه للانزلاق على السفوح الثلجية .

الصغير المجاور للمحطة . ونفض كل منا الثلج عن ثياب الآخر ، مستعيناً على ذلك بأحدى المكانس، وجلسنا على مقعد خشبي، ورحنا نحتسي كأسين من الفيرموت وقالت النادلة :

— « انها عاصفة هائلة . »

— « أجل . »

— « لقد تأخر الثلج كثيراً ، هذه السنة . »

— « أجل . »

وسألتني كاثرين :

— « هل أستطيع أن آكل لوحاً من الشوكولا ؟ أم اننا أوشكنا على تناول طعام الغداء ؟ أنا جائعة على نحو موصول . »

فقلت :

— « طبعاً ، في استطاعتك أن تأكلي لوحاً . »

فقالت كاثرين :

— « سوف آخذ واحداً محشواً بالبندق . »

فقالت النادلة :

— « هذا الصنف طيب جداً . أنا أفضله على سائر الاصناف . »

وقلت :

— « أما أنا فسأشرب كأساً أخرى من الفيرموت . »

وحين خرجنا لنصعّد عائدَين كان الثلج قد طمس سبيلنا، ولم يكن قد بقي منها غير بضعة ثلوم غامضة. وصَفَعَنا الثلج في وجهينا فكدنا نعجز عن الرؤية. ثم اننا نفضنا الثلج عن ملابسنا . ودخلنا لنتناول طعام الغداء ، وقد قدمه الينا السيد غوتنجن . وقال :

— « غداً سوف يكون في الامكان التزلج على الثلج . هل تحسن التزلج يا مستر هنري ؟ »

— « لا . ولكني أريد أن أتعلّم . »

— « سوف تتعلم ذلك في سهولة بالغة. إن ولدي سوف يقضي عيد الميلاد هنا، ولسوف يقوم هو بتعليمك . »

— « هذا رائع . ومتى سيأتي ؟ »

— « غداً مساءً . »

وفيما نحن جالسان قرب الموقد، في الغرفة الصغيرة، وكنا قد تناولنا طعام الغداء وأنشأنا نتأمل الثلج المنهمر قالت كاثرين :

— « ألا تود أن تذهب بمفردك ، ايها الحبيب ، فتتنزه في مكان ما مع بعض الرجال ، وتنعم بالتزلج ؟ »

— « لا . وما الذي يدعوني الى ذلك ؟ »

— « يخيّل اليّ أحياناً أنك ترغب في أن ترى أناساً آخرين . »

— « وهل ترغبين أنتِ في أن تري أناساً آخرين ؟ »

— « لا . »

— « وكذلك أنا . »

— « أدري . ولكن وضعك مختلف . إني حامل ، وهذا ما يجعلني أرتضي الامتناع عن القيام بأي عمل . أنا أعلم أنني الآن بلهاء ، الى أبعد الحدود، واني لأسرف في الثرثرة ، وأعتقد أن عليك ان تبتعد عني بعض الشيء لكي لا تملّني وتسأمني . »

— « هل تريدين أن أبتعد عنك ؟ »

— « لا. أنا أريدك ان تبقى الى جانبي . »

— « هذا ما سأفعله . »

وقالت :

— « أدنُ مني . أريد ان أتحسس التورّم الذي في رأسك. انه تورّم كبير . »

وأمرّت اصبعها فوقه ، ثم أضافت :

— « هل لك أن تُرسل لحيتك ، أيها الحبيب ؟ »

— « أوَ تريدين مني ان أفعل ذلك ؟ »

— « أحسب أن ذلك سوف يكون طريفاً. إني أحب أن أراك بلحية مُرْسَلة. »

— « حسن . سوف أربيّ لحية. سوف أبدأ منذ اللحظة . هذه فكرة جيدة. إنها تتيح لي فرصة للقيام بعمل ما . »

— « وهل يقلقك أن لا يكون لديك عمل تقوم به ؟ »

— « لا . أنا أحب ذلك . أنا أحيا حياة بديعة. وكذلك أنتِ . أليس هـذا صحيحاً ؟ »

— « أنا أحيا حياة بديعة أيضاً . ولكني خشيت أن أكون قد أصبحتُ مدعاة لسأمك بعد أن نما الجنين في بطني نمواً كبيراً . »

— « أوه ، يا كاث . أنتِ لا تعرفين مبلغ هيامي بك . »

— « حتى وأنا في هذه الحالة ؟ »

— « كما أنتِ تماماً . أنا سعيد جداً . ألسنا نتمتع بحياة طيبة ؟ »

— « من غير ريب ، ولكني اعتقدتُ أن شيئاً من القلق قد استبدّ بك . »

— « لا . اني لأتساءل ما الذي حلّ بالجبهة وبالناس الذين أعرفهم . ولكني لست قلقاً . أنا لا أفكر بأي شيء أكثر مما ينبغي . »

— « من هم أولئك الذين تفكر فيهم ؟ »

— « رينالدي ، والكاهن ، وكثير من الناس الذين أعرفهم . ولكني لا أفكر فيهم كثيراً . أنا لا أريد أن أفكر في الحرب . لقد انتهت بالنسبة إليّ . »

— « فيم تفكر الآن ؟ »

— « في لا شيء . »

— « بل كنت تفكر في شيء . قل لي . »

— « كنت أتساءل أيكون رينالدي مصاباً بالسفلس ؟ »

— « أكان هذا كل شيء ؟ »

— « نعم . »

— « وهل هو مصاب بالسفلس حتماً ؟ »

— « لست أدري . »

— « أنا سعيدة لعدم اصابتك به. هل أصِبت ذات يوم بأيما شيء مثل هذا؟»
— « كنت مصاباً بالسيلان . »
— « أنا لا أريد أن أسمع شيئاً عن ذلك. هل كان مؤلماً جداً أيها الحبيب ؟ »
— « جداً . »
— « ليتني أصبتُ أنا به . »
— « لا . »
— « اني أتمنى لو اني أصبت به لكي أكون مثلك . واني لأتمنى لو عرفت جميع محبوباتك لكي أسخر منهنّ أمامك . »
— « انها لصورة فنية ساحرة ! »
— « أما اصابتك بالسيلان فليست صورة فنية ساحرة ! »
— « أدري . أنظري كيف يتساقط الثلج الآن . »
— « اني أوثر أن أنظر اليك . لماذا لا تترك شعرك ينمو ؟ »
— « كيف ذلك ؟ »
— « أتركه ينمو حتى يصبح أطول مما هو قليلاً . »
— « أنا أرى أن طول شعري حسنٌ الآن . »
— « لا.دعه ينمو بعض الشيء. وفي استطاعتي أنا أن أقصّ شعري ،وعندئذ نصبح متماثلين تماماً ، باستثناء ان أحدنا أشقر والآخر أسمر. »
— « أنا لن أدعك تقصين شعرك . »
— « خليقٌ به ، اذا قصصتُه ، أن يصبح شيئاً طريفاً . لقد سئمتُ منه . انه ليورثني ازعاجاً بالغاً حين آوي الى السرير ليلاً . »
— « أنا أحبه . »
— « ألن تحبه قصيراً ؟ »
— « ربما . ولكني أحبه كما هو الآن . »
— « انه قد يكون جميلاً وهو قصير .وعندئذنكون — أنا وأنت — متماثلين . أوه ، يا عزيزي ، اني أحبك الى درجة تجعلني ارغب في ان أكون أنا أنت . »

— « إنك لكذلك فعلاً . نحن شخص واحد . »

— « أعرف هذا . نحن شخص واحد في الليل . »

— « ان الليالي شيء عظيم . »

— « أريد أن يمتزج أحدنا بالآخر امتزاجاً كاملاً . أنا لا أريد أن تذهب : لقد قلتُ ذلك مجرد قول . في استطاعتك ان تذهب اذا شئت . ولكن شريطة أن ترجع عاجلاً . إني ، أيها الحبيب ، لا أستشعر الحياة إلا حين تكون الى جانبي . »

فقلت :

— « أنا لن أبتعد عنك أبداً . إني لا أعرف معنى السعادة حين لا تكونين معي . لم تعد لي أيما حياة على الاطلاق . »

— « أنا أريد ان تكون لك حياة. أريد أن تكون لك حياة جميلة . ولكنا سوف نحياها معاً ، أليس كذلك؟ »

— « والآن ، أتريدين مني أن اكفّ عن إرسال لحيتي أم أن أرسلها ؟ »

— « أرسلها . إنها سوف تكون رائعة . ومن يدري فلعلك أن تستقبل العام الجديد بها . »

— « والآن ، هل تريدين أن تلعبي الشطرنج ؟ »

— « إني اوثر أن ألعب معك . »

— « لا . دعينا نلعب الشطرنج . »

— « وبعد ذلك نلعب معاً ؟ »

— « نعم . »

— « حسن . »

وأخرجتُ رقعة الشطرنج ، ورتّبت البيادق * . كان الثلج لا يزال يتساقط ، في الخارج ، عنيفاً قوياً .

* * *

---

* البيادق (والبياذق) حجارة الشطرنج .

وذات مرة افقت في موهن من الليل. فعرفت أن كاثرين كانت مستيقظة أيضاً. كان القمر يلتمع على النافذة، وكان يلقي ظلالاً على السرير من خلال قضبان النافذة.

— «لقد استيقظتَ، يا حبيبي؟»

— «نعم. ألا تستطيعين أن تنامي؟»

— «لقد استيقظتُ وأنا أفكر كيف استبد بي الهيام عندما لقيتُك أول مرة. هل تذكر؟»

— «أجل، لقد بدت عليكِ أمارات الهيام بعض الشيء.»

— «أنا لم أعد كذلك. أنا رصينة الآن. قل رصينة في عذوبة بالغة. قل رصينة.»

— «رصينة.»

— «اوه، انك ظريف. لقد تحررتُ من الهيام الآن. ولقد أصبحتُ سعيدةً جداً، جداً، جداً، ليس غير.»

فقلت:

— «اوه، عودي إلى النوم.»

— «حسن. فلينم كل منا في نفس اللحظة التي ينام فيها الآخر.»

— «حسن.»

ولكننا لم نفعل. لقد بقيت يقظان فترة طويلة، مفكراً في مختلف الاشياء، متأملاً كاثرين وهي نائمة، وقد ترقرق ضوء القمر على وجهها. ثم إنني استسلمت للرقاد أيضاً.

الفصل التاسع والثلاثون

وحوالى منتصف كانون الثاني كانت لي لحية ، وكان الشتاء قد أمسى كناية عن سلسلة متعاقبة من النهارات الباردة المشرقة ، والليالي المثلوجة القاسية . لقد أصبح في ميسورنا أن نمشي في الطرق كرةً أخرى . كان الثلج صقيلاً متلبّداً تلبّداً قوياً حيث كانت عرباتُ التبن ، وزلاّقاتُ الخشب ، وجذوعُ الاشجار الضخام تهبط الجبل . وكان الثلج يغمر الريف كله حتى مونترو تقريباً . وكانت الجبال القائمة عند الضفة الأخرى من البحيرة بيضاء كلها . وكذلك كان سهل وادي الرون مغموراً أيضاً . كنا نخرج في نزهات طويلة . مشياً على الاقدام عند الجانب الآخر من الجبل ، إلى الـ « بان دو لالياز » . كانت كاثرين تنتعل حذاء ذا مسامير عريضة الرؤوس ، وتطرح على كتفيها رداء ، وتتوكأ على عصا ذات رأس فولاذي حادّ . إنهـا لم تبدُ عالية البطن في ذلك الرداء. ولم نكن نمشي في سرعة بالغة ، ولكننا كنا نقف بين الفينة والفينة ، ونقعد على جذوع الأشجار الملقاة على جانب الطريق لنستريح كلما تعبَتْ كاثرين .

كان ثمة في الـ« باندو لالياز »نُزْل قائم وسط الاشجار يقف الحطّابون عنده ليطفئوا ظمأهم. وكنا نلمّ بهذا النزل فننعم بدفء الموقد،ونشرب خمرة حمراء ساخنة ممزوجة بالتوابل وعصير الليمون الحامض . وكانوا يسمون ذلك الشراب « غلوهفاين » Gluhwein . ولقد كان شراباً يوقع في نفس

المرء دفئاً وحبوراً . وكان النزل معتماً عابقاً بالدخان، حتى إذا غادَرْتَهُ اقتحم الهواء رئتيك في قوة وعنف ،وخدّرَ ارنبة أنفك وأنت تستنشقه.والتفتنا ذات مرة إلى الوراء فرأينا النزل وقد انبعث النور من خلال نوافذه،ورأينا خيول الحطابين تضرب الارض بقوائمها الأمامية وتحرّك رؤوسها التماساً للدفء.كان ثمة جليد على شعر خُطومها * ، وكانت أنفاسها ترسم في الهواء خطوطاً من بخار . وكانت الطريق التي نصعّد فيها إلى منزلنا صقيلةً زلقَةً في الجزء الأول منها ، حتى إذا انعطفنا إلى مجاز الأحطاب أمسى الجليد بلون البرتقال بسبب من الخيل التي كانت تسلكه . أما بعد ذلك،فكانت الطريق مغطاة بثلج نظيف متلبّد، وكانت تخترق الغابة . ومرتين اثنتين شاهدنا بعض الثعالب ونحن عائدان إلى المنزل في موهن من الليل .

لقد كانت بلاداً جميلة ، وكنا نجد في كل نزهة من نزهاتنا متعةً بالغة .

وقالت كاثرين :

— « لقد أصبحت لك لحية رائعة الآن . إنها أشبه ما تكون بلحى الحطابين . هل رأيت الرجل الذي يتدلى من أذنيه قرطان ذهبيان صغيران جداً ؟ »

فقلت :

— « إنه قانص شَمْوة** إنهم يعلقون هذه الأقراط في آذانهم لاعتقادهم أنها تجعل سمعهم مرهفاً . »

— « فعلاً ؟ أنا لا أصدّق ذلك.أنا أعتقد انهم يعلقونها لكي يظهروا أنهم قُنّاص شموة . هل توجد شمواتٌ على مقربة من هذا المكان ؟ »

— « نعم ، وراء الـ « دانت دو جامان . »

— « لقد كان من الممتع أن نرى ذلك الثعلب . »

— « إنه حين ينام يلف ذيله ذاك حوله التماساً للدفء . »

— « لا ريب في أنه يستشعر عند ذاك إحساساً لطيفاً . »

---

* جمع خطم وهو مقدم انف الدابة وفها .

** chamois جنس من الأنعام شبيه بالماعز يتخذ منه جلد الشموة المشهور .

— « لقد تمنيت دائماً أن يكون لي ذيل كذيله . تخيلي لو كان لنا أذناب كالذئاب ، ألا تجدين ذلك ممتعاً ؟ »

— « ولكن هذا خليقٌ بأن يجعل ملابسنا أكثر تعقيداً وأشدّ عسراً . »

— « في استطاعتنا أن نرتدي ملابسَ فُصلت خصيصاً لهذا الغرض، أو أن نحيا في بلاد لا تعلق كبير أهمية على هذه الأمور . »

— « نحن نحيا في بلد لا أهمية فيه لشيء . أليس من الرائع اننا لا نرى أحداً على الاطلاق ؟ أنت لا تريد أن تقع عينك على احد من الناس، اليس كذلك، أيها الحبيب ؟ »

— « لا . لست أريد . »

— « ما رأيك في القعود هنا دقيقة واحدة ؟ أنا متعبة بعض الشيء . »

وجلسنا شبه متلاصقين على جذوع الاشجار اليابسة . وأمامنا ، كانت الطريق تمتدّ تائهة وسط الغابة .

— « إن الطفلة الصغيرة المدللة لن تفصل ما بيننا ، أليس كذلك ؟ »

— « لا . لن ندعها تفصل ما بيننا . »

— « وحالتنا المالية ، كيف هي ؟ »

— « إن لدينا مالاً كثيراً . لقد قُبِلت آخر حوالة من حوالاتي . »

— « ألن تحاول اسرتك أن تستردّك حين تعرف انك الآن في سويسرة ؟ »

— « ربما . سوف أكتب اليهم شيئاً. »

— « ألم تبعث اليهم بأية كلمة حتّى الآن ؟ »

— « لا . لقد طلبت منهم الحوالة فقط . »

— « أحمدُ الله على اني لست جزءاً من اسرتك . »

— « سوف أبعث اليهم ببرقية . »

— « الست تستشعر عاطفة ما نحوهم ؟ »

— « بلى . ولكنا تشاجرنا كثيراً حتّى لقد بليَتْ تلك العاطفة . »

— « يخيل اليّ إني سوف أحب أسرتك . ولعلي ان احبها، في أغلب

الظن ، حباً عظيماً . »

— « فلنقلع عن الحديث عن الأسرة . وإلاّ ساورني القلق عليها . »

قلت هذا ، ثم اضفت بعد برهة قصيرة :

— « فلنذهب إذا كنت قد استعدتِ نشاطكِ . »

— « لقد استعدتُ نشاطي . »

وهبطنا الطريق . كانت العتمة قد رانت ، وكان الثلج يَصِرّ تحت حذاءينا صريراً . وكان الليل جافاً ، بارداً ، وكانت السماء صافية جداً .

وقالت كاثرين :

— « أنا أحب لحيتك . لقد أحسنت صنعاً في ارسالها. إنها تبدو صلبة جداً ، وضارية جداً ، ومع ذلك فهي ناعمة إلى أبعد الحدود ، سائغـــة إلى أبعد الحدود . »

— « أتحبينني هكذا أكثر من حبك لي وأنا حليق ؟ »

— « أظن ذلك . أنت تدري ، أيها الحبيب ، انني لن أقصّ شعري إلا بعد ان أضع كاثرين الصغيرة . أنا أبدو الآن ضخمة البطن وقوراً أكثر مما ينبغي. أما بعد ولادتها ، حين استعيد رشاقتي ، فسوف أقصّه ، وعندئذ أبدو في عينيك امرأة صغيرة جميلة . سوف نذهب معاً ونقصّه ، وقد أذهب وحدي ثم أرجع وافاجئك به مقصوصاً . » ولم أقل شيئاً .

— « أنت لن تمنعني من قصّه ، أليس كذلك ؟ »

— « لا . يخيل إليّ انه سوف يكون رائعاً . »

— « أوه ، ما أعظم لطفك .ولعلي أن أبدو جميلة،أيها الحبيب،وأن أغدو رشيقةً مثيرة لأعجابك ، فتقع في غرامي كرة أخرى . »

فقلت : « يا للجحيم! أنا أحبكِ الآن حباً عظيماً.ما الذي تريدين أن تفعليه؟ أتريدين ان تهلكيني ؟ »

— « أجل ، أنا أريد أن أهلكك . »

فقلت : « حسن . هذا ما أريده أنا أيضاً . »

الفصل الأربعون

لقد عشنا حياةً رائعة . فقد قضينا هناك شهري كانون الثاني (يناير) وشباط (فبراير) ، وكان الشتاء رائعاً جداً ، وكنا نحن سعيدين جداً . كان الجليد يذوب بعض الشيء كلما هبّت الريح الحارة ، وكان الثلج يرقّ ويلين . ويبدو الهواء وكأنه هواء الربيع ، ولكن البرد القارس كان يعود في كل مرة ، وفصل الشتاء كان يتجدد في كل حين . وفي شهر آذار (مارس) عرفنا أول ثغرة في ذلك الشتاء . وذات ليلة ، بدأ المطر يهطل . لقد هطل طوال الصباح ، فأحال الثلجَ إلى وحل ، وجعل سفح الجبل موحشاً كئيباً . كانت السحب تعلو البحيرة والوادي ، وكان الغيث يجود قمةَ الجبل . ولبست كاثرين جرموقاً* ثقيلاً ، ولبست أنا « جزمة » مستر غوتنجن المطاطية ، ومشينا إلى المحطة مستعينين باحدى المظلات ، عبر الثلج الذائب والمياه الجارية التي كانت تجرف جليد الطرق . ثم اننا وقفنا عند النُزُل لكي نحتسي كأساً من الفيرموت قبل الغداء . كان في ميسورنا أن نسمع المطر يهطل في الخارج .

— « ألا تعتقدين ان علينا أن ننتقل إلى المدينة ؟ »

فقالت كاثرين :

— « ما رأيك أنت ؟ »

* الجرموق ما يلبس فوق الحذاء . وقد استعملناها مقابل overshoes

— « إذا انحسر الشتاء واستمر المطر في التهطال فلن تكون الاقامة هنا ممتعة جداً . متى ستبصر كاثرين الصغيرة النور ؟ »

— « بعد شهر تقريباً . وربما أكثر قليلاً . »

— « في امكاننا ان نهبط إلى مونترو ونسكن فيها . »

— « لمَ لا نذهب إلى لوزان ؟ إن المستشفى هو في تلك المدينة . »

— « حسن . ولكني اعتقدتُ ان لوزان ربما كانت مدينة كبيرة أكثر مما ينبغي . »

— « في استطاعتنا أن ننعم في المدينة بمثل التوحد الذي ننعم به هنا.ولا بدّ أن نستسيغ العيش في لوزان . »

— « ومتى سنذهب ؟ »

— « لا فرق عندي . عندما تشاء أيها الحبيب . لست راغبة في مغادرة هذا المكان إذا كنت أنت غير راغب في ذلك . »

— « فلننتظر لنرى عن أي شيء ستتكشف الاحوال الجوية . »

وأمطرت السماء طوال أيام ثلاثة . كان الثلج كله قد ذاب ، الآن ، على سفح الجبل ،تحت المحطة . وكانت الطريق تغصّ بسيلٍ من ذائب الثلج الموحل . وكانت الارض ندية أكثر مما ينبغي ، قذرة أكثر مما ينبغي ، فلم يكن في ميسورنا أن نخرج .وصباحَ ثالث الايام المطيرة قررنا أن نهبط إلى المدينة.

فقال غوتنجن :

— «حسن جداً ، يا مستر هنري . لستَ في حاجة إلى أن تُخْطرني قبل الرحيل . فما كنتُ لأعتقدُ انكما سوف تبقيان هنا بعد أن ساءت الاحوال الجويـة . »

فقلت :

— « يجب أن نكون على مقربة من المستشفى على أية حال ، بسبب من السيدة . »

فقال :

— « أدري . هل لكما أن ترجعا في يوم من الأيام وتنزلا عندنا مع المولود الصغير ؟ »

— « اجل ، إذا كان لديك متسع . »

— « في استطاعتكم أن تجيئوا في الربيع ، حين يعتدل الجو ، وتستمتعوا بأيامه الحلوة . ولسوف يكون في ميسورنا أن ننزل المولود الصغير والممرضة في الغرفة الكبيرة الموصدة الآن ، وان ننزلكما انت والسيدة في غرفتكما هذه نفسها المشرفة على البحيرة . »

فقلت :

— « سوف أكتب اليك حول مسألة العودة . »

وحزمنا أمتعتنا ، وامتطينا متن القطار الهابط بعد أن تناولنا طعام الغداء . ورافقنا مستر ومسز غوتنجن إلى المحطة. وأنزل مستر غوتنجن أمتعتنا على ظهر زلاقة انطلقت وسط الثلج الذائب . ثم إنهما وقفا قرب المحطة ، تحت وابل المطر ، ولوحا لنا بيديهما مودعين .

وقالت كاثرين :

— « لقد كانا ظريفين جداً . »

— « أجل ، لقد كانا لطيفين معنا . »

وركبنا القطار من مونترو إلى لوزان . وأطللنا من النافذة في اتجاه المنزل الذي كنا نسكنه ، ولكننا لم نستطع ان نرى الجبال بسبب من السحب الكثيفة . وتوقف القطار عند « فيفي »، ثم تابع انطلاقه، بين البحيرة من جانب، والحقول الندية السمراء والغابات الجرداء والبيوت الندية من جانب آخر . حتى إذا بلغنا لوزان قصدنا إلى فندق ليس بالكبير ولا بالصغير . كان المطر لا يزال يهطل فيما نحن نجتاز الشوارع بعربتنا ، وندخل باب الفندق الخاص بالعربات . وبدا البواب ، وقد تدلت مفاتيحه النحاسية من ثنايا سترته العليا، وبدا المصعد ، والسجاد الممدود على أرض الفندق ، وأحواض الغسل البيضاء ذات الحنفيات اللامعة ، والسرير النحاسي ، وحجرة النوم الواسعة المريحة —

بدا ذلك كله ترفاً مغالىً فيه بعد إقامتنا في منزل مستر ومسز غوتنجن . كانت نوافذ الغرفة تطل على جنينة ندية ، يحيط بها سور في أعلاه سياج حديدي. وعبْر الشارع المنحدر انحداراً حاداً ، كان فندق آخر يحيط به سورٌ مماثلٌ وجنينة . وأطللت لأرى المطر يهطل على نافورة الجنينة .

وأضاءت كاثرين الاضواء كلها ، وشرعت تخرج الامتعة من حقائبها . وطلبتُ كأساً من الويسكي والصودا ، واستلقيت على السرير ، وأنشأت اقرأ الصحف التي كنت قد اشتريتها في محطة القطار . كان ذلك في آذار (مارس) عام ١٩١٨ ، وكان الهجوم الألماني قد بدأ في فرنسة .واحتسيت الويسكي والصودا ، وقرأت فيما كانت كاثرين تفرغ الحقائب وتطوّف في الحجرة .

وقالت :

— « أنت تدري ما الذي يتعيّن عليّ أن أعدّه . »

— « ما هو ؟ »

— « ثياب الطفل.فمعظم النساء لا يجتزن من مراحل الحمل ما اجتزته أنا من غير أن يُعْدِدْن ملابس الطفل . »

— « في استطاعتك ان تشتريها . »

— « أدري.ذلك ما سوف أفعله غداً . سوف أسأل أيّ الملابس يتعيّن عليّ شراؤه . »

— « ولكن هذا شيء ينبغي ان تعرفيه . لقد كنتِ ممرضة . »

— « ولكن عدد الجنود الذين رُزقوا أولاداً في المستشفيات قليل إلى أبعد الحدود !. »

— « أما أنا فسوف أرزق طفلاً . »

ورمتني بالوسادة ، فسفحت الويسكي والصودا على الارض .

وقالت :

— « سوف أطلب لك كأساً أخرى . أنا آسفة لسفحي إياها على الأرض. »

— « لم يكن فيها بقية تستحق الذكر . تعالي واستريحي قليلاً . »

— « لا . ينبغي ان أسعى لجعل هذه الغرفة تبدو شبيهة بشيء ما . »
— « شبيهة بماذا ؟ »
— « شبيهة ببيتنا . »
— « أنشُري رايات الحلفاء . »
— « اوه ، إخرَسْ ! »
— « قوليها مرةً ثانية . »
— « إخرس ! »
— « أنتِ تقولينها في كثير من الحذر ، وكأنك تخافين أن تسيئي إلى احد. »
— « لا . »
— « إذن ، تعالي واستريحي قليلاً . »
— « حسن . »
واقبلَتْ وقعدت على السرير . ثم أضافت :
— « أنا أعلم انك لم تعد تستلطفني كثيراً ، أيها الحبيب . إني أشبه ما أكون بكيس طحين ضخم . »
— « لا ، لستِ كذلك . انتِ جميلة ولطيفة . »
— « أنا شيء فظ جداً قُدِّر لك ان تتزوجه . »
— « لا ، على الاطلاق . إن الايام لا تزيدكِ إلا جمالاً . »
— « ولكني سوف أستعيد رشاقتي ، أيها الحبيب . »
— « أنتِ رشيقة الآن . »
— « لقد أسرفتَ في الشراب . »
— « أنا لم أشرب غير كأس من الويسكي والصودا . »
فقالت :
— « هناك كأس أخرى في الطريق . وبعد ذلك ، فهل تطلب اليهـم أن يُحضروا العشاء إلى هنا ؟ »
— « هذه فكرة جيدة . »

— « واذن ، فنحن لن نخرج إلى مكان ما، أليس كذلك ؟ إننا سوف نبقى في الفندق هذه الليلة . »

فقلت :

— « سوف نبقى ، ونلعب . »

فقالت كاثرين :

— « سوف أشرب قليلاً من الخمر . إن ذلك لن يؤذيني . ولعل في استطاعتنا أن نفوز بشيء من شرابنا القديم ، شراب الكابري الابيض . »

فقلت :

— « من غير ريب . ان فندقاً في مثل هذه الضخامة لا يمكن أن يخلو من الخمور الايطالية . »

وقرع النادل الباب . لقد جاء بالويسكي في كأس حافلة بالثلج. وكانت على الصينية ، إلى جانب الكأس ، زجاجة صودا صغيرة .

وقلت :

— « شكراً . ضعها هناك . هل لك أن تأتينا إلى هنا بعشاء لشخصين ، وبزجاجتين مثلوجتين من خمر كابري البيضاء غير الحلوة ؟ »

— « هل ترغبان في أن تستهلا طعامكما بالحساء ؟ »

— « هل تريدين حساء ، يا كات ؟ »

— « إذا سمحت . »

— « إيتِ بطبق حساء لشخص واحد . »

— « شكراً ، يا سيدي . »

قال ذلك ، وخرج موصداً الباب خلفه. ورجعتُ أنا إلى الصحف، والى أنباء الحرب في الصحف ، وصببْتُ الصودا ، في تؤدة ، فوق الثلج السابح في الويسكي. كان ينبغي أن أقول له ان لا يضع الثلج في الويسكي، ان يجيء بالثلج على حدة . فبهذه الطريقة يستطيع المرء أن يعرف مقدار الويسكي في الكأس ، ويكون في نجوة من امكانية تخفيفها أكثر مما ينبغي — وعلى نحو

مفاجئ – بالصودا . سوف أشتري في المرة القادمة زجاجة من الويسكي ،وأسألهم أن يحملوا إليّ شيئاً من الثلج والصودا . تلك هي الطريقة الفضلى. إن الويسكي الجيدة سائغة جداً . إنها متعة من متع الحياة .

– « في أي شيء تفكر ، أيها الحبيب ؟ »

– « في الويسكي . »

– « وفي أية ناحية من نواحيها ؟ »

– « في مقدار ما تنطوي عليه من لذة . »

ولوَتْ كاثرين وجهها في سُخر ، وقالت :

– « حسن جداً . »

* * *

ولبثنا ثلاثة أسابيع في ذلك الفندق . وكانت أياماً لا بأس بها . كانت حجرة الطعام فارغة ، عادةً ، وكنا نتناول طعام العشاء في غرفتنا ، في كثير من الاحيان. كنا نتمشّى إلى المدينة ونمتطي متن القطار المسنّن هابطين إلى أوتشي حيث نتنزه على ضفة البحيرة . كان الجوّ قد أمسى دافئاً جداً ، فهو أشبه ما يكون بالربيع . وتمنينا لو رجعنا إلى الجبال ، ولكن جو الربيع هذا لم يدم غير بضعة أيام،عاد بعدها ذلك الجو الرطب البارد الذي يميّز الشتاء المحتَضَر .

واشترت كاثرين من أسواق المدينة ما كانت في حاجة اليه من ملابس الطفل. ومضيت أنا إلى معهد من معاهد الرياضة البدنية لكي أتمرّن على الملاكمة . وكان من دأبي أن أذهب إلى هناك صباحاً ، بينا تكون كاثرين ما تزال في سريرها . ولقد كان من الجميل ، في أيام الربيع الزائف ذاك وبعد الملاكمة والابتراد بالدُشّ ، أن تتمشى في الشوارع وتستروح الربيعَ في الهواء ، وتجلس في أحد المقاهي وتراقب الناس ، وتقرأ الصحيفة وتشرب كأساً من الفيرموت ،ثم ترجع إلى الفندق وتتناول طعام الغداء مع كاثرين . وكان الاستاذ في معهد الرياضة البدنية ذا شاربين ، وكان دقيقاً جداً ، وعصبياً جداً ، وكان يفقد صوابه إذا ما بدأتَ بعده . ولكن الساعات التي قضيتها في معهد الرياضة

كانت ممتعة . كان ثمة هواء نقي وضياء موفور ، ولقد بذلتُ جهداً كبيراً : لقد قفزتُ فوق الحبل ، ولاكمتُ ظلّي في المرآة ، وقمت ببعض تمرينـات البطن وأنا مستلقٍ على أرض المعهد في رقعة من أشعة الشمس المتسربة من خلال النافذة المفتوحة ، وبين الفينة والفينة كنتُ أروّع الاستاذ أثناء تلاكمنا . ولم يكن في ميسوري ، باديءَ الأمر ، ان ألاكم ظلي امام المرآة الطويلة الضيقة إذ بدا لي أن من أغرب الغريب أن يرى المرء رجلاً ذا لحية يتمرن على الملاكمة. ولكني وجدت آخر الأمر ان ذلك شيء مضحك . لقد رغبتُ في حلق لحيتي حالما بدأتُ دروس الملاكمة تلك ، ولكن كاثرين أبت عليّ ذلك .

وفي بعض الأحيان كنت امتطي أنا وكاثرين متن احدى العربات وننطلق إلى الريف . كانت هذه النزهات جميلة في الايام الصاحية ، وكان ثمة موطنان صالحان اعتدنا ان نقصد اليهما لتناول الطعام . كانت كاثرين عاجزة الآن عن السير مسافات بعيدة ، وكنت احب أن أركب العربة معها لنطوّف في طريـق الريف . وكنا في الايام الصاحية نستشعر السعادة كاملةً ، ولم نكن نعرف الكـآبة قط . كنا نعلم أن ساعة الميلاد أمست الآن قريبة جداً ، وكان ذلك يوقع في نفس كل منا أن علينا أن نتعجل الاشياء ، وأن من واجبنا أن لا نضيع لحظة من لحظات التلاقي .

الفصل الحادي والأربعون

ذات صباح ، افقتُ حوالى الساعة الثالثة وقد سمعت كاثرين تتحرك في السرير .

— « هل تشعرين بشيء ، يا كات ؟ »

— « إني احسّ ببعض آلام الولادة ، أيها الحبيب . »

— « على نحو موصول ؟ »

— « لا . ليس على نحو موصول جداً . »

— « إذا كنت تحسّين بذلك في غير انقطاع فعندئذ يتعين علينا أن نذهب إلى المستشفى . »

وغلبني النعاس فاستسلمت للرقاد . وبعد برهة قصيرة استيقظت من جديد.

وقالت كاثرين :

— « لعل من الخير لي ان استدعي الطبيب . أنا أحسب ان المخاض قد جاء. »

ومضيت إلى التلفون ، واستدعيت الطبيب .

وسألها :

— « ما الفترة التي تفصل ما بين كل طَلْقة وطلقة ؟ »

— « ما المدة التي تفصل ما بين كلّ فترة من فترات الألم ، يا كات ؟ »

— « يخيل إليّ أن الطَلْق ينتابني مرةّ كل ربع ساعة . »

فقال الطبيب :

— « يجب أن تذهبي إلى المستشفى. سوف أرتدي ملابسي وأذهب بنفسي إلى هناك ، في الحال . »

ورفعتُ سماعة التلفون ، لأطلب إلى المرأب القريب من المحطة أن يبعث إليّ بسيارة اجرة . ولم يجب أحدٌ باديء الأمر . وانقضت فترة غير قصيرة ، واخيراً ردّ عليّ رجلٌ ما ، ووعدني بأن يوجّه إليّ سيارة اجرة في الحال . كانت كاثرين ترتدي ملابسها . وكانت حقيبتها ملأى بكل ما ستحتاج اليه في المستشفى وبملابس المولود . وفي الرواق قرعتُ الجرس التماساً للمصعد . بيد أني لم ألقَ جواباً . وهبطت درجات السلم . لم يكن في الدور السفلي غير الحارس الليلي . وارتقيت بالمصعد منفرداً ، ووضعتُ حقيبةَ كاثرين فيه . وولجتْه كاثرين ، وهبطنا إلى الدور السفلي . وفتح الحارسُ الليلي لنا الباب . وجلسنا على قطع الحجارة العريضة المستوية المجاورة للسلّم المؤدية إلى المجاز الخاص بالسيارات ، وانتظرنا سيارة الأجرة . كانت السماء صافية الأديم ، وكانت النجوم تتلألأ في ارجائها . وكانت كاثرين متوفزة الاعصاب إلى حد بعيد .

وقالت :

— « أنا سعيدة جداً بمجيء المخاض . فما هي إلا فترة يسيرة حتى ينتهي كل شيء . »

— « إنكِ فتاة طيبة شجاعة . »

— « لستُ خائفة . ومع ذلك فأتمنى لو اقبلتِ السيارة . »

وسمعناها تصعّد في الشارع ، ورأينا أضواءها الامامية . وانعطفتْ نحو المجاز الخاص بالسيارات ، وساعدتُ كاثرين على امتطاء متنها ، ووضع السائق الحقيبة إلى جانبه .

وقلت :

— « إنطلِقْ بنا إلى المستشفى . »

وفارقنا مجاز السيارات ، وشرعت السيارة الصغيرة تصعّد في الهضبة .

ودخلنا إلى المستشفى ، وحملتُ أنا الحقيبة . كانت تجلس إلى المكتب إمرأة دوّنت اسم كاثرين ، وعمرها ، وعنوانها ، واسماء انسبائها ، ودينها ،في سجلٍّ خاص . لقد قالت إنها لا دين لها،فرسمت المرأة خطاً في الفراغ الذي يلي تلك الكلمة . وكانت كاثرين قد قالت للمرأة ان اسمها كاثرين هنري .

وقالت المرأة :

— « سوف أقودكِ إلى غرفتكِ . »

وركبنا مصعداً . ثم ان المرأة اوقفته ، فغادرناه ، وتبعناها وهي تتقدمنا في الرواق . وضغطت كاثرين على ذراعي في إحكام .

وقالت المرأة :

— « هذه هي الغرفة . هل لكِ أن تنزعي ملابسكِ وتأوي إلى السرير ؟ دونكِ هذه المنامة فارتديها . »

فقالت كاثرين :

— « عندي منامة . »

فقالت المرأة :

— « من الافضل لك ان تلبسي هذه المنامة . »

وغادرتُ الغرفة ، وجلست على كرسيٍّ في الرواق .

وبعد لحظة ، قالت لي المرأة من على عتبة الباب :

— « في استطاعتك الآن ان تدخل . »

كانت كاثرين مستلقية في السرير الضيق ، وقد ارتَدَتْ منامةً بسيطة ذات طوق مربّع يكشف عن أعلى الصدر ، منامة بدا وكأنها قد فُصِّلت من قماش غليظ . وابتسمَتْ لي .

وقالت :

— « إني أقاسي الآن آلاماً عظيمة . »

كانت المرأة ممسكةً بمعصمها تقيس قوة الطّلق بواسطة ساعة في يدها .

وقالت كاثرين :

— « كانت هذه طلقة قوية . »

لقد رأيت أثرَ ذلك على وجهها .

وسألتُ المرأة :

— « أين الطبيب ؟ »

— « إنه نائم في الدور السفلي . ولسوف يقبل إلى هنا عندما تمسّ الحاجة اليه . »

وقالت المرأة :

— « يتعيّن عليّ أن أقوم بعملٍ ما للسيدة . هل لك أن تغادر الغرفة كرة أخرى ؟ »

وخرجتُ إلى الرواق . كان رواقاً عارياً تتخلله نافذتان اثنتان ، وتنهض على مداه كله أبواب موصدة . كان عبق المستشفيات يفوح منه . وجلستُ على الكرسي ، واطرقت برأسي إلى الأرض ، وصلّيت من أجل كاثرين .

وقالت الممرضة :

— « في امكانك أن تدخل . »

ودخلتُ . وقالت كاثرين :

— « هالو ، أيها الحبيب ! »

— « كيف حالكِ ؟ »

— « الطلقات تتعاقب في غير انقطاع تقريباً . »

وتقلّص وجهها . ثم ابتسمتْ .

— « لقد كانت هذه طلقة حقيقية . هل لكِ أن تضعي يدكِ على ظهري ، كرةً أخرى ، أيتها الممرضة ؟ »

فقالت الممرضة :

— « إذا كان هذا يساعدكِ . »

فقالت كاثرين :

— « إذهَبْ من هنا ، أيها الحبيب . إذْهَبْ وكُلْ شيئاً ما . الممرضة

تقول ان هذا قد يستمر فترة طويلة . »
وقالت الممرضة :
— « إن الولادة الأولى تستغرق ، في العادة ، مدةً طويلة . »
وأضافت كاثرين :
— « أرجوك ان تخرج وتأكل شيئاً ما . أنا في حالٍ جيدة فعلاً . »
فقلت :
— « سوف أبقى هنا برهة قصيرة . »
وتعاقب الطلق في اطّراد ، ثم هدأ بعض الشيء . كانت كاثرين متوترة الاعصاب إلى حد بعيد . وكانت كلما ألمّ بها طلقٌ قويّ قالت : لقد كانت هذه طلقة جيدة . وكانت كلما خمدَ الطلق اغتمّت وخجلت .
وقالت كاثرين :
— « اخرج، أيها الحبيب . خيّل إليّ أن وجودك يورثني خجلاً شديداً. »
وتقلّص وجهها . « ها ! لقد كانت هذه أفضل. ما أشدّ رغبتي في أن أكون زوجة صالحةً وفي أن أنجب هذا المولود من غير ما حماقة . ارجو أن تذهب أيها الحبيب ، وتتناول الفطور ، وبعد ذلك عُدْ إليّ ، أنا لن أفتقدك . إن الممرضة تُعنى بي عناية فائقة . »
وقالت الممرضة :
— « في ميسورك أن تتناول طعام الصباح في تؤدة . إن لديك متسعاً من الوقت . »
فقلت :
— « سوف أذهب اذن . إلى اللقاء ، يا حبيبتي ! »
فقالت كاثرين :
— « إلى اللقاء . وتناوَلْ عني فطوراً شهياً أيضاً . »
وسألت الممرضةَ :
— « أين أستطيع أن أتناول طعام الصباح ؟ »

فقالت :

— « هناك ، عند أقصى الشارع ، مقهى قائم في الساحة العامة . ولا ريب في أنه قد فتح ابوابه الآن . »

كان الضحى قد ارتفع . فهبطتُ الشارع المقفر ،متجهاً نحو المقهى . كان ثمة ضياء ينبعث من النافذة . ودخلت المقهى ،ووقفتُ امام المشرب المصنوع من الزنك ، فقدّم اليّ رجلٌ عجوز كأساً من الخمر البيضاء وقطعة من « البريوش » * . وكانت قطعة « البريوش »قد خُبِزت أمسِ . وغمستُها في الخمر . ثم شربت فنجاناً من القهوة .

وسألني العجوز :

— « ما الذي تفعله في هذه الساعة ؟ »

— « إن زوجتي على وشك أن تلد في المستشفى . »

— « هكذا اذن . أتمنى لك حظاً سعيداً . »

— « أعطِني كأساً أخرى من الخمر . »

وصبّ الخمر من الزجاجة ، مُميلاً اياها بعض الشيء حتى لقد جرى بعض الخمر على الزنك . واحتسيت هذه الكأس ، ودفعتُ ،وغادرت المقهى. وفي الخارج ، وعلى طول الشارع ، كانت صفائح القاذورات تنتظر عامل التنظيفات عند أبواب البيوت . وكان كلبٌ يستروح واحدةً من تلك الصفائح .

وسألتُهُ :

— « ماذا تريد ؟ »

ونظرتُ إلى الصفيحة لأرى ما إذا كان ثمة شيء أستطيع أن أخرجه له . لم يكن في أعلى الصفيحة غير رواسب القهوة ، والرماد . وبعض الأزهار الذاوية .

وقلت :

— « لا يوجد شيء أيها الكلب . »

* نوع من الحلوى مصنوع بالدقيق و السمن و البيض .

واجتاز الكلب الشارع . وارتقيت أنا سلّم المستشفى إلى الدور الذي كانت كاثرين فيه ، واجتزتُ الرواق إلى حجرتها . وقرعتُ الباب . لم يكن ثمة جواب . وفتحتُ الباب . كانت الحجرة فارغة ، إلا من حقيبة كاثرين مرفوعةً على كرسي ، ومبذلها * متدلياً من مسمار على الجدار . وخرجتُ ، واندفعت في الرواق باحثاً عن شخص ما . ووجدتُ ممرضة .

— « أين مدام هنري ؟ »

— « منذ لحظة أُدْخِلَتْ سيدة إلى حجرة التوليد . »

— « أين هي ؟ »

— « سوف أقودك اليها . »

وقادتني إلى أقصى الرواق . كان باب الغرفة مفتوحاً على نحو جزئي. وكان في امكاني أن أرى كاثرين مستلقية على مائدة ، يعلوها غطاء أبيض : كانت الممرضة واقفة عند جانب من جانبي المائدة، وكان الطبيب واقفاً عند الجانب الآخر على مقربة من بعض الأدوات الاسطوانية ، وقد حمل في يده قناعاً مطاطياً متصلاً بأحد الانابيب .

وقالت الممرضة :

— « سوف اعطيك رداء،وعندئذ يصبح في امكانك أن تدخل .تعال إلى هنا ، ارجوك . »

وألبستني رداءً أبيض ، وأحكمَتْ شدّه عند مؤخر عنقي بدبوس واقٍ .

وقالت :

— « في استطاعتك الآن أن تدخل . »

ودخلت إلى الغرفة .

وقالت كاثرين في صوت مُجْهَد :

— « هالو ، أيها الحبيب ! أنا لا أحقّق تقدماً كبيراً . »

وسألني الطبيب :

---

* المبذل : الروب د شامبر .

– « أأنت مستر هنري ؟ »

– « نعم . كيف حالها ، أيها الطبيب ؟ »

فقال الطبيب :

– « كل شيء يجري على أحسن ما يرام . لقد انتقلنا إلى هنا ليسهل علينا اعطاؤها البنج في لحظات الطلق . »

وقالت كاثرين :

– « أنا اريد ذلك الآن . »

فوضع الطبيب القناع المطاطي على وجهها ، وأدار قرصاً وانشأ يراقب كاثرين وهي تتنفس تنفساً عميقاً وسريعاً . ثم إنه نزع القناع عن وجهها ، وأغلق الحنفية .

– « لم تكن هذه الطلقة قوية جداً . لقد عانَيْتُ منذ فترة يسيرة طلقة قوية جداً . ولقد عملَ الطبيب على التخفيف من شدّتها ، أليس كذلك يا دكتور ؟ »

كان صوتها غريباً . ولقد ارتفع عند لفظة « دكتور » .

وابتسم الطبيب .

وقالت كاثرين :

– « أعطني مقداراً اضافياً من البنج . »

وضغطتِ القناع المطاطي على وجهها ، وانشأت تلهث . لقد سمعتُها تئنّ بعض الشيء . ثم انها ازاحت القناع جانباً وابتسمت .

وقالت :

– « لقد كانت هذه الطلقة قوية . لقد كانت قوية جداً . لا تقلق ، أيها الحبيب ! إذهَبْ . إذهَبْ وتناوَلْ فطوراً جديداً . »

فقلت : « سوف أبقى . »

* * *

كنا قد ذهبنا إلى المستشفى حوالى الساعة الثالثة صباحاً . وعند الظهيرة كانت كاثرين لا تزال في غرفة التوليد . كان الطلق قد وَهَنَ من جديد، وكانت

تبدو، الآن ، منهوكة القوى ، ولكنها كانت لا تزال مبتهجة الفؤاد .
وقالت :
— « لقد أعجزني ذلك،أيها الحبيب. أنا آسفة جداً. لقد حسبتُ أنني تسأنجزه في سهولة بالغة . والآن ، ها قد بدأ الطلق من جديد ... »
وبسطت يدها التماساً للقناع ، ووضعته على وجهها. وادار الطبيب القرص وراقبها . وما هي إلا لحظة حتّى انحسر الطلق .
وقالت كاثرين :
— « إنها لم تكن قوية . »
وابتسَمَتْ ثم اضافت :
— « أنا متيّمة بالبنج . إنه رائع . »
فقلت :
— « سوف نزوّد بيتنا بشيء منه . »
فسارعت كاثرين إلى القول :
— « لقد عاد الطلق. . . »
وأدار الطبيب القرص ، ونظر إلى ساعته .
وسألتُهُ :
— « ما هي الفترة الفاصلة الآن ؟ »
— « حوالى دقيقة . »
— « ألا تريد أن تتناول طعام الغداء ؟ »
فقال :
— « سوف أتبلّغ بشيء عمّا قريب . »
وقالت كاثرين :
— « ينبغي أن تأكل شيئاً ، يا دكتور . أنا آسفة لاستمرار ذلك حتّى الآن. أليس في استطاعة زوجي أن يعطيني البنج ؟ »
فقال الطبيب :

– « إذا شئتِ . ليس عليك إلا أن تدير القرص إلى رقم اثنين . »

فقلت :

– « فهمت . »

لقد كان على القرص إبرة تدار بمقبض .

وقالت كاثرين :

– « أريد البنج الآن . »

وأحكمتْ وضع القناع على وجهها . وأدرتُ القرص إلى رقم اثنين وحين ازاحت كاثرين القناع أوقفتُ مجرى البنج بأن أعدت القرص إلى وضعه السابق . لقد كان الطبيب لطيفاً جداً حين اجاز لي أن اقوم بعمل ما .

وسألتني كاثرين :

– « أأنت الذي قمتَ بذلك ، أيها الحبيب ؟ »

قالت ذلك وأمرّت يدها على معصمي ملاطِفةً .

فأجبتها :

– « من غير ريب . »

– « ما أشد لطفك . »

كانت ثملةً بعض الشيء بسببٍ من البنج .

فقال الطبيب :

– « سوف أتناول طعامي من على صينية في الغرفة المجاورة . في استطاعتك ان تستدعيني في كل لحظة . »

وفيما كان الوقت ينقضي ، راقبتُه وهو يأكل ، ثم رأيت بعد فترة قصيرة أنه قد استلقى على ظهره وراح يدخن سيجارة . كانت كاثرين قد أمست في حال من التعب شديدة .

وتساءلَتْ :

– « هل تعتقد أني سأكحّل عينيّ برؤية هذا الطفل في يوم من الأيام ؟ »

– « طبعاً من غير ريب . »

— « أنا أبذل غاية جهدي . أنا أحاول ان أنزله ، ولكن محاولاتي كلهـا تذهب ادراج الرياح . ها قد اقبل الطلق . أعطني البنج . »

وعند الساعة الثانية غادرت المستشفى وتناولت طعام الغداء . كان في المقهى عدد قليل من الناس وأمامهم فناجين القهوة وكؤوس ماء الكرز أو كؤوس الـ « مارك » . وجلست الى احدى الموائد ، وسألت النادل :

— « هل أستطيع أن أتناول طعاماً ما ؟ »

— « لقد فات أوان الغداء . »

— « ألا تقدّمون أيما شيء في غير المواعيد المحدّدة ؟ »

— « في استطاعتك ان تتناول « الشوكروت ». »

— « أعطني شيئاً من الشوكروت والجعة . »

— « وكيف تريد الجعة ؟ »

— « هاتها جعةً خفيفة ، غير قوية . »

وجاءني النادل بطبق من الكرنب المخمّر وقد عَلَتْه شريحة من لحم الخنزير ودُفنت في جوفه قطعة من النقانق . والتهمت الطبق ، وشربتُ الجعة . فقد كنت جائعاً جداً . وراقبت الناس الجالسين الى موائد المقهى . كانت أوراق اللعب منثورة على احدى الموائد . وعند المائدة المحاذية لي ، كان رجلان يتحدثان ويدخنان . كان المقهى غاصاً بالدخان . وكان خلف المشرب التوتيائي ، الذي وفدتُ عليه من قبل لتناول طعام الصباح ، ثلاثة رجال الآن : الرجل العجوز . وامرأة بدينة ذات ثوب أسود جالسة الى منضدة تراقب كلما يقدّم الى الزبائن ، وغلام يرتدي مئزراً . وتساءلت في ما بيني وبين نفسي كم ولداً كان لهـذه المرأة ، وكيف وُفّقت الى ذلك .

وحين أتيت على طبق الشوكروت انقلبتُ الى المستشفى . كان الشارع نظيفاً جداً الآن . ولم يكن ثمة صفائح قاذورات على ابواب البيوت . كان النهـار غائماً ، ولكن الشمس كانت تحاول ان تبرز من وراء السحب . وامتطيت المصعد ، ثم غادرته واجتزت الرواق الى غرفة كاثرين حيث كنت قد تركت

ردائي الابيض . وارتديت هذا الرداء وأحكمت شدّه عند مؤخر العنق .ونظرت في المرآة ، فرأيت نفسي أشبه شيء بطبيب دجال ذي لحية . ثم اني اتخـــذت سبيلي في الرواق ، الى حجرة التوليد . كان الباب موصداً ، فقرَعْتُهُ . ولم يُجبني أحد ، فأدرت مقبض الباب ودخلت . كان الطبيب جالساً على مقربة من كاثرين . وكانت الممرضة تعمل شيئاً ما في الطرف الآخر من الغرفة .

وقال الطبيب :

— « هوذا زوجك . »

فقالت كاثرين في صوت غريب جداً :

— « أوه ، أيها الحبيب ، إن طبيبي هذا رائع الى أبعد الحدود . لقد قــصّ علي حكاية ليس أبدع منها ولا أجمل ، وحين تشتد عليّ وطأة الألم يسارع الى انقاذي منه في الحال . إنه رائع . أنت رائع أيها الطبيب . »

فقلت :

— « أنتِ نشوى . »

فقالت كاثرين :

— « أدري . ولكن ليس ينبغي لك أن تقول ذلك . »

وصمتت لحظة ثم أضافت :

— « **أعطني اياها . أعطني اياها !** »

وتشبّثتْ بالقناع ، وانشأت تتنفّس أنفاساً قصيرة وعميقة ، وهي تلهث مما جعل أداة التنفّس تطلق أصواتاً دقيقة ، ثم انها أرسلت تنهّدة طويلة ، فبسط الطبيب يده اليسرى ورفع القناع عن وجهها .

وقالت كاثرين :

— « لقد كانت هذه طلقة قوية جداً . » كان صوتها غريباً جداً . « أنــــا لن أموت الآن ، أيها الحبيب . لقد اجتزت المرحلة التي يموت فيها الانســان . لقد كنت على وشك أن أموت . ألستَ سعيداً ؟ »

— « حذار أن ترجعي الى تلك المرحلة مرة أخرى . »

— « لن أرجع . ومع ذلك فانا لست خائفة منها . إني لن أموت ، أيهـــا الحبيب . »

فقال الطبيب :

— « إنك لن ترتكبي مثل هذه الحماقة . انك لن تموتي وتتركي زوجك وحيداً . »

— « أوه ، لا . أنا لن أموت . أنا لا أريد أن أموت . من السخف ان يموت الانسان . ها قد أقبل الطلق . أعطني أياه . »

وبعد برهة يسيرة قال الطبيب :

— « أرجوك ان تخرج بضع لحظات ، يا مستر هنري ، ريثما أجري لها فحصاً . »

فقالت كاثرين :

— « انه يريد معرفة مدى التقدم الذي أحرزته : في استطاعتك ان ترجع بعد ذلك ، ايها الحبيب . أليس في استطاعته أن يفعل ، أيها الطبيب ؟ »

فقال الدكتور :

— « بلى . سوف أعلمه حالما يصبح في ميسوره أن يعود . »

وغادرت الغرفة ، واجتزت الرواق الى الغرفة التي كان من المتوقع ان تنقل كاثرين اليها بعد أن تضع جنينها . وارتميت على كرسي هناك وأجلت بصري في الغرفة . وكنت أحمل في جيبي الصحيفة التي اشتريتها عندما خرجت لتناول طعام الغداء ، فرحتُ أقرأها . كان الليل قد شرع يهبط ، فأضأت النور أستعينُ به على القراءة. وبعد برهة يسيرة ، كففتُ عن القراءة ، وأطفأت النور ، وراقبت الظلام وهو يحلولك في الخارج ، وتساءلت لماذا لم يستدعني الطبيب. لعله كان من الأفضل أن أظل بعيداً . لعله أراد أن أظل بعيداً ، فترةً قصيرة مــن الزمان . ونظرتُ الى ساعتي . وقلت في ذات نفسي : اذا لم يستدعني خــلال عشر دقائق ذهبت على أية حال .

مسكينةٌ ، مسكينةٌ أنت يا كات الحبيبة ! لقد كان هذا هو الثمن الذي دفعته لليالينا السالفة. لقد كانت هذه هي نهاية الشَرَك . كان هذا هو ما يكسبه

الناس من الغرام . شكراً لله على البنج ، على أية حال . تخيّل ما الذي كان يحدث قبل اكتشاف المخدّر ؟ فما ان بدأت آلام الوضع حتى برز المخدّر الى الميدان. لقد عرفت كاثرين أياماً ماتعة في فترة الحمل . إن تلك الفترة لم تكن رديئة . وكاثرين لم تكد تعاني فيها أية وعكة صحية. وهي لم تقاس شيئاً من الانزعاج المروّع إلا في نهاية المطاف . وهكذا أدركتها الآلام آخر الأمر . إن المرء أعجز من أن يتخلص من أي شيء . يتخلص ؟! يا للجحيم ! فالأمر ما كان ليختلف مثقال ذرة ولو تزوجنا خمسين مرة . وماذا لو ماتت ! انها لن تموت . إن النساء لا يمتن بسبب من الولادة في هذه الأيام . ذلك ما يعتقد به جميع الأزواج . أجل ، ولكن ماذا لو ماتت ؟ إنها لن تموت . كل ما في الأمر أنها تجتاز مرحلة صعبة . إن الولادة الأولى تكون عسيرة عادة. وبعدذلك سنذكّر كاترين بالمرحلة الصعبة التي اجتازتها، ولسوف تقول هي ان تلك المرحلة لم تكن بالغة الصعوبة. ولكن ماذا لوماتت ؟ إنها لا تستطيع أن تموت . أجل ، ولكن ماذا لو ماتت ؟ إنها لا تستطيع ، أقول لك .. لا تكن أحمق . كل ما في الأمر انها تجتاز مرحلة صعبة . كل ما في الأمر ان الطبيعة تزعجها ازعاجاً بالغاً . ان الولادة الأولى تكون عسيرة في جميع الحالات تقريباً . أجل ، ولكن ماذا لو ماتت؟ انها لا تستطيع أن تموت . ولكن ما الذي يجعلها تموت ؟ كل ما هنالك طفل ينبغي أن يولد، طفلٌ هو حصيلةٌ ثانيةٌ للياليينا الملاح في ميلانو. إنه يزعج أمه الآن ، ثم يرى النور ، وبعد ذلك نُعنى به ، وقد ننتهي بأن نحبه حباً جماً . ولكن ماذا لو ماتت ؟ إنها لن تموت . ولكن ماذا لو ماتت ؟ إنها لا تستطيع أن تموت . ولكن ماذا لو ماتت ؟ هاي ، ما رأيك في هذا ؟ ماذا لو ماتت ؟»

ووفد الطبيب على الغرفة .

— «كيف حالها الآن يا دكتور ؟»

فقال :

— «على غير ما يرام .»

— «ماذا تعني ؟»

– « أنا أعني ما قلته تماماً . لقد أجريت لها فحصاً . »
وقدّم إليّ نتيجة الفحص في تفصيل ، ثم أضاف :
– « لقد تريّثتُ لكي أرى ، ولكن الأمور لا تجري كما ينبغي . »
– « وبماذا تنصح ؟ »
– « هناك حلان : إما أن نلجأ الى توليدها بالكُلابة وهي وسيلة قد تمزّق اللحم وتعرّض الأم للخطر . بالاضافة الى أنها قد تؤذي الجنين . وإما أن نلجأ الى العملية القيصرية . »
– « وما هي مخاطر العملية القيصرية ؟ وماذا لو ماتت ؟ »
– « إن مخاطرها لا يمكن أن تكون أعظم من مخاطر أي ولادة طبيعية . »
– « وهل ستجري العملية بنفسك ؟ »
– « أجل . ولربما احتجت الى ساعة واحدة من أجل إعداد كل شيء ولدعوة المساعدين الذين أحتاج اليهم . وقد يستغرق ذلك كله فترة أقصر . »
– « ما رأيك ؟ »
– « أنا أوثر إجراء العملية القيصرية . ولو كانت زوجتي لأجريت لها تلك العملية . »
– « وما هي عواقبها ؟ »
– « ليس لها من عواقب . لن يكون ثمة غير ندبة * بسيطة . »
– « أليس ثمة خطر من حدوث تلوّث ما ؟ »
– « ان خطر التلوّث في هذه الحال أقلّ من خطره في حال اللجوء الى سحب الجنين بالكلابة . »
– « وما قولك اذا تريّثت من غير أن تعمل شيئاً ؟ »
– « يتعيّن علينا أن نفعل شيئاً ما ، في آخر الأمر . ان مسز هنري قد فقدت حتى الآن كثيراً من قواها . وكلما أسرعنا في إجراء العملية الجراحية كان ذلك أسلم . »
فقلت :

* الندبة : اثر الجرح اذا لم يرتفع عن الجلد.

ـ « أجرِ العملية بأسرع ما تستطيع . »

ـ « سوف أذهب وأعطي التعليمات الضرورية . »

ودخلتُ حجرة التوليد . كانت الممرضة مع كاثرين المستلقية على المائدة ، وقد بدت ضخمة تحت الغطاء الأبيض وأمارات الشحوب والأرهاق الشديدين ظاهرةٌ على وجهها.

وسألتني كاثرين :

ـ « هل قلتَ له ان في استطاعته اجراءها ؟

ـ « نعم. »

ـ « اليس هذا عظيماً ؟ ان المسألة كلها سوف تنتهي الآن خلال ساعة واحدة. لقد أشرفت على الهلاك ، أيها الحبيب . إن جسمي يتهدّم شيئاً فشيئاً . أرجو ان تعطيني ذلك البنج . إنه لم يَعُد يعمل . أوه ، انه لم يعد يعمل. »

ـ « خذي نفساً عميقاً . »

ـ « ذلك ما أفعله . أوه ، إنه لم يعد يعمل . إنه لا يعمل . »

فقلت للممرضة :

ـ « هات اسطوانة أخرى . »

ـ « هي ذي أسطوانة جديدة . »

وقالت كاثرين :

ـ « أنا مجنونة حقاً ، أيها الحبيب . ولكنه لم يعد يعمل. » وشرعت تبكي : « أوه ، لقد أردت أن أضع هذا الطفل من غير أن أزعج أحداً ، وها اني قد هلكت الآن ، وتهدمتُ ، وهذا البنج لم يعد يعمل. أوه أيها الحبيب ، انه لم يعد يعمل على الاطلاق . أنا لا أبالي بالموت شرط أن ينقضي هذا الألم . أوه ، أرجوك أيها الحبيب ، أرجوك أن توقفه . ها قد أقبل الطلق ، أوه ! أوه ! أوه ! »

وتنفّست وهي تنتحب تحت القناع . إنه لا يعمل . إنه لا يعمل . إنه لا يعمل . لا تؤاخذني ، أيها الحبيب. أرجوك ان لا تبكي .لا تؤاخذني.لقد خارت قواي، هذا كل ما هنالك . مسكين أنت أيها الحبيب. إني أحبك حباً عظيماً ،ولسوف

استعيد نشاطي من جديد . إني سوف أوفق هذه المرة .**ألا يستطيعون ان يعطوني شيئاً ؟** أوه ، ليتهم فقط يستطيعون أن يعطوني شيئاً ! »

— « سوف أجعله يعمل . سوف أفتحه الى النهاية . »

— « أعطني اياه الآن . »

وادرت القرص الى النهاية . وفيما هي تتنفس تنفساً عميقاً استرخت يدها على القناع . وأغلقتْ الحنفية ، ورفعتْ القناع عن وجهها . لقد بدت وكأنها عادت من مكان بعيد .

— « هذا رائع أيها الحبيب . أوه، أنت رفيقٌ بي الى حد بعيد . »

— « كوني شجاعة لأني لا أستطيع أن أفعل ذلك طول الوقت . إنه قد يقضي عليك . »

— « أنا لم أعد شجاعة ، أيها الحبيب . لقد تهدّمت . لقد هدّموني . أنا أعرف ذلك الآن . »

— « ذلك ما يحدث لكل امرأة حين تضع ولدها . »

— « ولكنه شيء مروّع . انهم يتركونك تناضل حتى تتحطم . »

— « سوف ينتهي ذلك كله في مدى ساعة ليس غير . »

— « أليس هذا جميلاً ؟ أيها الحبيب . أنا لن أموتَ أليس كذلك ؟ »

— « لا . أنا أؤكد لك أنك لن تموتي . »

— « لأني لا أريد أن أموت وأفارقك . ولكني سئمت من هذه الحال الى أبعد الحدود ، وأنا أستشعر أني سوف أموت . »

— « هراء . كل امرئ يستشعر ذلك . »

— « أنا أدرك في بعض الأحيان اني سأموت . »

— « لا . لن تموتي . أنت لا تستطيعين أن تموتي . »

— « ولكن ماذا لو قُدّر لي أن أموت ؟ »

— « لن أدعك تموتين . »

— « أعطني اياه في سرعة . **أعطني اياه !** »

ثم أضافت بعد ذلك :

— « لن أموت . أنا لن أدع نفسي أموت . »

— « طبعاً لن تدعي نفسك تموتين . »

— « هل ستبقى معي ؟ »

— « لا لكي أراقب ذلك . »

— « لا . ولكن لكي تكون هناك الى جانبي ليس غير . »

— « طبعاً . سوف أكون الى جانبك أبد الدهر . »

— « أنت رفيق بي الى حدّ بعيد . أرجوك ، أعطني اياه ! أعطني مقداراً اضافياً . إنه لا يعمل ! »

وأدرت القرص الى رقم ثلاثة ثم الى رقم أربعة . وتمنّيت لو يعود الطبيب. فقد كنت خائفاً من الارقام التي تتجاوز رقم اثنين .

* * *

وأخيراً أقبل طبيب جديد ترافقه ممرضتان ، فرفعوا كاثرين ووضعوها على نقالة ذات عجلات ، ورحنا نجتاز الرواق. وكرّت النقالة في الرواق كراً سريعاً ثم أدخلت الى المصعد حيث كان على كل امرىء ان يلزم الجدار لكي يفسح لها مجالاً . ثم ان المصعد ارتفع ، وفُتح الباب ، وأخرجت النقالة من المصعد واندفعت على عجلاتها المطاطية في الرواق ، حتى انتهت الى حجرة العمليات . ولم اتبيّن الطبيب وقد اعتمر قلنسوة وتقنّع بقناع . وكان ثمة طبيب آخر وممرضات أخريات .

وقالت كاثرين :

— « يجب أن يعطوني شيئاً . يجب ان يعطوني شيئاً . أوه ، أرجوك ، يـــا دكتور ، أعطني مقداراً كافياً للتخفيف عني بعض الشيء ! »

ووضع أحد الاطباء قناعاً على وجهها ، ونظرتُ من خلال الباب ، فرأيت مدرّج غرفة العمليات الصغير الساطع .

وقالت احدى الممرضات لي:

— « في استطاعتك ان تذهب وتجلس على مقربة من الباب الآخر . »

كان ثمة درابزون خلفه مقاعد خشبية تشرف على المائدة والاضواء . ونظرت الى كاثرين . كان القناع على وجهها ، وكانت الآن هادئة مطمئنة . وكرّوا النقالة الى أمام . واستدرتُ وفزعتُ الى الرواق . كانت ممرضتان قد هرعتا الى مدخل الشرفة .

وقالت إحداها :

— « انها عملية قيصرية . إنهم يجرون عملية قيصرية . »

فضحكت الأخرى وقالت :

— « لقد وصلنا في الوقت المناسب . ألسنا محظوظتين ؟ »

واجتازتا الباب الذي يؤدي الى الشرفة .

وأقبلت ممرضة أخرى كانت تنطلق في سرعة ايضاً .

وقالت :

— « ادخل من هناك . أدخل . »

— « لا . سوف أبقى في الخارج . »

وانطلقتْ مسرعة. ورحتُ أنا أذرع الرواق جيئة وذهوباً. وأطللتُ من النافذة. كان الليل قد هبط ، ولكني استطعت أن أرى — بفضل النور المنبعث من النافذة — أن المطر كان يهطل. ودخلت احدى الغرف القائمة في اقصى الرواق، ونظرت الى الرقع الملصقة على الزجاجات في أحد الصناديق الزجاجية . ثم اني خرجت ووقفت في الرواق الفارغ وراقبت باب حجرة العمليات .

وغادر الحجرة طبيب تتبعه ممرضة. كان يرفع بيديه الاثنتين شيئاً بدا وكأنه أرنب سُلخ جلده منذ قريب ، واسرع يجتاز به الرواق ليدخل بعد ذلك غرفة أخرى . ومضيتُ الى الباب الذي اجتازه الطبيب ، فوجدتهم في الغرفة يفعلون شيئاً ما لطفل أبصر النور منذ لحظات . و رفعه الطبيب لي حتى أراه . لقد رفعه من عقبَيْه وصفعه .

— « هل هو بخير ؟ »

— « إنه رائع . إنه سيزن خمسة كيلو غرامات . »

ولم أستشعر أيما عاطفة نحوه . لقد بدا وكأنه لا صلة له بي على الاطلاق ؛ ولم أحس بمشاعر الأبوة قط .

وسألتني الممرضة :

— « ألست فخوراً بولدك ؟ »

كانوا يغسلونه ويلفونه في شيء ما . وبصرتُ بالوجه الصغير القاتم وباليد القاتمة ولكني لم أره يتحرك ، ولم أسمعه يبكي . وكرّر الطبيب ما كان فعله له من قبل. لقد بدا الطبيب قلقاً مضطرباً .

وقلت :

— « لا. لقد كاد يقضي على أمه . »

— « انها ليست غلطته . ألم تكن تريد غلاماً ؟ »

فقلت :

— « لا . »

كان الطبيب مشغولاً به . لقد رفعه من عقبيه وصفعه كرة أخرى . ولم أنتظر لأرى ذلك . فقد خرجتُ مندفعاً نحو الرواق . كان في استطاعتي الآن أن أدخل وأرى . واجتزتُ البابَ وجزءاً من الشرفة . وأومأت اليّ الممرضات الجالسات عند الدرابزون بأن انزل الى حيث كنّ يجلسن . وهززت برأسي. لقد كان في ميسوري أن أرى كل شيء في وضوح من موضعي ذاك .

وخيّل اليّ ان كاثرين قد ماتت . لقد بدت ميتة . كان وجهها أو الجانب الذي استطعت أن أراه منه ، رمادياً.وهناك، تحت المصباح ، كان الطبيب يخيط الجرح الضخم ، الطويل ، الغليظ الحافتين ، الذي كانت الكلابة قد زادته اتساعاً . وكان طبيب آخر متقنّع بقناع يقدّم البنج الى كاثرين.وكانت ممرضتان مقنّعتان أيضاً تناولان الطبيب ما قد يحتاج اليه من أدوات . ولقد بدا ذلك أشبه بصورة من صور ديوان التفتيش . ولقد ادركتُ وانا أراقب ، ان في استطاعتي أن أصبر على متابعة المشهد كله ، ولكني كنت سعيداً لأني لم أفعل.ولست أظن أنه كان في ميسوري أن أراقبهم وهم يُعملون المشراط

في جسمها ، ولكني راقبت تلك الربوة العالية التي تكونت حول الجرح ، والتي راح الطبيب يوصدها ، في براعة ، بمثل قطبات الاسكاف العريضة ، وكنت سعيداً بذلك . وحين تم ايصاد الجرح خرجتُ الى الرواق وشرعت أذرعه من جديد جيئة وذهوباً . وبعد برهة يسيرة خرج الطبيب أيضاً .

— « كيف حالها ؟ »

— « انها في خير . هل راقبتَ العملية ؟ »

لقد بدا مُرهقاً .

— « لقد رأيتك وأنت تخيط الجرح . لقد بدا ذلك الجرح طويلاً جداً . »

— « أتظن ذلك ؟ »

— « نعم . وهل تعتقد أن تلك الندبة سوف تتسطّح ؟ »

— « أوه ، طبعاً . »

وبعد لحظات أخرجوا النقالة ذات العجلات . واجتازوا بها الرواق مسرعين الى المصعد . ومشيتُ أنا في محاذاتها . كانت كاثرين تئنّ . حتى اذا انتهوا بها الى غرفتها في الدور السفلي ، مدّدوها على السرير . وجلستُ على كرسيّ عند مقدّم السرير . كان في الغرفة ممرضة . ونهضتُ ووقفت على مقربة من السرير . كان الظلام قد ران على الغرفة . وبسطت كاثرين يدها وقالت :

— « هالو ، أيها الحبيب ! »

كان صوتها ضعيفاً جداً ، متعباً جداً .

— « هالو ، أيتها الحبيبة ! »

— « من أي نوع كان ذلك الوليد ؟ »

فقالت الممرضة :

— « هش ! لا تتكلمي . »

— « صبي . انه طويل ، عريض ، أسمر . »

— « أهو بخير ؟ »

فقلت :

— « نعم . إنه في حالة ممتازة . »
ورأيت الممرضة تنظر الي وعلى وجهها انطباعة غريبة .
وقالت كاثرين :
— « أنا متعبة الى حد مخيف . ان الآلام تمزقني تمزيقاً . هل أنت بخير أيها الحبيب ؟ »
— « بخير كثير . لا تتكلمي . »
— « لقد كنت رفيقاً بي. أوه أيها الحبيب ، إني أتوجع توجعاً رهيباً : كيف شكله ؟ »
— « إنه يبدو أشبه شيء بأرنب مسلوخ الجلد ذي وجه متغضن كوجوه العجائز »
فقالت الممرضة :
— « يجب أن تغادر الغرفة . فليس ينبغي لمدام هنري أن تتكلم . »
فقلت :
— « سوف أخرج . »
— « أخرج وتبلغ بشيء من الطعام . »
— « لا . سوف أقف بالباب . »
وقبلت كاثرين . كانت شديد الشحوب ، ضعيفة ، مرهقة .
وقلت للممرضة :
— « هل أستطيع أن أقول لك كلمة ؟ »
فخرجت معي الى الرواق . ومشيت بضع خطوات .
وسألتها :
— « ما علة الطفل ؟ »
— « ألم تعرف ؟ »
— « لا . »
— « انه لم يكن حياً . »
— « لقد ولد ميتاً ؟ »

– « لقد عجزوا عن حمله على التنفّس . كان الحبل السري يطوّق عنقه أو شيء من هذا القبيل . »

– « واذن فهو ميت . »

– « نعم ، وا أسفاه ! لقد كان غلاماً ضخماً رائعاً . ظننتُ انك عرفت . »

فقلت :

« لا ، لم أعرف . من الأفضل ان ترجعي وتبقي الى جانب السيدة . »

جلست على كرسي تجاه طاولة تدلت من جانبها تقارير الممرضات المعلقة بأباريم ، وأطللت من النافذة . لم يكن في ميسوري أن أرى غير الظلام والمطر المنهمر عبر الضوء المنبعث من النافذة . هكذا اذن ! لقد مات الطفل . هذا هو السبب الذي من أجله بدا الطبيب مرهقاً الى ذلك الحد . ولكن لماذا تصرّفوا معه على النحو الذي فعلوه في الغرفة ؟ لقد ظنوا انه قد يسترد وعيه ويشرع في التنفّس في أغلب الرأي . ولم أكن ذا دين ، ولكني كنت أعلم أنه كان علينا أن نعمّده . ولكن ماذا لو لم يتنفّس قط ؟ إنه لم يتنفّس . إنه لم يعشْ قط إلا في أحشاء كاثرين . لقد أحسست به يرفس بقدميه هناك في أحيان كثيرة . ولكني لم أحسّ بذلك منذ أسبوع . لعله كان مختنقاً طوال هذه الفترة . يا للطفل الصغير البائس ! شد ما تمنيت لو اني اختنقت على هذه الشاكلة ! لا ، أنا لم أتمنّ هذا . ومع ذلك فلا داعي لأن نتعجّل الموت . ان كاثرين تشرف على الموت الآن . تلك هي القصة دائماً . اننا نموت . اننا لا نتعلم شيئاً . اننا لا نجد متسعاً من الوقت لكي نتعلم . ان الأيام تدفعنا الى الملعب ، وتلقّننا قواعد اللعبة ، حتى اذا ارتكبنا الغلطة الأولى اغتالتنا . اغتالتنا من غير سبب مثل إيمو . أو أعطتنا السفلس مثل رينالدي ، ولكنها لا بد ان تغتالنا آخر الأمر . في استطاعتك ان تتأكد من ذلك . انتظر قليلاً تجد ان دوْرك قد حان .

ذات يوم ، وكنت في المعسكر ، أذكيتُ النار بقطعة ضخمة من الحطب يغطيها النمل من أطرافها جميعاً . وما إن شرعتْ في الاشتعال حتى اندفعت النملات ، أولاً ، نحو المركز حيث كانت النار ، ثم ارتدّت على أعقابها

هرعت نحو الطرف الآخر . حتى اذا أصبح هذا الطرف مغطى كله بالنمل تساقطت النملات في النار . لقد خرج بعضها من النار ، وقد احترقت اجسادها وتسطحت ، ونجت بأنفسها غير دارية الى أين كانت تذهب . ولكن الكثرة العظمى منها اندفعت نحو النار ، ثم انكفأت نحو الطرف البارد حيث احتشدت لتسقط آخر الأمر في النار . واذكر اني فكرت آنذاك ان نهاية العالم قد دنت ، وانه قد أتيحت لي فرصة رائعة لكي أكون مسيحياً مخلصاً فأرفع قطعة الحطب من النار وألقي بها الى حيث تستطيع النملات ان يغادرنها الى الأرض . ولكني لم أفعل شيئاً غير قذف الحطبة بملء كوب صفيحي من الماء ، لكي أفرغ ذلك الكوب فأصب فيه الويسكي قبل ان أضيف الماء اليها . وأحسب أن قذف الحطبة المشتعلة بكوب الماء هذا لم يزد النملات الا احتراقاً .

وهكذا كنت الآن جالساً في الرواق ، أنتظر أن أسمع كيف كانت حال كاثرين . ولم تخرج الممرضة ، فما كان مني الا أن اتجهت ، بعد برهة قصيرة ، نحو الباب ، ففتحته في كثير من الرفق ، والقيت نظرة على الغرفة . ولم أستطع أن أرى بادىء الأمر ، لأن الرواق كان مضاء بنور ساطع ، ولأن الغرفة كانت مظلمة . ثم اني رأيت الممرضة جالسة على مقربة من السرير ، ورأس كاثرين على الوسادة ، وقد استوى بطنها استواء كاملاً تحت الغطاء الأبيض . ووضعت الممرضة إصبعها على شفتيها . ثم نهضت ومضت الى الباب .

وسألتها :

— « كيف حالها ؟ »

فقالت الممرضة :

— « انها بخير . يتعين عليك ان تذهب وتتناول طعام العشاء ، وفي استطاعتك ان ترجع بعد ذلك اذا شئت . »

ورحت أخطو في الرواق ، ثم هبطتُ السلم ، وغادرت المستشفى الى الشارع المظلم ، وتقدمتُ ، تحت المطر ، نحو المقهى . كانت الأنوار ساطعة في المقهى ، وكان كثير من الناس جالسين الى الموائد . ولم أجد مكاناً شاغراً ، فأقبل أحد

النُدل نحوي ، وتناول سترتي وقبعتي المبللتين ودلني على مكان عند مائـــدة مواجهة لرجل عجوز كان يحتسي الجعة ويطالع صحيفة المساء .وجلست وسألت النادل :

— « ما هو صحن اليوم ؟ »

— « يخنة بلحم العجل ، ولكن لم يبق منها بقية . »

— « ما الذي أستطيع أن أتناوله ؟ »

— « لحم خنزير بالبيض ، أو بيض مع الجبن ، أو شوكروت . »

فقلت :

— « لقد أكلت صحناً من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم . »

فقال :

— « هذا صحيح . هذا صحيح . لقد أكلتَ صحناً من الشوكروت ظهيرة هذا اليوم . »

كان رجلاً في خريف العمر ،ذا صلعة تناثرت على صفحتها الملساء شعرات متفرقة . وكان ذا وجه رفيق .

— « ماذا تريد ؟ لحم خنزير بالبيض أم بيضاً مع الجبن ؟ »

فقلت :

— « لحم خنزير بالبيض ، وشيئاً من الجعة . »

— « جعة خفيفة غير قوية ؟ »

فقلت :

— « نعم . »

فقال :

— « لقد تذكرتُ . لقد احتسيتَ جعة خفيفة ظهيرة هذا اليوم . »

وأكلت لحم الخنزير بالبيض ، وشربت الجعة . كان لحم الخنزير بالبيض في طبق مستدير — لحم الخنزير تحت ، والبيض فوقه. وكان ساخناً جداً ، فما ان وضعت أول لقمة في فمي حتى تعيّن علي أن آخذ جرعة من الجعة لكي أبرّد

فمي . لقد كنت جائعاً .فسألت النادل أن يقدّم اليّ طبقاً آخر . واحتسيت عدة كؤوس من الجعة . ولم أكن أفكر في شيء على الاطلاق ، ولكني طالعت صحيفة الرجل الجالس قبالتي . وكان الموضوع يدور على الثغرة التي أحدثت في الجبهة البريطانية.وحين أدرك أني كنت أقرأ قفا جريدته سارع الى طيّها . وفكّرت في أن أطلب الى النادل ان يأتيني بجريدة ، ولكني كنت عاجزاً عن تركيز تفكيري . كان جوّ المقهى حاراً ، وكان الهواء فيه فاسداً . وكان كثير من رواد المقهى يعرفون بعضهم بعضاً ، وكان ورق اللعب دائراً على بضع موائد . وكان النُدُل منهمكين في حمل الأشربة من المشرب الى الموائد . ودخل رجلان ، ولم يستطيعا ان يجدا مكاناً يجلسان فيه . لقد وقفا تجاه المائدة التي كنت أجلس اليها . وطلبتُ زجاجة جعة أخرى . ولم أكن مستعداً لمغادرة المقهى . ذلك ان أوان العودة الى المستشفى لم يكن قد حان بعد . وحاولت ان لا أفكر ، وانالتزم الهدوء الكامل . ووقف الرجلان حولي ، ولكن أحداً من الزبائن لم يغادر مقعده ، وهكذا انصرفا . واحتسيت كأس جعة أخرى . وكانت الصحون قد تراكمت الآن أمامي،على المائدة . وكان الرجل الجالس قبالتي قد نزع نظارتيه ، ووضعها في علبتها ، وطوى صحيفته ودسّها في جيبه ورفع كأس شرابه وأنشأ يجيل طرفه في الغرفة . وفجأة استشعرت ان عليّ أن أرجع . وناديت النادل ، ودفعت الحساب ، وارتديت سترتي ، واعتمرت بقبعتي واندفعت نحو الشارع ، ورحت أمشي مصعّداً نحو المستشفى ، تحت وابل من المطر .

وفي الدور العاوي التقيت الممرضة تجتاز الرواق .

وقالت :

— « لقد تلفنت لك منذ لحظة ، على رقم فندقك . »

وغار شيء ما في صدري .

— « ما المسألة ؟ »

— « لقد أصيبت مسز هنري بنزف الدم . »

— « هل أستطيع أن أدخل ؟ »
— « لا . ليس الآن . ان الطبيب عندها . »
— « وهل النزف خطر ؟ »
— « انه خطرٌ جداً . »

ودخلت الممرضة الغرفة ، وأوصدت الباب . وجلستُ أنا في الرواق. كان كل شيء قد اضمحلّ في باطني . ولم أفكر . كنت عاجزاً عن التفكير . لقد عرفتُ انها ستموت ، ولقد صليت لكي يمدّ الله في أجلها . لا تدَعْها تموت، أوه ، أيها الرب ، أرجوك ان لا تدعها تموت . سوف أفعل كل شيء في سبيلك اذا لم تدَعْها تموت . ارجوك ، أرجوك ، أرجوك ، أيها الرب العزيز ، لا تدعها تموت . أيها الرب العزيز ، لا تدعها تموت . أرجوك،أرجوك ، أرجوك، لا تدعها تموت . أرجوك، يا إلهي، أن تحول بينها وبين الموت. أنا على استعداد لأن أفعل كل ما تأمرني به اذا حُلْتَ بينها وبين الموت . لقد أخذتَ الطفل ، ولكن لا تدعها تموت . لم يكن في ذلك بأس ، ولكن لا تدعها تموت. أرجوك، أرجوك ، ايها الرب العزيز ، لا تدعها تموت .

وفتحت الممرضة الباب ، وأومأت اليّ بأصبعها داعية اياي أن أدخل . وتبعتها الى الغرفة . ولم ترفع كاثرين بصرها عندما دخلت. ومضيت الى جانب الفراش . كان الطبيب واقفاً قرب السرير من الناحية المقابلة . ونظرت كاثرين اليّ وابتسمت . وانحنيت فوق السرير ، وشرعتُ انتحب .

وقالت كاثرين في رقة بالغة :
— « أيها الحبيب المسكين ! »
لقد بدت رمادية .
وقلت :
— « أنتِ بخير ، يا كاث . إنك ستستردين عافيتك . »
فقالت :
— « اني سأموت . »
وتمهّلت لحظة ثم أضافت :

— « أنا أكره ذلك . »
وأمسكتُ بيدها .
فقالت :
— « لا تمسّني . »
فأفلتُّ يدها . وابتسمتْ . وقالت :
— « أيها الحبيب المسكين . لا بأس ، بأمكانك ان تمسّني ما شئت . »
— « سوف تستردّين عافيتك ، يا كاث . أنا أعلم انك سوف تستردين عافيتك . »
— « كنت أعتزم أن أكتب لكَ رسالة خشية ان يحدث شيء ؛ ولكني لم أفعل . »
— « هل تودين أن أستدعي كاهناً أو أي امرىء آخر لكي يراكِ ؟ »
فقالت :
— « لا أريد غيرك . »
ثم أردفت بعد صمت :
— « أنا لست خائفة . كل ما في الأمر اني أكره ذلك . »
فقال الطبيب :
— « يجب أن لا تُسرفي في الكلام على هذا النحو . »
فقالت كاثرين :
— « حسن . »
— « هل تريدين مني أن أفعل أيما شيء ، يا كاث ؟ هل أستطيع أن آتيك بأي شيء ؟ »
فابتسمت كاثرين وقالت :
— « لا . »
ثم أضافت بعد لحظة :
— « إنك لن تقول لأية فتاة أخرى ما كنت تقوله لي ، أو تفعل معها ما كنا نفعله معاً ، اليس كذلك ؟ »
— « لا ، على الاطلاق . »

— « ومع ذلك ، فأنا أريد أن تعاشر فتيات أخريات . »

— « أنا لا أريد شيئاً من هذا . »

فقال الطبيب :

— « أنت تسرفين في الكلام. مستر هنري يجب أن يخرج . في استطاعته أن يرجع في ما بعد . إنك لن تموتي . ينبغي أن لا تكوني غبية . »

فقالت كاثرين :

— « حسن . سوف أعود عما قريب فأقضي الى جانبك ليالي بكاملها . »

لقد كان عسيراً جداً عليها أن تتحدث .

وقال الطبيب :

— « أرجوك أن تغادر الغرفة . انك لا تستطيعين أن تتكلمي . »

وغمزتني كاثرين بعينها ، كان وجهها رمادياً .

وقلت :

— « سوف أغادر الغرفة . »

وقالت كاثرين :

— « لا تقلق أيها الحبيب . أنا لست خائفة البتة . إنها دعابة قذرة ليس غير . »

— « يا حبيبتي العزيزة الشجاعة ! »

وانتظرت في الرواق . انتظرت دهراً طويلاً . ثم ان الممرضة فتحت الباب ، وتقدمت نحوي .

وقالت :

— « أنا أخشى أن تكون مسز هنري في حالة سيئة جداً . إني خائفة عليها . »

— « هل ماتت ؟ »

— « لا . ولكنها فقدت الوعي . »

والذي يبدو انها أصيبت بنزف دموي إثر نزف دموي . لقد عجزوا عن وضع حد لذلك . ودخلتُ الغرفة ومكثت الى جانب كاثرين حتى قضت نحبها . كانت فاقدة وعيها طوال الوقت . وما إن انقضت برهة يسيرة حتى أسلمت الروح .

وخارج الغرفة في الرواق ، تحدثتُ الى الطبيب :

— « هل ثمة شيء أستطيع أن أفعله هذه الليلة ؟ »
— « لا . ليس ثمة ما تفعله . هل أستطيع أن أوصلك الى فندقك ؟ »
— « لا . شكراً . سوف أبقى هنا فترة قصيرة . »
— « أنا أدري أنه ليس ثمة ما يقال . أنا لا أستطيع أن أقول لك... »
فقلت :
— « لا . ليس ثمة ما يقال . »
وقال :
— « الى اللقاء . ألا استطيع أن أوصلك الى فندقك ؟ »
— « لا . شكراً . »
وقال :
— « لم يكن ثمة وسيلة غيرها . لقد برهنت العملية الجراحية ..... »
فقلت :
— « أنا لا أريد أن أتحدث عن ذلك . »
— « اني مستعد لايصالك الى فندقك . »
— « لا . شكراً . »
ومضى لسبيله مجتازاً الرواق . ومضيت أنا نحو باب الغرفة .
وقالت احدى الممرضات :
— « أنت لا تستطيع أن تدخل الآن . »
— « ولكني أريد أن أدخل ... »
— « ليس في استطاعتك أن تدخل الآن . »
فقلت :
— « أخرجي أنت من هنا . ولتخرج الممرضة الاخرى أيضاً . »
ولكني بعد أن أخرجتهما وأغلقت الباب واطفأت النور ، عرفت أن لا فائدة من ذلك كله . كنت أشبه شيء برجل يودع تمثالا. وبعد لحظة، خرجت وغادرت المستشفى . وانقلبت عائداً الى الفندق ، تحت المطر .

٣٠٠٠/٥٩/١٠/٣٣٦

انتهى

روميو وجولييت الجديدة

إنه لم يرد أن يقع في حبها ، أو في حب اية امرأة اخرى . ومع ذلك فقد وقع في حبها، ولم يعد يبالي بالحرب ، وبالعالم ، ما دامت كاثرين معه !

لقد ودع ذلك العالم المحترق بنار الحرب الموقدة ... ليدخل عالماً آخر جديداً مضطرماً بنار الحب الرفيع ، عالماً لا يستطيع تصويره احد من كتاب الدنيا كما صوّره همنغواي ، صاحب «الشيخ والبحر»، في هذه الرواية التي اعتبرها النقاد «روميو وجولييت الجديدة»

•

تطلب كتب دار العلم للملايين في العراق من مكتبة النهضة (بغداد)

وفي الاقليم السوري من مؤسسة النوري (دمشق).

الثمن ٥ ليرات لبنانية أو ما يعادلها

